

الذخيرة لأهل البصيرة

تأليف

الإمام الفقيه الأصولي المتكلم النظار الأديب اللغوي المفسر

الصوفي المحقق

رضي الدين أبي سعيد محمد بن علي العراقي

(٤٨٠ - ٥٦١ هـ)

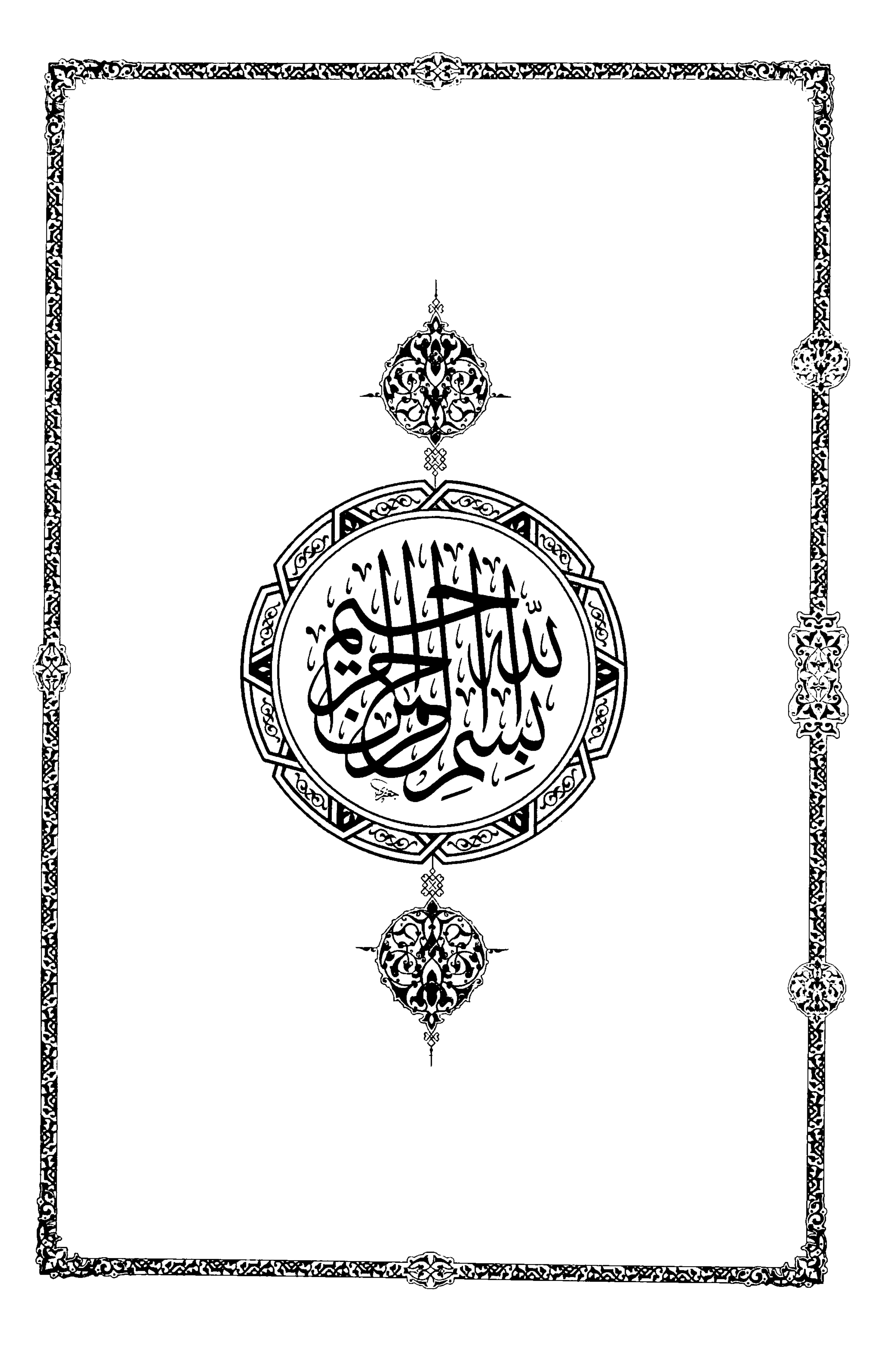
في هذا الكتاب خلاصة العلوم التي فرقها شيخه حجة الإسلام الغزالي
في تصانيفه الكثيرة

شرف بتحقيقه والتعليق عليه

أحمد بن سهيل المشهور




الذخيرة لأهل البصيرة


بسم الله الرحمن الرحيم

الذخيرة لأهل البصيرة

تأليف

الإمام الفقيه الأصولي المتكلم النظار الأديب اللغوي المفسر

الصوفي المحقق

رضي الدين أبي سعيد محمد بن علي بن حمدان الجاواني الكردي الحلوي العراقي

(٤٨٠ - ٥٦١ هـ)

في هذا الكتاب خلاصة العلوم التي فرقها شيخه حجة الإسلام الغزالي
في تصانيفه الكثيرة

شرف بتحقيقه والتعليق عليه

أحمد بن سهيل المشهور





الكتاب الذخيرة لأهل البصيرة

المؤلف رضي الدين أبي سعيد محمد بن علي العراقي

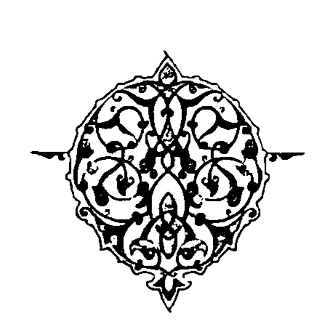
الطبعة الطبعة الأولى : 1442هـ - 2021م

الرقم المعياري الدولي ISBN: 978 - 9933 - 660 - 03 - 1

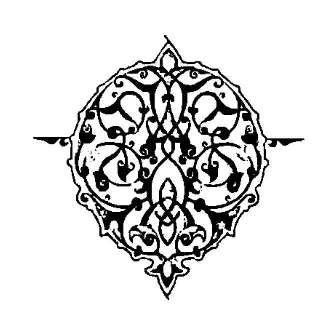












للطباعة والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . الحلبوني

dar.alshikh.alakbar@gmail.com

إهداء

لسيدي الشيخ الإمام

محمد وائل الراوي الرفاعي الحسيني

من وسَّع إدراكي بأخلاقه، وزكَّى أخلاقي بإدراكه،

من وسِع صدرُه ضيق عطني حتى أقامني وما زال، وغشي بلطفه مساوئ

طبعي فعرفت من حاله معنى الكمال، وهو فيه قول قائل:

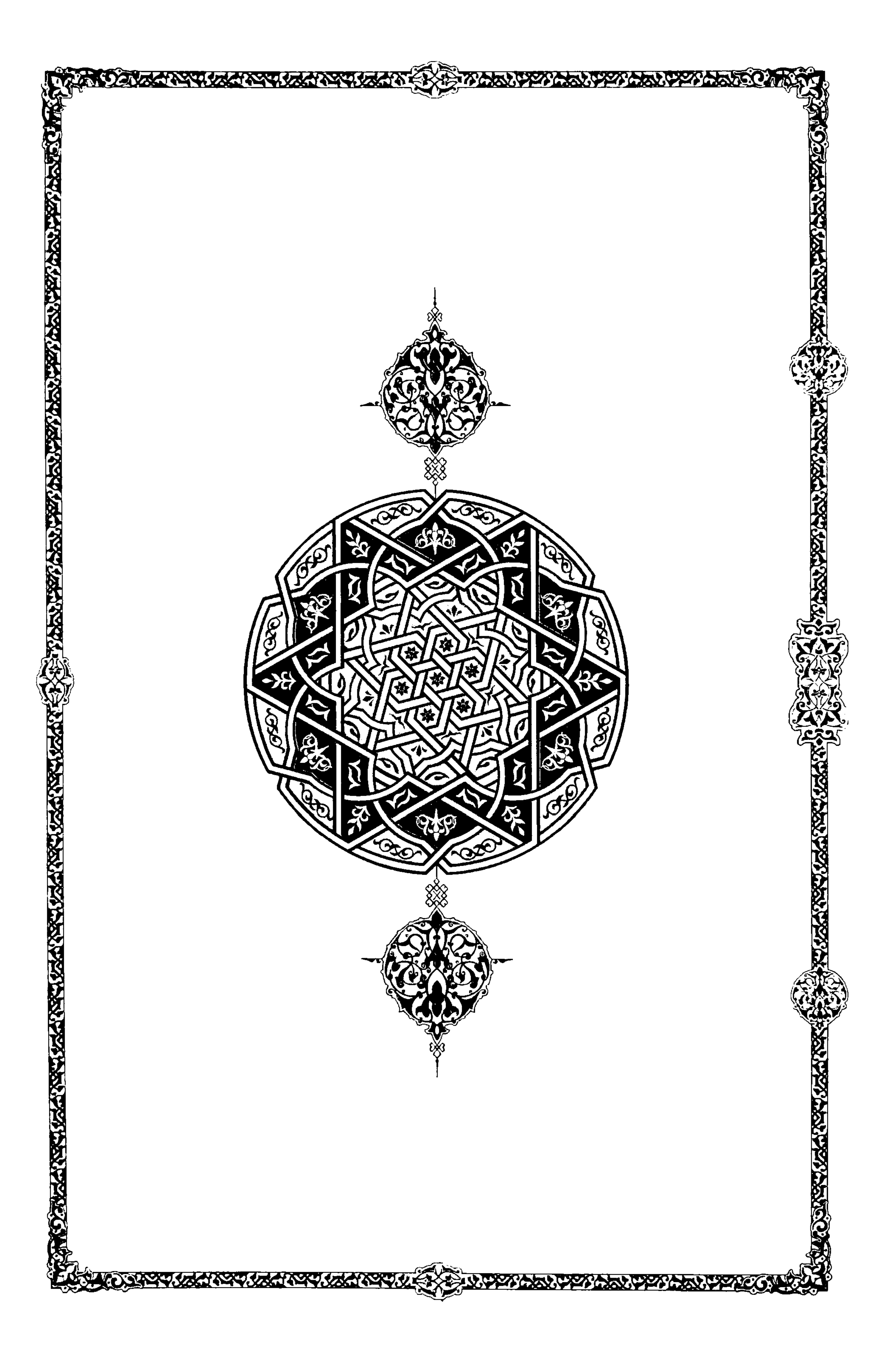
من آل بيتٍ إلى أسراره سجدت	ملائك الله بل من فيضه سجدوا
سبحان من خصَّه مولاه من مددٍ	به يفيض ويسقي حيثما يردُ
وراثةُ الحقِّ لا تبلى ونائلها	يُزيلُ غيَّ الهوى إذ يظهرُ الرشَدُ
لولاكَ والله بعد الحقِّ يا أملي	لسرتُ في ظلمةٍ أنوارُها النكدُ
فالحمدُ لله ربِّ الخلق أجمعهم	والشكرُ حقٌّ على من فضلكم وجدوا[1]

عبدكم

أحمد بن سهيل المشهور

---

(١) أبيات من قصيدة لأخينا محمد زاهر بن حسين الهويدي يمتدح بها سيدنا الشيخ الإمام محمد وائل الراوي الرفاعي الحسيني



فإنني جمعتُ العلوم التي فرّقها الإمام أبو حامدٍ رضي الله عنه في تصانيفه الكثيرة، وحصرتها في أربعة أصولٍ، وذكرتُ لُبابَها في عدّةِ فصولٍ، كلُّ فصلٍ منها ينزعُ إلى نوعٍ من العلوم، ويشيرُ إلى طريقٍ من العملِ وسمّيتُ الكتاب بـ « الذخيرة لأهل البصيرة »

مؤلف الكتاب الإمام العراقي

طالعتُ مُصنّفاً له في التّوحيدِ على أسلوب تصانيف الغزالي.

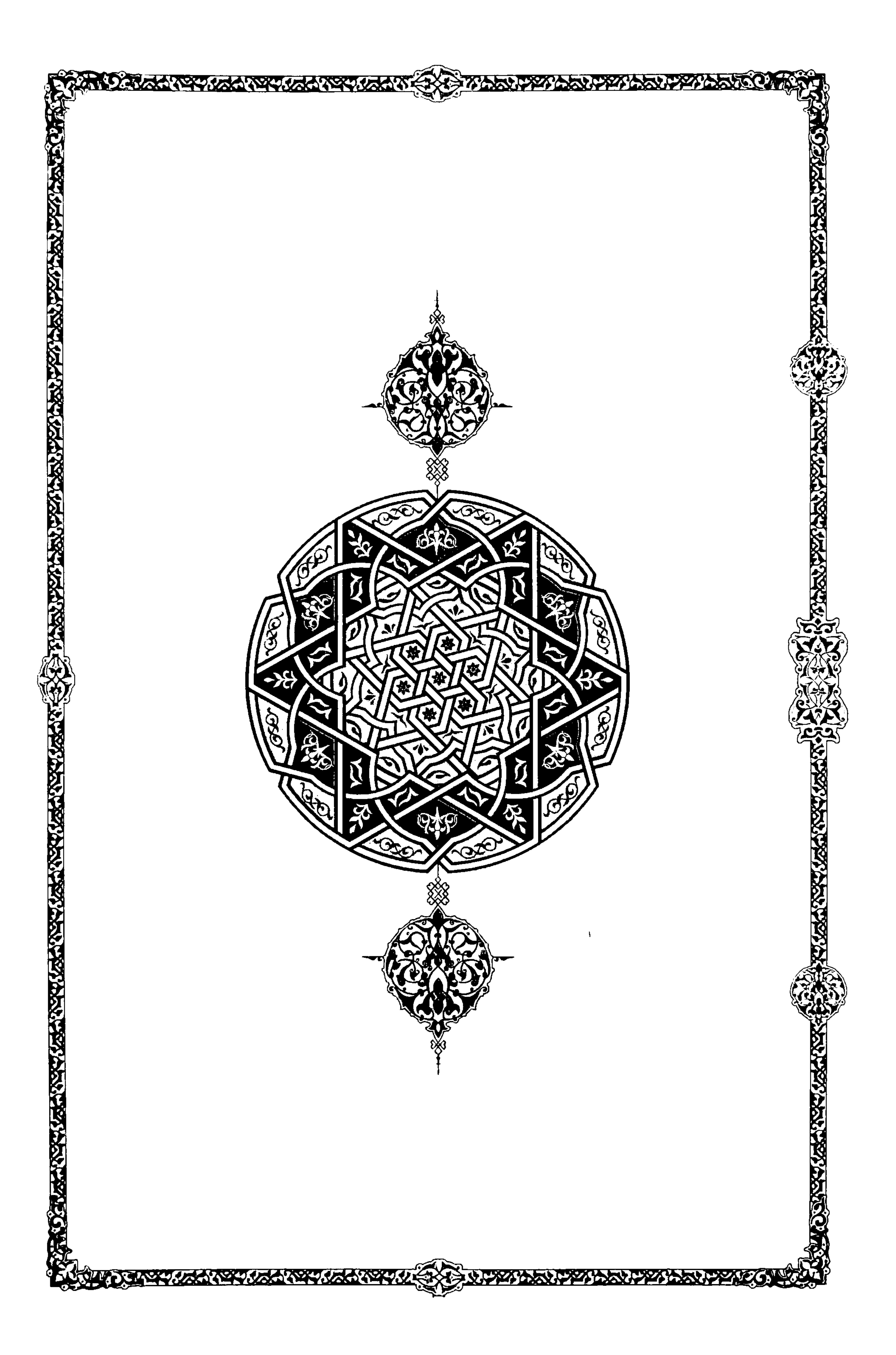
العماد الكاتب الأصبهاني

فإن كنت من أهل البَصيرة .. فقد صرت من أهل الذوق والمشاهدة، وإن لم تكن كذلك .. فكن من أهل التقليد والإيمان.

حُجّة الإسلام الغزالي

ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء، ولكنّا نجتهدُ في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرُبَ ذلك من أفهامهم.

حُجّة الإسلام الغزالي متحدّثاً عن كتابه « الإحياء »



بين يدي الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

لمَّا كان العلمُ درجاتٍ . . فقد اختارَ اللهُ لِصَفوتِه من ورثةِ أنبيائهِ صفوةَ العلومِ ، وأنالهم دِقَّةَ الألفاظِ ورِقَّةَ البيانِ لصفاءِ الفهومِ ، فأوصلوا هٰذه العلومَ إلىٰ مُستحِقِّيها ، ونثروا دُرَرَ أسرارِها لِمَن أسعدَهُ استعدادُ تلقِّيها .

وهٰذا الكتابُ الذي بين أيدينا . . تربَّعَ علىٰ عرشِ بيانِ العلومِ السَّمعيَّةِ ، وإظهارِ أسرارِها الغيبيَّةِ ؛ بإبعادِ طُرُقِ استبعادِها ، وكشفِه لأهلِ البصيرةِ سُبُلَ اعتقادِها ؛ فكان ذخيرةً حقيقيَّةً يتَّصلُ به فرعُ الوجودِ الخَلقي بأصلِه الأمريِّ ، وسرّاً يَرجِعُ بلطافتِه إلىٰ كثائفِ ظلماتِ الطَّبعِ القهريِّ ، فيُلْبِسَهُ حُلَلَ كَشْفِ اليقينِ وتاجَ أهلِ التَّمكينِ ؛ فقد شَقَّ الإمامُ تُربةَ أرضِ القلوبِ القاحِلَةِ ، وأرسلَ الهِمَمَ النَّافِذَةَ سُحُباً علىٰ سماءِ العقولِ المتغافِلَةِ ؛ فأمطرَتْ شآبيبَ البركاتِ علىٰ بذرِ الأرواحِ العاقِلَةِ ، وأبرزَتْ ثِمارَ الحِكمَةِ من مِدرارِ نفحاتِها المتواصِلَةِ ، فهنيئاً لمن وصلَهُ رشاشٌ من بركاتهِ ، أو نسيمٌ من نفحاتهِ ؛ ليعيشَ دهرَهُ عيشاً رغيداً

لا تكدِّرُه الشُّبهات ، ولا تَشتَبِهُ عليه الطُّرقات ، ذلك فضلُ اللهِ ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ .

هـٰذا وإنَّ الإمام العراقيَّ قد انتقىٰ أسهماً من كنانةِ حجَّةِ الإسلامِ الواسعة ، وجمعها من متفرِّقاتِ حصونِه المتراميةِ الشَّاسِعة ؛ ليبقيها بموطنٍ واحدٍ بعد أنْ أطفأ حجَّةُ الإسلام نارَ الشُّبَهِ وأوارَها ، وانقضى الأمرُ ووضعتِ الحربُ الفِكريَّةُ أوزارَها ، فأراد العراقي أن يعدَّها من جديدٍ للفكرِ المستوي السديد ، فعلَّقها بأوتارِ همَّتِه ، علىٰ قوسِ محبَّته ؛ ليرميَ بها الرامي غرضَه ، ويشفي السَّقيمُ مرضَه .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

ترجمة

الإمام الفقيه الأصولي المتكلم النظار الأديب اللغوي المفسر الصوفي المحقق

رضيّ الدين أبي سعيد الجَاواني

الحِلّوِي العِرَاقي الشَافعي

رَحِمَهُ اللهُ تعالى(١)

اسمه ومولده

هو الإمام ، الفقيه ، الأصولي ، المتكلِّم ، النَّظار ، الأديب ، اللغوي ، المفسِّر ، الصوفي المحقِّق ؛ رضي الدين أبو سعيد

---

(١) مصادر ترجمته : المصدر الأساس في ترجمة شيخنا ابن حمدان العراقي ، ثلاثة كتبٍ :

أوّلها : « معجم شيوخ أبي سعد ابن السمعاني » (ت: ٥٦٢هـ) وكتابه هـٰذا لم يطبع بعد ، وأظنه في عداد المفقودات .

ثانيها : « خريدة القصر وجريدة العصر » للعماد الكاتب الأصبهاني (ت: ٥٩٧هـ) (٣/ ٣٠٠) .

وثالثها : « تاريخ إربل » المسمّىٰ « نباهة البلد الخامل بمَنْ وردَه مِنَ الأماثل » لابن المستوفي (ت: ٦٣٧هـ) ، وقد وصَلنا قسم منه ، وفُقِدَ باقيه ، وفي الذي وصلنا منه ذكرٌ لشيخنا ابن حمدان العراقي في هـٰذه المواضع (١/ ٨٦ ، ٣٦٤ ، ٣٧٤) . وكلُّ مَنْ أتىٰ بعدهم مِنَ العلماء أخذ منهم ، وهم :

« طبقات الفقهاء الشافعية » لابن الصلاح (ت: ٦٤٣هـ) (١/ ٢٣٣ ، رقم : ٦٠) ، « الدر الثمين في أسماء المصنفين » لابن الساعي (ت: ٦٧٤هـ) (ص ٢٣٨) ، « تاريخ الإسلام » للذهبي (ت: ٧٤٨هـ) (١١/ ٧٩٢ ، ١٢/ ٢٠٣) ، « الوافي بالوفيات » للصفدي (ت: ٧٦٤هـ) (٤/ ١٥٥ ، رقم : =

وأبو عبد الله[1] ، محمَّد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن أبي جابر أحمد بن الهيجاء[2] بن حمدان الجاواني الكردي ، الحِلَّوي المولِد ،

= ١٦٨٨) ، « طبقات الشافعيَّة الكبرىٰ » للسبكي (ت: ٧٧١هـ) (٦/ ١٥٢ ، رقم : ٦٦٦) ، « طبقات الشافعية » للإسنوي (ت: ٧٧٢هـ) (١/ ٣٦٧ ، رقم : ٣٣٥) ، « طبقات الشافعية » لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) (١/ ٦٠٧ ، رقم : ٦٤٤) ، « بغية الوعاة » للسيوطي (ت: ٩١١هـ) (١/ ١٨٢ ، رقم : ٣٠٦) ، « كشف الظنون » لحاجي خليفة (ت: ١٠٦٨هـ) (١/ ٣٤٢ ، ٨٢٥ ، ٩٢٧ ، ٢/ ١١٨٧ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٦٦٧ ، ١٩٤١) ، « إيضاح المكنون » للبغدادي (ت: ١٣٣٩هـ) (١/ ٤٨٤ ، ٥٩٥ ، ٢/ ٨٥ ، ١٣٤) ، « هدية العارفين » للبغدادي أيضاً (٢/ ٩٥) ، « الأعلام » للزِّركلي (ت: ١٣٩٦هـ) (٦/ ٢٧٨) ، « معجم المؤلفين » لكحالة (ت: ١٤٠٨هـ) (١١/ ٢٣) ، وترجمتُه في كل مصدر من هٰذه المصادر لم تتجاوز الصفحة الواحدة .

ولا بُدَّ لنا مِنَ التَّنويه إلى الملاحظات القيِّمة التي ذكرها الدكتور عبد السلام التدمري في تعليقه علىٰ ترجمة الإمام العراقي في تحقيقه لكتاب « تاريخ الإسلام » للحافظ الذهبي ، وإن كان قد فاته الكثيرُ مِنَ الأشياء المهمَّة ممَّا سنذكره في ترجمته هنا في كتابنا هٰذا كما سيأتي .

(١) كلُّ مَنْ ترجمه كنَّاه بأبي عبد الله ، باستثناء ابن الساعي والسيوطي ؛ فقد اقتصرا علىٰ تكنيته بأبي سعيد ، وجمع بينهما (أبو سعيد ، وأبو عبد الله) الذهبي ، والصفدي ، والسبكي ، والإسنوي ، وابن كثير ، وسيأتي معك بعد قليل أنَّ تكنيته بأبي عبد الله أحَد الأسباب التي جعلت بعض العلماء يخلطون بين ترجمته وترجمة إمام آخر ؛ ولذلك قدَّمتُ تكنيته بأبي سعيد علىٰ تكنيته بأبي عبد الله .

تنبيه : في النسخة المطبوعة من « طبقات الشافعية » (١/ ٦٠٧ ، رقم : ٦٤٤) لابن كثير : (أبو سعد) ، وهو خطأ .

(٢) تفرَّد الإمام السيوطي في « بغية الوعاة » (١/ ١٨٢) بهٰذه الزِّيادة في نسب الإمام العراقي ، وهي : (محمَّد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن أبي جابر =

البغدادي الدار ، الخُفتياني الوفاة ، البوازيجي المدفن ، العراقي ، الشافعي المذهب ، الأشعري العقيدة .

ولِد الإمام ابن حمدان العراقي في الحِلَّة سنة ثمانين وأربع مئة (٤٨٠) كما نقله الإمام ابن الصَّلاح في « طبقاته » عن الحافظ أبي سعد ابن السمعاني .

وذهب السبكي في « طبقاته » نقلاً عنِ ابن النجار قال : بلغني أنَّ مولده سنة ثمان وستين وأربع مئة (٤٦٨)[١] .

ولعلَّ الراجح قول الحافظ ابن السمعاني ؛ لأنَّه ممَّن لقي الإمام ابن حمدان العراقي ، وسمع منه ، فلعلَّه هو مَنْ أخبره بمولده[٢] .

= أحمد بن الهيجاء بن حمدان) ، وأمَّا بقيَّة المصادر فذكرته هكذا : (محمَّد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن حمدان) ، وأثبتُّ هذه الزيادة في الأعلىٰ دون الحاشية ؛ لأنَّ السيوطي في « بغيته » نقلها عنِ « تاريخ إربل » لابن المستوفي ، وكتاب ابن المستوفي هذا ممَّا فقد بعض أجزاءه ولم يُعثر عليه إلى الآن ، وترجمة الإمام ابن حمدان العراقي في الأجزاء المفقودة منه ، والصفحات التي أشرتُ إليها سابقاً في « تاريخ إربل » إنَّما هي أماكن ذكر الإمام العراقي في غير ترجمته . انظر (ص ١١ ، الحاشية ١) عند ذكر مصادر ترجمة المؤلِّف .

(١) إنَّما أرجعتُ الكلام للسبكي دون شيخه الذهبي ؛ لأنَّه صرَّح بذلك ، وإن كان شيخه الذهبي قد ذكره ضمناً من قوله : (بقي إلىٰ قريب الستين ـ أي : سنة ٥٦٠هـ ـ وعاش ثنتين وتسعين سنة) « تاريخ الإسلام (١٢/٢٠٣) » .

(٢) نقل ابن الصلاح في « طبقاته » (١/ ٢٣٤) عن ابن السمعاني قوله : (لم يتَّفق لي الاجتماع به) ، والراجح أنَّ ابن السمعاني التقىٰ بالإمام العراقي ؛ بناء علىٰ ما حدَّث به ابن الساعي في « الدر الثمين » (ص ٢٣٨) قال : (أخبرني شهابٌ الحاتمي ، عن ابن السمعاني قال : أنشدني محمد بن علي الجاواني لنفسه شعراً . . .) ، وذكر أبياتاً تفرَّد بها ابن الساعي من بين كلِّ مَنْ ترجم للإمام =

أمَّا كلام ابن النَّجار . . فمرجوحٌ ؛ لتحديثه بذلك بلاغاً دون بيان المُحدِّث له ؛ ولأنَّه متأخِّرٌ عنِ ابن السمعاني كما هو معلوم ، فابن النَّجار ولد سنة (٥٧٨هـ) وتوفي سنة (٦٤٣هـ)[1] .

= العراقي . فلعلَّ اجتماع ابن السمعاني بالمترجَم . . حصل بعد ترجمته له في « معجمه » وقولِه فيه : (لم يتَّفق لي الاجتماع به) ، وهو ما نقله ابن الصلاح عنه .

(١) أخذ برواية ابن النجار : الإمام الذهبي في « تاريخ الإسلام » (١٢/٢٠٣) ، والإمام السبكي في « طبقاته » ، والإمام الإسنوي في « طبقاته » كما ذكرنا ، وذَكَرَ الإسنويُّ أنَّ ابن الصلاح نقل في « طبقاته » عنِ ابن السمعاني ما يخالف نقل ابن النجار .

وكذلك ممَّن أخذ برواية ابن النجار : الإمام ابن الساعي في « الدُّرّ الثمين » (ص ٢٣٨) ؛ فقد قال في آخر ترجمته لشيخنا العراقي : (وكان حيّاً في سنة ثمان وستين وأربع مئة) ، وعلَّق محقِّقَا الكتاب ـ جزاهما الله خيراً علىٰ خدمتهما الجليلة للكتاب ـ علىٰ قول ابن الساعي بقولهما : (ذكر الصفدي أنَّه توفي سنة ٥٦١هـ ، وهو الراجح عندنا) ! وهـٰذا عجيبٌ منهما ؛ لأنَّ كلام ابن الساعي يشير إلىٰ سنة ولادته ، وإن كانت عبارته (وكان حيّاً) غير مستخدمة عادة في تعيين الولادة ، فكيف يتكلَّمون ويرجحون في تعليقهم عن سنة الوفاة ؟! إلا أن يكون هناك خطأٌ مطبعي في الكتاب ، فتكون العبارة : (وكان حيّاً في سنة ثمان وستين وخمس مئة) بدل (وأربع مئة) ، ولا أظنُّ ذلك .

وكذلك ممَّن أخذ برواية ابن النجار : الإمام ابن كثير في « طبقاته » (٢/٦٠٧) ؛ فقد قال في آخر ترجمته لشيخنا العراقي : (عاش اثنتين وسبعين سنة ، ومات في حدود سنة ستين وخمس مئة رحمه الله) ، ولا شكَّ في خطأ هـٰذا الكلام ؛ أعني قوله أنَّه عاش (٧٢) سنة ، فإنَّه سيأتي معنا اتفاق المترجِمين علىٰ أنَّ وفاته كانت في سنة (٥٦٠) أو (٥٦١) وهو قريب ، وبناء علىٰ ما في النسخة المطبوعة لـ« طبقات الشافعية » لابن كثير من أنَّه عاش (٧٢) سنة . . تكون ولادته سنة (٤٨٨هـ) ، وهـٰذا لم يقل به أحدٌ ممَّن ترجم=

هـٰذا إن سلَّمنا أنَّ الذي ترجمه ابن النجار ؛ هو الإمام العراقي مؤلِّف كتابنا هـٰذا « الذخيرة » ، ولـٰكن الراجح عندي خلاف ذلك .

فاختلاف المترجِمين في سنة ولادة الإمام محمد بن علي العراقي ؛ سببه الخلط بين الإمام ابن حمدان العراقي ، وبين إمامٍ آخر ، اشترك معه باسمه واسم أبيه وجدِّه ، وكنيته ، وكونه عراقيّاً ، وكونه مِنَ الحِلَّة ، وكونه عاش في القرن السادس ، وكونه شرح كتاب « المقامات » للحريري ، وكونه كتب في علم النحو ، وهو :

أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد الحِلِّي العراقي النحوي ، يُعرف بابن حُميدة ، المولود سنة (٤٦٨هـ) ، والمتوفىٰ سنة (٥٥٠هـ) .

كل هـٰذه القواسم المشتركة بين الإمامين ابن حمدان وابن حميدة . .

= لشيخنا ابن حمدان العراقي ؛ فقد تقدَّم الخلاف في ولادته بين رواية ابن السمعاني : سنة (٤٨٠هـ) ، وبين رواية ابن النَّجار : سنة (٤٦٨هـ) ، فلعلَّه قد وقع تصحيف في النسخة الخطِّيَّة « لطبقات الشافعية » لابن كثير التي اعتمدها المحقِّق عبد الحفيظ منصور ، فصحِّفت كلمة (تسعين) إلىٰ (سبعين) ، أو أنَّه وقع خطأٌ في طباعة الكتاب ، وبعد أن كتبتُ هـٰذه الحاشية رجعتُ إلى المخطوط الذي اتخذه محقِّق الكتاب عبد الحفيظ منصور أصلاً في تحقيقه ، وهو مخطوط مكتبة تشستربيتي ، رقم : (٣٣٩٠) ، فوجدتُ أنَّ كلمة (سبعين) كتبت دون إعجام ، ولـٰكنَّها أقرب في الرسم منها إلىٰ (سبعين) دون (تسعين) ، وعلىٰ كلِّ حالٍ . . كان على المحقِّق التنبيه إلىٰ ذلك .

وقد أخطأ كذلك المحقِّق في ذكر رقم الحفظ لمخطوط تشستربيتي ، فكتب أنَّه برقم (٤٩٩٣) ، وهـٰذا الرقم يعود إلىٰ مكتبة برنستون لنفس الكتاب ، وهو ـ أي مخطوط برنستون ـ ممَّا اعتمد عليه في تحقيقه ، فليُتنبَّه لكل ذلك .

أوقعتِ المترجِمين في الخلط بينهما في تعيين سنة الولادة[1] .

---

(١) انظر ترجمة الإمام ابن حميدة في معجم الأدباء « إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب » (٦/ ٢٥٧١) للحمَوي ، « تاريخ الإسلام » (١١/ ٩٩٠) للذهبي ، « بغية الوعاة » (١/ ١٧٣ ، رقم : ٢٩٢) للسيوطي .

وقد نصَّ ابن سابق الحمَوي (ت: ٨٥٩هـ) علىٰ فائدة في ذلك فقال : (كلَّما رفع المؤرِّخ في أسماء الآباء والنسب ، وزاد في ذلك . . انتفع به ، وحصل له الفرق بين المترجَمين ؛ فقد حكى الحميديُّ صاحب « الجمع بين الصحيحين » قال : قرأتُ بخطِّ أبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني (ت: ٣٩٠هـ) ، قال :

حججت في سنة ، وكنت بمنىٰ أيام التشريق ، فسمعتُ منادياً ينادي : يا أبا الفرج ، فقلتُ : لعله يريدني ، ثم قلتُ : في الناس كثير ممَّن يكنّىٰ أبا الفرج ، فلم أجبه ، ثم نادىٰ : يا أبا الفرج المعافىٰ ، فهممتُ بإجابته ، ثم قلت : قد يكون اسمه المعافىٰ وكنيته أبا الفرج ، فلم أجبه ، فنادىٰ : يا أبا الفرج المعافى بن زكريا ، فلم أجبه ، فنادىٰ : يا أبا الفرج المعافى بن زكريا النهرواني ، فقلت : لم يبقَ شكٌّ في مناداته إياي ؛ إذ ذكر كنيتي ، واسمي ، واسم أبي ، وبلدي ، فقلتُ : ها أنا ذا ، فما تريد ؟

فقال : لعلَّك من نهروان الشرق ؟ فقلت : نعم ، فقال : نحن نريد نهروان الغرب ، فعجبت من اتفاق ذلك !) . انتهىٰ ، ثم ذكر ابن سابق عدَّة أمثلة علىٰ ذلك ، إلىٰ أن قال : (وكذلك محمد بن علي ، كلاهما شرح المقامات الحريرية ، أحدهما محمد بن علي بن أحمد أبو عبد الله ، يعرف بابن حُميدة الحلي ، توفي سنة خمسين وخمس مئة ، والآخر محمد بن علي بن عبد الله أبو سعيد الجاواني الحِلّوي ، توفي سنة إحدىٰ وستين وخمس مئة) . انظر مقدِّمة « بغية الطلب في تاريخ حلب » (١/ ٢٥) .

وهـٰذا الخلط هو الذي أوقع الإمام تاج الدين السبكي في الإرباك مع شيخه الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام العراقي عندما قام الأخير بتكرار ترجمة الإمام العراقي في مكانين مختلفين من « تاريخ الإسلام » ، وتنصيصه علىٰ سنة مختلفة لتاريخ وفاة كلٍّ منهما ؛ ما جعل الإمام السبكي لا يدري أهو نفسه=

أمَّا جاوان : فهي قبيلةٌ مِنَ الأكراد سكنوا الحِلَّة المزيديَّة بالعراق[1] ، ولذلك نُسِب إلى الحِلَّة ؛ فقيل : الحِلَّوي .

وأوَّل مَنْ وقفتُ عليه نسبَه إلى الحِلَّة بـ(الحِلَّوي) : ابن المستوفي في « تاريخ إربل » كما رآه بخطِّ المترجَم الإمام العراقي ، ثم ابن الصلاح في « طبقاته » عن خطِّ ابن الأنماطي أنَّه رآه بخطِّ المترجَم الإمام العراقي ، وتبعهما علىٰ ذلك الذهبي في « تاريخ الإسلام » ، والصَّفدي في « الوافي بالوفَيَات » ، والتاج السبكي في « طبقاته » ، وابن كثير في « طبقاته » ، والإسنوي في « طبقاته »[2] .

= الإمام العراقي أم غيره . والصواب أنَّه الإمام العراقي .

(١) الحِلَّةُ عَلَمٌ لعدَّة مواضع ، أشهرها : حِلَّة بني مزيد ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، وحِلَّة بني قَيْلَة بين واسط والبصرة ، وحِلَّة بني دُبَيس بن عفيف الأسدي بين واسط والبصرة . انظر « معجم البلدان » (٢/ ٢٩٤) .

والفيروزآبادي هو مَنْ عيَّن أنَّ قبيلة جاوان الكرديَّة سكنوا الحِلَّة المزيديَّة ، ووافقه الزَّبيدي . انظر « القاموس » وشرحه « تاج العروس » (ج ون) .

وقد أفاد الدكتور إحسان عباس في تعليقه على « الروض المعطار » (ص ١٩٧) : أنَّ الحِلَّة بناها سيف الدولة زعيم بني مزيد حوالي سنة (٤٩٥هـ) ، ولهـٰذا لا نجد لها ذكراً عند الجغرافيين المتقدمين) .

(٢) وعجيبٌ من العلامة محمد بهجت الأثري رحمه الله تعالىٰ في تعليقه علىٰ « خريدة القصر » (٣/ ٣٠٢) تخطئته للإمام تاج الدين السبكي بقوله : (الحِلَّوي) ، فقال الشيخ بهجت الأثري : (صوابه « الحلِّي » كما نسبه ابن المستوفي في « تاريخ إربل ») . قلتُ : لم يتفرَّد الإمام السبكي بذلك ؛ فقد نسبه بـ(الحِلَّوي) كلٌّ من ابن الصلاح ، والذهبي ، والصَّفدي ، وابن كثير ، والإسنوي . كما ذكرنا أعلاه ؛ صحيحٌ أنَّ ابن المستوفي نسبه بـ(الحِلِّي) ؛ ولـٰكنَّه في نفس كتابه « تاريخ إربل » (١/ ٨٦) نقل من خطِّ الإمام العراقي =

سيرته العلمية وشيوخه

كلُّ مَنْ ترجم لشيخنا ابن حمدان العراقي.. ذكر أنَّه دخل بغداد صبيّاً ، وبحسب ما رجَّحناه من تاريخ ولادته سابقاً.. يكون ذلك في نهايات القرن الخامس ، وبغداد في ذلك الوقت كانت تعجُّ بفحول العلماء وكبار الأئمَّة ، ومَنْ ترجمَ لإمامنا العراقي.. لم يذكر سوىٰ أسماء الأعلام الذين أخذ عنهم ، وشيئاً قليلاً مِنَ الكُتبِ التي قرأها علىٰ هـٰؤلاء الأعلام ، ولم يحدِّدوا العلوم التي تلقَّاها عنهم على الخصوص ، وكل ذلك لا يضير إذا عرَفنا مَنْ هم أشياخه ؛ إذ هِمَمُ الطَّلبة لم تكن تقفُ عند حدِّ الأخذِ عن الشيخ لعلمٍ واحدٍ ، وسِيَرُهم في كتُبِ التراجم والرجال أكثر من أن تحصر أو تستقصىٰ ، ووصفُهم لإمامنا العراقي بأنَّه كان (من كبار أئمَّة الشافعيَّة القائمين على المذهب ، إماماً فاضلاً ، فقيهاً مُبرِّزاً ، مناظراً ، ورعاً ، زاهداً).. يدلُّ علىٰ ذلك .

وأذكرُ أوّلاً مَنِ اتفق المترجِمون علىٰ ذِكرِه من مشايخ الإمام العراقي[1] :

١ـ حُجَّة الإسلام ، ومَحجَّة الدين التي يُتوصَّلُ بها إلىٰ دار السلام ،

= إجازته لتلميذه عتيق بن علي بن عَلَوي ، وفيها : (وكتب العبد المذنب محمد بن علي الحِلَّوي العراقي) ؛ فلعلَّ في فعل ابن المستوفي دلالة علىٰ جواز الوجهين .

(١) ولا بُدَّ من الإشارة إلىٰ أنَّ الأصفهاني في « خريدة القصر » (٣/ ٣٠١) اقتصر علىٰ ذكر الغزالي ، والهراسي فقط .

جامعُ أشتات العلوم ، والمُبرِّزُ في المنقول منها والمفهوم ، الشافعي الثاني ، البحر المغدق[1] : محمد بن محمد بن محمد ، أبي حامدِ الغزالي (ت : ٥٠٥هـ) .

اتفقوا علىٰ أنَّ المترجَم حين قَدِم بغداد في الصِّبا . . أخذَ عن الإمام الغزالي[2] ، ومِنَ النصوص التي توضح لنا جانباً من تلمذة الإمام العراقي علىٰ شيخه حُجَّة الإسلام :

ما ذكره ابن الصَّلاح[3] : أنَّه رأىٰ بخطِّ ابن الأنماطي : (رأيت « فهرست » مسموعات الشيخ أبي سعيد الحِلَّوي في جُزءٍ عليه خطُّه ما مثاله . . .) إلىٰ أن قال : (وكتاب مكحول بن الفضل النَّسفي[4] ،

---

(١) هٰكذا وصفه شيخه إمام الحرمين الجويني رضي الله عنهما . انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ١٩٦) .

(٢) وتلمذته علىٰ حُجَّة الإسلام بحسب نصِّ الإمام العراقي كانت سنة (٤٩١هـ) ، ويمكن أنْ تكون قبل سنة (٤٨٨هـ) ، أو في كليهما ؛ إذ إنَّ الإمام الغزالي خرج من بغداد في أواخر سنة (٤٨٨هـ) إلىٰ دمشق ، ثم القدس ، ثم الحجاز للحجِّ سنة (٤٨٩هـ) ، ثم عاد إلىٰ دمشق في أواخر سنة (٤٨٩هـ) ، ثم إلىٰ خراسان سنة (٤٩١هـ) ، وحينها مَرَّ ببغداد ونزل برباط أبي سعيد النيسابوري المواجه للنظاميَّة ، ولم يَعُد حينها للتدريس فيها ، وفي هٰذه الفترة اجتمع القاضي أبو بكر بن العربي بشيخه حُجَّة الإسلام ، ولم يعُد إلىٰ بغداد بعد رحلته هٰذه أبداً .

(٣) « طبقات الفقهاء الشافعية » (١/ ٢٣٤) .

(٤) الحافظ ، الرَّحال ، الفقيه ، أبو مطيع مكحول بن الفضل النَّسفي الحنفي ، صنَّف « اللؤلؤيات » في الزهد والآداب ، و« الشعاع » في الفقه ، (ت: ٣١٨هـ) . انظر ترجمته في « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٣٣) ، وفيه أنَّ سنة وفاته : (٣٠٨هـ) .

سمعته من أبي حامدٍ محمد بن محمد الغزالي سنة إحدىٰ وتسعين وأربع مئة ، وكان ابن مئة وخمس عشرة سنة ، عن مصنِّفه مكحول بن الفضل النَّسفي ، وهـٰذا عجيب)[1] .

ومن النصوص أيضاً : قول الذهبيِّ : (وحدَّث ببغداد قديماً بكتاب « إلجام العوام » للغزالي)[2] .

٢ـ فخر الإسلام ، رئيس الشافعية بالعراق في عصره ، الإمام الكبير ، خليفة الأستاذ أبي إسحاق الشيرازي ، ومعيد درسه : محمد بن أحمد بن الحسين ، أبي بكر الشاشي (ت: ٥٠٧هـ) ، ذكروا أنَّ إمامنا ابن حمدان العراقي تفقَّه عليه كذلك .

٣ـ شمس الإسلام ، أحد فحول العلماء ورؤوس الأئمة فقهاً وأصولاً وجدلاً وحفظاً لمتون أحاديث الأحكام ، الإمام : علي بن محمَّد بن علي ، أبو الحسن ، إلْكِيا الهرَّاسي[3] (ت: ٥٠٤هـ) .

وهـٰؤلاء الأئمَّة الثلاثة (الغزالي ، والشَّاشي ، وإلْكِيا الهرَّاسي) ذكر أصحاب التراجم أنَّ إمامنا ابن حمدان العراقي تفقَّه عليهم حتىٰ برع

---

(١) جاء في هامش كتاب « طبقات الفقهاء الشافعية » (ص ٢٣٤) لابن الصلاح : (في هامش (أ) : قال الشيخ شهاب الدين الأذرعي رحمه الله تعالىٰ : لعلَّ مراده بهـٰذا العمر مكحول لا الغزالي) . قلت : ويبقى العجبُ قائماً ؛ إذ بين وفاة الإمام مكحول النسفي (٣١٨هـ) وولادة الإمام الغزالي (٤٥٠هـ) ؛ (١٣٨) سنة ، فلا بُدَّ أن يكون في أصل النقل سقطٌ .

(٢) « تاريخ الإسلام » (١٢/٢٠٣) .

(٣) إلْكِيا : لفظةٌ فارسيَّةٌ ، وهو الكبير القدْر المُقدَّم . انظر « تاريخ الإسلام » (١١/٥٢) .

وتميَّز ، ولا شكَّ أنَّ هٰذا التفقُّه بمذهب الإمام الشافعي.. شمل الأصول والجدل والخلاف ؛ فقد وصفه الذهبيُّ بقوله : (من كبار أئمَّة الشافعيَّة القائمين على المذهب)[1] .

وكذلك لا نشُكُّ أنَّه أخذ عليهم علم الكلام الأشعري ؛ فقد ذكرنا من قبل أنَّه حدَّث عن حُجَّة الإسلام ببغداد بكتابه « إلجام العوام عن علم الكلام »[2] .

٤ـ الإمام القدوة الحافظ ، شيخ المحدِّثين ، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي (ت : ٤٨٨هـ)[3] .

٥ـ الإمام العلامة ، قاضي القضاة ، أبو بكر محمد بن المظفَّر الشامي الحمَوي الشافعي (ت : ٤٨٨هـ)[4] .

٦ـ الإمام العلامة ، أوحدُ عصره ، أبو سعيد عبد الواحد ابن الأستاذ أبي القاسم القشيري الشافعي (ت : ٤٩٤هـ)[5] .

---

(١) « تاريخ الإسلام » (١١/ ٧٩٢) .

(٢) أوَّل مَن ذكر تحديث الإمام العراقي عن حُجَّة الإسلام الغزالي بكتابه « إلجام العوام ».. الحافظُ الذَّهبي في « تاريخ الإسلام » (١٢/ ٢٠٣) ، ويبدو أنَّ كلاًّ من التاج السبكي في « طبقاته » ، وابن كثير في « طبقاته » أخذا هٰذه المعلومة عنه ، ولم يذكرها سواهم ممَّن ترجم للإمام ابن حمدان العراقي .

(٣) انظر ترجمة الحميدي في « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ١٢٠) .

(٤) انظر ترجمة الإمام أبي بكر الشامي في « تاريخ الإسلام » (١٠/ ٦١٥) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٤/ ٢٠٢) .

(٥) انظر ترجمة الإمام أبي سعيد عبد الواحد القشيري في « تاريخ الإسلام » (١٠/ ٧٥٦) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٢٢٥) .

٧ـ الإمام الفقيه النظَّار ، أبو القاسم يوسف بن علي بن محمد الزنجاني الشافعي ، (ت: ٥٠٠هـ)[١] .

٨ـ الإمام العلامة ، شيخ الحنابلة ، أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن حسن الكَلْوَاذَانِي ، البغدادي ، الحنبلي ، (ت: ٥١٠هـ)[٢] .

٩ـ الإمام العلامة ، البحرُ ، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل ، البغدادي ، الظَّفَري ، الحنبلي ، المتكلِّم ، شيخ الحنابلة ، (ت : ٥١٣هـ)[٣] .

١٠ـ العلامة البارع ، ذو البلاغتين ، أبو محمد القاسم بن علي الحريري الشافعي ، (ت: ٥١٦هـ)[٤] ، قرأ عليه الإمام العراقي « المقامات » ، ثم شرحَها كما سيأتي عند الكلام عن مصنَّفاته[٥] .

١١ـ الإمام الخطيب ، أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي ثم الموصلي الشافعي ، (ت: ٥٢٥هـ)[٦] .

---

(١) انظر ترجمة الإمام أبي القاسم الزنجاني في « طبقات الشافعية » للإسنوي (٦/٢ ، رقم : ٥٧٢)

(٢) انظر ترجمة الإمام أبي الخطاب الكَلْوَاذَانِي في « تاريخ الإسلام » (١١/ ١٤٠) ، « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٣٤٨) .

(٣) انظر ترجمة ابن عقيل في « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٤٤٣) .

(٤) انظر ترجمة الإمام أبي محمد الحريري في « تاريخ الإسلام » (١١/ ٢٥٩) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ٢٦٦) .

(٥) (ص ٢٦) .

(٦) انظر ترجمة الإمام أبي نصر الطوسي في « تاريخ الإسلام » (١١/ ٤٢٧) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٥٨) .

١٢ـ الشيخ الكبير ، أبو العز أحمد بن عبيد الله بن كادش (ت: ٥٢٦هـ) ، قرأ عليه الإمام العراقي « تفسير الرُّماني » عن أبي محمد الجوهري ، عن مصنِّفه[١] .

١٣ـ الشيخ محمد بن الحسين البرصي[٢] .

١٤ـ الشيخ أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن القيسي القطيعي[٣] ، قرأ عليه الإمام العراقي كتاب « أدب الدين والدنيا » ، و« الأحكام السلطانيَّة » عن مصنِّفهما الإمام الماوردي[٤] ، وسمع منه تفسير الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما[٥] ، وروىٰ عنه « الخطب » لبني نُباته ، بروايته عن أبيه ـ وكان مِنَ المعمَّرين ـ برواية أبيه عن الإمام عبد الرحيم ابن نباته وابنه أبي طاهر رحمهما الله[٦] .

هـٰذا ما وقفت عليه من أسماء الأعلام الذين أخذ عنهم الإمام ابن حمدان العراقي ؛ ما بين قراءة وسماع وإجازة .

---

(١) تفرَّد ابن الصلاح في « طبقاته » (١/ ٢٣٤) بذكر أخذ المترجَم عن أبي العز بن كادش ، وذلك عن خطِّ ابن الأنماطي عن (جُزءٍ) عليه خطُّ الإمام العراقي . وانظر ترجمة ابن كادش في « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٥٨) .

(٢) لم أجد له ترجمة ، وقد تفرَّد السيوطي في « بغية الوعاة » (١/ ١٨٢) نقلاً عن ابن المستوفي بذكر أخذ المترجَم عن الشيخ البرصي .

(٣) لم أجد له ترجمة .

(٤) تفرَّد ابن الصلاح في « طبقاته » (١/ ٢٣٤) بذكر ذلك ، عن خطِّ ابن الأنماطي عن (جُزءٍ) عليه خطُّ الإمام العراقي .

(٥) تفرَّد السيوطي في « بغية الوعاة » (١/ ١٨٢) بذكر ذلك ، عن ابن المستوفي .

(٦) ذكر ذلك ابن المستوفي في « تاريخ إربل » (١/ ٨٦) .

تلاميذه

١ـ الشيخ أبو علي عتيق بن علي بن عَلَوي بن يَعلىٰ (ت: ٥٧٥هـ) .

ترجمه ابن المستوفي في « تاريخ إربل » (١/ ٨٤) ، وذكر أخذه عن الإمام ابن حمدان العراقي ، ونقل نصَّ إجازة رآها بخطِّ الإمام العراقي لتلميذه أبي علي عتيق .

٢ـ الشيخ أبو محمد عبد الكريم بن أحمد بن محمد البوازيجي (ت: ٦١١هـ) .

ترجمه ابن المستوفي في « تاريخ إربل » (١/ ٣٦٤) ، وذكر أخذه عن الإمام ابن حمدان العراقي .

٣ـ الشيخ أبو مسعود سعد بن عبد العزيز البوازيجي .

ترجمه ابن المستوفي في « تاريخ إربل » (١/ ٣٧٤) ، وذكر أخذه عن الإمام ابن حمدان العراقي .

٤ـ الإمام الحافظ المحدِّث أبو الفوارس الحسن بن عبد الله بن شافع القرشي الدمشقي[1] ، لقي أبو الفوارس الإمام العراقي في إربل[2] ، فكتب عنه من شِعرِه وشِعرِ غيره مقطعات ، وانتخب جزءاً من مسموعاته علىٰ شيوخه .

---

(١) انظر ترجمته في « ذيل تاريخ بغداد » للدبيثي (٣/ ٩٦) .

(٢) وكان العراقي قَدِمَ إربل في حاجة . كذا ذكره ابن الصلاح نقلاً عن ابن السمعاني . « طبقات الشافعية » (١/ ٢٣٤) ، وانظر « تاريخ الإسلام » (١١/ ٧٩٢) .

٥ـ الشيخ المحدِّث ، قاضي أسيوط أبو البركات محمد بن علي الأنصاري (ت: ٦٠٠هـ)[١] ، حدَّث عن الإمام العراقي بالموصل في رجب ، سنة (٥٩٩هـ) .

٦ـ الشيخ المقرئ ، أبو سعد أحمد بن إبراهيم بن يحيى الدَّرْزِيجاني ، المؤدِّب بالبصرة (ت: ٦٠٠هـ)[٢] ، قرأ على الإمام العراقي « مقامات الحريري » بإربل ، سنة (٥٥١هـ) .

٧ـ الشيخ الصالح الصوفي ، العارف بالله ، أبو المظفَّر المبارك بن طاهر بن المبارك الخزاعي ، البغدادي ، الإربلي (ت: ٦٠٠هـ)[٣] ، لقي الإمام العراقي سنة (٥٠٦هـ)[٤] .

هٰذا ما وقفت عليه من أسماء مَنْ أخذ عن الإمام العراقي ، ولا شكَّ أنَّهم أكثر من ذلك ؛ فقد قال الأصفهاني : (وانتُفع بعلمه)[٥] ، وقال الذهبي : (حدَّث بإربل والموصل)[٦] ، وذكرنا سابقاً عن الذهبيِّ أنَّ

---

(١) انظر ترجمته في « طبقات الشافعية » للإسنوي (٢/ ٤٤٣ ، رقم : ١١٢٢) .
(٢) انظر ترجمته في « تاريخ الإسلام » (١٢/ ١١٩١) .
(٣) انظر ترجمته في « تاريخ الإسلام » (١٢/ ١٢٣١) .
(٤) كذا ذكره السيوطي في « بغية الوعاة » (١/ ١٨٢) عن ابن المستوفي : (قال أبو المظفَّر بن طاهر الخزاعي : وحدَّثني في ذي الحجَّة سنة ست وخمس مئة) . **قلتُ** : هٰذا لا يستقيم ؛ إذ إنَّ الشيخ المبارك الخزاعي ولد سنة (٥٣٣هـ) كما نصَّ عليه الحافظ المنذري في « التكملة لوفَيَات النقلة » (٢/ ٢٩) ، فلعلَّ ما في النسخة المطبوعة من كتاب « بغية الوعاة » خطأ ، فتكون العبارة : (سنة ستين وخمس مئة) ، والله أعلم ، فتأمَّل .
(٥) « خريدة القصر » (٣/ ٣٠٢) .
(٦) « تاريخ الإسلام » (١٢/ ٢٠٣) .

الإمام العراقي : (حدَّث ببغداد قديماً بكتاب « إلجام العوام » للغزالي)[1] .

مؤلَّفاته

ذكر أصحاب التراجم لشيخنا ابن حمدان العراقي عدَّة مؤلَّفات ، اجتمعوا علىٰ بعضها ، وتفرَّقوا بالبعض الآخر ، وسأذكرها مشيراً عند كلِّ مؤلَّفٍ إلىٰ مَنْ ذكره ممَّن ترجم له ، ولا بُدَّ مِنَ الإشارة هنا إلىٰ أنَّ العماد الكاتب الأصبهاني في « خريدة القصر » ، وابن الصَّلاح في « طبقات الشافعية » لم يذكرا شيئاً من مؤلَّفات الإمام ابن حمدان العراقي ، إلا مصنَّفاً واحداً أشار له العماد الكاتب دون ذكر اسمه[2] ، أمَّا بقيَّة الأئمَّة الذين ترجموا لإمامنا العراقي ، فذكروا له :

١ـ « شرح المقامات الحريرية » ، وقد ذكرنا سابقاً أنَّه قرأها علىٰ صاحبها الإمام الأديب أبي القاسم الحريري ، وكلُّ مَنْ ترجم له ذكر هـٰذا الشرح ، وقد بحثت في فهارس المخطوطات والكتب التي تهتم بهـٰذا الشأن . . فلم أقف علىٰ مخطوطٍ له .

٢ـ « عيوب الشعر » أو « عيون الشعر » ، كلُّ مَنْ ترجم لإمامنا العراقي ذكر هـٰذا الكتاب ، ولـٰكنِ اختلفوا في تسميته ، فذكره الذَّهبي في « تاريخ الإسلام » ، وابن كثير في « طبقاته » ، والتاج السبكي في

---

(١) « تاريخ الإسلام » (١٢/ ٢٠٣)

(٢) وهو كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وسيأتي الحديث عنه مفصَّلاً .

« طبقاته » الكبرىٰ والوسطىٰ ، **بالباء** « **عيوب الشعر** » .

وذكره الصَّفدي في « الوافي بالوفَيَات » ، وعنه السيوطي في « بغية الوعاة » ، والإسنوي في « طبقاته » **بالنون** « **عيون الشعر** » !

أقول : هٰذا كله بناء على النُّسخ المطبوعة لهٰذه الكتب دون المخطوط منها ، فالعهدة على المحقِّقِين الأفاضل الذين قاموا بتحقيق هٰذه الكتب وطباعتها[1] .

ولا يخفىٰ أنَّ هٰذا الفَرقَ بين « عيوب الشعر » و« عيون الشعر ».. يقلبُ المعنىٰ رأساً علىٰ عقب ، ويغيِّر موضوع الكتاب بشكل جذريٍّ ، وهٰذا شاهدٌ علىٰ شين التصحيف وما يترتَّب عليه من آثار ، فتصحيف حرف واحدٍ (الباء بالنون ، أو النون بالباء) شديد ، ويكون معوقاً دون الوقوف على الاسم وتمييز المقصود .

وكذلك قمتُ بالبحث في فهارس المخطوطات والكتب التي تُعنىٰ بهٰذا الشأن.. فلم أقف علىٰ مخطوطٍ للكتاب يحسم الخلاف في هٰذا الاختلاف .

وقد تفرَّد الإمام ابن الساعي في « الدُّرّ الثمين » (ص ٢٣٨) بعنونة الكتاب باسم « عيوب الشعراء » ، ولعلَّ هٰذه التسمية ممَّا يرجِّح

---

(١) وقد رجعتُ إلىٰ مخطوط نفيس لكتاب « طبقات الشافعية الكبرىٰ » منقولٍ عن نسخة مصنِّفه التاجِ السبكي ، وكذلك مخطوط نفيس لكتاب « الطبقات الوسطىٰ » عليه خطُّ التاج السبكي ، وفيهما : « عيوب الشعر » كما أثبته المحقِّقان الكبيران الأستاذ محمود الطناحي ، والأستاذ عبد الفتاح الحلو ، جزاهما الله خيراً .

ما ذهب إليه الأئمة الذَّهبي وابن كثير والتاج السبكي كما ذكرنا من قبل ، والله أعلم بحقيقة الحال .

٣ـ « الفرق بين الرَّاء والغين » ، كلُّ مَنْ ترجم لإمامنا العراقي ذكر هٰذا الكتاب ، ولٰكنِ اختلفوا في تسميته كذلك ، فذكره الذَّهبي في « تاريخ الإسلام » ، وابن الساعي في « الدُّرّ الثَّمين » ، والصفدي في « الوافي بالوفَيَات » ، وعنه السيوطي في « بغية الوعاة » بالغين المعجمة « الفرق بين الرَّاء **والغين** » .

وذكره التاج السبكي في « طبقاته الكبرىٰ » ، والإسنوي في « طبقاته » بالعين المهملة « الفرق بين الرَّاء **والعين** » .

وهو كذلك في « طبقات الشافعية » لابن كثير ، بالعين المهملة ، إلا أنَّه حصل تقديم وتأخير في اسم الكتاب ، فجاء فيه : « الفرق بين العين والرَّاء » .

وكذلك بحثت في فهارس المخطوطات والكتب التي تهتم بهٰذا الشأن . . فلم أقف علىٰ مخطوطٍ له .

وهٰذه الكتب الثَّلاثة مع ما ذكرناه مِنَ الاختلاف في اسم الكتاب الثاني والثالث . . اتَّفق علىٰ ذكرها كلُّ مَنْ ترجم لإمامنا العراقي ، عدا العماد الكاتب وابن الصَّلاح كما ذكرنا .

وقد تفرَّد الإمام السيوطي في « بغية الوعاة » (ص ١٨٢) بذكر كتُبٍ لم يذكرها غيره ، وقد سبقتِ الإشارة إلىٰ أنَّ الإمام السيوطي في « بغيته » نقل عن كتاب « تاريخ إربل » المسمَّىٰ « نباهة البلد الخامل بمَن

ورده مِنَ الأماثل » لابن المستوفي ، وذكرنا أنَّ كتاب « تاريخ إربل » قد وصَلَنا قسم منه وفُقِدَ باقيه ، وترجمة إمامنا العراقي في القسم المفقود منه .

فممَّا ذكره الإمام السيوطي مِنَ الكُتُب لإمامنا ابن حمدان العراقي :

٤ـ « البيان لشرح الكلمات » .

٥ـ « المنتظم في سلوك الأدوات » ، قال عنه ـ وأظنُّ الكلام لابن المستوفي ـ : (لم يذكر فيه مِنَ النَّحو طائلاً) .

٦ـ « مسائل الامتحان » ، قال عنه ـ وأظنُّ الكلام كذلك لابن المستوفي ـ : (ذكر فيه العويصَ مِنَ النحو) .

وكذلك لم أقف علىٰ مخطوطٍ لهـٰذه الكتب الثلاثة التي تفرَّد الإمام السيوطي بذكرها نقلاً عنِ ابن المستوفي .

٧ـ « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وهو كتابنا هـٰذا ، وسيأتي الحديث عنه مفصَّلاً .

أمَّا بالنسبة لما ذُكر من كُتُبٍ نُسبت لإمامنا ابن حمدان العراقي في فهارس المخطوطات التي وصلتنا ، ولم يذكرها أحدٌ ممَّن ترجم له ، فهي :

٨ ـ « ذكر النُّفوس ورياضتها حتىٰ تصير نفساً واحدةً تصلح لمعرفة الحقِّ سبحانه » ، ذكره بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » (٥/١٦٦) ، قال عنه : (ألَّفه في عام ٥٤٣هـ) ، وأشار إلىٰ وجود

مخطوطٍ له في مكتبة ليدن ، مع نسخة من كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وكنتُ قد بذلتُ الوسع حينها في الحصول عليهما فلم يتيسَّر لي ذلك[1] ، وقد أشار إمامنا العراقي في كتابه هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة »[2] إلىٰ هـٰذا الكتاب ، فقال : (وقد صنفتُ كتاباً في رياضة النفس حتىٰ تصير كلها نفساً واحدة تصلح لأن تسع الحق ، وحقَّقْتُ القول هناك في النفوس ورياضتها زيادةً عمَّا ذكرته ههنا) .

ولـٰكنَّ هـٰذه الإشارة منَ الإمام العراقي . . لم تثبت إلا في نسخةٍ خطِّيَّةٍ واحدةٍ من أصل سبع نسخٍ خطِّيَّة اشتغلتُ عليها في تحقيق كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » !

وسيأتي الكلام عن هـٰذه النُّسخة من أنَّها متأخرة النَّسخ ، كثيرة السقط والأخطاء[3] .

هـٰذا ما كتبته قبل حصولي علىٰ نسخة ليدن لكتاب « ذكر النُّفوس ورياضتها حتىٰ تصير نفساً واحدةً تصلح لمعرفة الحقِّ سبحانه » ، وبعد أن حصلتُ عليها قُطِعَ الشكُّ باليقين من أنَّ هـٰذا الكتاب ثابت النسبة لإمامنا ابن حمدان العراقي ، وذلك لسببين :

---

(١) ثم حصلتُ عليهما بفضل الله تعالىٰ بعد أن أنهيتُ تحقيق الكتاب ، وهـٰذا ما جعلني أثبت فروقات نسخة مكتبة ليدن لكتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » باسم المكتبة (ليدن) دون وضع رمزٍ لها كما سيأتي الحديث عنه في الكلام عن النسخ الخطيَّة (ص ٨٦) .

(٢) انظر (ص ٣٣٣) .

(٣) انظر (ص ٨٢) ، وهي نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، والتي رمزتُ لها بـ(د) .

الأول : وجوده في مكتبة ليدن مع كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » ضمن مجلَّدٍ واحدٍ ، وبخطِّ ناسخٍ واحدٍ هو علي بن عبد الخالق بن مكيٍّ السنجاريِّ ، وقد صرَّح أنَّه قابل الكتابين ـ أي : « ذكر النفوس ورياضتها » و« الذخيرة لأهل البصيرة » ـ علىٰ نسخةٍ بخطِّ المصنِّف .

الثاني : تصريح الإمام العراقي في كتابه هـٰذا « ذكر النفوس ورياضتها » باسم كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » وإحالته عليه ، فقال في (ق ٣/أ) : (وقد استقصيت شرح ذلك في الكتاب الموسوم بـ« الذخيرة لأهل البصيرة ») .

وقال في كتابه هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » : (وسوفَ يلي هـٰذا الكتابَ كتابٌ في ذكرِ رياضةِ النفوسِ حتىٰ تصيرَ كلُّها نفساً واحدةً تصلحُ لأنْ تسعَ الحقَّ ، وهناك أُحقِّقُ القولَ في القولِ في النفوسِ ورياضتِها زيادةً علىٰ ما ذكرتُه ههنا ، فمَنْ أرادَ أن يُفرِدَ هـٰذا الكتابَ . . فهو كافيه في غرضِه ، ومَنْ أحبَّ أن يقرِنَهُ بأخيهِ . . فذاك أنفعُ له ، واللهُ الموفِّقُ)[1] .

وهـٰذان السببان كافيان في إثبات نسبة الكتاب لإمامنا ابن حمدان العراقي رضي اللهُ عنه .

٩ـ « نزهة المشتاق وروضة العشاق » وهو كتاب في الأدب ، ذكره

---

(١) (ص ٣٣٣) ، وبهـٰذا النَّص من نسخة ليدن . . تأكَّد صحَّة ما شككتُ به سابقاً حول انفراد نسخة الظاهرية بهـٰذه الزيادة عن بقيَّة النسخ ، مع تأكيدي أنَّها نسخة كثيرة السقط والأخطاء .

بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » ، وأشار إلىٰ وجود مخطوطٍ له في مكتبة دير الإسكوريال رقم (٤٧١) .

وقد حصلت علىٰ صورة لهٰذا المخطوط عن طريق أخي وصديقي الشيخ المحقِّق ، كريم الطباع ، الأستاذ عبد العاطي محيي الشرقاوي حفظه الله تعالىٰ ، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء ، صاحب مؤسسة علم لإحياء التراث والخدمات الرقميَّة ، أسأل اللهَ تعالىٰ له مزيد التوفيق والفتوح ، وأن يبلِّغه مأموله في إتمام مشروعه الكبير الذي بدأه في خدمة المكتبة العربية والإسلاميَّة .

بعد أن أرسل لي الشيخ عبد العاطي الشرقاوي مخطوط الكتاب . . قرأته كاملاً ، فوجدت أنَّ اسمه طابق معناه ، فهو (مجموع طريف ، ومختصر لطيف ، مشتمل علىٰ أشعارٍ رقيقة ، ومعان دقيقةٍ ، ومراسلات مستعطفة ، ومعاتبات مستظرفة ، وشكوىٰ مُحبٍّ إلىٰ محبوب ، ووصف ما قاستِ القلوب ، من ألَمِ الفراقِ ولهيبِ الاشتياق . . .)[1] .

والمخطوط خالٍ عن تاريخ النَّسخ واسم النَّاسخ ، وليس فيه أيُّ إشارة إلىٰ أنَّه من مؤلَّفات الإمام ابن حمدان العراقي ، سوىٰ ما جاء علىٰ طُرَّته : (كتاب نزهة المشتاق وروضة العشاق ، تأليف الشيخ الإمام ، العالم العلامة محمد بن علي الشهير بالعراقي) .

بل فيه ما يقطع الشَّك باليقين من أنَّه ليس من مؤلَّفات الإمام ابن حمدان العراقي ؛ فقد جاء في (ق ٨/ أ) منه : (قال ابن الفارض :

---

(١) ما بين قوسين من كلام المؤلِّف في وصف كتابه .

هو الحُبُّ فاسلم بالحشا ما الهوىٰ سهل فمـا اختـاره مضنـىً بـه ولـه عقـل)

وجاء في (ق ٨/ ب) : (قال شمس الدين ابن قيم الجوزيَّة . . .) .

ومعلوم أنَّ كُلّاً مِنِ ابن الفارض (٥٧٦ـ ٦٣٢هـ) وابن قيم الجوزيَّة (٦٩١ـ ٧٥١هـ) ولد بعد وفاة شيخنا ابن حمدان العراقي بيقين ، وهناك أدلَّة أخرىٰ تقطع بعدم صحة نسبة هـٰذا الكتاب للإمام ابن حمدان العراقي ، وفيما ذكرتُه كفاية .

١٠ـ « نزهة الأنفس وروضة المجلس » ذكره بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » (٥/ ١٦٦) ونسبه لإمامنا العراقي ، وقال عنه : (يشرح فيه أصل الأمثال والعبارات المجازية ، في ٢٩ فصلاً ، مرتَّباً ترتيباً أبجديّاً) ، وأشار إلىٰ وجود مخطوطٍ له في مكتبة جوتا ، (رقم : ١٢٥٠) .

وهـٰذا الكتاب ؛ أعني : « نزهة الأنفس وروضة المجلس » . . ارتبط تحقيق ثبوت نسبته للإمام العراقي بكتاب آخر أثير حول نسبته جدلٌ بين محقِّقِين أفاضل ، وهو كتاب « الوسيط في الأمثال » للإمام الواحدي (ت : ٤٦٨هـ) .

ففي عام (١٩٧٥م) قام الدكتور عفيف عبد الرحمـٰن بتحقيق كتاب « الوسيط في الأمثال » ، ونسبه إلىٰ أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي ، المتوفىٰ سنة (٤٦٨هـ) .

وبعد عشر سنوات علىٰ طبع الكتاب . . كتبَ الدكتور محمد أحمد الدالي نقداً علميّاً رصيناً في « مجلَّة معهد المخطوطات » (٧٨١ـ

٧٩٩)[1] نفىٰ فيه نسبة « الوسيط في الأمثال » إلى الواحدي ، وقال : (ولم أهتد إلىٰ معرفة صاحب الكتاب علىٰ كثرة البحث والتنقير . . . وقد صنَّف في الأمثال ، واللغة ، والأدب ، وعلوم القرآن ، ولعلَّ البحث يكشف عنه)[2] .

ثم في عام (٢٠٠٧م) جاء الدكتور حاتم الضَّامن العراقي رحمه الله تعالىٰ ونشر مقالاً في « مجلَّة العرب » (ص ١٤٥)[3] قال في مقدِّمته بعد أن نفىٰ نسبة الكتاب للواحدي بثلاثة أدلَّة : (هـٰذه الأمور الثلاثة أعلنتها لطلبتي في الدراسات العليا قبل أكثر من ربع قرن . وبعد عشر سنوات علىٰ صدور الكتاب ، كتب محمد أحمد الدالي نقداً نفيساً في « **مجلة معهد المخطوطات** » ، م٢٩ ج٢ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م (٧٨١- ٧٩٩) ، نفىٰ فيه نسبة « **الوسيط في الأمثال** » إلى الواحدي ، وقال : « ولم أهتد إلىٰ معرفة صاحب الكتاب علىٰ كثرة البحث والتنقير . . . وقد صنَّف في الأمثال ، واللغة ، والأدب ، وعلوم القرآن ، ولعلَّ البحث يكشف عنه » .

واليوم ، وبفضل من الله تعالىٰ ، أكشف عنِ المؤلِّف الحقيقي لهـٰذا الكتاب ، فأقول : هو محمد بن علي بن عبد الله العراقي الجاوني الحِلَّوي ، المتوفىٰ سنة ٥٦١هـ . وجاوان قبيلة من الأكراد ، سكنوا الحِلَّة .

---

(١) « مجلَّة معهد المخطوطات » (م٢٩ ج٢ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) .

(٢) انظر كتاب « الحصائل في علوم العربية وتراثها » (٢/ ٤٣ إلىٰ ص ٥٩) .

(٣) « مجلَّة العرب » (ج٣ و٤ ، س٤٣ ، رمضان وشوال ١٤٢٨هـ ، سبتمبر ، أكتوبر/ أيلول ، تشرين أول ٢٠٠٧م) .

وقد وصلتُ إلىٰ هـٰذه الحقيقة بعد تحقيقي لكتابه « **نزهة الأنفس وروضة المجلس** » . . . .) انتهىٰ كلام الدكتور حاتم الضامن رحمه الله تعالىٰ .

وقبل ذلك كان الدكتور جليل إبراهيم العطيَّة العراقي قد نشر في عام (٢٠٠٥م) مقالاً في مجلَّة « الفيصل الأدبيَّة » (ص ٤٧ إلىٰ ص ٥٢)[١] دافع فيه عن نسبة كتاب « نزهة الأنفس وروضة المجلس » للواحدي ، وأنَّه ليس لمحمد بن علي العراقي .

ثمَّ في عام (٢٠٠٨م) نشر الدكتور جليل إبراهيم العطيَّة مقالاً يرُدُّ فيه على الدكتور حاتم الضامن في نسبته كتابي « الوسيط في الأمثال » و« نزهة الأنفس » للعراقي ، وأثبت الدكتور جليل العطيَّة أنَّ الكتابان من تأليف الواحدي[٢] .

أقول : والمقام لا يتسع لذكر أدلَّة الفريقين المثبت والنافي ، فمن أراد الاطلاع عليهما . . فليرجع إلىٰ موضع كلامهم في المجلات

---

(١) ذكرتُ كلام الدكتور جليل إبراهيم العطيَّة المنشور (٢٠٠٥م) بعد مقال الدكتور حاتم الضامن المنشور (٢٠٠٧م) ؛ لأنَّ كلام الدكتور العطيَّة فيه ردٌّ ضمني علىٰ كلام الدكتور الضامن وإن لم يصرِّح باسمه . ومقال الدكتور جليل العطيَّة نشر في مجلَّة « الفيصل الأدبيَّة » (المجلد الأول ، العدد الرابع ، شعبان/ شوال ١٤٢٦هـ ، أكتوبر/ ديسمبر ٢٠٠٥م) .

(٢) نشر الدكتور جليل العطيَّة مقاله في « مجلَّة العرب » (ج٣ و٤ ، رمضان وشوال ١٤٣٠هـ ، مج ٤٥) ، وقال فيه : (آثرتُ أن تكون « مجلَّة العرب » التي اختارها الضامن نفسه موقعاً للسجال) .

المذكورة[1] ، وبعد أن اطلعتُ علىٰ أدلَّة كلِّ فريق بما ذهب إليه ؛ ترجَّح عندي ما قال به الدكتور جليل العطيَّة من أنَّ كتابي « نزهة الأنفس وروضة المجلس » و« الوسيط في الأمثال » من تأليف الإمام الواحدي ، وليسا من تأليف الإمام العراقي .

ومن المؤسف بعد كلِّ هـٰذا الجدل حول تحديد نسبة صاحب الكتاب ؛ أن يقوم السيد رمضان بهداد بتحقيق كتاب « نزهة الأنفس وروضة المجلس » وطبعه علىٰ أنَّه من تأليف الإمام محمد بن علي بن حمدان العراقي ، دون أي إشارة منه للخلاف الذي حصل بين المحقِّقين الأفذاذ في تحديد مؤلِّف الكتاب[2] !

---

(١) انظر مقدِّمة الدكتور عفيف عبد الرحمـٰن بتحقيقه لكتاب « الوسيط في الأمثال » للواحدي ، المطبوع في مؤسسة دار الكتب الثقافية في الكويت سنة (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) ، وانظر مقالة الدكتور محمد أحمد الدالي في نقد الدكتور عفيف عبد الرحمـٰن في نسبته كتاب « الوسيط في الأمثال » للواحدي في كتابه « الحصائل في علوم العربية وتراثها » (٢/٤٣ إلىٰ ص ٥٩) ، وانظر مقالة الدكتور حاتم الضامن في إثبات نسبة كتابي « الوسيط في الأمثال » و« نزهة الأنفس وروضة المجلس » للعراقي ونفي نسبتهما للواحدي في « مجلَّة العرب » (ج٣ و٤ ، س٤٣ ، رمضان وشوال ١٤٢٨هـ ، سبتمبر ، أكتوبر/ أيلول ، تشرين أول ٢٠٠٧م) ، وانظر ردَّ الدكتور جليل إبراهيم العطيَّة على الدكتور حاتم الضامن في إثبات نسبة كتابي « الوسيط في الأمثال » و« نزهة الأنفس وروضة المجلس » للواحدي ونفي نسبتهما للعراقي في مقالتيه ؛ الأولىٰ : في مجلَّة « الفيصل الأدبيَّة » (المجلد الأول ، العدد الرابع ، شعبان/ شوال ١٤٢٦هـ ، أكتوبر/ ديسمبر ٢٠٠٥م) ، والثانية : في « مجلَّة العرب » (ج٣ و٤ ، رمضان وشوال ١٤٣٠هـ ، مج ٤٥) .

(٢) طُبع في طهران، مكتبة ميراث مكتوب، سنة: ٢٠٠٩، بتحقيق: رمضان بهداد.

١١ـ « اصطحاب المعقول والمنقول في علم الأصول » ذكره في كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » في الباب الأول ، الفصل السادس عشر ، (ص ١٩٨) ، وقد بحثت عنه في فهارس المخطوطات والكتب التي تعنىٰ بهـٰذا الشأن ؛ فلم أجد له ذكراً فيها .

١٢ـ « الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النَّعيم » ، تفرَّد بذكره ونسبته لإمامنا ابن حمدان العراقي . . إسماعيل باشا البغدادي (ت : ١٣٩٩هـ) في كتابه « إيضاح المكنون في الذيل علىٰ كشف الظنون » (٢/ ٨٥) ، ولم يذكر البغداديُّ أيَّ إشارةٍ عن مصدره في هـٰذه المعلومة !

وسيأتي الكلام عن هـٰذا الكتاب في (ص ٧٩) .

١٣ـ « ديوان ابن أبي الهيجاء » تفرَّد بذكره ونسبته لإمامنا ابن حمدان العراقي . . إسماعيل باشا البغدادي (ت : ١٣٩٩هـ) في كتابيه « إيضاح المكنون في الذيل علىٰ كشف الظنون » (١/ ٤٨٤) ، و« هدية العارفين » (٢/ ٩٥) ، ولم يذكر البغداديُّ أيَّ إشارةٍ عن مصدره في هـٰذه المعلومة !

هـٰذا ما توصلتُ إليه من كُتُب إمامنا العراقي رضي الله عنه ، ولا شكَّ أنَّ له غيرها ؛ فقد صرَّح في خطبة كتابه هـٰذا « الذخيرة » أنَّه صنَّف في الأصول والفروع ، والفقه ، والتصوف ، والتفسير ، والأدب ، والأمثال ، والحِكَم ، والحساب ، وغير ذلك[1] .

---

(١) انظر (ص ١٢٣) .

وذكر أيضاً في كتابه هـٰذا « الذخيرة » ، في الفصل الحادي عشر مِنَ الباب الأوَّل ، عند الكلام عن حقيقة النَّوم وكونه باباً لاتصال الرُّوح في العالَم العُلوي ، قال : (وقد صنَّفتُ في ذلك بحمد الله كُتُباً بالعربية والفارسيَّة)[1] .

ومن هـٰذه النُّصوص ندرك ما قاله ابن المستوفي : (له كتب مُصنَّفة . . . وله فصول وعظٍ ورسائل)[2] .

وقد تبيَّن للقارئ الكريم أنَّه لم يصلنا ـ بحسب ماظهر لنا في فهارس المخطوطات ـ من كتب الإمام ابن حمدان العراقي . . سوىٰ كتابه هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وكتاب « ذكر النفوس ورياضتها حتىٰ تصير نفساً واحدةً تصلح لمعرفة الحقِّ سبحانه »[3] .

---

(١) انظر (ص ١٧٦) .

(٢) « بغية الوعاة » (ص ١٨٢) للحافظ السيوطي رحمه الله تعالىٰ .

(٣) وكتاب « ذكر النفوس ورياضتها » سيصدر قريباً إن شاء الله تعالىٰ بتحقيق الفقير ؛ خدمةً لذخائر أئمَّتنا في إخراجها من ظلمة عالم المخطوطات إلىٰ نور عالم المطبوعات ، وتلبيةً لرغبة الإمام العراقي رضي اللهُ عنه إذ قال : (وسوفَ يلي هـٰذا الكتابَ كتابٌ في ذكرِ رياضةِ النفوسِ حتىٰ تصيرَ كلُّها نفساً واحدةً تصلحُ لأنْ تسعَ الحقَّ ، وهناك أُحقِّقُ القولَ في القولِ في النفوسِ ورياضتِها زيادةً علىٰ ما ذكرتُه ههنا ، فمَنْ أرادَ أن يُفرِدَ هـٰذا الكتابَ . . فهو كافيه في غرضِه ، ومَنْ أحبَّ أن يقرِنَهُ بأخيهِ . . فذاك أنفعُ له ، واللهُ الموفِّقُ) . انظر (ص ٣٣٣) من كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » .

تنبيه : في كتاب « معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم » (٤/ ٢٩٣٧) لعلي الرضا قره بلوط وأحمد طوران قره بلوط ؛ نسبا « تاريخ ابن أبي الهيجاء » لإمامنا محمد بن علي العراقي ! والصواب أنَّه لعز الدين محمد بن=

الإمام العراقي الصوفي

لا نعني بالصوفيِّ هنا صاحبَ التنسُّك ، ولا ذا الأخلاقِ القائمةِ علىٰ بساطِ الشريعةِ فحسب ، وإنَّما نعني ذلك الصوفيُّ الذي أثمرتْ له الأخلاقُ ثمارَها مِنَ المعارفِ ، وجَمَعَ بين حقائقِها القلبيَّةِ ومظاهرِها السلوكيَّةِ ، فتكاثرَ عندهُ فيضانُ المعاني ، واحتبكتْ أنوارُها حتىٰ أصبح يُلبِسَها مِنَ العباراتِ ما شاء ، ويبطنُ فيها أسرارَها حيث شاء ، فيخرِجُها في ثوبِ الحكمةِ التي يفهمُها الخاصُّ والعامُّ ، كلٌّ بحسبِ استعدادِه ، وهي الوراثةُ النبويَّةُ من قولِه صلَّى الله عليه وسلَّم : « **وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** »[1] .

فالكلمةُ الجامعةُ . . من علاماتِ الوراثةِ النبويَّةِ، بل من أهمِّ العلاماتِ .

إذِ الكلمةُ الجامعةُ : هي كون كلماتِ الوارثِ على النَّسَقِ الشرعيِّ الواضحِ الذي يفهمُه الجميعُ ، تحتوي علىٰ أسرارٍ بديعةٍ وإشاراتٍ رفيعةٍ يفهمُها أهلُها فيتلقَّفون بواطنَ إشاراتِها مع العنايةِ بظاهرِ عباراتِها ؛ ليجتمعَ عندهُمُ الظاهرُ والباطنُ فيسلكوا سُبُلَ الكمالِ .

وهـٰذا ما أفصحَ عنه حالُ إمامِنا ابن حمدان العراقيِّ وقالُه ، فتجدُه

= أبي الهيجاء الإربلي ، وقد طبع بتحقيق : صبحي عبد المنعم أحمد ، الطبعة الأولى ، القاهرة (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م) .

(١) رواه البخاري (٧٠١٣) ، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يستخلصُ مِنَ الكلماتِ أوفاها للمعنى المطلوب فيضَعُها موضِعها ، لا لبلاغتِه وفصاحتِه فحسب ؛ وإنَّما لتحقُّقِه ومعرفتِه ؛ أعني : الذوقَ والشهودَ . فهو كما قال واصفاً هـٰذا الفنَّ في هـٰذا المَيدانِ بقولِه :

(فإنَّ لهـٰذا الفنِّ الذي تبغيِهِ . . قوماً اختصَّهُمُ اللهُ سبحانَهُ بصفاءِ السَّريرةِ ، وثُقُوبِ البصيـرَةِ ، وضياءِ الحسِّ ، وذكاءِ الحدْسِ ، وفيضِ العقلِ ، ونورِ النَّظرِ ، وغزارةِ الفضلِ ، وتوقُّدِ الخاطرِ ، وصدقِ المُختَبَرِ ، وبُعدِ مَطرَحِ الفِكَرِ) .

وإن كان قد أبعد إمامُنا نفسَه من هـٰذه الأوصافِ تواضعاً منه . . فقد زادَ في هـٰذا الإبعادِ اقترابُه منها ؛ فإنَّ من شيَمِ أهل هـٰذه المقاماتِ والأحوالِ ونعوتِهم . . التواضعُ .

ولربَّما يتقوَّلُ متقوِّلٌ فيقولُ : إنَّما جَمَعَ ابن حمدانَ العراقيِّ مادَّةَ هـٰذا الكتابِ من متفرقاتِ كلماتِ حجَّةِ الإسلام ، وسعىٰ في تأليفِها بعد توصيفِها ، فليس له إلا الجمعُ والصياغةُ وحُسنُ اللفظِ في كرائمِ البلاغةِ !

قلنا : إنَّ هـٰذا المتقولَ أرخىٰ شدقيهِ بالثرثرةِ ؛ إذ إنَّه جاهلٌ بأنَّ صناعةً كهـٰذه تنبئُ عن صاحبها بحيازةِ قصبَ السبقِ والتحقيقِ ؛ فإنَّ الجمعَ بين المتفرقاتِ وصياغتِها في محاسنِ الكلماتِ . . دليلٌ علىٰ تحقُّقِه ، وأنَّه قد فهمَ المطالبَ فأوفاها حقَّها ، وذاقَ المشاربَ فأظهرَها لمستحِقِّها ، فلا يطمعُ الجاهلُ بجمعِ دقائقِ المتفرقاتِ ، ولا الغافلُ بتلخيصِ أبحرِ العِلمِ بقليلٍ مِنَ العباراتِ !

ومَنْ طالعَ هـٰذا الكتاب.. عرفَ المقصِدَ من قولِنا ؛ فهو سبكٌ عجيبٌ للمعارفِ ، وتلخيصٌ جامعٌ لأبحرِ المواقفِ ، وهـٰذا لا يتأتَّىٰ إلا لعارفٍ غارفٍ .

ثم لن نقول إنَّ تصوفَ الإمامِ العراقيِّ هو تصوفٌ متشرِّعٍ على الكتابِ والسُّنَّةِ ! لأنَّ هـٰذا القيد هو ذاتُه قولُنا : التصوفُ .

فليس التصوفُ مشاعاً للطوائفِ المختلفةِ حتىٰ نميِّزَ الصحيحَ منه والسقيمَ فنضعُ القيودَ ! بل لا تصوفَ إلا التصوفَ الحقُّ المتشرِّعُ على الكتابِ والسُّنَّةِ ، وكلُّ ما خرجَ عن هـٰذا.. فليس تصوفاً وإن أسماهُ الغرباءُ تصوفاً ؛ لظنِّهم أنَّ المتزهِّد صوفيٌّ ولو كان بوذيّاً !! وهـٰذا جهلٌ بأصولِ التصوفِ ومعانيه الأساسيةِ .

فكلمةُ (صوفي) لوحدِها تتضمَّنُ ما ذُكِرَ من أنَّه المتشرِّعُ السُّنِّيُّ الملازمُ للكتابِ والسُّنَّةِ في جميعِ أطوارِه . فلا يوجدُ تصوفٌ سُنِّيٌّ وآخَرُ بدعيٌّ !

ثم نرجعُ فنقول : إنَّ السماتَ الصوفيَّةَ في هـٰذا الكتابِ هي الطابعُ الغالبُ عليهِ ، فلسانُه لسانُ صوفيٍّ عارفٍ ينزِّلُ العباراتِ في مواضِعها حيث ينبغي أن توضعَ ، مع بيانٍ يشفي العليلَ ويروي الغليلَ ، وتلك هي سِمةُ الصوفيِّ العارفِ . فالشريعةُ كما جاءتْ بالظاهرِ الواضحِ لأهلِ العقولِ.. جاءت أيضاً بالغيبيَّاتِ التي تُعيِيها ، وهـٰذه الغيبيَّاتُ هي التي تتكشَّفُ معانيها لأهلِ القلوبِ من أهلِ التصوفِ ، فينزلونَها في عباراتٍ تُفصِحُ عنِ المعاني المرادةِ ، وتكشفُ عنِ الغيبِ من غيرِ ريبٍ ، ولذلك

كان كلامُ الصوفيِّ المتحقِّقِ دواءً لداءِ قيدِ العقولِ ، وترياقاً أودعَهُ اللهُ في قلوبِ مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ ، يستشفي به مَنْ أعيتهُ غوامضُ النقولِ .

ولن نطيلَ بذكرِ مواقفِ النَّفَسِ الصوفيِّ في الكتابِ ؛ لأنَّ جُلَّ الكتابِ من نفحاتِ هـٰذه الأنفاسِ ، بل سَداه ولحمُتُه منها ، فلنتركْ لذائقةِ القارئ الكريمِ تعيينَ هـٰذا الأمرِ باستعدادِه ، والله الموفِّقُ .

الإمام العراقي الأديب

مَنْ يقرأ كتب العربيَّة . . ينطبعُ على الفصاحة لسانه ، وينصبغ بالبلاغة بيانه ، مع رِقَّة الطبع ، وجزالة المعنىٰ ، فكيف بمَن أخذها عن أربابها ، وتربَّىٰ علىٰ موائد أصحابها !؟

قرأ الإمام العراقي « المقامات الحريريَّة » علىٰ مصنِّفها العلامة البارع ، ذي البلاغتين ، أبي محمد القاسم بن علي الحريري ، ثمَّ شرحها .

وشيخنا العراقي قد تغلغل فيه كلام حُجَّة الإسلام الغزاليِّ ؛ مستفتحِ أغلاق المعاني ، الغواصِ على المعنى الغريب والنكات النادرة ، فلا يزال يأتيك بحكمةٍ بليغةٍ ومعنىً بديعٍ لم يسبقه إليه سابق ، ولا ينازعه فيه منازع ، بكلام يشنِّف الأسماع ، ويسكر الألباب ، ويسحر العقول ، ويخلب القلوب ، وكأنَّ لفظه الوَشْي الفارسي ، وكأنَّ معانيه السحر البابلي ، فحريٌّ أن يكتب علىٰ جبهة الدهر ، وأن يُعلَّق بقِبلة الفخر ؛ إذ هو السهل الممتنع ، القريب البعيد .

هٰذا وقد أشار المؤلِّفُ الإمام العراقي رضي اللهُ عنه إلىٰ أنَّه أَلَّف في الأدب فقال : (ورضيتَ منِّي بما صنَّفتُهُ أصولاً وفروعاً وفقهاً وتصوفاً وتفسيراً وأدباً وأمثالاً وحِكَماً وحساباً ورسائل إلىٰ غير ذلك)[1] .

وقد تعمَّد الإمام العراقي في كتابنا هٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » عدمَ الاعتناء بتزويق الألفاظ ؛ نزولاً عند رغبة السائل ؛ الإمام القاضي أبو الحسن عليُّ بن القاسم بن مُظَفَّر الشَّهْرُزُوري ؛ إذ إنَّه شكىٰ له ما وجده في كتُب حُجَّة الإسلام من غموض المعاني ، وغرائبِ الألفاظِ والمباني ، فقال :

(فليَعذِرْ مَن وقفَ علىٰ كتابي هٰذا إنْ وجدَ في ألفاظِهِ نُزولاً عن رُتبَةِ التَّشدُّقِ ، أو ألفىٰ في معانيهِ انحرافاً يسيراً عنِ التَّعمُّقِ ؛ فذلك مقصودُ مَن أَلَّفتُ الكتابَ برسمِهِ ، وإنْ كان دون رُتبَةِ مَن أبرزتُهُ باسمِهِ ، فإذا لم يُضِفْ عليَّ النَّاظرُ فيه ملابِسَ حمدِهِ واستحسانِهِ . . فلا أقلَّ أنْ يَكُفَّ عنِّي غَرْبَ ذَمِّهِ وعُدوانِهِ) ، إلىٰ أن قال : (وها أنا ذا أشيرُ إلىٰ كلِّ أصلٍ منها في بابٍ مُفرَدٍ ، وأوردُهُ بأوضحِ عبارةٍ ، وأسهلِ لفظٍ ، وأحترزُ بجَهدي مِن إيداعِهِ الألفاظَ المنغلقَةَ ، والكلماتِ الغريبَةَ ، وأتحفَّظُ مِن إيرادِها بطريقٍ يغمُضُ دركُهُ ، ويعسُرُ الوقوفُ عليهِ .

ومَن أرادَ ذلك مبسوطاً أو مكسُوّاً بعبارةٍ رشيقَةٍ وألفاظٍ غريبَةٍ . . فعليهِ بكُتُبِ حُجَّةِ الإسلام أبي حامدٍ ؛ فهو المنبعُ ومنهُ المأخَذُ .

ووقتيَ الآنَ لا يتَّسِعُ للبسْطِ ، فإنْ فسحَ اللهُ سبحانَهُ في المَهَلِ ، ومَنَّ

---

(١) انظر (ص ١٢٣) .

بتأخيرِ الأجَلِ ، وأيَّدَ ببسطِ يدٍ ولسانٍ ، وأمَدَّ بصفاءِ قريحَةٍ وجَنانٍ . .
أريتُكَ كيف تُزَفُّ خرائدُ المعارفِ في ملابسِ الشُّروحِ والبيانِ)[1] !

ومن جواهر كلامه ما قاله في مقدِّمة كتابه هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » : (لمَّا فرغتُ من تكوينِ هـٰذه العادَةِ . . جرى الجماعةُ معيَ على العادَةِ ، وسألوني جَلوَتَهَا علىٰ خُطَّابِها ، وعَرضَهَا علىٰ أربابِها ، وأنا أتبلَّدُ وأتردَّدُ في حَذرِ نِقابِها ، إلا عند صَدْرٍ تعلقُ بقلبِهِ أسبابُ الشَّرَفِ ، وتحظىٰ لديه مهائرُ الطُّرَفِ .

وحين استفرغتُ وُسْعِي في ترجِيحِها وتكمِيلِها ، واستنفدتُ جَهدي في تسويرِها وتحجيلِها ، وامتدَّ في خِدرِ الصِّيانَةِ ثواؤها ، وكادَ ينشِدُ : (والبِيضُ قَدْ عَنَسَتْ وطَالَ جِراؤُهَا) . . رفعتُها إلىٰ سامي مجلسِ المولى الرَّضي ، بهاءِ الدَّولَةِ والدِّينِ ، شهابِ الإسلامِ ، قاضي القُضاةِ وشمسِهِم ، مخلِّصِ الدَّولَةِ ، مُعتَمَدِ الملوكِ ، فخرِ المِلَّةِ ، شرفِ المِلَّةِ ، حُجَّةِ الشَّريعةِ ، علَمِ الهُدىٰ ، مُقتدى الورَىٰ ، أبي الحسنِ عليِّ بنِ القاسمِ الشَّهرُزُوريِّ ، أدامَ اللهُ رِفعتَهُ ، وجعلَ جبهةَ النَّثرَةِ رُقعتَهُ ؛ فهو المجلسُ تُجلَبُ إليهِ نتائجُ الألبابِ ، ويُفرَغُ عليه كلُّ ثناءٍ مُستطابٍ ، وتُزَفُّ إليهِ عرائسُ الأفكارِ ، ويَرجِعُ منه بالأيادي . . العَونُ والإبكارُ ، وهو حرسَ اللهُ مجدَهُ وأورَىٰ بالسَّعادَةِ زِندَهُ . . صدرُ خريدَةِ الدَّهْرِ ، وفارسُ مضمارِ العَصْرِ ، بل هو الحُسامُ جلاهُ صيقلٌ طبعيٌّ . . فأخلَصَهُ ، والغمامُ أنشَأهُ نوءٌ فضليٌّ . . فأنشَصَهُ .

(١) انظر (ص ١٢٥ إلى ص ١٢٩) .

فها أنا ذا أسحَبُ به ذيلَ الافتخارِ على الأقرانِ ، وأجعلُ الثناءَ عليه بمنزلَةِ التَّسبيحِ وتلاوةِ القرآنِ .

كفا اللهُ فضائلَهُ عينَ الكمالِ ، لكأنَّ ابن الرُّومي نظرَ إليهِ فقال : (من البسيط)

لـولاَ عَجائِـبُ صُنْـعِ اللهِ مَا ثبتَـتْ   تِلكَ الفَضائِلُ في لَحمٍ ولاَ عَصَبِ)[1]

أمَّا شِعره : فقد نسَبَ له الأستاذ إسماعيل البغدادي « ديواناً »[2] ، ولم أقف عليه ، وقد مَرَّ معنا كذلك أنَّه ألَّف كتاباً سمَّاه « عيون الشعر » أو « عيوب الشعر »[3] ، وسأذكر ما وصلنا من شعره في كتب التراجم ، وما ذكره في كتابنا هـٰذا « الذخيرة » .

أمَّا الذي ذُكِرَ في الكتب :

فمنه : ما ذكره الإمام الذهبي في « تاريخ الإسلام »[4] : قال ابن النجار : أخبرنا الشهاب المزكي ، أخبرنا أبو سعد بن السمعاني ، أنشدني أبو الفوارس الحسن بن عبد الله بن شافع الدمشقي بمرو : أنشدني أبو عبد الله محمد بن علي العراقي لنفسه بإربل : (من الوافر)

دَعَـانـي مِـنْ مَـلاَمِكُمَـا دَعَـانـي   فَدَاعي الحُبِّ لِلبَلْوَىٰ دَعَاني[5]

---

(١) انظر (ص ١٣١ إلى ص ١٣٤) .

(٢) « إيضاح المكنون » (١/ ٤٨٤) ، « هدية العارفين » (٢/ ٩٥) .

(٣) انظر (ص ٢٦) .

(٤) « تاريخ الإسلام » (١٢/ ٢٠٣) ، وعنه ابن كثير في « طبقاته » (١/ ٦٠٧) ، وأورد الصفديُّ منها في « الوافي بالوفيَات » (٤/ ١٥٥) البيتين الأوَّلين ، وعنه السيوطي في « بغية الوعاة » (١/ ١٨٢) .

(٥) في « طبقات الشافعية » (١/ ٦٠٧) لابن كثير : (فناعي الحُبِّ) بدل (فداعي الحُبِّ) .

أجـابَ لَـهُ الفُـؤادُ ونَـومُ عَيْنـي   وسَـارا فـي الـرِّفَـاقِ ووَدَّعَـانـي
فَطَـرْفـي سَـاهـرٌ فـي طُـولِ ليلـي   وقَلْبـي فـي يَـدِ الأشـواقِ عـانـي
فكيـف يصيـخُ للعُـذَّالِ سَمْعـي   ولا عَقْلـي لـديَّ ولا جَنَـانـي

ومنه : ما ذكره الإمام ابن الساعي في « الدر الثمين »[1] ، قال : أخبرني شهاب الحاتميُّ ، عن ابن السَّمعانيِّ قال : أنشدني محمد بن عليٍّ الجاوانيُّ لنفسه شِعراً : (من الطويل)

خليلـيَّ هـل أحبـابُنـا يـوم وَدَّعُـوا   وحَثَّ بهِم حادي النِّياقِ فأسرَعُوا
أقامُوا على العَهدِ الذي كان بَيْنَنا   أم استبدَلُوا خِلّاً سِوَانا وضيَّعوا
لئنْ عَبَثَتْ أيْدي الفِرَاقِ بِشَمْلِنا   وأَضْحَـتْ لهُـم دارٌ بِنَعْمَـانَ بَلْقَـعُ
لَيُحْـزِنُنـي نَـوْحُ الحَمـامِ بـرَبعِهِـمْ   إلـىٰ أنْ يكـادَ القلـبُ فيـه يُصَـدَّعُ
فيَا ليتَ شِعْرِي هل يعُودُ زَمانُنا   معَ الأهلِ والأحبابِ أم ليس يَرجِعُ

ومنه : ما ذكره الإمام تاج الدين السبكي في « طبقاته »[2] : (من الطويل)

سلامٌ علىٰ عهدِ الهوى المتقادِمِ   وأيَّامِنا اللَّاتي بجرعاءِ جاسِمِ
ودارِ أَلِفنـا الـوجـدَ فيهـا ومَسكَـنِ   نعمْنـا بـهِ مـع كـلِّ حـوراءَ نـاعِـمِ
مرابعُ أُنْسِي في الهوىٰ ومنازلٌ   لِلَهْوِ الصِّبَا والوصلُ رَاسِي الدَّعائمِ

---

(١) « الدر الثمين في أسماء المصنِّفين » (ص ٢٣٨) ، وقد تفرَّد ابن الساعي بنقل هـٰذه الأبيات .

(٢) « طبقات الشافعيَّة الكبرىٰ » (٦/١٥٣) .

ومنه : ما ذكره الإمام السيوطيُّ في « بغية الوعاة »[1] : (من الوافر)

عبادُ اللهِ أقوامٌ كرامُ ... بهم للخلقِ والدُّنيا نِظامُ

أحبُّوا اللهَ ربَّهُمُ فكلٌّ ... له قلبٌ كئيبٌ مُستهامُ

سَقاهُم ربُّهُمْ بكؤوسِ أُنْسٍ ... فلَذَّ لَهُمْ برؤيتِهِ المُقامُ

وأمَّا الذي ذكره في كتابه هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » :

فمنه : هـٰذان البيتان اللذان ذكرهما في مقدِّمة كتابه[2] : (من مجزوء الكامل)

أفديكَ بالعَينِ الصَّحيـ ... ـحةِ فَالمريضَةُ لا تُساوي

أنِّي أقِيْكُمْ بالمَحا ... سِنِ لا أقِيْكُمْ بالمَساوي

وكذلك جاء فيه[3] : (من الطويل)

ومَن يطلُبِ الحاجاتِ من غير أهلها ... ولا وجهها عزَّتْ عليه مطالبُه

وجاء فيه أيضاً[4] : (من الطويل)

وما أنا إلا قطرةٌ من غمامةٍ ... تَصُوبُ فَيُروىٰ كُلُّ رَطبٍ ويابِسِ

وجاء علىٰ طُرَّة نسخة (ليدن) لمخطوط « الذخيرة لأهل

---

(١) « بغية الوعاة » (١/ ١٨٣) ، وقد تفرَّد الإمام السيوطي بنقل هـٰذه الأبيات ، وأظنُّه نقلها عن ابن المستوفي .

(٢) ذكرهما العماد الكاتب في « خريدة القصر » (٣/ ٣٠٢) ، وعنه ابن الساعي في « الدر الثمين في أسماء المصنِّفين » (ص ٢٣٩) ، والصفدي في « الوافي بالوفَيَات » (٤/ ١٥٥) . وانظر في الكلام عنهما (ص ٥٣، ص ٥٧) .

(٣) (ص ١٢٠ ، الحاشية ١) .

(٤) (ص ١٢٣ ، الحاشية ٤) .

البصيرة » : له بديهةً (من الطويل)

توخَّ سبيلَ الخيرِ واجنحْ إلى التُّقى ... وَخَفْ مَنْ إليهِ في القيامةِ ترجِعُ
وجانبْ هوى النَّفسِ المُضِلَّةِ واطَّرِحْ ... أقاويلَها فالنَّفسُ تُغوي وتَخدَعُ
فكمْ وضَعَتْ قَدْرَ امرئٍ شَهَواتُهُ ... وكـمْ أورَدَتْـهُ خِيفَـةً حيـن تَطْمَعُ

وفاته

لم يختلف المترجمون ممَّن ذكر سنة وفاة الإمام ابن حمدان العراقي كما اختلفوا في سنة ولادته كما أسلفنا ، إلا اختلافاً قريباً يكثر عادةً في كتب التراجم في الشَّخص الواحد[1] .

فقد اتفق مَنْ ذكر سنة وفاة الإمام ابن حمدان العراقي على أنَّه كان حيّاً في سنة (٥٥٩هـ) ، ومن دلائل ذلك ، ما أورده ابن المستوفي في « تاريخ إربل » (١/ ٨٦) في ترجمة أبي علي عتيق بن علي بن عَلَوي (ت: ٥٧٥هـ) ، قال : (سمع عتيق بن علي بن عَلَوي . . محمد بن علي الحِلِّي العراقي الواعظ ، وجدتُ ذلك بخطِّ الحِلِّي ، وحكايته :

(١) خلا العلامة حاجي خليفة ؛ فقد أغرب في قوله : (توفي في مصر سنة ٥١٠هـ) ! انظر « كشف الظنون » (١/ ٣٤٢ ، ٨٢٥ ، ٩٢٧ ، ٢/ ١٦٦٧) ، مع أنَّه ذكر سنة وفاته على الصواب (٥٦١هـ) في مواضع أخرى ، انظر « كشف الظنون » (٢/ ١١٨٧ ، ١٢٥٦) ، وأخذ ذلك منه البغدادي في « إيضاح المكنون » (١/ ٥٩٥) فذكر أنَّ وفاته سنة (٥١٠هـ) ، مع أنَّه كذلك ذكر سنة وفاته على الصواب (٥٦١هـ) في موضع آخر ، انظر « إيضاح المكنون » (١/ ٤٨٤) .

« قرأ عليَّ الخُطب المعروفة ببني نُباته ـ رحمهم الله ـ من هٰذا الكتاب وغيره ، صاحبه القاضي ـ وذكر ألقاباً تركتُ ذكرها[١] ـ أبو بكر[٢] عتيق بن علي بن عَلَوي الإربلي ، وأذنتُ له أن يرويها عنِّي مع ما شرحتُ له من غريبٍ فيها سألني عنه ، بروايتي عنِ الشيخ الإمام أبي علي الحسن بن أحمد بن الحسن القَطيعي ، بروايته عن أبيه ـ وكان منَ المعمَّرين ـ برواية أبيه عن الإمام عبد الرحيم بن نباته وابنه أبي طاهر رحمهما الله .

وكتب العبد المذنب محمد بن علي الحِلَّوي العراقي في سلخ جمادى الأولىٰ من سنة تسع وخمسين وخمس مئة ») .

وكذلك من الدَّلائل علىٰ أنَّ المترجَم كان حيّاً في سنة (٥٥٩هـ) : ما نقله الذهبي في « تاريخ الإسلام » (١٢/ ٢٠٣) : (حدَّث عنه قاضي أسيوط أبو البركات محمد بن علي الأنصاري ، وقال : أخبرنا شيخنا الإمام رضي الدين الجاواني بالموصل في رجب سنة تسع وخمسين وخمس مئة) .

فهٰذان النقلان من ابن المستوفي والذهبي . . يفيدان أنَّه كان حيّاً في سنة (٥٥٩هـ)[٣] .

---

(١) ما بين معترضتين من كلام ابن المستوفي صاحب « تاريخ إربل » .
(٢) يلاحظ أنَّ ابن المستوفي كنَّى المترجَم عتيق بن علوي في بداية ترجمته له بأبي علي ، وهنا في إجازة الإمام العراقي للشيخ عتيق التي ينقلها لنا ابن المستوفي كنَّاه شيخه العراقي بأبي بكر .
(٣) ونَقلُ ابن المستوفي عن خطِّ الإمام العراقي كما ذكرنا .

واختلفوا في ما بعد ذلك اختلافاً قريباً ، فالذين ذكروا سنة وفاة إمامنا ابن حمدان العراقي . . أربعة :

الذهبي في « تاريخ الإسلام » (٢٠٣/١٢) ، وقال : (بقي إلىٰ قريب الستين ، وعاش ثنتين وتسعين سنة)[١] .

والصَّفدي في « الوافي بالوفَيَات » (٤/ ١٥٥) ، وقال : (توفي سنة إحدىٰ وستين وخمس مئة) ، وعنه السيوطي في « بغية الوعاة » (١/ ١٨٢) .

والإسنوي في « طبقات الشافعية » (١/ ٣٦٩) ، وقال : (مات في حدود سنة ستين وخمس مئة ، عن ثنتين وتسعين سنة) .

وابن كثير في « طبقات الشافعية » (١/ ٦٠٧) ، وقال : (مات في حدود سنة ستين وخمس مئة) .

فالصفدي وعنه السيوطي ذكروا أنَّ وفاته كانت في سنة (٥٦١هـ) ، والذهبي وابن كثير والإسنوي ذكروا أنَّ وفاته في حدود سنة (٥٦٠هـ) ، وهـٰذا قريب كما ترىٰ .

وبقيّة الأئمَّة الذين ترجموا لشيخنا ابن حمدان العراقي . . لم يؤرِّخوا سنة وفاته ؛ حتىٰ مَنْ نقل منهم عنِ ابن النَّجار أنَّ سنة ولادة المترجَم

---

(١) وقول الحافظ الذهبي ـ والإسنوي كما سيأتي ـ : (عاش ثنتين وتسعين سنة) بناء علىٰ ماتقدَّم من رواية ابن النجار من أنَّه ولد سنة (٤٦٨هـ) ، وقد بيَّنَّا أنَّها رواية مرجوحة . انظر (ص ١٣ ، إلى ص ١٦) .

كانت في (٤٦٨هـ) ، وعن ابن السمعاني أنَّ سنة ولادة المترجَم كانت في (٤٨٠هـ) . . نصُّوا على أنَّهما ـ أي ابن النَّجار وابن السمعاني ـ لم يؤرِّخا سنة وفاته ؛ فقد قال التاج السبكي في « طبقاته الكبرى » : (قال ابن النجار : بلغني أنَّ مولدَه في سنة ثمان وستين وأربع مئة . ولم يؤرِّخ وفاته) .

وقال الإسنوي في « طبقاته » (١/ ٣٦٨) بعد أن ذكر كلام ابن النجار الذي نقلناه عنِ التاج السبكي : (ولم يؤرِّخ أيضاً ابن الصلاح وفاته) .

وقد قدَّمنا أنَّ مادَّة ابن الصلاح في ترجمة الإمام ابن حمدان العراقي . . مأخوذة منِ ابن السمعاني .

وبالنسبة لمكان وفاة ودفن إمامنا ابن حمدان العراقي رضي الله عنه : فقد تفرَّد السيوطي في « بغية الوعاة » بذكر ذلك عنِ ابن المستوفي ، قال : (مات في خُفْتيان[1] ، . . . .

---

(١) جاء في « معجم البلدان » (٢/ ٣٧٩) : (خُفْتيان : بالضم ثم السكون ، والتاء مثناة من فوقها ، وياء مثناة من تحتها ، وآخره نون : قلعتان عظيمتان من أعمال إربل ، إحداهما على طريق مراغة يقال لها خفتيان الزَّرزاري على رأس جبل ، من تحتها نهر عظيم جارٍ وسوق وواد عظيم ، والأخرى خفتيان سُرْخاب بن بدر ، في طريق شهرزور من إربل ، وهي أعظم من تلك وأفخم ، ويكتب في الكتب « خُفْتيذكان ») ثم قال : (خُفْتيذْكان : بضم أوله ، وسكون ثانيه ، وتاء مثناة من فوقها ، وياء مثناة من تحتها ، وذال معجمة ، وكاف ، وآخره نون : وهو الصحيح في اسم القلعتين المذكورتين قبل) .

وحُمِل فدُفِنَ بالبوازيج[1])[2] .

رَحِمَهُ اللهُ تعالى

رحمة واسعة وجعله من أهل مقعد الصدق عنده

آمين

---

(١) أفاد الشيخ العلامة محمد بهجت الأثري رحمه الله تعالىٰ في تعليقه علىٰ « خريدة القصر » (٣/ ٣٠٢) : (البوازيج : علَم علىٰ موضعين ، الأول : « بوازيج الأنبار » ، وهو مغمور الذكر ، والثاني : « بوازيج الملك » ، وهو بلد قرب « تكريت » علىٰ فم « الزاب الأسفل » من غربيِّته ، وكان في شرق « السن » : سن بارِ مَّىٰ ، وبينهما اثنا عشر ميلاً . يؤدِّي إلىٰ بيت مال الايلخانيين ١٤٠٠٠ دينار ، وقد خرج من البوازيج جماعة منَ العلماء قديماً ، ولا أثر له اليوم . والبوازيج لفظٌ سُرياني مركَّب ، وهو « بيت وازيك » أي : بيت عمال المكوس ، قاله هرزفلد E.Herzfeld) .

(٢) « بغية الوعاة » (ص ١٨٢) .

كلمة عن كتاب
« الذخيرة لأهل البصيرة »

قبل أن أتكلمَ عن الكتاب ومحتواه ، وبيان ثبوت نسبة الكتاب لمؤلِّفه الإمام رضي الدين أبو سعيد محمد بن علي بن عبد الله بن حمدان الجاواني الكردي ، الحِلَّوي ، البغدادي ، العراقي ، الشافعي ، الأشعري ، رضي الله تعالىٰ عنه . . أتكلَّمُ عن قصَّتي معه .

منذ ما يقرب ثلاثة أعوام في سنة (٢٠١٧م) مرَّ معي أثناء مطالعتي كتاب « خريدة القصر » للعماد الكاتب الأصبهاني رحمه الله تعالىٰ . . قولُه في ترجمة الإمام محمد بن علي العراقي : (طالعتُ مصنَّفاً له في التوحيد ، علىٰ أسلوب تصانيف الغزالي ، وفي خطبته هـٰذان البيتان ، قد نسبهما إلىٰ نفسه :

أفديكَ بِالعَينِ الصَّحيـ ـحة فَالمَرِيضَةُ لا تُسَاوي
أنِّي أقِيكُم بِالمَحَا سِنِ لا أقِيكُمْ بِالمَسَاوي)[1]

فاستوقفتني كلمته ، وقادني الفضول لمعرفة هـٰذا المُصنَّف الذي أشار إليه دون ذكرٍ لاسمه ، فبدأتُ البحث في الكتب عن ترجمة الإمام ابن حمدان العراقي ، فتجمَّعت أطراف البحث إلى الشَّك بأنَّ الكتاب المقصود هو كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وبعد الرجوع لفهارس

---

(١) « خريدة القصر » (٣/٣٠٢) .

المخطوطات أحصيتُ له ثمان نسخ خطِّيَّة ، وكان أقربها إليَّ وأيسرها بالحصول.. مخطوط مكتبة الظاهريَّة ، فما إن حصلت عليه ؛ حتىٰ نظرتُ في خطبته ، فلم أجد البيتين اللذين أشار إليهما العماد الكاتب ، وأكملتُ القراءة في المخطوط حتىٰ أتيت عليه كاملاً في يومٍ واحدٍ ، فلفت نظري فيه أمران :

أولهما : قوله في خطبة الكتاب : (فإنَّني جمعتُ العلومَ التي فرَّقها الإمامُ أبو حامدٍ رضي اللهُ عنه في تصانيفِه الكثيرةِ ، وحصرتُها في أربعةِ أصولٍ ، وذكرتُ لُبابَها في عِدَّةِ فصولٍ ، كلُّ فصلٍ منها ينزِعُ إلىٰ نوعٍ مِنَ العلومِ ، ويشيرُ إلىٰ طريقٍ مِنَ العملِ) .

وهـٰذه الكلمة لا يدرك حقيقتها.. إلا مَنْ أدمن مطالعة كتب حجَّة الإسلام الغزالي رضي اللهُ عنه ، وصدق والله فيما قال ؛ فقد أذهلني بجمعه العجيب وتقسيمه البديع ، وسيأتي الكلام عن هـٰذا الأمر .

ثانيهما : سهولة لغة الكتاب ، وهـٰذا أمرٌ أثار عندي الإعجاب والانتقاد بنفس الوقت ، أثار إعجابي من حيث التنزُّلُ بالعبارة وإيصالها للقارئ ، وأثار انتقادي من حيث خلوُّه عن بلاغة يراع شيخه حُجَّة الإسلام الغزالي في كُتُبه !

فكيف يقول الإمام العراقي : (إنَّه جمع العلومَ التي فرَّقها شيخه الغزالي في تصانيفِه الكثيرةِ ، وحصرها في أربعةِ أصولٍ ، وذكر لُبابَها في عِدَّةِ فصولٍ ، كلُّ فصلٍ منها ينزِعُ إلىٰ نوعٍ مِنَ العلومِ ، ويشيرُ إلىٰ طريقٍ مِنَ العملِ) وكتابه هـٰذا خالٍ عن بلاغة وفصاحة مَنْ هو ضيفٌ علىٰ موائده ؟!

ومع كل ذلك.. قمتُ بدفع الكتاب لنسخه علىٰ هٰذه المخطوطة (مخطوطة الظاهرية) ريثما أحصل علىٰ بقيَّة النُّسخ الخطِّيَّة .

ولم يطل الأمر بفضل الله تعالىٰ حتىٰ حصلتُ له علىٰ ست نُسخٍ خطِّيَّة سوىٰ نسخة الظاهرية ، وعند تفحُصِها زالتِ التساؤلات ، ورفعتِ الإشكالات ؛ فقد وجدتُ في أربعة منها ـ أي : النسخ الخطِّيَّة الستَّة[1] ـ البيتين اللذين أشار إليهما العماد الكاتب في « خريدته » ، فقُطعتِ الشكوك ، وتبدَّدت الظنونُ حول نسبة الكتاب لمؤلِّفه .

وأمَّا انتقادي لخلوِّ الكتاب عن بلاغة وفصاحة مَنْ مادَّةُ الكتاب من كتبه ، وهو شيخه حُجَّة الإسلام الغزالي.. فقد أجابني عنه الإمام ابن حمدان العراقي رضي اللهُ عنه في خطبة كتابه[2] ، ووالله لقد داخلني مِنَ السرور ما أسكرني وأذهب لُبِّي عندما قرأتُ كلامه ، سُررتُ حيث كان انتقادي في محلِّه ، وطرِبتُ حيث رفع ذلك الانتقاد بإجابته ، فقال رضي اللهُ عنه :

(فليَعذِرْ مَنْ وقفَ علىٰ كتابي هٰذا إنْ وجدَ في ألفاظِهِ نُزولاً عن رُتبَةِ

---

(١) والنسخ الأربعة التي ذكرت البيتين اللذين أشار إليهما العماد الكاتب ؛ نسخةُ مكتبة جامعة الملك سعود ، والتي رمزتُ لها بـ(أ) ، ونسخة مكتبة جار الله بإسطنبول ، والتي رمزتُ لها بـ(ب) ، ، ونسخة مكتبة برلين ، والتي رمزتُ لها بـ(هـ) ، ونسخة مكتبة مانيسا ، والتي رمزتُ لها بـ(ز) ، ثم وقفت علىٰ نسخة (ليدن) بعد أن انتهيتُ من العمل في الكتاب ؛ فوجدت فيها البيتين كذلك .

(٢) وسبب انتقادي الذي ذكرته قبل قليل : أنَّ هٰذه الخطبة قد سقطت كاملة من أوَّل نسخة خطيَّة حصلتُ عليها من الكتاب ، وهي نسخة المكتبة الظاهرية !

التَّشدُّقِ ، أو ألفىٰ في معانيهِ انحرافاً يسيراً عنِ التَّعمُّقِ ؛ فذلك مقصودُ مَنْ أَلَّفتُ الكتابَ برسمِهِ ، وإنْ كان دون رُتبَةِ مَنْ أبرزتُهُ باسمِهِ ، فإذا لم يُضِفْ عليَّ النَّاظرُ فيه ملابِسَ حمدِهِ واستحسانِهِ . . فلا أقلَّ أنْ يَكُفَّ عنِّي غَرْبَ ذَمِّهِ وعُدوانِهِ) .

إلىٰ أن قال : (وها أنا ذا أشيرُ إلىٰ كلِّ أصلٍ منها في بابٍ مُفرَدٍ ، وأوردُهُ بأوضحِ عبارةٍ ، وأسهلِ لفظٍ ، وأحترزُ بجَهدي من إيداعِه الألفاظَ المنغلقَةَ ، والكلماتِ الغريبَةَ ، وأتحفَّظُ من إيرادِها بطريقٍ يغمُضُ درْكُهُ ، ويعسُرُ الوقوفُ عليهِ .

ومَنْ أرادَ ذلك مبسوطاً أو مكسُوّاً بعبارةٍ رشيقَةٍ وألفاظٍ غريبَةٍ . . فعليهِ بكُتُبِ حُجَّةِ الإسلام أبي حامدٍ ؛ فهو المنبعُ ومنهُ المأخَذُ .

ووقتيَ الآنَ لا يتَّسِعُ للبسْطِ ، فإنْ فسحَ اللهُ سبحانَهُ في المُهَلِ ، ومَنَّ بتأخيرِ الأجَلِ ، وأيَّدَ ببسطِ يدٍ ولسانٍ ، وأمَدَّ بصفاءِ قريحَةٍ وجَنانٍ . . أريتُكَ كيف تُزَفُّ خرائدُ المعارفِ في ملابسِ الشُّروحِ والبيانِ) !

فانظر إلىٰ هـٰذا البيان مِنَ الإمام . . فقد قطع به كلَّ كلام !

* اسم الكتاب ، وتوثيق نسبته للإمام ابن حمدان العراقي :

ذكرنا في بداية ترجمتنا للمؤلِّف . . الكُتُبَ التي ترجمت له ، وكلهم لم يذكر هـٰذا الكتاب لشيخنا العراقي ، إلا ابن المستوفي في كتابه « تاريخ إربل » ، فيما نقله عنه السيوطي في « بغية الوعاة »[1] ؛ فقد

(١) « بغية الوعاة » (ص ١٨٢) ، وقد سبقت الإشارة إلىٰ أنَّ كتاب ابن المستوفي=

صرَّح بذكر اسم الكتاب ونسبته للإمام ابن حمدان العراقي ، وجاءت إشارة العماد الكاتب في « خريدته » بقوله : (طالعتُ مصنَّفاً له في التوحيد ، على أسلوب تصانيف الغزالي ، وفي خطبته هـٰذان البيتان ، قد نسبهما إلىٰ نفسه . . .) ، ثمَّ ارتفع الارتياب بالوقوف على النُّسخ الخطِّيَّة للكتاب ، فذكر في بعضها ما أشار إليه العماد الكاتب الأصبهاني[1] .

وكذلك قد نقل لنا الإمام علي ابن أنجب المعروف بابن الساعي في كتابه « الدُّرّ الثمين في أسماء المصنِّفين » (ص ٢٣٨) كلمة العماد الكاتب اللأصبهاني : (طالعتُ مصنَّفاً له في التوحيد ، علىٰ أسلوب تصانيف الغزالي . . .) .

أضف إلىٰ ذلك تصريح المؤلِّف في كتابه هـٰذا « الذخيرة » بذكر شيخه حُجَّة الإسلام الغزالي في أكثر من موضع[2] ، وسبق أن ذكرنا اتفاق المترجمين علىٰ تلمذة إمامنا العراقي علىٰ حُجَّة الإسلام الغزالي رضي الله عنهما .

كلُّ ذلك لا يدع لدينا أدنىٰ شكٍّ في ثبوت نسبة كتاب « الذخيرة لأهل

= « تاريخ إربل » لم يصلنا كاملاً ، وأنَّ ترجمة ابن المستوفي لشيخنا ابن حمدان العراقي . . جاءت في القسم المفقود منه ، وقد حفظها لنا الإمام السيوطي في كتابه « بغية الوعاة » .

(١) وذلك في خمسة نسخٍ منها من أصل ثمانٍ اعتمدت عليها في التحقيق ، انظر وصف النُّسخ الخطِّيَّة (ص ٧٣) .

(٢) انظر علىٰ سبيل المثال (ص ٢٣٢) ، و(ص ٣٧٤) ، و(ص ٣٩٢) .

البصيرة » للإمام محمد بن علي ابن حمدان العراقي .

أمَّا بالنسبة لاسم الكتاب : فقد اتفقت النسخ الخطيَّة علىٰ تسمية الكتاب بـ« الذخيرة لأهل البصيرة » ، ولـٰكن وقع في ثلاثة منها خلطٌ في نسبة الكتاب لمؤلِّفه ، فنُسبَ في نسخة مكتبة آيا صوفيا . . إلىٰ حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت : ٥٠٥هـ) !

ونُسب في نسخة مكتبة برلين ، ونسخة مكتبة مانيسا . . إلىٰ حُجَّة الإسلام أبي الفتوح أحمد الغزالي (ت : ٥٢٠هـ)[١] !

أمَّا في النسخ الأخرىٰ ؛ فقد نُسبَ الكتاب في بعضها لصاحبه الإمام محمَّد بن علي العراقي ، وفي البعض الآخر ذكر اسم الكتاب دون اسم المؤلِّف ، والمضمون واحدٌ في النُّسخ الثمانية ! فما سبب وقوع هـٰذا الخلط في النِّسبة ؟

أمَّا بالنسبة للنسخة التي نسبت الكتاب للإمام أبي حامد الغزالي . . فسيأتي الكلام عليها بعد قليل[٢] .

وأمَّا بالنسبة للنسختين اللتين نسبتا الكتاب للإمام أبي الفتوح الغزالي . . فإنَّ وقوع هـٰذا الخلط يعودُ لعدَّة أسباب :

أوَّلها : تشابه الاسم بين الكتابين ، فكتاب حُجَّة الإسلام أبي الفتوح أحمد الغزالي اسمه « الذخيرة في علم البصيرة » ، وكتاب الإمام ابن

---

(١) نصَّ ابن الصلاح في « طبقات الفقهاء الشافعيَّة » (١/ ٣٩٧) علىٰ أنَّه كان يلقَّب بلقب أخيه زين الدين ، حُجَّة الإسلام .

(٢) انظر (ص ٦٣) .

حمدان العراقي اسمه « الذخيرة لأهل البصيرة » .

ثانيها : تشابه موضوع الكتابين ، وهـٰذا سأتكلَّم عنه بعد قليل .

ثالثها : اتحاد الفترة الزمنيَّة بين المؤلِّفَين ، فالإمام أبو الفتوح الغزالي توفي سنة (٥٢٠هـ) ، والإمام أبو سعيد العراقي ولد سنة (٤٨٠) أو (٤٦٨هـ) كما سبق ، وتوفي سنة (٥٦١هـ) .

رابعها : اتحاد الرُّقعة المكانيَّة بين الشيخين ، فكلاهما أقام في إربل وبغداد .

فهـٰذه الأسباب الأربعة كلها أو بعضها .. هي التي أوقعت بعض النُّساخ وبعض المفهرسين كالعلامة حاجي خليفة ومَنْ بعده مِنَ المعاصرين في هـٰذا الخطأ ، وهـٰذا يقودُنا للحديث عن كتاب « الذخيرة في علم البصيرة » لصاحبه حُجَّة الإسلام أبي الفتوح أحمد الغزالي .

* بين كتاب أبي سعيد العراقي « الذخيرة لأهل البصيرة » وكتاب أبي الفتوح الغزالي « الذخيرة في علم البصيرة » :

أغلب مَنْ ترجم للإمام حُجَّة الإسلام أبي الفتوح أحمد الغزالي (ت : ٥٢٠هـ) .. نصَّ علىٰ نسبة كتاب « الذخيرة في علم البصيرة » له[1] ، وكتابه هـٰذا « الذخيرة في علم البصيرة » عبارة عن مجالس

---

(١) انظر علىٰ سبيل المثال لا الحصر ترجمة حُجَّة الإسلام أبي الفتوح أحمد الغزالي (ت: ٥٢٠هـ) في « المنتظم » (٩/ ٢٦٠) ، « الكامل » (١٠/ ٦٤٠) ، « تاريخ إربل » (١/ ٣٣) ، « وفيات الأعيان » (١/ ٩٧) ، « العبر » (٤/ ٤٥) ، « تاريخ الإسلام » (١١/ ٣١٠) ، « الوافي بالوفَيَات » (٨/ ٧٦) ، « طبقات الفقهاء الشافعية » لابن الصلاح (١/ ٣٩٧) ، =

وعظيَّة ؛ فقد قال ابن المستوفي في « تاريخ إربل » : (ونقلت من كتاب له يسمىٰ كتاب « الذخيرة في علم البصيرة » من مجلس يوم الأربعاء تاسع عشرين. . . . . ، سنة أربعة عشر وخمس مئة بجامع القصر : (حرام علىٰ قلب مشحون بحب الدنيا [أن] يجد حلاوة الذكر ، وحرام علىٰ قلب مشحون بالشهوات أن يكون له صلة بالقِدم ، إنَّما أُمرتَ بترك ما أنت فيه ، وأمَّا جلالة القِدم. . فلا تقصر عمَّا هي فيه مرتبة العبودية ومنقبة المحبوبية ، وما لك منهما حديث ولا خبر ، أنت في واد وهم في واد) ، وهو كتاب في مجلد ، ولم أذكر ذلك إلا تبرُّكاً بكلامه ؛ لأنَّه مِنَ المختار في بابه)[1] .

= « طبقات » السبكي (٦/ ٦٠) ، « طبقات » الإسنوي (٢/ ٢٤٥) ، « طبقات الأولياء » لابن الملقن (ص ١٠٢) ، وهـٰؤلاء أغلبهم نصَّ علىٰ نسبة كتاب « الذخيرة في علم البصيرة » للإمام أبي الفتوح الغزالي .

(١) انتهىٰ بتصرُّفٍ من « تاريخ إربل » (١/ ٣٧) ، وقد علَّق مُحقِّقه سامي بن السَّيِّد خماس الصقَّار ، عند ذكر كتاب « الذخيرة في علم البصيرة » (٢/ ١٩ ، الحاشية رقم ٣١) : (وهـٰذا الكتاب أيضاً ذكره بعض مَنْ ترجم للغزالي ، وقال حاجي خليفة (ص ٨٢٥) : إنَّه جمع فيه ما فرقه أبو حامد في تصانيفه الكثيرة . وذكره بروكلمان (١/ ٥٤٦) وسمَّاه « كتاب الذخيرة لأهل البصيرة » . والظاهر أنَّه لم يطبع بعد ، وبالتالي فقد تعذَّر عليَّ تحقيق النَّص الذي أورده ابن المستوفي) .

أقول : سيأتي معك بيان الوهم الذي حصل لحاجي خليفة في كتابه « كشف الظنون » ، وأنَّ وصفه للكتاب بقوله : (إنَّه جمع فيه ما فرقه أبو حامد في تصانيفه الكثيرة) ينطبق علىٰ كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » .

وأمَّا قول السيد سامي الصقَّار : (وذكره بروكلمان وسمَّاه « كتاب الذخيرة لأهل البصيرة »). . فسهوٌ منه ؛ فإنَّ بروكلمان ذكره في قائمة كتب الإمام محمد بن=

ونَقلُ ابن المستوفي عنِ كتاب « الذخيرة في علم البصيرة » يفيدنا عدَّة فوائد :

الأُولىٰ : أنَّه غير كتابنا « الذخيرة لأهل البصيرة » ؛ لأنَّ الكلام المذكور غير موجود في كتاب شيخنا العراقي .

الثانية : أنَّه غير المجالس الوعظيَّة التي دوَّنها عنه صاعد بن فارس اللَّبان ؛ فقد قال التاج السبكي : (ودوَّن مجالسه صاعدُ بن اللَّبان ببغداد ، فبلغت ثلاثة وثمانين مجلساً ، كتبها بخطِّه في مجلَّدين)[١] .

الثالثة : أنَّه غير المجالس التي وقف عليها ابن الصَّلاح للإمام أبي الفتوح الغزالي ؛ فقد قال : (علا في فَنِّ الوعظِ شانُه ، وجرىٰ بلسان التصوُّف في مَيدانه ، فشُهِر إحسانُه ، والتُقِطَ في مجالسه فدوِّنَ ، رأيتُ من ذلك مجلداتٍ أربعاً)[٢] .

أمَّا كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » لإمامنا ابن حمدان العراقي . . فهو اختصارٌ وجمعٌ لمؤلَّفات شيخه حجَّة الإسلام أبي حامدٍ الغزالي رضي اللهُ عنهما ؛ كما قال : (فإنَّني جمعتُ العلومَ التي فرَّقها الإمامُ أبو حامدٍ رضي اللهُ عنه في تصانيفِه الكثيرةِ ، وحصرتُها في أربعةِ أصولٍ ، وذكرتُ لُبابَها في عِدَّةِ فصولٍ ، كلُّ فصلٍ منها ينزِعُ إلىٰ نوعٍ مِنَ العلومِ ، ويشيرُ إلىٰ طريقٍ مِنَ العملِ)

= علي العراقي ، فكيف خلط كلام بروكلمان مع تعليقه علىٰ كتاب أبي الفتوح الغزالي ؟!

(١) « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٦٠) .

(٢) « طبقات الفقهاء الشافعية » لابن الصلاح (١/ ٣٩٧) .

وبعد معرفة أوجه التشابه والافتراق بين المؤلِّفين والمؤلَّفين . . يسهلُ علينا معرفة الوهم الذي دخل على الناسخين لمخطوطة « الذخيرة لأهل البصيرة » :

الأول : ناسخ النسخة المحفوظة في مكتبة برلين بألمانيا ، والتي كُتب علىٰ طُرَّتها : (كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » للإمام الفاضل ، والحِبر الكامل ، المحقِّق المدقِّق أحمد الغزالي تغمَّده الله برحمته . . .) ، وتاريخ نسخ هـٰذه المخطوطة سنة (٩٩٧هـ) .

والثاني : ناسخ النسخة المحفوظة في مكتبة مانيسا بتركيا ، والتي كُتب علىٰ طُرَّتها : (كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » ، تأليف الشيخ أبي الفتوح مجد الدين أحمد بن محمد بن محمد الغزالي رضي الله تعالىٰ عنه . . .) .

وهناك نسخة أخرىٰ لم أقف عليها ، ومن هـٰذه النُّسخة دخلَ الوهمُ على العلامة حاجي خليفة ؛ فنسب مضمون كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » لكتاب « الذخيرة في علم البصيرة » لحُجَّة الإسلام أبي الفتوح الغزالي .

قال حاجي خليفة في كتابه « كشف الظنون » (١/ ٨٢٥) : (الذخيرة في علم البصيرة ، للشيخ : أحمد بن محمد الغزالي ، المتوفىٰ : سنة ٥٢٠ ، عشرين وخمس مئة ، وهو أخو الإمام أبي حامد الغزالي .

أوله : (الحمد لله المتوحد بالعظمة والكبرياء . . . الخ) .

ذكر فيه أنَّه : جمع فيه ما فرَّقه أبو حامدٍ في تصانيفه الكثيرة مِنَ العلوم ، وحصرها في أربعة أصول . في معرفة النفس ، في معرفة الرب ، في معرفة الدنيا ، في معرفة الآخرة)[1] .

وسترىٰ أنَّ مضمون الكتاب الذي أشار إليه حاجي خليفة ينطبق تماماً علىٰ كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » لصاحبه الإمام ابن حمدان العراقي .

وأمَّا بالنِّسبة للنسخة الأخرىٰ لكتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » التي نُسبت إلىٰ حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد الغزالي ، وهي نسخة آيا

---

(١) بفضلٍ مِنَ الله عزَّ وجلَّ ، ثمَّ بفضل أهل الفضل . . استطعتُ الحصول علىٰ ثمان مخطوطاتٍ للكتاب ، تمَّ العملُ عليها ، وكنتُ قد أحصيت للكتاب تسع نسخٍ خطِّيَّة ، ثمانية منها جاءت بعنوان « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وواحدة منها بعنوان « الذخيرة في علم البصيرة » ، وهـٰذه نسبت للإمام أبي الفتوح الغزالي ، فلعلَّها نُسِخَت مِنَ النُّسخة التي أدخلت الوهم علىٰ حاجي خليفة في كلامه الذي نقلناه عنه .

وإنَّما قلتُ : (نُسِخَت مِنَ النُّسخة) ؛ لأنَّ هـٰذه النُّسخة لكتاب « الذخيرة في علم البصيرة » كُتبت في سنة (١٢٥٧هـ) ، وهي محفوظة في دار الكتب المصريَّة ، الخزانة التيموريَّة برقم (١/٢٥٢) ، وهـٰذا بحسب ما ذكره المحقِّقان علي الرضا قره بلوط ، وأحمد طوران قره بلوط في كتابهما « معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم » (١/ ٤٨٣) ، ومعلومٌ أنَّ حاجي خليفة رحمه الله تعالىٰ توفي سنة (١٠٦٨هـ) ، فيستحيل أن تكون النسخة التي أشار إليها صاحبا « معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم » هي نفسها التي ذكرها حاجي خليفة ؛ ولذلك قلتُ : (فلعلَّها نُسِخَت مِنَ النُّسخة التي أدخلت الوهم علىٰ حاجي خليفة في كلامه الذي نقلناه عنه) . وسيأتي الكلام عن النسخ الخطِّيَّة في (ص ٧٣) .

صوفيا ؛ فسبب نسبتها للإمام أبي حامد الغزالي. . وجودُ بترٍ في أوَّلها ؛ ممَّا جعل أحد النُّساخ ـ وهو غير النَّاسخ الأصلي للمخطوط ـ يجتهد بكتابة مقدِّمةٍ بمقدار صفحةٍ ، وكتب في ضمن هـٰذه المقدِّمة بعد الحمدلة والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم : (أمَّا بعدُ : قال الشيخ الإمام الأجل أبي حامد الغزالي رحمة الله تعالىٰ عليه : إني صنَّفتُ كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » وجعلته نوراً للأبصار ؛ ليُجتلىٰ به ثمر الجنان ، ويُكتَشَفَ به علم البيان. . .)[١] الخ !!

وهـٰذه دعوىٰ غريبة مِنَ النَّاسخ الذي حسب أنَّه أحسن صنعاً بكتابة هـٰذه الصحيفة ، وأنَّه تمَّم ما حصل فيها من بترٍ ! فكلُّ مَنْ ترجم لحُجَّة الإسلام أبي حامدٍ الغزالي. . لم ينسب له كتاباً اسمه « الذخيرة لأهل البصيرة » .

* داعية تأليف كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » :

قال المؤلِّف الإمام العراقي في بيان السبب الذي دعاه لتأليف الكتاب : (فإنَّك حضرتني أيُّها الأخُ الوادُّ ـ أحضرَ اللهُ مَسَارَّكَ ، وروَّحَ بلطيفِ الأُنسِ به أسراركَ ـ وذكرتَ لي : أنَّكَ تصفَّحتَ كُتُبَ العلماءِ السَّابقينَ ، وتصانيفَ القُدماءِ المبرِّزينَ ، فلمْ ترَ في كُتُبِهِم وتصانيفِهِم. . أنفعَ مِنْ تصانيفِ الإمامِ حُجَّةِ الإسلامِ أبي حامدٍ الغزاليِّ قدَّسَ اللهُ روحَهُ ونوَّرَ ضريحَهُ ؛ إذ كانَ أكثرَهم تدقيقاً وتحقيقاً ، وأبعدَهم مِنَ المَيلِ

(١) انظر الكلام عن وصف هـٰذه النُّسخة في (ص ٧٦) .

والهوىٰ طريقاً ، معَ تبحُّرِهِ في أجناسِ العلومِ الشَّرعيةِ وغيرِها ، وتصنيفِهِ في كلِّ فنٍّ من فُنونِها ، ورسوخِ قدمِهِ في دقيقِها وجليِّها ، وتحكُّمِهِ فيها بإجمالِها وتفصيلِها ، وشكوتَ إليَّ من شيئينِ ، وشَّحَ بهما كُتُبَهُ وتصنيفَهُ ، فلا يكادُ يخلو من أحدِهِما تأليفُهُ :

الأوَّلُ : غموضُ معانيهِ ، وغرائبُ ألفاظِهِ ومبانيهِ .

والثاني : أنَّه متىٰ عرَضَ له تحقيقٌ في كتابٍ . . أعرضَ عن إتمامِهِ ، وأحالَ علىٰ بعضِ كُتُبِهِ بالجوابِ .

فما لم تحصُلْ مُصنَّفاتِهِ جميعُها لشخصٍ . . لا يكادُ يقضي من كُتُبِهِ وطرَهُ ، ولا يحصُلُ إلا من جملتِها مقصوده .

وتمنَّيتَ أن لو عثرتَ من علماءِ الوقتِ علىٰ مَنْ يتصدَّىٰ لتصنيفِ كتابٍ يحذو فيه حذوَهُ ، ويتلو في استنباطِ غرائبِ المعاني تِلوَهُ ، لـٰكنَّه لا يحيلُ بالجوابِ علىٰ غيرهِ من كتابٍ ؛ بل يشيرُ إليه ولو بنَبذَةٍ ؛ ليكون تنحُّته للقشرِ مِنَ اللباب ، فيجتمعُ حينئذٍ على التَّحقيقِ ، بين حُسنِ الاستنباطِ وجَودةِ التَّلفيقِ ، ويتجنَّبُ بجَهدِهِ التَّطويلَ والإكثارَ ؛ لئلا يكونَ واضعاً بناءَهُ علىٰ شَفيرٍ هارٍ)[1] .

ثمَّ ختم خطبة كتابه بالدعاء للسائل فقال : (جعلَ اللهُ التِمَاسكَ أيُّها الأخُ العارفُ وإجابتي إيَّاك بهـٰذه اللطائفِ . . خالصاً منَ الرِّياءِ والتَّكلُّفِ ، وجذَبَ بضبْعِنا عن ورْطَةِ التَّعمُّقِ والتَّعسُّفِ ، ووفَّقَنا لكلِّ خيرٍ نُشيرُ إليه ونأمَلُ أنْ نحتوي عليه ، واستعمَلَنا فيما يُرضيهِ ويُزلِفُ

---

(١) (ص ١١٦ إلى ص ١١٨) .

لديهِ ، فإليه الملجأُ ، وعليه الاعتمادُ ، أعوذُ بالله مِنَ الخَطَلِ في القولِ والعمَلِ ، وألوذُ به مِن مَزَلَّةِ القَدَمِ والتَّلَطُّخِ بوِصْرِ الزَّلَلِ) .

* لمن أهدى الإمام العراقي كتابه « الذخيرة لأهل البصيرة » ؟

قال المؤلِّف في خطبة كتابه[1] : (لمَّا فرغتُ من تكوينِ هـٰذه العادَةِ . . جرى الجماعةُ معيَ على العادَةِ ، وسألوني جَلوَتَهَا علىٰ خُطَّابِها ، وعَرضَهَا علىٰ أربابِها ، وأنا أتبلَّدُ وأتردَّدُ في حَذْرِ نِقابِها ، إلا عند صَدْرٍ تعلقَ بقلبِهِ أسبابُ الشَّرَفِ ، وتحظىٰ لديه مهائرُ الطُّرَفِ .

وحين استفرغتُ وُسْعِي في ترجِيحِها وتكمِيلها ، واستنفدتُ جَهدي في تسويرها وتحجيلها ، وامتدَّ في خِدرِ الصِّيانَةِ ثواؤها ، وكادَ ينشِدُ :

والبِيضُ قَدْ عَنَسَتْ وطَالَ جِرَاؤُهَا

رفعتُها إلىٰ سامي مجلسِ المولى الرَّضي ، **بهاءِ الدَّولَةِ والدِّينِ ، شهابِ الإسلامِ ، قاضي القُضاةِ وشمسِهِم ، مخلِّصِ الدَّولَةِ ، مُعتَمَدِ الملوكِ ، فخرِ المِلَّةِ ، شرفِ المِلَّةِ ، حُجَّةِ الشَّريعةِ ، علَمِ الهُدىٰ ، مُقتدى الورَىٰ ، أبي الحسنِ عليِّ بنِ القاسمِ الشَّهرُزُوري** ، أدامَ اللهُ رفعتَهُ ، وجعلَ جبهةَ النَّثْرَةِ رُقعتَهُ ؛ فهو المجلسُ تُجلَبُ إليهِ نتائجُ الألبابِ ، ويُفرَغُ عليه كلُّ ثناءٍ مُستطابٍ ، وتُزَفُّ إليهِ عرائسُ الأفكارِ ، ويُرجَعُ منه بالأيادي . . العَونُ والإبكارُ ، وهو حرسَ اللهُ مجدَهُ وأورَىٰ

---

(1) ملاحظة : هـٰذه القطعة من الخُطبة لم تثبت إلا في نسختين خطِّيَّين من أصل ثمان نسخٍ اعتمدت عليها في تحقيق الكتاب ، والتصريح باسم المُهدىٰ له لم يثبت إلا في نسخةٍ واحدة ! انظر (ص ١٣١) من الكتاب .

بالسَّعادَةِ زِندَهُ . . صدرُ خريدَةِ الدَّهْرِ ، وفارسُ مضمارِ العَصْرِ ، بل هو الحُسامُ جلاهُ صيقلٌ طبعيٌّ . . فأخلَصَهُ ، والغمامُ أنشَأهُ نَوءٌ فضليٌّ . . فأنشَصَهُ .

فها أنا ذا أسحَبُ به ذيلَ الافتخارِ على الأقرانِ ، وأجعلُ الثناءَ عليه بمنزلَةِ التَّسبيحِ وتلاوةِ القرآن .

كفا اللهُ فضائلَهُ عينَ الكمالِ ، لكأنَّ ابن الرُّومي نظرَ إليهِ فقال :

لولاَ عَجائِبُ صُنْعِ اللهِ مَا ثبتَتْ　　تِلكَ الفَضائِلُ في لَحمٍ ولاَ عَصَبِ[1]

فمَن هو أبو الحسن علي بن القاسم الشَّهْرُزُوري ؟

ترجمه الحافظ الذهبي في « تاريخ الإسلام » فقال : (عليُّ بن القاسم بن مُظَفَّر بن عليٍّ ، أبو الحسن ابن الشَّهْرُزُوري ، المَوصليُّ الشافعيُّ القاضي .

قال الحافظ ابن عساكر[2] : ولي قضاءَ واسط ، ثم قضاء الرَّحْبة ، ثم قضاءَ المَوصِل ، وقد قَدِم مع قَسِيم الدَّولة زَنْكي حين حاصرَ دمشقَ ، وكان حسن الاعتقاد ، شهماً[3] ، رجُلاً مِنَ الرِّجال ، تُوفِّي بحلب في

---

(١) انظر (ص ١٣١ إلى ص ١٣٤) .
(٢) « تاريخ دمشق » (١٣٦/٤٣) .
(٣) كذا في « تاريخ الإسلام » للحافظ الذهبي ، بتحقيق الدكتور بشار عواد معروف : (شهماً) ، وفي النسخة التي بتحقيق الدكتور عبد السلام التدمري : (فَهِمَاً) ، ولعلَّ ما في نسخة الدكتور بشار معروف هو الصواب ؛ إذ إنَّ نص الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٦/٤٣) : (وفيه شهامة) .

رمضان ، وحُمِل تابوته إلى الرَّقَّة ، وهو أحد الإخوة[1])[2] .

وزاد التاج السبكي في « طبقاته » علىٰ ما ذكره شيخه الحافظ الذهبي : (سمع ببغداد أبا غالب محمد بن الحسن الباقلاني وغيره ، وولي قضاء البلاد الجزيريَّة والشاميَّة . توفِّي في شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة)[3] .

وقال الإسنوي في « طبقاته » في ترجمة والد الشيخ أبي الحسن : (القاسم الشَّهْرُزُوري وأهل بيته . أبو أحمد ، القاسم بن المظفَّر بن علي الشَّهْرُزُوري ، الشيباني . ذكره ابن خلِّكان ، وذكره معه أهل بيته[4] ، فلنقتصر علىٰ ما ذكره من حالهم ؛ فإنَّه من بلاده ، وأعرف بهم ، فنقول . . . .)[5] ثم ذكر ما قاله ابن خلِّكان في ترجمة أهل بيت القاسم الشَّهْرُزُوري[6] .

* متىٰ أُلِّف كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » ؟

وضح بما تقدَّم أنَّ الإمام العراقي أهدىٰ كتابه « الذخيرة » للقاضي

---

(١) انظر تراجمهم في « وفَيَات الأعيان » (٤/ ٦٨ إلىٰ ص ٧٠) .
(٢) « تاريخ الإسلام » (١١/ ٥٧٥) .
(٣) « طبقات الشافعيَّة الكبرىٰ » (٧/ ٢٢٨) ، وانظر أخبار القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشَّهْرُزُوري في « الروضتين في أخبار الدولتين » (١/ ٦٧ ، ٦٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٦) للإمام أبي شامة .
(٤) كذا في النسخة المطبوعة من « طبقات الشافعيَّة » للإسنوي : (**وذكره معه أهل بيته**) ، ولعلَّها : (**وذكر معه أهل بيته**) أو (**وذكره مع أهل بيته**) .
(٥) « طبقات الشافعية » (٢/ ٩٦ ، رقم : ٦٨٨) للإسنوي .
(٦) انظر « وفَيَات الأعيان » (٤/ ٦٨ إلىٰ ص ٧٠) .

أبي الحسن علي بن القاسم الشَّهْرُزُوري ، وتقدَّم في كلام التاج السبكي أنَّ القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشَّهْرُزُوري توفي سنة (٥٣٢هـ) وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الإمام العراقي ألَّف كتابه « الذخيرة » قبل تاريخ (٥٣٢هـ) .

هـٰذا ما كتبتُه قبل حصولي علىٰ نسخة (ليدن) لكتاب « الذخيرة » ، وبعد حصولي عليها . . وجدتُ ما مثاله علىٰ طُرَّتها : (كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » ، من تصانيف العبد المذنب الفقير إلىٰ رحمة الله الكريم محمد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أبي الهيجاء بن حمدان ، غفر الله ذنوبه برحمته . في سنة إحدىٰ وعشرين وخمس مئة) .

وبهـٰذا النَّص تم تحديد السنة التي ألَّف فيها الإمام العراقي كتابه هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » .

❊ ماذا في كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » :

ذكر الإمام ابن حمدان العراقي رضي اللهُ عنه أنَّ أخاً له في الله تعالىٰ . . قال له : تصفَّحتُ كُتُبَ العلماءِ السَّابقينَ ، وتصانيفَ القُدماءِ المبرِّزينَ ، فلمْ أرَ في كُتُبِهم وتصانيفِهم . . أنفعَ مِنْ تصانيفِ الإمامِ حُجَّةِ الإسلامِ أبي حامدٍ الغزاليِّ قدَّسَ اللهُ روحَهُ ونوَّرَ ضريحَهُ .

وسبب ذلك : أنَّه كانَ من أكثرِهم تدقيقاً وتحقيقاً ، وأبعدِهم مِنَ المَيلِ والهوىٰ طريقاً ، مع تبحُّرِهِ في أجناسِ العلومِ الشَّرعيةِ وغيرِها ، وتصنيفِهِ في كلِّ فنٍّ من فُنونِها ، ورسوخِ قدمِهِ في دقيقِها وجليِّها ، وتحكُّمِهِ فيها بإجمالِها وتفصيلِها .

وشكا للإمام العراقي من أمرين وشَّحَت بهما كُتُبُ حجَّة الإسلام وتصانيفُهُ ، فلا يكادُ يخلو من أحدِهما تأليفُهُ .

الأوَّلُ : غموضُ معاني كلام حُجَّة الإسلام، وغريبُ ألفاظِهِ ومبانيهِ.

والثاني : أنَّه متىٰ عرَضَ له تحقيقٌ في كتابٍ . . أعرضَ عن إتمامِهِ ، وأحالَ علىٰ بعضِ كُتُبِهِ بالجوابِ .

فما لم تحصُلْ مُصنَّفاتُهُ جميعُها لشخصٍ . . لا يكادُ يقضي من كُتُبِهِ وطرَهُ ، ولا يحصُلُ إلا من جملتِها مقصوده .

وتمنَّىٰ هٰذا الطالب من الإمام العراقي أن لو عثر من علماءِ الوقتِ علىٰ مَنْ يتصدَّىٰ لتصنيفِ كتابٍ يحذو فيه حذو حُجَّة الإسلام ، فيتلو في استنباطِ غرائبِ المعاني تِلوَهُ ، ولا يحيلُ بالجوابِ علىٰ غيرِهِ من كتابٍ ؛ بل يشيرُ إليه ولو بنَبذَةٍ ؛ ليكون تنحُّته للقشرِ مِنَ اللباب ، فيجتمعُ حينئذٍ على التَّحقيقِ ، بين حُسنِ الاستنباطِ وجَودةِ التَّلفيقِ ، ويتجنَّبُ بجَهدِهِ التَّطويلَ والإكثارَ .

فأجابه الإمام العراقي إلىٰ مطلوبه بعد إبداء الاعتذار ، فقال رضي اللهُ عنه : (جمعتُ العلومَ التي فرَّقها الإمامُ أبو حامدٍ رضي اللهُ عنه في تصانيفِهِ الكثيرَةِ ، وحصرتُها في أربعةِ أصولٍ ، وذكرتُ لُبابَهَا في عِدَّةِ فصولٍ ، كُلُّ فصلٍ منها ينزِعُ إلىٰ نوعٍ منَ العُلومِ ، ويشيرُ إلىٰ طريقٍ منَ العمَلِ ، وأوردتُ كُلَّ أصلٍ في بابٍ :

فالأوَّلُ : في معرفَةِ النَّفْسِ .

والثاني : في معرفَةِ الحقِّ سبحانَهُ .

والثالثُ : في معرفَةِ الدُّنيا .

والرابعُ : في معرفَةِ الآخرةِ .

ومَن لاحظَ تصانيفَهُ بعينِ الإنصافِ ، وطالعَها ببصَرِ البصيرَةِ . . ألفاها لا تشُذُّ عن هـٰذه الأصُولِ الأربعةِ ؛ إذ هي فروعُهَا ، وعليها يدورُ مفرَّقُهَا ومجمُوعُهَا .

ووجهُ اندماجِهَا مِن تحتِها واندِرَاجِهَا في تختِهَا : أنَّ الأركانَ أربعةٌ ، رُكنانِ يتعلَّقَانِ بالظَّاهِرِ ، وآخَرانِ يتعلَّقَانِ بالباطِنِ .

فأمَّا رُكنا الظَّاهرِ :

فأحدها : امتثالُ أمرِ الله تعالىٰ ، وقد سمَّىٰ حُجَّةُ الإسلامِ ذلكَ بـ(العباداتِ) ، وتحتَ هـٰذا اللفظِ يندرجُ الوظائفُ الشَّرعيَّةُ ، فرضُهَا ونفلُهَا حَسَبَ المشروحِ في كُتُبِ المذهَبِ .

والثاني : حفظُ الأدبِ في الحركاتِ والسَّكَنَاتِ ، وتحتَ هـٰذا يندمِجُ الجِناياتُ والحدودُ والمعاملاتُ على الوجهِ المذكورِ في كُتُبِ الفقهِ ، وقد سمَّىٰ هـٰذا الفنَّ بـ(المعاملاتِ) .

وأمَّا الرُكنانِ المتعلِّقانِ بالباطِنِ :

فأحدهما : تطهيرُ القلبِ منَ الأخلاقِ الذَّميمةِ ؛ كالحقدِ والغضبِ والبُخلِ والحسدِ والحِرصِ والكِبْرِ والعُجْبِ ، وسمَّاها في كُتُبِهِ بـ(المُهلِكاتِ) .

والثاني : تحليَةُ القلبِ بالأخلاقِ المحمودةِ ؛ كالصَّبْرِ والشُّكرِ

والخوفِ والرَّجاءِ والقناعَةِ والورَعِ والتَّوكُّلِ والمحبَّةِ ، وما يجري مَجراها ، وقد سمَّاها بـ(المُنجياتِ) .

وجميعُ علومِهِ لا تخرُجُ عن هـٰذه الأركانِ الأربعةِ ؛ بل علومُ الخَلقِ كافَّةً لا يكادُ يشُذُّ منها شيءٌ عن هـٰذه الأصولِ الأربعةِ)[١] .

هـٰذا كلامه رضي اللهُ عنه ، وأنت ترىٰ أنَّ هـٰذا الجمع من كتب حُجَّة الإسلام . . لا يستطيعه إلا الفحول من الأئمَّة الأعلام !

وتقسيمه الكتاب علىٰ هـٰذه الأبواب الأربعة . . أصله عند حُجَّة الإسلام رضي اللهُ عنه في كتابه « إحياء علوم الدين » ، كتاب ذمِّ الغُرور ، وهو الكتاب العاشر من الربع الثالث (ربع المهلكات)[٢] .

وقد سار الإمام العراقي علىٰ سَنَنِ شيخه حُجَّة الإسلام بالإكثار من ضرب الأمثلة علىٰ مايقرِّره من العلوم والحقائق ؛ (إذ أحسنُ علاجٍ للأفهامِ الضعيفة . . الاستدراجُ والاستجرارُ إلى الحقِّ بعُكَّازةِ الأمثلةِ)[٣] .

وحاله كحال شيخه القائل في وصف كتابه « الإحياء » : (ومقصودُ مثلِ هـٰذا الكتابِ . . أن ينتفعَ به الأقوياءُ والفحولُ مِنَ العلماءِ ، ولـٰكنَّا نجتهدُ في تفهيمِ الضعفاءِ بضربِ الأمثلةِ ؛ ليقربَ ذلك من أفهامِهِم)[٤] .

هـٰذا ما ستراه في كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » .

❊ ❊ ❊

---

(١) (ص ١٢٥ إلى ١٢٨) .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٦/ ٧٠٧ إلىٰ ص ٧١٤) .

(٣) « حقيقة القولين » (ص ٢٩٨) لحُجَّة الإسلام .

(٤) « إحياء علوم الدين » (٥/ ٢٥) .

وصف النُّسخ الخطِّيَّة

بالرجوع إلىٰ فهارس المخطوطات ، وبعد الاستقراء شبه التام . . وقفتُ علىٰ تسع نسخٍ خطِّيَّة لكتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وقد تمَّ بفضل الله تعالى الحصول علىٰ ثمان منها ، واعتمدت عليها كلها في التحقيق ، أمَّا النسخة التاسعة . . فقد بذلتُ الوسع ، واستنفذتُ الجُهد للحصول عليها ؛ فلم أستطع إلىٰ ذلك سبيلا ، وإليك وصف هـٰذه النُّسخ :

النسخة الأولى

نسخة مكتبة جامعة الملك سعود بالمملكة السعوديَّة ، ذات الرقم (٥٠٢٩) ، وهي نسخةٌ نفيسة ؛ لكونها نُسخت من نسخةٍ كُتبت مِنَ الأصل الذي كتبه المُصنِّف ، تمَّ الفراغُ من نسخها سنة اثنين وثلاثين وثمان مئة (٨٣٢هـ) من الهجرة المصطفويَّة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحيَّة .

لم يكتُبِ النَّاسخ اسمه عليها ، ولـٰكن جاء في هامش الورقة (٧/ أ) بنفس الخطِّ الذي كُتبت به النُّسخة : (مطلبٌ فافهم ، كتبه علي بن قاسم) ، ولم أقف علىٰ ترجمة هـٰذا الرجل ، ولـٰكنَّ علمه وذوقه ظهر في ثنايا قلمه ، فقد كتب النُّسخة بخطٍّ جيد مقروءٍ ، وميَّز الأبواب

والفصول بالحمرة ، وشَكَلَ الكلمات المُشكِلة ، ويبدو أنَّه قد قابل نسخته علىٰ نسخة أخرىٰ أو أكثر ، فأثبت فروق النُّسخ الأخرىٰ في الهامش .

وكذلك يظهر مِنَ النُّسخة إلمامه ـ إن لم يكن إتقانه ـ للسان الفارسي ؛ فقد قام بشرح بعض كلمات الكتاب باللسان الفارسي ، وكان يثبت هـٰذه الحواشي مابين سطور الكتاب أحياناً ، وأخرىٰ في هامش الورقة من الجهة اليمنىٰ أو اليسرىٰ .

وممَّا يؤسَفُ له أنَّ هـٰذه النُّسخة **مبتورة غير تامَّة**[1] ، فقد وقع فيها بتران ، ونبَّهتُ إلىٰ هـٰذين البترين في محلِّهما ، وكذلك قد تفرَّدت بمغايرات في الكلمات عن بقيَّة النُّسخ المعتمدة ، ونبَّهتُ علىٰ كلِّ ذلك في محلِّه ، وقعت هـٰذه النسخة في (٥٥) ورقة ، وعُنونت بـ« الذخيرة لأهل البصيرة » .

كُتِبَ علىٰ ورقة العنوان منها : (هـٰذا كتاب الذخيرة لأهل البصيرة ، للعارف بالله والدَّال عليه محمد بن علي العراقي رحم اللهُ روحه ونوَّر ضريحه)[2] .

ورمز لها بـ(أ) .

---

(١) البتر في الاصطلاح : ضياع أوراقٍ مِنَ المخطوط لسببٍ ما ، وعليه فلا يكون البتر إلا في نهاية ورقة وبداية أخرىٰ ، وهـٰذا البتر لا يقلِّلُ من قيمة المخطوط البتة إن كان ذا قيمة أصيلة كما هو معلوم .

(٢) وكتبَ على الطرَّة بخطٍّ حديث : (الذخيرة لأهل البصيرة لمحمد بن علي العراقي ، توفي سنة ٥١٦ ، كذا في كشف الظنون) !

النسخة الثانية

نسخة مكتبة **جار الله أفندي** بإصطنبول ، ذات الرقم (١٠٠٤) ، وهي **نسخة تامَّة** ، تُعدُّ من بين قريناتها المعتمدة في التحقيق . . **أقرب نسخةٍ مِنَ المؤلِّف** ؛ **إذ كُتبت سنة اثنين وأربعين وست مئة (٦٤٢هـ)** ، وناسخها صرَّح أنَّه **نقلها عن نسخة كُتبت سنة تسع وتسعين وخمس مئة** هجريَّة (**٥٩٩هـ**) .

أُرِّخت كتابتُها دون ذكرٍ لناسخها ، ومع كونها تامَّة بخلاف الأولى التي وقع فيها بتر ، وتاريخ نسخها أقدم مِنَ الأولىٰ ـ بل جاء التصريحُ أنَّها نُقلت عن نسخةٍ كتبت سنة (٥٩٩هـ) فيكون بين النسخة المنقول عنها وبين وفاة المؤلِّف ثمانية وثلاثين سنة ـ أخَّرتُها عنِ الأولىٰ لثلاثة أسباب :

الأوَّل : أنَّ **النسخة الأولىٰ** التي اتخذتها أصلاً في التحقيق . . **صرَّحت أنَّها منقولة عن نسخة منقولة عن نسخة المُصنِّف** ، وهـٰذا له اعتبارٌ كبيرٌ عند أهل الصَّنعة التحقيقيَّة .

الثاني : أنَّ النسخة الثانية أغلب كلماتها كتبت مهملة الحروف دون إعجام ، بخلافِ الأولىٰ ، ولا يخفىٰ علىٰ مَنْ مارس التحقيق . . صعوبة التعامل مع هـٰكذا نسخة ، ولـٰكن بفضل الله تعالىٰ وتوفيقه ، سهُل الحَزنُ ، وحُلَّتِ الصعاب ، وذُلِّلتِ الطُّرقُ في التعامُلِ مع هـٰذه النُّسخة .

الثالث : تميُّز ناسخ النسخة الأولىٰ بالإتقان والفهم والدِّقة كما ظهر في ثنايا الكتاب .

وهنا أقول : إنَّ المحقِّق للكتاب شأنه شأنُ المُحدِّث في التعامل مع النَّصِّ النَّبوي الشريف ، فالمُحدِّث قد يقدحُ في الإسنادِ أو المتن لعلَّةٍ خفيَّةٍ يجدُها في نفسه لا تُسعفه الحروفُ بالتعبير عنها ، وكذلك المُحقِّقُ قد يرىٰ في المخطوط أشياء تجعله يقدِّم نسخة علىٰ أخرىٰ ، وهـٰذه الأشياء نتيجة تعايشٍ مع المخطوط ، وإحساسٍ به ، فلا يمكنهُ التعبيرُ عن كلِّ الدوافع والأسباب التي جعلته يقدِّمُ مخطوطاً علىٰ آخر !

وعلىٰ كُلِّ حالٍ ؛ فقد قمتُ بإثبات الفوارق بين النُّسختين كما سيأتي الحديث عنه في منهج العمل في الكتاب .

وقعت هـٰذه النُّسخة في (٦٩) ورقة ، وعنونت بـ « الذخيرة لأهل البصيرة » ، ولم يُذكَرِ اسم المؤلِّف فيها البتة ، لا علىٰ ورقة العنوان ، ولا في بدايتها ، ولا خاتمتها .

ورمز لها بـ (ب) .

النسخة الثالثة

نسخة مكتبة آيا صوفيا بإصطنبول ، ذات الرقم (٤١٣٦) ، وهي نسخة مبتورة من أوَّلها ، وقعت ضمن مجموعٍ حاوٍ لكتابين :

الأول : كتاب : « الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النعيم » من الورقة (١) إلى الورقة (٨٩) .

الثاني : كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » ، من الورقة (٩٢) إلىٰ الورقة (١٦٧) ، وعدد أوراق المجموع بتمامه (١٧٠) ورقة ، والمجموع كله بخطٍّ ناسخٍ واحدٍ ، إلا ما كُتب علىٰ هامش الورقات الأخيرة ؛ فقد كُتب بخطٍّ مختلفٍ عن خطِّ الأصل ، وهـٰذه الهوامش عبارة عن بعض الأحاديث النَّبويَّة الشريفة ، وفي آخر المخطوط ورقة بخطٍّ مختلفٍ يبدو أنَّها تعودُ لكتاب في تفسير القرآن الكريم ، وآخر المجموع قصاصاتٌ ورقيَّةٌ باللسان الفارسي ، فيها فوائد نثريَّة وشعريَّة ، ألصقت علىٰ جلدة المجموع .

هـٰذا ولم يقع التصريح باسم ناسخ المجموع ، وقد كتب المجموع كله بخطٍّ نسخي معتاد ، ولم يُذكر اسم المؤلِّف فيها البتة ، لا علىٰ ورقة العنوان ، ولا في بداية المخطوط ، ولا في خاتمته ، وكان الفراغُ من نسخ كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » سنة أحد وعشرين وسبع مئة (٧٢١هـ) .

وقد أشرتُ سابقاً لهـٰذه النُّسخة عند الكلام عنِ الخلط الذي وقع بين كتابِ « الذخيرة لأهل البصيرة » للإمام ابن حمدان العراقي ، وكتابِ « الذخيرة في علم البصيرة » لحُجَّة الإسلام أبي الفتوح أحمد الغزالي ، وهـٰذه النسخة ـ أعني : نسخة آيا صوفيا ـ صرَّح ناسخ المجموع باسم كتابنا هـٰذا علىٰ طرَّة المجموع في الورقة (١/أ) بقوله : (هـٰذا المجموع يشتمل علىٰ كتاب ريحان . . . ، والطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النعيم[1] ، وكتاب

---

(١) كتبَ الناسخ علىٰ طُرَّة المجموع اسم الكتاب الأوَّل هـٰكذا : (ريحان [ثم في السطر الذي يليه] والطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النعيم) ، وفي الورقة الثانية =

= كتب : (كتاب ريحان القلوب ولقاء المحبوب) فقط ، وقد يُخيَّلُ لقارئ طُرَّة المجموع أنَّه يحتوي على ثلاثة كتب ، وليس كذلك ؛ لأنَّ العنوان الصحيح للكتاب الأوَّل هو : (الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النعيم) كما صرَّح مؤلِّفه بعد خطبة الكتاب في الورقة (٣/أ) من المجموع ، فقال : (وسمَّيته الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النَّعيم) ، ولم يكتُب النَّاسخ كذلك اسم المؤلِّف ، ولـٰكنَّ مؤلِّفه أشار إلىٰ أنَّه في كتابه هـٰذا . . اختصر كتاب « منهاج العابدين » للإمام الغزالي ، وقد بحثتُ كثيراً عن هـٰذا الكتاب ؛ أعني : « الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النَّعيم » فلم أجد له ذكراً إلا عند إسماعيل باشا البغدادي في كتابه « إيضاح المكنون في الذيل علىٰ كشف الظنون » (٤/ ٨٥) ، وقد نسبه إلى الإمام محمد بن علي بن حمدان العراقي صاحب كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ! وقد استغربتُ بادئ ذي بدءٍ مما ذكره إسماعيل باشا البغدادي ؛ فإنَّه لم يُدلِّل علىٰ هـٰذه النِّسبة بأدنىٰ دليل ، وقد تفرَّد بذكر ذلك من بين سائر مَنْ صنَّف في الأعلام وكُتُبهم !

فلمَّا وقفتُ علىٰ مجموع آيا صوفيا هـٰذا . . علمتُ من أين أتىٰ إسماعيل باشا البغدادي بهـٰذا الكتاب ، ومع أنَّ مجموع آيا صوفيا لم يُشر إلىٰ صاحب الكتابين « الطريق المستقيم » و« الذخيرة » . . إلا أنَّ الأستاذ إسماعيل باشا اجتهد ؛ فربط بين كتابٍ ثابت النسبة لصاحبه وهو كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وكتاب مجهول المؤلِّف وهو كتاب « الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النعيم » ، فنسب الكتاب الأوَّل لمؤلِّف الكتاب الثاني ، واجتهاده هـٰذا مبنيٌّ على التَّشابه بين مادَّتي الكتابين .

وقد قرأتُ مخطوط « الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النَّعيم » كاملاً . . فلم أجد فيه إشارةً لإمامنا ابن حمدان العراقي ، سوىٰ أنَّ مؤلِّفه من تلاميذ حُجَّة الإسلام ، وليس بين يدينا ما يؤيِّدُ اجتهاد الأستاذ إسماعيل باشا البغدادي في نسبته هـٰذا الكتاب للإمام ابن حمدان العراقي ، فيظل مؤلِّف الكتاب مجهولاً ، ولعلَّ قادم الأيام يكشفُ لنا عن صاحب هـٰذا الكتاب ، هـٰذا ما أرجِّحُه والله أعلم . =

الذخيرة لأهل البصيرة) ، وقال بعد نهاية الكتاب الأوَّل كما في الورقة (٨٩/ب) : (ويتلوه كتاب الذخيرة لأهل البصيرة ، فيه نقصٌ في أوَّله) .

وكأنَّ هـٰذه الكلمة (فيه نقصٌ في أوَّله) أثارت غيرةَ بعض النُّساخ أو متملِّكي المخطوط . . فاجتهد علىٰ إكماله ، وليته لم يفعل !

فكتب : (بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، أمَّا بعد حمد الله تعالىٰ علىٰ نعمه ظاها أنوار الكواكب إشراقها ، وإدرار السحائب اتساعها واتساقها ، والصلاة علىٰ نبيِّه محمد المبعوث بأفضل المسلك لأفضل الأمم ، المبعوث بطلاقة الوجه وطهارة الشِّيم ، والمشرَّف جبينه في الظُّلم ، والمعرَّف يمينه فحاشا لله أن تباريه الدمم .

أمَّا بعد :

قال الشيخ الإمام الأجل أبي حامد الغزالي رحمة الله تعالىٰ عليه : إنِّي صنَّفتُ كتاب الذخيرة لأهل البصيرة ، وجعلتهُ نوراً للأبصار ؛

= أمَّا تسميةُ النَّاسخ كتاب « الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النعيم » علىٰ طُرَّة المخطوط بـ« ريحان القلوب ولقاء المحبوب » . . فلم أجد له وجهاً !

ولعلَّ قائلاً يقول : لعلَّه كتاب « ريحان القلوب في التوصيل إلى المحبوب » للشيخ العارف بالله يوسف العجمي الكوراني ؟

أقول : يستحيلُ ذلك ؛ لأنَّني رجعتُ إلىٰ أكثر من مخطوط لكتاب « ريحان القلوب في التوصيل إلى المحبوب » لصاحبه يوسف بن عبد الله العجمي الكوراني (ت: ٧٦٨هـ) ، وقارنتُ بين نصِّه ونصِّ كتاب « الطريق المستقيم إلىٰ جنَّات النعيم » . . فوجدتهما كتابين مختلفين ، وهـٰذا دليلٌ قاطع في نفي هـٰذا الأمر .

ليُجتلىٰ به ثمر الجَنان ، ويُكتشفَ به علم البيان ، ويُنالَ به الفوز والغفران ، والرَّحمة والرِّضوان ، والتجنُّب من سخط الرحمـٰن ، ورحِمَ مَنْ تبصَّرَ ما فيه مِنَ الأمور المهمَّات . قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى : القول في جملة التحصيل) .

هنا ينتهي الكلام الذي أضافه هـٰذا النَّاسخ ، وقد نقلته كما هو بلحنه وعُجمته ، وبكلامه انتهت الصفحة الأولىٰ مِنَ الورقة (٩١/ب) ويعقبها في الصفحة الأخرى المقابلة لها كلامٌ من أصل كتاب « الذخيرة لأهـل البصيـرة » بـدايتـه : (لتحصيـل معـرفـة عجـائـب صنـع الله فيها . . .)[١] ، ولكي يتستَّر هـٰذا الفاعل علىٰ فعلته هـٰذه . . قام بكتابة ما يسمَّىٰ بالاصطلاح « التعقيبة » ، فكتب كلمة (لتحصيل) في أسفل الورقة اليمنىٰ مِنَ الزاوية اليسرىٰ ؛ موهماً القارئ أنَّ الكلام متتابعٌ ولا نقص في أصل المخطوط !!

ورحم الله تعالى القائل :

فكمْ أفسدَ الرَّاوي كلاماً بعقلِهِ وكمْ حرَّفَ الأقوالَ قومٌ وصَحَّفُوا
وكمْ ناسخٍ أضحىٰ لمَعنىً مُغيِّراً وجاءَ بشيْءٍ لم يُرِدْهُ المُصنِّفُ

ولا يخفىٰ علىٰ ذي ذائقة . . ركاكة الألفاظ ، ونزول المعاني التي أدخلها هـٰذا النَّاسخ في هـٰذه الأسطر القليلة ، وحاشا يراع حُجَّة الإسلام من هـٰذا الكلام .

وبسبب ما دلَّس به كاتب الورقة الأولىٰ من مخطوط « الذخيرة لأهل

---

(١) انظر (ص ١٥٨) من كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ، فعند كلمة (لتحصيل) بدأ مخطوط آيا صوفيا .

البصيرة » في نسخة آيا صوفيا هٰذه .. وقع الخطأ للأستاذين علي الرضا قره بلوط ، وأحمد طوران قره بلوط ؛ فنسبا كتابنا هٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » لحُجَّة الإسلام الغزالي !

فقد جاء في كتابهما « معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم » (٣١٩٠/٥) عند ذكرهما لمؤلَّفات حُجَّة الإسلام أبي حامدٍ الغزالي : أنَّ « كتاب الذخيرة لأهل البصيرة » نسخة آيا صوفيا رقم : ٤١٣٦ ، تاريخ نسخها سنة ٧٢١ هـ ، من تأليف الإمام حجَّة الإسلام الغزالي !

وبهٰذا عرفتَ أنَّ الذي أوقعهما في هٰذا الوهم .. ما جاء في الورقة الأولىٰ من المخطوط ـ والتي كتبت بخط مختلف كما ذكرناه سابقاً ـ : (قال الشيخ الإمام الأجل أبو حامد الغزالي رحمة الله تعالىٰ عليه : إني صنفت كتاب الذخيرة لأهل البصيرة ...)[1] الخ .

ورمز لها بـ (ج) .

---

(١) ووهما أيضاً في كلامهما عن مؤلَّفات الإمام ابن حمدان العراقي صاحب كتابنا هٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ، فقالا في كتابهما « معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم » (٢٩٣٧/٤) : (له كتاب الذخيرة وكشف التوقع لأهل البصيرة) ، والصواب أنَّ هٰذا الكتاب من تأليف محيي الدين محمد بن علي بن أحمد السُّودي (توفي قبل سنة ٩٣٢هـ) ، وليس كما وهما أيضاً فذكرا في نفس الكتاب (١٨٦٨/٣) أنَّه من تأليف : عبد اللطيف بن محمد أسعد الرومي البروسوي العثماني الفقيه الحنفي ، المتأدب ، الصوفي الخلوتّي المعروف بغزِّي زاده (المتوفىٰ ببروسة سنة ١٢٤٧هـ) !
هٰذا وكتاب « الذخيرة وكشف التوقع لأهل البصيرة » موضوعه تعبير الرؤىٰ ، بخلاف كتابنا هٰذا .

النسخة الرابعة

نسخة المكتبة الظاهريَّة بدمشق ، ذات الرقم (٧٦٠٨) ، وهي نسخة تامَّة في الظاهر ، وحقيقة الأمر أنَّه قد سقط منها قسم كبير من خطبة الكتاب ، كُتبت في سنة (٩٧٥هـ) .

ناسخها : محمد بن عبد الله ، المدرِّس بأشرفيَّة الصحراء .

وهي نسخة كثيرة الأخطاء والتصحيف ، كُتبت بخطٍّ نسخي معتاد ، وأثبت عنوان الكتاب واسم المؤلِّف علىٰ ورقة العنوان منها ، فجاء فيها : (كتاب الذخيرة لأهل البصيرة تأليف الشيخ العالم العلامة أبو عبد الله محمد بن علي العراقي عفا الله عنه ، آمين . فهرست الكتاب : الباب الأول : في معرفة النفس . الباب الثاني : في معرفة الله . الباب الثالث : في معرفة الدُّنيا . الباب الرابع : في معرفة الآخرة .) .

والغريب في هـٰذه النسخة أنَّها مع سقوط قسم كبير من خطبة الكتاب فيها ؛ إلا أنَّها وافقت نسخة (ليدن) في كثير من المواضع التي تفرَّدت بها نسخة (ليدن)[١] ، وهـٰذا أمرٌ أوقعني في ارتباكٍ ! فالموافقة لنسخة (ليدن) . . جعلني أشكُّ أنَّها منقولة عنها ، والمخالفة لها بسقوط قسم كبير من خطبة الكتاب . . جعلني أنفي ذلك ! والله أعلم بحقيقة الحال .

وقد وقعت هـٰذه النسخة في (٧٥) ورقة .

ورمز لها بـ(د) .

---

(١) وهـٰذا سيظهر للقارئ الكريم فيما أثبتُّه من فوارق النسخ في ثنايا الكتاب .

النسخة الخامسة

نسخة مكتبة الدولة ببرلين ، ذات الرقم (١٧٢٦)[١] ، وهي نسخةٌ تامَّة في الظاهر ، وحقيقة الأمر أنَّه قد سقط منها بعض الأبواب من خطبة الكتاب ، كتبت سنة سبع وتسعين وتسع مئة (٩٩٧هـ) ، وخلَت هـٰذه النسخة من اسم الناسخ ، ومكان النسخ ، وهي مشابهة بوجه كبير للنسخة (ب) كما سيظهر للقارئ الكريم عند النظر في فوارق النسخ في ثنايا الكتاب ، ويبدو أنَّ ناسخها قابلها علىٰ نسخة أخرىٰ غير التي استنسخ منها .

وجاء في ورقة العنوان منها : (كتاب الذَّخيرة لأهل البصيرة ، للإمام الفاضل ، والحبر الكامل ، المحقِّق المدقِّق ، أحمد الغزَّالي تغمَّده الله برحمته ، وأسكنه فردوس جنَّته ، مع الذين أَنعَم عليهم منَ النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين ، وحَسُنَ أولـٰئك رفيقاً ، وصلَّى الله علىٰ معدَنِ ينابيع الحِكمَةِ ، والمُنوِّرِ بنوره الظُّلمة ، محمَّد عليه مِنْ ربِّه أفضلُ الصَّلوات وأكمل التَّحيَّات ، والحمدُ لله ربِّ العالمين) !

وقد تكلَّمت سابقاً عن الأسباب التي أوقعت النساخ في هـٰذا الخطأ

---

(١) تكرَّم عليَّ بصورة هـٰذه النسخة سيدي الشيخ الكريم المعوان الصادق ؛ أبو أحمد الأنصاري المدني حفظه الله تعالىٰ ، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء .

من نسبة الكتاب للإمام أحمد الغزالي رضي الله عنه ؛ فانظره في (ص ٥٨).

وقعت هـٰذه النسخة في (٩٧) ورقة .

ورمز لها بـ (هـ) .

النسخة السادسة

نسخة مكتبة مراد بخاري بإصطنبول ، ذات الرقم (٢١٠) ، وهي نسخةٌ تامَّة في الظاهر ، وحقيقة الأمر أنَّه قد سقط منها بعض الأبواب من خطبة الكتاب ، ويبدو أنَّها تقع ضمن مجموعٍ لعدَّة كتب كما هو ظاهر من ترقيم المخطوط ، ولـٰكن لم أستطع الحصول على المجموع كاملاً ؛ فوصلتني صورة النسخة دون ورقة العنوان[1] ، وقد خلَت هـٰذه النسخة من تاريخ النسخ .

ناسخها : عبد الله بن محمَّد البرعمي .

ووقعت هـٰذه النسخة في (٦٧) ورقة .

ومِنَ الملاحظات المهمَّة في هـٰذه النسخة : أنَّها مشابهة بشكل كبير للنسخة (أ) كما سيظهر للقارئ الكريم عند النظر في فوارق النسخ

---

(١) تكرَّم عليَّ بصورة هـٰذه النسخة ؛ فضيلة الأستاذ المحقِّق عبد العاطي محيي الشرقاوي حفظه الله تعالىٰ ، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء ، صاحب مؤسسة علم لإحياء التراث والخدمات الرقميَّة ، أسأل الله تعالىٰ له مزيد التوفيق والفتوح ، وأن يبلِّغه مأموله في إتمام مشروعه الكبير الذي بدأه في خدمة المكتبة العربية والإسلاميَّة .

داخل الكتاب ، ومع ذلك قد وقع فيها من السقط ما لم يقع في النسخة (أ) !

ورمز لها بـ (و) .

النسخة السابعة

نسخة مكتبة مانيسا بتركيا ، ذات الرقم (٢٩٩١) ، وهي نسخةٌ تامَّة في الظاهر ، وحقيقة الأمر أنَّه قد سقط منها بعض الأبواب من خطبة الكتاب ، ويبدو أنَّها تقع ضمن مجموعٍ لعدَّة كتب كما هو ظاهرٌ من ترقيم المخطوط ، ولـٰكن لم أستطع الحصول على المجموع كاملاً ، وقد خلَت من اسم الناسخ وتاريخ النسخ .

جاء في ورقة العنوان منها : (كتاب الذخيرة لأهل البصيرة ، تأليف الشيخ أبي الفتوح مجد الدين أحمد بن محمد بن محمد الغزالي رضي الله تعالىٰ عنه ونفع به ، بمحمَّدٍ [صلى الله عليه وسلم] وآله ، آمين) .

وقد تكلَّمت سابقاً عن الأسباب التي أوقعت النساخ في هـٰذا الخطأ من نسبة الكتاب للإمام أحمد الغزالي رضي الله عنه ؛ فانظره في (ص ٥٨) .

وقعت هـٰذه النسخة في (٥٤) ورقة .

ورمز لها بـ (ز) .

النسخة الثامنة

نسخة مكتبة ليدن بهولندا ، ذات الرقم (١٠٧٨)[١] ، **وهي نسخةٌ نفيسة ؛ لكون النسخة التي نسخت عنها قُوبلت علىٰ نسخةٍ بخطِّ المؤلِّف ، وتمَّ الفراغُ من نسخها سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة (٧٣٨هـ)** مِنَ الهجرة المصطفويَّة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحيَّة ، وذلك بالمدرسة العماديَّة ظاهر سنجار .

ناسخها : عليُّ بن عبد الخالق بن مكيِّ السنجاريُّ ، كتَبَها بخطٍّ حَسَنٍ ، لٰكنَّها كثيرة التصحيف والتحريف والأخطاء النحوية !

وهي نسخة تامة ، خلا فصل واحد سقط من مقدِّمتها كما سقط من جميع النسخ ولم يثبت إلا في النسخة (أ) والنسخة (ب) ، وهي ضمن مجموعٍ حاوٍ لمؤلَّفين لإمامنا العراقي ، الأوَّل : « ذكر النفوس ورياضتها » ، والثاني : كتابنا هٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وعدد أوراق المجموع بتمامه (١٤٢) ورقة ، جاء كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » في القسم الثاني من المجموع ، من الورقة (٦٦) إلى الورقة (١٤٢) .

كتب علىٰ ورقة العنوان منها : (كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » ، من تصانيف العبد المذنب الفقير إلىٰ رحمة الله الكريم محمد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أبي الهيجاء بن حمدان ، غفر الله ذنوبه

---

(١) حصلتُ علىٰ صورة هٰذه النسخة من جامعة ليدن بمساعي الأخ الصديق الفاضل الدكتور المحقِّق ناصر محمد يحيىٰ ضميريَّة حفظه الله تعالىٰ ، وجزاه عن العلم وأهله خير الجزاء .

برحمته . في سنة إحدىٰ وعشرين وخمس مئة) .

وهـٰذه النسخة لم يتيسر لي الحصول عليها إلا بعد انتهائي من تحقيق الكتاب بشكل كامل ، وقد سبَّب ذلك لي حرجاً كبيراً في إعادة هيكلة صياغة رموز المخطوطات ، فتركت رموز المخطوطات علىٰ ما هي عليه (أبجد هوز) ، ورمزتُ **لهـٰذه النسخة باسمها (ليدن)** ، وقمتُ بمقابلة الكتاب كاملاً عليها مع إثبات الفروق المهمَّة ، وتوصيفِ المخطوط ببيان ما فيه من زيادة أو نقصٍ علىٰ بقيَّة المخطوطات .

النسخة التاسعة

وهي النسخة المحفوظة في دار الكتب المصرية ، الخزانة التيموريَّة برقم (١/٢٥٢) ، كُتبت في سنة (١٢٥٧هـ) ، وعنونت بـ« **الذخيرة في علم البصيرة** » ، ونُسبت **للإمام أبي الفتوح حُجَّة الإسلام أحمد الغزالي رضي الله عنه**[1] .

ولم أقف علىٰ هـٰذه النسخة ، وإنَّما ذكرتُها بين نسخ « الذخيرة لأهل البصيرة » للإمام العراقي . . لغلبة ظنِّي أنَّ مضمون هـٰذه النسخة هو نفسه مضمون كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وإن سُمِّيت بـ« الذخيرة في علم البصيرة » ونسبت للإمام أبي الفتوح الغزالي ، **وغلبة الظنِّ هـٰذه مبنيَّةٌ علىٰ سببين وجيهين** :

---

(١) هـٰذه المعلومات بحسب ما ذكره المحقِّقان علي الرضا قره بلوط ، وأحمد طوران قره بلوط في كتابهما « معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم » (١/ ٤٨٣) .

السبب الأول : ما سبق عن النسخة الخامسة (نسخة مكتبة برلين) ، والنسخة السابعة (نسخة مكتبة مانيسا) ؛ من نسبة كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » للإمام أبي الفتوح حُجَّة الإسلام أحمد الغزالي ، وقد ذكرتُ سابقاً أسباب هـٰذا الخلط[1] .

السبب الثاني : ما ذكره حاجي خليفة في كتابه « كشف الظنون » (١/ ٨٢٥) في حرف (الذال) ، فقال : (الذخيرة في علم البصيرة ، للشيخ : أحمد بن محمد الغزالي ، المتوفىٰ : سنة ٥٢٠ ، عشرين وخمس مئة ، وهو أخو الإمام أبي حامد الغزالي .

أوله : الحمد لله المتوحد بالعظمة والكبرياء . . . الخ .

ذكر فيه أنَّه : جمع فيه ما فرَّقه أبو حامدٍ في تصانيفه الكثيرة مِنَ العلوم ، وحصرها في أربعة أصول . في معرفة النفس ، في معرفة الرب ، في معرفة الدنيا ، في معرفة الآخرة) .

وما ذكره العلامة حاجي خليفة من وصفٍ للمخطوط . . ينطبقُ تماماً علىٰ كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » لصاحبه الإمام ابن حمدان العراقي !

فلعلَّ الله تعالىٰ أن ييسر لنا الحصول علىٰ هـٰذه النسخة لتبيُّن حقيقة أمرها ، والله وليُّ الأمر والتدبير .

* * *

---

(١) انظر (ص ٥٨) .

منهج العمل في الكتاب

كون كتاب « الذخيرة لأهل البصيرة » يعتبر أول كتاب يطبع للإمام العراقي ، بل لم يصلنا من كتبه بحسب البحث والتفتيش إلا كتابه هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » وكتاب « ذكر النفوس ورياضتها ». . أوجبَ ذلك عليَّ أن أُولي جميع النسخ درجةً واحدةً مِنَ الاهتمام ، فعاملتها كاملةً علىٰ أنَّها نسخ أصول لا استئناس ، وعدم وجود نسخة للكتاب بين يدينا بخطِّ المصنِّف صعَّب من درجة العمل ، وكذلك لم أقف علىٰ كتاب من كتب العلماء استشهد بشيءٍ من كلام الإمام العراقي ، وهـٰذا عاملٌ ثانٍ في زيادة وعورة مسلك التحقيق ، ولـٰكن الله سبحانه هيَّأ الأسباب ، ووفَّق لخدمة الكتاب علىٰ أقرب ما يكون إلى الصواب إن شاء الله تعالىٰ .

هـٰذا وإنَّ عملي في الكتاب. . يسوقني إلى الإشارة إلىٰ أنَّ أهل الصَّنعة التحقيقيَّة علىٰ طريقتين في إثبات فوارق النسخِ ، والتعاملِ مع نصِّ الكتاب المثبتِ في الصُّلب :

الأولى : اعتمادُ نسخة واحدة للكتاب ، وإثبات فوارق النسخ الأخرىٰ في الهامش ؛ حتىٰ وإن كان ما في النسخة المعتمدة خطأ واضحاً ، والصوابُ في النسخ الأخرىٰ ، فيقوم المحقِّق بإثبات الخطأ في صلب الكتاب ، ويضع الصواب في الهامش ! متعلِّلاً بأنَّ المحقِّق

يجب أن ينقل النسخة الخطيّة كما هي !

وهٰذا فيه من عُجمة الفهم والذوق ما فيه ! فإثباتي لخطأ المخطوط الأصل الذي اعتمدتُه في الهامش دون صلب الكتاب.. لن يقلِّل من الأمانة في نقلي لكامل المخطوط ؛ إذ إنَّ الأصل في الصَّنعة التحقيقيَّة أن يقوم المحقِّقُ بخدمة النَّصِّ بكل ما أوتي من قوَّةٍ وفهمٍ وتدقيقٍ حتىٰ يصل إلىٰ نسخةٍ قريبةٍ من النسخة التي كتبها مؤلِّف الكتاب ، ويقدِّمه للقارئ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، لا أن يجعله في دوَّامةٍ كبيرة من فوارق النسخ ؛ حتىٰ يجلب له الصداع من تنقل العين ما بين صلب الكتاب وهوامشه ومحاولة الربط بين المعاني ليصلَ إلىٰ عبارة سليمة مستقيمة ! فهٰذا تمزيق للكتاب وليس بتحقيق .

الطريقة الثانية : أن يسلك طريق التلفيق بين النسخ مع إثبات الفوارق في الهامش[1] ؛ ليصلَ إلىٰ نسخةٍ مرضيَّةٍ قريبة للصياغة التي صاغها المؤلِّفُ في كتابه .

وفي كتابنا هٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » قمتُ بالجمع بين الطريقتين ، فأثبتُّ النسخة (أ) كاملة في صلب الكتاب ، وما خالفها في بقيَّة النُّسخ أثبتُّه في الهامش ، إلا في مواضع يسيرة قمتُ فيها بترجيح بقيَّة النسخ عليها ، مع إثبات ما في (أ) في الهامش .

هٰذا ولا بُدَّ مِنَ التنبيه علىٰ أنَّ طريقة بعض المحقِّقين ومِنْ خلفهِم

---

(١) وذلك عند عدم وجود نسخة بخطِّ المؤلِّف ، أو منقولة عن نسخة بخطِّه كما لا يخفىٰ .

بعض دور النشر ؛ في عدم إثبات شيءٍ من فوارق النسخ في الهامش ، وعدمِ تبيين النسخ الخطيَّة وتوصيفها بإثبات مواضع البتر والسقط فيها ، وهم في ذلك علىٰ طريقة (ما أُريكُم إلا ما أرىٰ) . . طريقةٌ غير مرضيَّة ؛ فمهما بلغ الإنسان في العلم ، وعلا كعبه في التحقيق ؛ فإنَّه لا يخرج عن وصف الإنسانيَّة من كونه خطَّاءً ، والفهمُ عندهُ عرَضٌ يطرأُ ويزول .

فالذي تفرضهُ الأمانة على المحقِّق أن يثبت فوارق النسخ في الهامش ، ويدعَ للقارئ الحريَّة في قراءة ما يريدُ قراءته من فروق النسخ .

وأنا هنا لا أُشكِّكُ في صدق وإخلاص هٰؤلاء البعض من المحقِّقين ؛ فقد تقدَّم القولُ بأنَّ المحقِّق لا يخرجُ عن وصف إنسانيَّته من كونه خطَّاءً ، والفهمُ عندهُ عرَضٌ يطرأُ ويزول .

وأيضاً : فإنَّ بعض المتصيِّدين ممَّن لا يخشى اللهَ في الناس ؛ يلوكُ بأعراض أهل التحقيق ، ويتهمهم بالكذب والتدليس ؛ وذلك لذكرهم عدداً من النسخ المعتمدة في التحقيق ، ووضعهم صوراً لهٰذه المخطوطات في مقدِّمات الكتاب ، ثمَّ إذا نظر في الكتاب رآه خالياً مِنَ الفوارقِ بين النسخ ! ولا يدري هٰذا المتصيِّد كم بذل المحقِّقُ من الجهد والوقت لإخراج هٰذا الكتاب بهٰذه الحلَّة ، وعلىٰ كلِّ حالٍ (رَحِمَ اللهُ مَنْ جَبَّ الغيبةَ عن نفسِه) .

هٰذا ومن جديد ما وفَّقني الله تعالىٰ إليه في صنعة التحقيق . . إثباتُ فوارق النسخ بطريقة بديعة لمثل كُتُبِ علمائنا تليق ، ومفادها : أنِّي أثبت السياق والسباق للكلمة المختلفة ، أو السقط ، أو البتر ، فيكون

ذلك أدعىٰ لراحة المطالع من تشتيت النظر والفكر بين الأصل والتعليق .

مثاله :

كذا في (أ) : (وليس همُّكَ إلا تصنيفَ كتابٍ وإتيانٍ بما يُستملَحُ ويُستطابُ ، فما لكَ قد وقَفْتَني من وراءِ حجابٍ ؟! فلا تُعرِّضْ عِرضَكَ للملامِ ، وأغنني عن إطالةِ الكلامِ) .

وفي (ب) و(هـ) و(ز) اختلافٌ بالنَّقص والزيادة والتَّقديم والتَّأخير : (**وعرفناكَ قد صنَّفتَ في فنونِ العلمِ كتُباً كثيرةً ، وهي عندَ مَنْ وقعتْ إليهِ . . العزيزةُ الأثيرةُ ، حتىٰ نيَّفتْ على الأربعين ، وناهزت بلوغَ الخمسين في أنواعِ العلومِ والآدابِ** ، فمالي قد أوقفتني منك وراء حجابٍ ؟! **فبلِّغني سؤلي ، ويسِّر لي حصول مأمولي ، فما سمتُ شططاً ، وعن عمىً كان قصدي إليكَ لا خُطا** ، فلا تُعرِّضْ عِرضَكَ للملامِ ، وأغنني عن إطالةِ الكلامِ) .

وفي (ليدن) : (**والإتيان بما يُستحسن ويُستطاب ، حتىٰ نيَّفت تصانيف على الأربعين ، وناهزت بلوغَ الخمسين في أنواعِ العلومِ والآدابِ** ، فمالي قد وقفتني منك **الآن** وراء حجابٍ ؟! فلا تُعرِّضْ عِرضَكَ للملامِ ، وأغنني عن إطالةِ الكلامِ ، **فلن أبرحَ الأرضَ حتىٰ أظفرَ بالمرامِ ، وأبوءَ منك بما ينفعُ الخاصَّ والعام**) .

فأنت ترىٰ أن التمييز بين سماكة خط الكلام الزائد أو الناقص أو المبتور ، مع إثبات ما قبله وبعده . . يجعل القارئ وكأنَّ جميع النسخ بين يديه ، كل ذلك تسهيلاً وتيسيراً وتبييناً للمطالع في هـٰذا الكتاب .

وقد ترجمتُ للإمام العراقي بترجمة حافلة جمعت فيها أطراف ما تناثر من عقدها ، وإن كانت في الكتب لا تتجاوز الصفحة أو ما يزيد علىٰ سطرها .

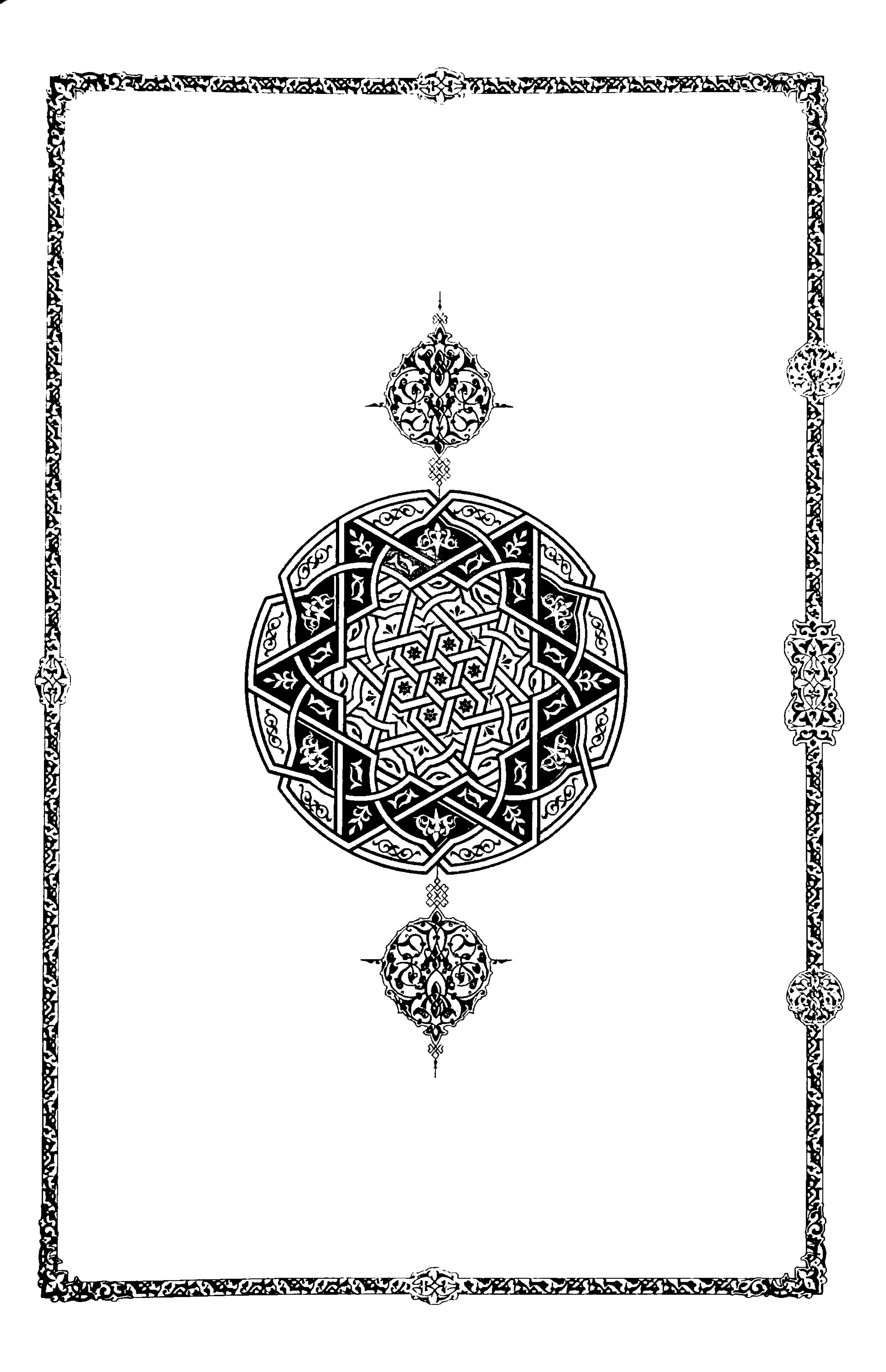
وما يفعله المحقِّقون في خدمة الكتاب من تخريج آيات كريمات ، وأحاديث شريفات ، وأقوال منيفات . . صار من أهم الواجبات ، وليس في ذكر فعل الواجب من جديدٍ يجلب المدحات .

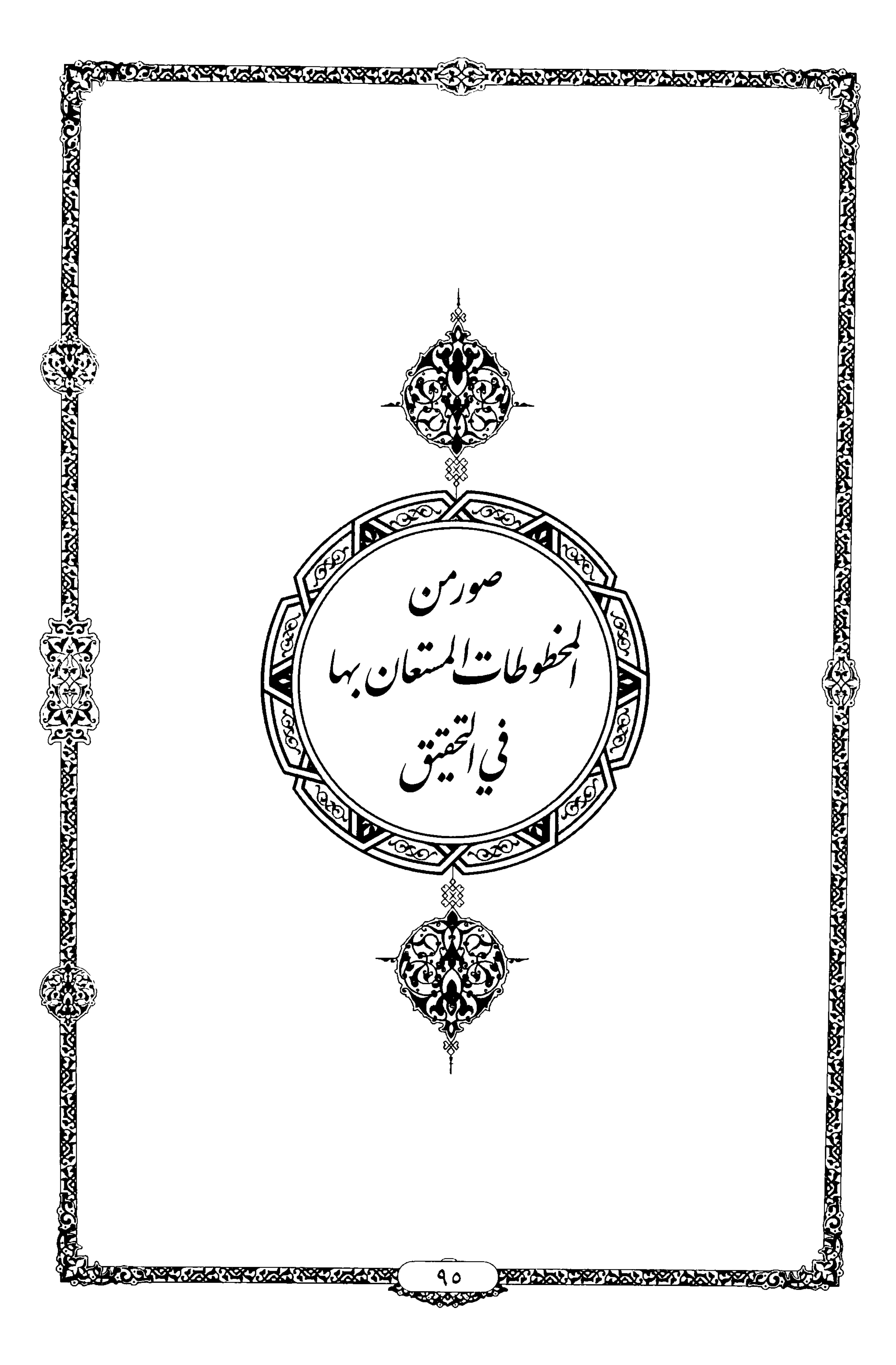
وأهمُّ ما قمتُ به في خدمةِ الكتابِ . . أن أرجعتُ الفروع إلى الأصول بقدر المستطاع ؛ فذكرتُ موارد الإمام العراقي في كتابه هـٰذا عن كُتُبِ شيخِه حجَّة الإسلام في الأبواب والفصول ، وحلَّيتُه ببعض رفيعِ كلامِ الإمام حجَّةِ الإسلام ، وكلامُه كلُّه كلام !

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

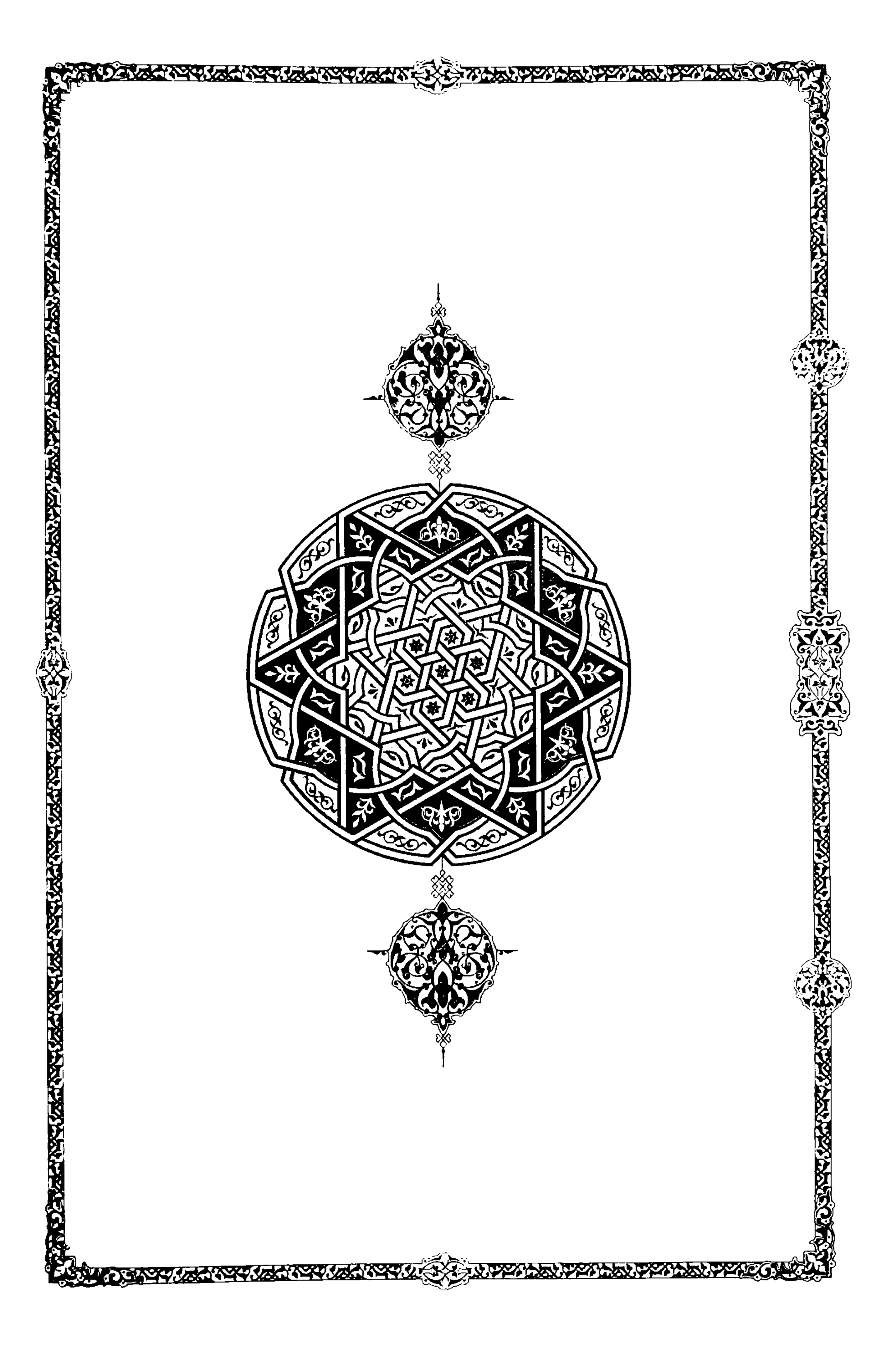
حرر في دمشق
مساء يوم الجمعة (١٥) ربيع الآخر (١٤٤٢هـ)
الموافق (١١) كانون الأول / ديسمبر (٢٠٢٠م)

وكتب
راجي عفو ربّه الغفور
أحمد بن سهيل المشهور





صور من المخطوطات المستعان بها في التحقيق



هذا كتاب
الذخيرة لاهل البصيرة
للعارف بالله والدال
عليه محمد ابن علي
العراقي رحم
الله روحه
ونور
ضريحه

راموز ورقة العنوان من النسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه التوفيق

قال محمد بن علي العراقي غفر الله له ذنوبه ووفقه لما يرضيه الحمد لله المتوحد بالعز والكبرياء المتفرد بالمجد والبهاء المختص بالدوام والبقاء ...

راموز الورقة الأولى من النسخة (أ)

رموز الورقة قبل الأخيرة من النسخة (أ)

ويستعملنا فيما يوفقنا لمرضاته ويستعملنا فيما يقرب إليه ويزلف لديه

فليس التعويل والتوكل حقيقة إلا عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل

تم المختصر الموسوم بالذخيرة لأهل البصيرة

وفرغ من كتابته من نسخة

التي كتبت من نسخة

الأصل الذي كتبه

المصنف رضي الله عنه

تاريخه سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة

رموز الورقة الأخيرة من النسخة (أ)



راموز ورقة العنوان من النسخة (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتوحد بالعظمة والكبرياء، المتفرد بالمجد والبهاء، المختص بالدوام والبقاء، والحسنى من الصفات والأسماء، الذي جعل علم المخلوق إلى نهاية، إذ ليس بذي نهاية، ولم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفة حقيقة صمديته وجلاله، إذ ليس لحقيقته غاية، فلا قرار من العجز عن معرفته منتهى معرفة النبيين والصديقين، والاعتراف بالقصور عن القيام بواجب حمده وثنائه غاية ثناء المقربين، ضلت عقول العقلاء متحيرة ما بين إشراق أنوار جلاله، وكان منتهى السالكين والمريدين الدهش والهيمان في درب حضرة جماله، فقطع الرجاء عن معرفته تعطيل، ودعوى كمال معرفته من الخيال غاية التشبيه والتمثيل، فسبحان من كان نصيب الإنسان من الإحاطة بجمال ذاته الحيرة، وثمرة جميع العقول من النظر إلى عجائب صنعه الاضطراب والدهشة، وتبارك من تفكر في عظمته فطلب تكييفاً وماهية، وحسر الطلب عقل ولو لحظه عن عجائب صنعه فقال بوجوده من ... حتى يعلم أن كل موجود من آثار قدرته، وقبس من أنوار عظمته، ويتحقق أن كل حادث من بدائع غرائب حكمته، ورق جمال حضرته، فالكل منه وبه، بل الكل معدوم، فليس لأحد وجود حقيقة إلا له، فتبارك من كان وجود

الموجودات من وجوده، وتحقق الحادثات فائض فضله وجوده، والصلاة على رسوله المصطفى من سائر خليقته، المكرم برسالته، الموضح كيفية سلوك شريعته، الداعي إلى معرفته وطاعته، والسلام على الطاهرين من آله وصحابته، وأزواجه وعترته، وبعد فإنك حضرتها أيها الأخ الولد أحضر الله مشاركته، وروح بحسن توفيقه أسرارك، وذكرت لي أنك تصفحت كتب العلماء السابقين، وتصانيف القدماء المبرزين، فلم تر في كتبهم وتصانيفهم أنفع من تصانيف الإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه، إذ كان أكثر تدقيقاً وتحقيقاً، وأبعد من الميل والهوى طريقاً، مع تبحره في جوانب العلوم الشرعية وغيرها، وتصنيفه في كل فن من فنونها، ورسوخ قدمه في دقيقها وجليلها، وحكمه في إجمالها وتفصيلها، وتشكو إلى من شيئين يتبع بهما كتبه وتصانيفه، ولم تحل الخير بهما قط تآليفه، الأول منهما غموض معانيه، وغرائب ألفاظه ومبانيه، والثاني أنه متى عرض له تحقيق في كتاب أعرض عن إتمامه وأحال على غيره من كتبه ... فلم تحصل مصنفاته بأجمعها الشخص يكاد يغني عن أحد عنها ... ولا تحصل من جملتها مقصوده، وتمنيت أن لو وجدت من علماء الوقت من يتصدى لتصنيف كتاب يحذو فيه حذوه، ويتلو في استنباط غرائب

راموز الورقة الأولى من النسخة (ب)

راموز الورقة قبل الأخيرة من النسخة (ب)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ب)

ويتلوه كتاب
الذخيرة لأهل البصيرة فيه نقص في أوله
يكمل [illegible]
وصلى الله على سيدنا محمد
وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً

ضعيف
اللهم إني فقوّني في رضاك ضعفي وخذ
إلى الخير بناصيتي واجعل الإسلام منتهى
رضاي اللهم إني ضعيف فقوّني وإني ذليل
فأعزني وإني فقير فأغنني

راموز ورقة العنوان من النسخة (ج)

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد حمد الله تعالى على
نعم ظاهرها أنوار الكواكب إشراقها وإدرار السحاب إسباغها
واتساقها والصلاة على نبيه محمد المبعوث بأفضل الملك
لأفضل الأمم المبعوث بطلاقة الوجه وطهارة الشيم
والمشرق جبينه في الظلم والمعروف بينه بحاسة أن
تباريه الديم أما بعد قال الشيخ الإمام الأجل أبو
حامد الغزالي رحمة الله تعالى عليه إن صنفت كتاب الذخيرة
لأهل البصيرة وجعلته نوراً للأبصار ليجتنى
به ثمر الجنان ويكشف به علم البيان وينال
به الفوز والغفران والرحمة والرضوان
والتجنب من سخط الرحمن ورجوت أن ينتصر بما
فيه من الأمور المهمات قال المصنف رحمه الله
تعالى القول في جملة التحصيل
لتحصيل

لتحصيل معرفة عجائب صنع الله فيها بمعرفتها الجملة للحواس
خادم العقل والعقل مخلوق للقلب ليكون له كالسراج
ليشاهد بنوره تلك الحضرة التي هي عبد وخادم للحضرة الإلهية
كما قال الله تعالى [illegible] فإنما أراد
بهذا المعنى أنه سبحانه خلق القلب وجعل هذه المملكة ومولاه
الجنود وسلم إليه هذا المركب الذي هو البيت ليسافر من
العالم الترابي إلى أعلى عليين فإن أراد قضاء حق هذه النعمة
وأما شرط التبرد فينبغي أن يجلس كالملك في صدر المملكة
ويجعل له الحضرة الإلهية مقصداً وقبلة ويجعل الآخرة
موطناً ومستقراً ويجعل البدن له مركباً والجوارح والأعضاء
[illegible] والغضب شحنة والحواس جواسيس ويوكل
كل واحد منها بعالم على حدة ليتجسسوا ويأتوا بالأخبار كل عالم
على الوجه فإذا أتوا بالأخبار أودعوها في خزانة القوة
الحافظة التي هي خزانة الدماغ واتخذوها في خريطة يجمعها
كل جاسوس وجاسوس مما أخذه من ارتفاع عالمه الذي وكل
به ويحفظها ليعرضها في وقتها على الوزير الذي هو العقل
فيدبر المملكة الوزير على وفق ما يتصل به من الأخبار وبحسب

احسا[illegible]

راموز الورقة الأولى من النسخة (ج)

امر سفرا الملك هو معضد بحسب ذلك فاذا راى ان بعض
العساكر كالشهوه مثلا او الغضب قد نزع عنه لباس الطاعه
ونهض بدا المخالفه في وجه الساعه ونبذ اوامر الملك ورا
ظهره ودم ان يشن الغاره على البلاد ويسعى في الممالك بانواع
الفساد اشتغل بتدبير كيفيه استمالته والسعي في اصلاحه
ولا يطمع في قتله اذ لا مندوحه بالمملكه عنه ولا غنا بالدوله
عن الجنود فيجهد في استمالة العاصي من الجنود ليسير في خدمة
الملك ويلتزم سواده في سفره ويعينه على ما يقصده ويوافقه
فاذا فعل ذلك كان سعيدا واستحق من استوزره الاحسان
اليه والانعام عليه حيث قام بما يجب عليه من حراسة المملكه
وحفظ العساكر وان خالف هذا التدبير ووافق العصاة
في الفساد واستمر معهم على البغي والعناد فقد كفر النعمة
واستوجب النكال والنقمه وكان شقيا محروما فاستحق
عذابا اليما ن فصل اعلم ان للادمي مع كل واحد
من عساكر باطنه علاقه وله من كل واحد منهم خلق وصفه
منها اخلاق سو يهلكه ويكون سببا لشقاوته ويرده الى
اخس حال ومنها اخلاق جميله تكون سببا لسعادته ووصوله

الى

الى اعلى رتبه وهذه الاخلاق كثيره لكنها ترجع الى اربعه
اصول اخلاق البهايم واخلاق السباع واخلاق الشياطين
واخلاق الملايكه فهو لكون الشهوه المركبه فيه يفعل اعمال
البهايم كالشره في الاكل وغير ذلك ولكون الغضب الموضوع
فيه يفعل افعال الذي يسعى الكلب والسبع كالقتل والضرب
والعض وغير ذلك من المخاصمه والوقيعه في الناس ومن حيث
انه وضع في جبلته اخلاق الشياطين يوجد منه المكر
والحيله والتلبيس وابتاع الفتن ومن حيث انه في طبيعته اخلاق
الملايكه يوجد منه العلم والتعلم والمعرفه وطلب الصلاح
بين الناس وعزه النفس والتابي من الافعال الخسيسه والورع
عن الرذايل والسرور بمعرفه الامور وتقبيح الجهل فاذن
في جمله كل ادمي على الحقيقه هذه الاصول الاربعه البهيميه
والسبعيه والشيطانيه والملكيه فان الكلب لم يكن خسيسا
لصورته انما كان حقيرا مبعدا نجسا مذموما لما في باطنه
من الخصال الذميمه والوقيعه في الناس وكذلك الخنزير
ليس بمذموم لصورته انما كان حقيرا لما في طبعه من الحرص
على الاشيا القبيحه والشره وحقيقته روح الكلبيه

راموز الورقة قبل الأخيرة من النسخة (ج)

الى فلا ينبغي ان يتمكن ان يشتغل في هذه الدنيا بغير التزود
والاستعداد للاخره فهو كالمغرور ليحتج عند نزع ...
وسبب ذلك الغفله وعدم الميل الى الامور المذكوره
في ابتدا كل شي ونهايته فان شغلت الدنيا الا تركت احد
هولاء من شغلها لشرع للتفكر فيما يصلحه والا فالواجب
على من تمكن وغلب على ظنه او توهم ذلك والمتمكن عكسه
الفعل الجد من هذا الخطر العظيم وسلوك طريق
الاحتياط والاخذ بالاولى والله سبحانه يوفقنا لمرضاته
ويشغلنا بما يقربنا اليه ويزلفنا لديه فليس التوكل
الا عليه وافوض امري الى الله وهو حسبي واليه
انيب تم كتاب الذخيره لاهل البصيره
والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي واله
الطاهرين واصحابه المنتجبين وازواجه امهات
المومنين وسلم تسليما كثيرا وكان الفراغ منه
في نصف شهر رمضان سنه احد وعشرين وتسعمايه
غفر الله لكاتبه ولقاريه ولمصنفه ولجميع المسلمين
والمسلمات الاحيا منهم والاموات بمحمد واله وصحبه اجمعين

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ج)

كتاب الذخيرة لأهل البصيرة

تأليف الشيخ العالم العلامة

ابو عبد الله محمد بن علي

العراقي عفي عنه

امين

فهرست الكتاب

المشترى

راموز ورقة العنوان من النسخة (د)

١

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والعاقبة

للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين وصلى الله على محمد وآله اجمعين

قال ابو عبد الله محمد بن علي العراقي فاني جمعت العلوم التي فرقها

الامام ابو حامد الغزالي في تصانيفه الكثيرة وحصرتها في اربعة

اصول وجعلتها مرتبة في عدة فصول لكل فصل منها يتنوع الى

نوع من العلوم ويشير الى طريق من العمل وسميت الكتاب بالذخيرة

لاهل البصيرة واوردت كل اصل في باب فالاول في

معرفة النفس والثاني في معرفة الله تعالى والثالث في

معرفة الدنيا والرابع في معرفة الآخرة الباب

الاول في معرفة النفس وبيان وجه كون معرفتها مفتاح

معرفة الحق سبحانه وتعالى اعلم ان مفتاح معرفة الله سبحانه

انما هو معرفة النفس ولهذا قيل من عرف نفسه عرف ربه

وقال سبحانه وتعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين

لهم انه الحق وبالجملة فاقرب الاشياء اليك نفسك فاذا جهلت نفسك

كيف تعرف ربك ... قال النبي ...

٢

ولست اعرف بذلك ربي فاعلم ان هذا الظن غلط منك فان المعرفة التي حصلت

لك بنفسك على ما ذكرت لا تصلح ان تكون طريقا الى معرفة الله تعالى فان

هذه المعرفة يشاركك فيها البهائم لانك انما تعرف نفسك من

حيث حواسك وجوارحك ... تعرف من ظاهر خلقتك

وصورتك ... من باطنك انك اذا جعت اكلت واذا غضبت

اعملت غضبك واذا اشتقت نكحت وهذا شيء يشاركك فيه

الدواب فاذن ينبغي ان تطلب معرفة حقيقة الانسان ما هي

ومن اين جاءت والى اين تذهب وما سبب مقامها في هذه المنزل

ولماذا خلقت وما سعادتها وما شقاوتها فان الصفات المجموعة

في باطنك بعضها صفات البهائم وبعضها صفات السباع وبعضها

صفات الشياطين وبعضها صفات الملائكة فانظر من اي هذه

الاوصاف جوهرك الحقيقي فاذا عرفت ذلك كان بقية الصفات غريبة

عنك عارية معك وما لم تعرف ذلك لا تكاد تجد السبيل الى

طلب سعادتك فان لكل صفة من هذه الصفات غذاء خاصا وسعادة

خاصة فغذاء البهائم وسعادتها الاكل والنوم والجماع فان كنت من جملة

راموز الورقة الأولى من النسخة (د)

[illegible]

تم كتاب الذخيرة لأهل البصيرة ... والصلاة والسلام

على رسوله سيدنا محمد المصطفى وآله وأصحابه

[illegible]

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (د)

كتاب الذخيرة

لأهل البصيرة

للإمام الفاضل والحبر الكامل المحقق المدقق

أحمد الغزالي تغمده الله برحمته

وأسكنه فردوس جنته مع الذين أنعم عليهم

من النبيين والصديقين و

الشهداء والصالحين وحسن أولئك

رفيقا وصلى الله على

محمد ينابيع الحكمة والمتوسر بنوره

... أفضل الصلوات وأكمل التحيات آمين

والحمد لله رب العالمين

راموز ورقة العنوان من النسخة (هـ)

بسـم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله المتوحد بالعظمة والكبرياء، المتفرد بالمجد والبهاء، المختص بالدوام والبقاء،
وللحسنى من الصفات والاسماء، الذي جعل علم المخلوق الى نهاية اذ ليس بذي نهاية
ولا طريق لاحد الى معرفة غاية حقيقة صمديته وجلاله اذ ليس لحقيقته غاية فالاقرار
بالعجز عن معرفته منتهى معرفة النبيين والصديقين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين
والاعتراف بالقصور عن القيام بواجب حمده وثنائه غاية ثناء المقربين ضلت عقول
العقلاء متحيرة ما بين اشراق انوار جلاله وكان منتهى السالكين والمريدين الدهش
في قرب حضرت جماله فقطع الرجاء عن معرفته تعطيل ودعوى كمال معرفته من الخيال
غاية التشبيه والتمثيل فسبحان من كان نصيب الابصار من ملاحظة جمال ذاته الحيرة
وثمرة جميع العقول من النظر الى عجايب صنعه الاضطرار والدهشة وتبا لمن تفكر
في عظمته فطلب له تكيفا وماهية وخسارا لقلب غفل ولو لحظة من عجايب صنعه فقال
وجوده بين ولماذا احتج ليعلم ان كل موجود فهو اثار قدرته وفايض من انوار عظمته و
يحقق ان كل حادث فمن بدايع غرايب حكمته ورشح جمال حضرته فالكل منه وبه بل
الكل مقدر له فليس لاحد وجود حقيقة الا له فتبارك من كان وجود الموجودات بنور
وجوده وتحقق الحدثات بفايض فضله وجوده والصلوة على رسوله المصطفى من
ساير خليقته المكرم برسالته الموضح كيفية سلوك شريعته الداعي الى معرفته وطاعته
والسلام على الطاهرين من آله وصحابته وازواجه وعترته وبعـد فانك
حضرتني ايها الاخ الوداد احضرك الله مسارك ودوح بحسن توفيقه اسرارك وذكرت

راموز الورقة الأولى من النسخة (هـ)

طاير ان يتناول في كل الف سنة حبة من ذلك الدخن فانه يفنى الدخن ولا ينقص
من الابد شي فاذن في طول هذه المدة كيف يطيق العذاب ومقاساته روحانيا
كان او جسمانيا او خياليا واي قدر يكون لمدة الدنيا في جنب ذلك الابد وكل عاقل
امعن فكره في ذلك فانه يعلم ان سلوك طريق الاحتياط والحذر والاحتراز من هذا
الخطر واجب متيقن وان كان يناله مع الاحتياط والاحتراز مشقة وصعوبة او كان
الخطر موهوما او مظنونا غير متيقن فان الخلق في الدنيا يحملون المشاق والاسفار
للتجارات ويقاسون الشدايد والاهوال ظنا منهم وتوهما للربح والفايدة فانت اذا
لم تقطع بصحة امر الاخرة فلا شك انك تتوهم ذلك او تظنه ظنا ضعيفا فان كان لك
شفقة على نفسك يجب عليك احتمال هذه المشقة القليلة الحقيرة المتلاشية بالاضافة
الى ما اعد للمخالفين لاوامر الشرع من العذاب الاليم وما يحظون به من النعيم ولهذا روي
ان امير المؤمنين عليا رضي الله عنه الزم بعض الملحدة فقال ان كان الامر كما تزعم فقد خلصت
وخلصنا وان كان الامر على ما اقول فقد خلصنا وبقيت في عذاب الابد ووقعت في الهلاك
وهذا الكلام من امير المؤمنين عليه السلام انما كان على قدر عقل المخاطب به لا انه كان شاكا
في اعتقاده ولكنه علم عليه السلام ان فهم الملحد لا يصل الى طريق اليقين فلا جرم فاذن ينبغي
ان تحقق ان من اشتغل في هذه الدنيا بغير التزود والاستعداد للاخرة فهو جاهل
مغرور واحمق مخدوع وسبب ذلك الغفلة وقلة المبالاة وعدم التفكر والتدبر في ابتداء كل شي
ونهايته فان شهوات الدنيا لا تترك لاحد مهلة من شغل ليفرغ الى التفكر فيما يصلحه والا
فالواجب على من تيقن او غلب على ظنه او توهم ذلك واليقين بحكم العقل الحذر من هذا
الخطر العظيم وسلوك طريق الاحتياط والاخذ بالاولى والله سبحانه يوفقنا لمرضاته و
يستعملنا فيما يقرب اليه ويزلف لديه وهو حسبنا ونعم الوكيل تم المختصر
الموسوم بالذخيرة لاهل البصيرة في غرة شهر جمادى الاولى
لسنة سبع تسعين ستمائة

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (هـ)

راموز الورقة الأولى من النسخة (و)

راموز الورقة قبل الأخيرة من النسخة (و)

من العذاب المقيم وما يفجعون به من النعيم ولهذا روي ان عليا رضي الله عنه
وكرم الله وجهه ناظر بعض الملحدين فقال ان كان الامر كما تزعم فقد خلصت
وخلصنا وان كان الامر على ما نقول فقد خلصنا وبقيت في عذاب الابد
ووقعت في الهلاك وهذا الكلام من امير المؤمنين كرم الله وجهه انما كان
على قدر عقل المخاطب به لا انه كان شاكا في اعتقاده لكنه علم ان فهم ذلك
الملحد لا يصل الى طريق اليقين ولا يحتمله فاذن ينبغي ان يتحقق ان
من اشتغل في هذه الدنيا بغير الزاد والاستعداد للاخرة فهو جاهل مغرور
واحمق مخدوع وسبب ذلك الغفلة وقلة المبالاة وعدم التفكر
والتدبر في ابتداء كل شيء وفي نهايته فان شهوات الدنيا لا يترك احد
وهؤلاء من شغلها ليفرغ الى التفكر فيما يصلح والا فالجواب على من تيقن
او غلب على ظنه او توهم ذلك بحكم العقل ان يحذر من هذا الخطر العظيم
ويسلك طريق الاحتياط والاخذ بالاولى فالله سبحانه
يوفقنا لمرضاته ويستعملنا فيما يقرب اليه
ويزلف لديه فليس التعويل والتوكل
حقيقة الا عليه وهو حسبنا
ونعم الوكيل تم المختصر
المرسوم بالذخيرة
لاهل البصيرة
[illegible] بيد العبد الضعيف عبد الله بن محمد البرعي عفا الله له ولوالديه

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (و)

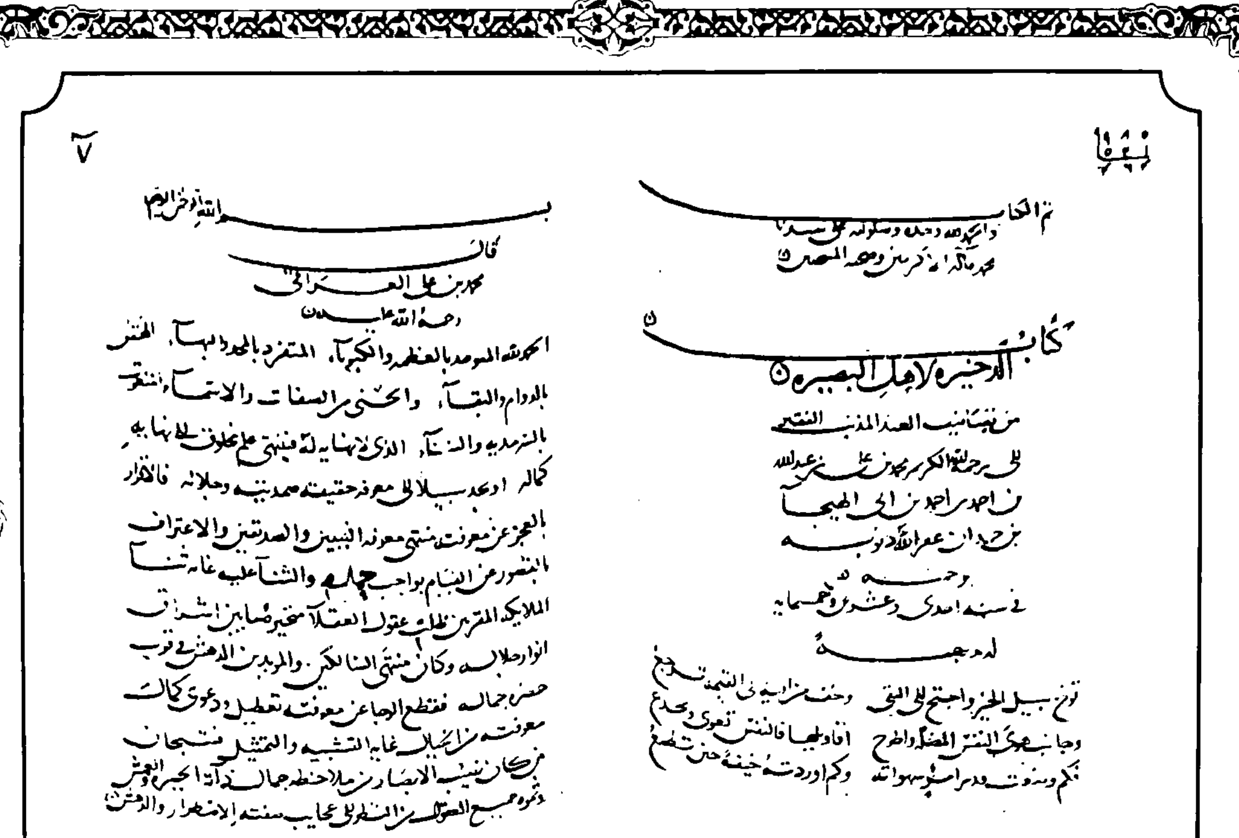
كتاب الذخيرة لاهل البصيرة تاليف
الشيخ ابي الفتوح مجد الدين احمد بن
محمد بن محمد الغزالي رضي الله تعالى عنه
ونفع به بمحمد وآله آمين

ع

راموز ورقة العنوان من النسخة (ز)

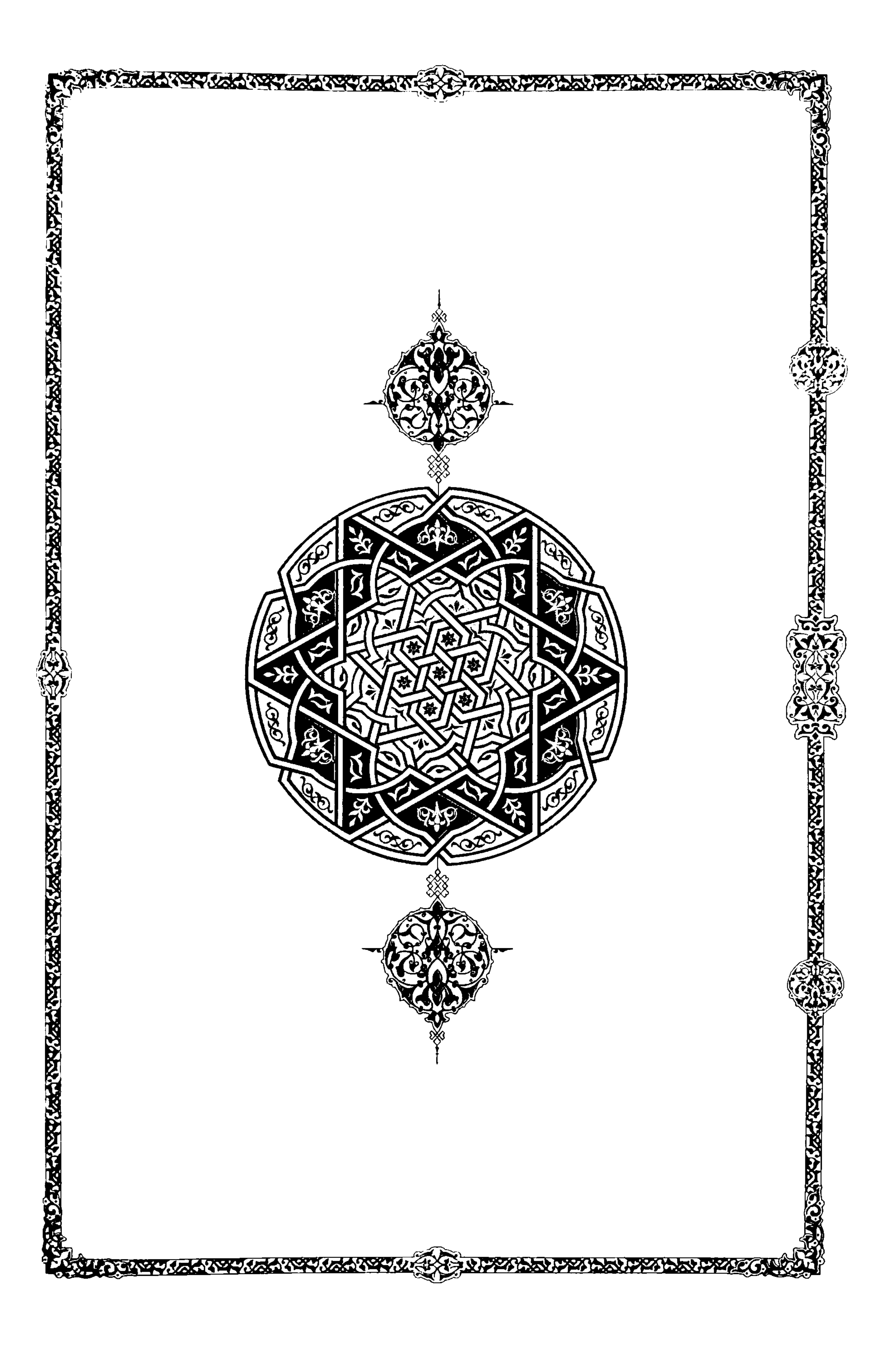
راموز الورقة الأولى من النسخة (ز)

راموز الورقة الأخيرة من النسخة (ز)



رامُوز ورقة العنوان والورقة الأولى من نسخة (ليدن)

رامُوز الورقة الأخيرة من نسخة (ليدن)



الذخيرة لأهل البصيرة

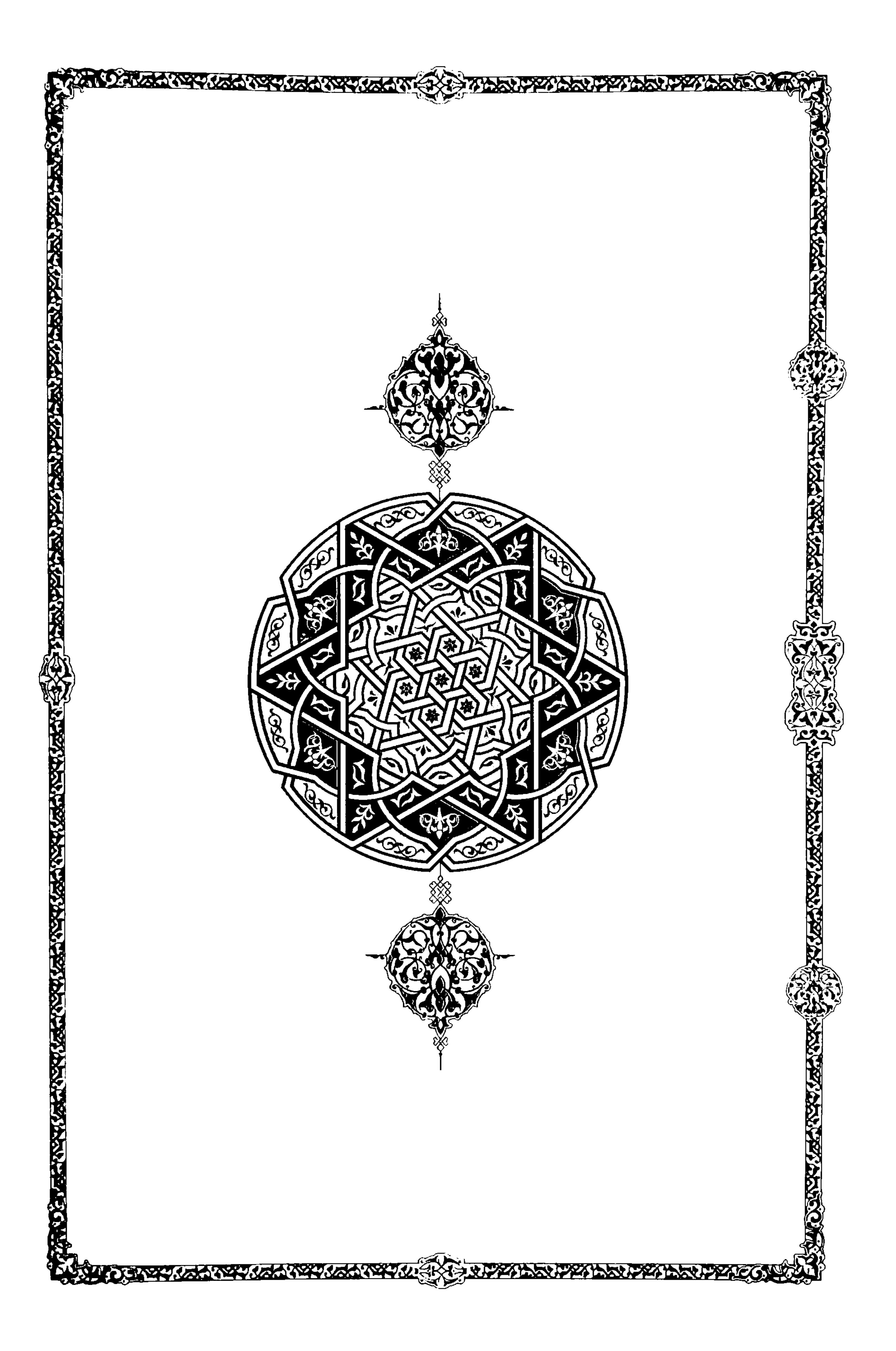
تأليف

الإمام الفقيه الأصولي المتكلم النظار الأديب اللغوي المفسر
الصوفي المحقق
رضي الدين أبي سعيد محمد بن علي بن حمدان الجاواني الكردي الحلوي العراقي
(٤٨٠ ـ ٥٦١ هـ)

في هذا الكتاب خلاصة العلوم التي فرقها شيخه حجة الإسلام الغزالي
في تصانيفه الكثيرة

شرف بتحقيقه والتعليق عليه
أحمد بن سهيل المشهور





خطبة الكتاب (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الله الموفِّق

قال محمَّدُ بنُ عليٍّ العراقيُّ ، غفرَ اللهُ ذنوبَه ، ووفَّقهُ لما يرضيه :

(١) تنبيه : ثبتت هـٰذه الخطبة في (أ) كاملةً ، وفي (ب) و(ز) و(ليدن) مع سقط نبَّهنا عليه في موضعه ، وفي (هـ) مع سقطٍ أكثر من (ب) نبَّهنا عليه كذلك ، وبُترت كاملةً في (ج) ، وسقطت كاملةً من (د) ، وجاء فيها ـ أي : (د) ـ بدلاً من هـٰذه الخطبة الطويلة : (بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله علىٰ محمد وآله أجمعين . قال أبو عبد الله محمد بن علي العراقي : فإنِّي جمعت العلوم التي فرَّقها الإمام أبو حامد الغزالي في تصانيفه الكثيرة ، وحصرتها في أربعة أصول ، وجعلتها مرتَّبة في عدَّة فصول ، كل فصل منها ينزع إلىٰ نوع منَ العلوم ، ويشير إلىٰ طريق منَ العمل ، وسمَّيتُ الكتاب بـ : « الذخيرة لأهل البصيرة » ، وأوردت كل أصل في باب ، فالأوَّلُ : في معرفة النَّفْس ، والثاني : في معرفة الله تعالىٰ ، والثالث : في معرفة الدُّنيا ، والرَّابع : في معرفة الآخرة) .
أمَّا (و) فقد ثبت فيها جزء قليل مِنَ الخطبة أشرنا إليه في موضعه كذلك ، وسقط منها الباقي ، واشتركت مع (د) فيما قدَّمته عن (د) ، وأصل هـٰذه الخطبة التي في (د) و(و) قطعة مِنَ الخطبة الطويلة التي ثبتت في (أ) و(ب) و(هـ) ، سأشير إليها في محلِّها ، انظر (ص ١٢٦ ، الحاشية ٦) .

الحمدُ للهِ المتوحِّدِ بالعظمةِ والكبرياءِ ، المتفرِّدِ[١] بالمجدِ والبهاءِ[٢] ، المختصِّ بالدَّوامِ والبقاءِ والحُسنىٰ منَ الصِّفاتِ والأسماءِ ، المنعوتِ بالسرمديَّةِ والسناءِ[٣] ، الذي لم ينتهِ علمُ مخلوقٍ إلىٰ نهايةِ كمالهِ ، ولا بلغَ أحدٌ إلىٰ معرفةِ حقيقةِ صمديَّتهِ وجلالهِ[٤] ، فالإقرارُ بالعجزِ عن معرفتهِ.. منتهىٰ معرفةِ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ ، والاعترافُ بالقصورِ عن القيامِ بواجبِ حمدهِ والثناءِ عليهِ.. غايةُ عجزِ الملائكةِ المقرَّبينَ[٥] ، ظلَّتْ عقولُ العقلاءِ متحيِّرةً ما بينَ أشعةِ[٦] أنوارِ جلالهِ ، وضلَّتْ أدلَّةُ السَّالكينَ والمريدينَ في باديةِ الدَّهَشِ.. بقربِ[٧] حضرةِ

---

(١) كذا في (أ) و(و) و(ز) و(ليدن) : (المتفرِّد) ، وفي (ب) و(هـ) : (المنفرد) .

(٢) في (ز) وحدها : (والثناء) بدل (والبهاء) .

(٣) قوله : (المنعوتِ بالسرمديَّة والسناء) ثبت في (ليدن) وحدها .

(٤) كذا في (أ) و(و) : (الذي لم ينتهِ علمُ مخلوقٍ إلىٰ نهايةِ كمالهِ ، ولا بلغَ أحدٌ إلىٰ معرفةِ حقيقةِ صمديَّتهِ وجلالهِ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (الذي جعلَ علمَ المخلوقِ إلىٰ نهايةٍ ؛ إذ ليس بذي نهاية ، ولا طريقَ لأحدٍ إلىٰ معرفةِ غايةِ حقيقةِ صمديَّتهِ وجلالهِ ؛ إذ ليس لحقيقته غاية) ، وفي (ليدن) : (الذي لا نهاية له فينتهي علم مخلوقٍ إلىٰ نهاية كماله ، أو يجد سبيلاً إلىٰ معرفة حقيقة صمديَّته وجلاله) .

(٥) كذا في (أ) و(و) : (**والثناءِ عليهِ.. غايةُ عجزِ الملائكةِ المقرَّبينَ**) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (**وثنائه.. غاية ثناء المقرَّبين**) ، وفي (ليدن) : (**والثناءِ عليهِ.. غايةُ ثناء الملائكةِ المقرَّبينَ**) .

(٦) كذا في (أ) و(و) : (أشعة) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) : (إشراق) .

(٧) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) : (وكان منتهى =

جمالِهِ ، فسبحانَ مَن قَطْعُ الرَّجاءِ[1] عن معرفتِهِ.. تعطيلٌ ، ودعوىٰ كمالِ معرفتهِ مِنَ الخيالِ.. غايةُ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ .

كلُّ موجودٍ.. فهو مِنْ آثارِ قدرتِهِ[2] ، وفائضٌ عن[3] أنوارِ عظَمَتِهِ ، وما من حادثٍ إلا وهو من بدائعِ[4] غرائبِ حِكمتهِ ، وبرقِ[5] جمالِ حضرتهِ ، فالكُلُّ منهُ وبهِ ؛ بل الكُلُّ مُقدَّرٌ لهُ ، فليس لأحدٍ وجودٌ حقيقةً.. إلا له ، فتباركَ مَنْ[6] وجودُ الموجوداتِ.. بنورِ وُجُودِهِ ،

= السالكين والمريدين.. الدهش في قرب) بدل (وضلَّتْ أدلَّةُ السَّالكينَ والمريدينَ في باديةِ الدَّهَشِ.. بقربِ) .

(١) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) : (فقطعُ الرَّجاءِ) بدل (فسبحانَ مَن قطعُ الرَّجاءِ) .

(٢) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) زيادة : (**فسبحان مَن كان نصيبُ الأبصارِ من ملاحظةِ جمالِ ذاتهِ.. الحيرةُ والعَمَش** [كلمة (العمَش) ثبتت في (ليدن) وحدها] ، **وثمرةُ جميعِ العقولِ مِنَ النَّظرِ إلىٰ عجائبِ صنعهِ.. الاضطرارُ والدَّهَش ، وتبّاً لمَن تفكَّرَ في عظمتهِ.. فطلبَ له تكييفاً وماهيَّةً ، وخساراً لقلبٍ غفلَ ولو لحظةً عن عجائبِ صنعه** [في (ليدن) : وخساراً لقلبٍ عقل عجائب صفته].. **فقال : وُجُودُهُ بمَنْ وبماذا ؟! حتىٰ يعلمَ أنَّ** كلَّ موجودٍ.. فهو مِنْ آثارِ قدرتِهِ) .

(٣) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) : (من) بدل (عن) .

(٤) كذا في (أ) و(و) : (وما من حادثٍ إلا وهو من بدائعِ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (ويتحقَّقُ أنَّ كلَّ حادثٍ فمِن بدائعِ) ، وفي (ليدن) : (ويتحقَّقُ أنَّه ما من حادثٍ إلا وهو من بدائعِ) .

(٥) كذا في (ب) و(هـ) و(ز) : (وبرق) ، وفي (و) : (**وأثرِ من**) ، وفي (ليدن) : (وبر)، ولم تتضح لي في (أ)، وكتب فوقها : (أي : برِوايش).

(٦) في (ب) و(هـ) و(ز) زيادة : (**مَن كان**) .

وجلَّ مَنْ تحقَّقُ[1] المحدَثاتِ . . بفائضِ فضلِه وَجُودِهِ .

والصَّلاةُ علىٰ رسولِهِ المصطفىٰ مِنْ سائرِ خليقتِهِ ، المكرَّمِ برسالتِهِ[2] ، الموضِحِ لشريعتِهِ[3] ، الدَّاعي إلىٰ معرفتِهِ وطاعتِهِ ، والسَّلامُ علىٰ آلِهِ[4] وصحابتِهِ ، وأزواجِهِ وعترتِهِ[5] .

أما بعد[6] :

فإنَّك حضرتني أيُّها الأخُ الوادُّ ـ أحضرَ اللهُ مَسَارَّكَ ، وروَّحَ بلطيفِ الأُنسِ به أسرارَكَ[7] ـ وذكرتَ لي : أنَّكَ تصفَّحتَ كُتُبَ العلماءِ السَّابقينَ ، وتصانيفَ القُدماءِ المبرِّزينَ[8] ، فلمْ ترَ في كُتُبِهم وتصانيفِهِم . . أنفعَ مِنْ تصانيفِ الإمامِ حُجَّةِ الإسلامِ أبي حامدٍ الغزاليِّ

---

(١) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (وتحقُّقُ المحدَثاتِ) بدل (وجلَّ مَن تحقَّقُ المحدَثاتِ) .

(٢) في (ليدن) وحدها : (المجتبىٰ برسالته) .

(٣) كذا في (أ) و(و) : (الموضِحِ لشريعتِهِ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (الموضحِ كيفيَّةَ سلوكِ شريعتِهِ) ، وفي (ليدن) : (الموضِحِ سبيل شريعته) .

(٤) في (ب) و(هـ) و(ز) زيادة : (والسَّلامُ على الطَّاهرين من آله) .

(٥) في (ليدن) وحدها زيادة : (ومَنْ تابعهُ وشمَّرَ عن ساقِ الجِدِّ في خدمتِه ، وحسَرَ عن ساعِدِ المبالغةِ في نُصرته) .

(٦) سقطت كلمة (أمَّا بعد) من (و) ، وكلُّ ما سيأتي من المقدِّمة سقط منها ـ أي : (و) ـ وثبت فيها ما ثبت في (د) وهو ما أشرتُ إليه سابقاً في (ص ١١٣ ، الحاشية ١) ، وسأبينه لاحقاً في محلِّه .

(٧) كذا في (أ) و(ليدن) : (وروَّحَ بلطيفِ الأُنسِ به أسرارَكَ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (وروَّحَ بحُسنِ توفيقه أسرارَكَ) .

(٨) في (ليدن) وحدها : (المتخالفين والمتوافقين) بدل (المبرزين) .

قدَّسَ اللهُ روحَهُ ونوَّرَ ضريحَهُ ؛ إذ كانَ أكثرَهم تدقيقاً وتحقيقاً[1] ، وأبعدَهم مِنَ المَيلِ والهوىٰ طريقاً ، معَ تبحُّرِهِ في أجناسِ العلومِ الشَّرعيةِ وغيرِها ، وتصنيفِهِ في كلِّ فنٍّ من فُنونِها ، ورسوخِ قدمِهِ في دقيقِها وجليِّها[2] ، وتحكُّمِهِ فيها بإجمالِها وتفصيلِها[3] ، وشكوتَ إليَّ من شيئينِ ، وشَّحَ[4] بهما كُتُبَهُ وتصنيفَهُ[5] ، فلا يكادُ يخلو من أحدِهما تأليفُهُ[6] .

الأوَّلُ : غموضُ معانيهِ ، وغرائبُ ألفاظِهِ ومبانيهِ .

والثاني : أنَّه متىٰ عرَضَ له تحقيقٌ[7] في كتابٍ . أعرضَ عن إتمامِهِ ، وأحالَ علىٰ بعضِ كُتُبِهِ بالجوابِ .

فما لم تحصُلْ مُصنَّفاتُه جميعُها لشخصٍ .. لا يكادُ يقضي من كُتُبِهِ

---

(1) في (ليدن) وحدها : (إذ كان أكثر تدقيقاً ، وأكبر تحقيقاً) بدل (إذ كان أكثرَهم تدقيقاً وتحقيقاً) .

(2) في (ب) و(هـ) و(ليدن) : (وجليلِها) بدل (وجليِّها) .

(3) في (ليدن) وحدها : (وحُسن تصرُّفه فيها بإجمالها وتفصيلها) بدل (وتحكُّمِهِ فيها بإجمالِها وتفصيلِها) .

(4) ضبطت في (أ) : (وشَحَّ) ، وكُتب تحتها : (بخيل) للإشارة أنها مِنَ الشُّح ، لا مِنَ الوشاح ، وهـٰذا الضبط يخالف سياق الكلام .

(5) في (ب) و(هـ) و(ز) : (وتصانيفه) بدل (وتصنيفَهُ) .

(6) في (ب) و(هـ) و(ز) : (ولم يخل من أحدِهما قطُّ تآليفه) بدل (فلا يكادُ يخلو من أحدِهما تأليفُهُ) .

(7) في (ليدن) وحدها : (متىٰ عرَضَ ما يعتنىٰ له تحقيق) بدل (متىٰ عرَضَ له تحقيقٌ) .

وطرَهُ ، ولا يحصُلُ إلاَّ[1] من جملتِها مقصوده .

وتمنَّيتَ أن لو عثرتَ من علماءِ الوقتِ علىٰ مَنْ يتصدَّىٰ لتصنيفِ كتابٍ يحذو فيه حذوَهُ ، ويتلو في استنباطِ غرائبِ المعاني تِلوَهُ ، لـٰكنَّه لا يحيلُ بالجوابِ علىٰ غيرِهِ من كتابٍ ؛ بل يشيرُ إليه ولو بنبذَةٍ ؛ ليكون تنخُّتُه للقشرِ مِنَ اللبابِ ، فيجتمعُ حينئذٍ على التَّحقيقِ ، بين حُسنِ الاستنباطِ وجَودةِ التَّلفيقِ[2] ، ويتجنَّبُ بجَهدِهِ التَّطويلَ والإكثارَ ؛ لئلا يكونَ واضعاً بناءَهُ علىٰ شَفيرٍ هارٍ[3] .

فقلتُ : اعلم أنَّ هـٰذا المطلبَ . . أغربُ من عَنقَاءِ مُغرِبٍ[4] ؛ فإنَّه

---

(١) سقطت أداة الاستثناء من (ب) و(هـ) و(ز) .

(٢) كذا في (أ) : (بل يشيرُ إليه ولو بنبذَةٍ ؛ ليكون تنخُّته للقشرِ منَ اللباب ، فيجتمعُ حينئذٍ على التَّحقيقِ ، بين حُسنِ الاستنباطِ وجَودةِ التَّلفيقِ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) اختلافٌ بالنَّقص والزيادة : (بل يشيرُ إليه ولو بنبذَةٍ مِنَ التَّحقيقِ ؛ ليكون قد جمع بين الإيضاحِ والتَّدقيقِ ، وجمعَ بين حُسنِ الاستنباطِ وجَودةِ التَّلفيقِ [وفي (ليدن) : وقرن بجودة الاستنباط حُسن التلفيق]) .

(٣) كذا في (أ) : (لئلا يكونَ واضعاً بناءَهُ علىٰ شَفيرٍ هارٍ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (لئلا يأتي بناءُهُ علىٰ شَفا جُرُفٍ هارٍ) . وجاء في هامش (ب) حاشية بخطٍّ مختَلِفٍ : (إن كنتَ مكتفياً بهـٰذا الفنِّ . . فقد فعله العراقيُّ في تصانيفه ، وإنْ وافىٰ [كذا] أحال في بعض المواضع ، لـٰكن فيه منَ التَّحقيق أو التَّدقيق ما يُكتفىٰ به ، واللهُ أعلم) .

(٤) الغَرْب : البعد ، والعنقاءُ : طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم ، وأغرب : أي صار غريباً ، وإنَّما وُصِف هـٰذا الطائر بالمُغرِب لبعده عنِ النَّاس ، وهو طائرٌ وهميٌّ يُضربُ به المثل في طلب المُحال الذي لا يُنال . قال الجاحظ : الأمم كلها تضرب المثل بالعنقاء في الشيء الذي يسمع به ولا يُرىٰ . ومن أمثال العرب في ذلك : (حلَّقت به عنقاءُ مُغرِب) يُضربُ لما يُئس منه ، =

فنٌّ لا يسمو إليه بطرَفِ همَّتِهِ ويترامىٰ إلىٰ حِمىٰ معرفتِهِ[1] . . إلاَّ مَنْ طرَّزَ علومَهُ برياضةٍ امتطىٰ صهوتَها ، وحلَّىٰ محفوظاتِهِ بمجاهدةٍ لم يُقصِرْ شجوتَها[2] ، وذلك نادرُ الوجودِ ، أعزُّ منَ الأبلَقِ العَقُوقِ ، وأبلغُ في العدَمِ من بَيضِ الأنُوقِ[3] ، كيف ؛ ومَنْ يتصدَّىٰ لاقتفاءِ طريقتِهِ . . لا يمكنُهُ أن يسريَ ذلك المسرَىٰ[4] إلا بدلالتِهِ ، ولو كان الشافعيَّ أو مالكاً في علمِهِ وبراعتِهِ[5] ، والجُنَيدَ أو البَسطاميَّ في زهدِهِ ومعرفتِهِ[6] !!

= وكذلك قولهم : (أعزُّ من عنقاءِ مُغرِب) . « مجمع الأمثال » (١/٢٠١) ، « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » (ص ٤٥٠) .

(١) في (ليدن) وحدها : (لا يسمو إليه **بجناح** همَّتِهِ ويترامىٰ **نحو** حِمىٰ معرفتِهِ) .

(٢) يقال : مفازة شجواء ؛ أي : صعبةُ المسلَك . انظر « تاج العروس » (ش ج و) . وفي (ليدن) وحدها : (بمجاهدة تسمر هضبتها) ، كذا رُسمت ، فإمَّا أن تكون : (تُستَمرأ هضْبتُها) أي : يسهلُ صعود عواليها ، أو تكون : (تستمرُّ هِضَبَّتُها) والهِضَبُّ : الفرس الكثير العرق ، والصَّلْبُ الشديد ، فيكون المعنىٰ : عدم النزول عن فرس المجاهدة مع وجود المشقَّات .

(٣) (أَعَزُّ مِنَ الأبْلَقِ العَقُوقِ) مثلٌ يضرب لمن يعزُّ وجودُه ، يقال : أعَقّتِ الفرسُ فهي عَقُوق ، وذلك إذا حَمَلَتْ ، والأبلق لا يحمِل ، والعرب كانت تسمي الوفاء : الأبلَقَ العَقُوق ؛ لعِزَّة وجوده .
وأمَّا (بَيْضُ الأنُوق) فهو ـ أعني الأنوق ـ اسم للرخَمَة ، وهي أبعد الطير وَكْراً ، فضربت العرب به المثل في تأكيد بُعْدِ الشيء وما لا يُنَال . انظر « مجمع الأمثال » (١/٩٦ ، ١١٥ ، ٢٦٤ ، ٤٣١) ، (٢/٤٣ ، ٤٤) .

(٤) في (هـ) وحدها : (لا يمكن أن يشري ذلك المشتري) !

(٥) في (ليدن) وحدها : (ولو كان أحدَ الأئمَّةِ الأربعِ في علمِه وبراعتِه) بدل (ولو كان الشافعيَّ أو مالكاً في علمِهِ وبراعتِهِ) .

(٦) في (ليدن) وحدها : (في معرفتِه وطريقتِه) بدل (في زهدِه ومعرفتِه) .

فإيَّاكَ والطَّمعَ في المستحيلِ.. فتكونَ كطالبِ الإجابةِ مِنَ الرَّبْعِ المُحِيْلِ[1] .

فلمَّا استَتْمَمْتُ الكلامَ.. فُوِّقَتْ[2] إليَّ سِهامُ المَلامِ ، وقلتُ[3] بلسانِ الاستعطافِ والتألُّفِ؛ منتزعاً ملابسَ الخِلافِ والتَّخلُّفِ[4] : [من مجزوء الكامل]

أفــدِيــكَ بِــالعَيــنِ الصَّحيــ ـحةِ فَـالمرِيضَـةُ لا تُسَـاوي
أنِّــي أقِيْكُــمْ بِــالمَحَــا سِنِ لا أقِيْكُمْ بِـالمَسَـاوي[5]

إيَّاكَ أيُّها الأخُ.. عَنيتُ ، ولأجلِ ذلك إليكَ من زاويتي.. تعنَّيتُ ،

---

(١) كذا في (أ) : (فتكون كطالبِ الإجابةِ منَ الرَّبْعِ المُحِيْلِ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (كطالبِ الشِّفاء منَ المُدنَفِ العليل) ، والرَّبع المُحِيْلُ : الدَّار المتغيِّرة التي مرَّ عليها حول كامل . وفي (ليدن) وحدها زيادة :
(ومَن يطلُبِ الحاجاتِ من غير أهلها ولا وجهها عـزَّتْ عليه مطالبُه)
من الطويل ، وقد بحثت عنه كثيراً فلم أقف على قائله ، ولعلَّه للمؤلِّف الإمام العراقي .

(٢) كذا في (أ) : (فلمَّا استَتْمَمْتُ الكلامَ.. فُوِّقَتْ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (فلمَّا سمعتَ جميع الكلامِ.. فَوَّقتَ) وفي (ليدن) : (فلمَّا سمعتُ الكلامَ.. فُوِّقتْ نحوي) ، والفُوقُ : موضعُ الوتر منَ السَّهم ، وفَوَّقْتُه تفويقاً : جعلتُ له فُوْقاً . « المصباح المنير » (ف و ق) .

(٣) كذا في (أ) : (وقلتُ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (وقلتَ لي) ، وفي (ليدن) (ثمَّ قُلتُ) .

(٤) سقط من (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) كلمتي : (والتَّألُّفِ) و(والتَّخلُّف) ، والعبارة فيها : (بلسانِ الاستعطافِ ؛ منتزعاً ملابسَ الخِلافِ) ، وفي (ليدن) : (مستنزعاً) بدل (منتزعاً) .

(٥) انظر مقدِّمة الكتاب (ص ٥٣ ، ٥٧) فقد ذكرنا أنَّ وجود هٰذين البيتين في مقدِّمة كتاب « الذَّخيرة » من أدلَّة ثبوت نسبة الكتاب للإمام ابن حمدان العراقي .

فلا ترُدَّني خائبَ الأملِ من بابكَ ، مُخفِقاً من جنابكَ[1] ، فطالما ألفيناكَ[2] عنِ الحقِّ نضَّاحاً[3] ، ولِنَوَى الهمومِ مِرْضاحاً[4] ، قد حَتَمتَ علىٰ نفْسِكَ مع وجودِ الأعذار . . إسعافَ طلبةِ العلمِ بمطلوبِهم من غيرِ إخلادٍ إلى اعتذارٍ ، وليس همُّكَ[5] إلا تصنيفَ كتابٍ ، وإتياناً بما يُستملَحُ ويُستطابُ ؛ فما لكَ قد وقَفْتَني من وراءِ حجابٍ ؟! فلا تُعرِّضْ عِرضَكَ للملامِ ، وأغنني عن إطالةِ الكلامِ[6] .

---

(١) في (ليدن) وحدها زيادة : (فمن منع المستوجبين فقد ظلم) ، وهو عجز بيت من الطويل للإمام الشافعي رضي الله عنه ، صدره : (ومَنْ منح الجُهَّال علماً أضاعه) . انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (١/ ٢٩٤) .

(٢) في (أ) كُتب تحت كلمة (ألفيناك) : (نخ) للإشارة إلىٰ أنَّها نسخة أخرىٰ ، وجاء في هامشها : (ألفناك ، صح) . وفي (ب) كتبت في صلب الكتاب (ألفناك) ، ووضع فوق الكلمة إشارة x ، وجاء في هامشها : (ألفيناك) ! وفي (هـ) : (ألفناك) .

(٣) النَّضحُ : الذَّبُّ والدَّفعُ ، وهو من المجاز . وفي (ب) و(هـ) : (نضَّاخاً) بدل (نضَّاحاً) .

(٤) كذا في (أ) : (مِرْضاحاً) ، وفي (ب) : (فَرْضَاخاً) هٰكذا ضبطها النَّاسخ ، وفي (هـ) كتبت : (فرضاخا) دون ضبط ، وفي (ز) : (فرضاً) ! والرَّضحُ : الكسرُ والدَّقُّ ، يقال : رَضَحَ الحَصَىٰ والنَّوَىٰ ، والمِرْضاح : اسمُ ذلك الحَجَر الذي يُرْضَح به النَّوىٰ ؛ أي : يُدَقُّ . والخاءُ لُغَةٌ ضعيفةٌ . انظر « تاج العروس » (ر ض ح) .

(٥) في (ليدن) وحدها زيادة : (**وليس همُّك في دُنياك**) .

(٦) كذا في (أ) : (وليس همُّكَ إلا تصنيفَ كتابٍ وإتياناً بما يُستملَحُ ويُستطابُ ، فما لكَ قد وقَفْتَني من وراءِ حجابٍ ؟! فلا تُعرِّضْ عِرضَكَ للملامِ ، وأغنني عن إطالةِ الكلامِ)، وفي (ب) و(هـ) و(ز) اختلافٌ بالنَّقص والزيادة والتَّقديم والتَّأخير : (**وعرفناكَ قد صنَّفتَ في فنونِ العلمِ كتُباً كثيرةً ، وهي عندَ مَنْ وقعتْ**=

فلمَّا سمعتُ مقالتَكَ.. بادرتُ إلىٰ تَسْنِيَةِ نجاحِكَ[1] بقدْرِ الإمكانِ ، وبَرزتُ في هـٰذا المضمارِ الذي لم يجْرِ بعدَهُ لأحدٍ مِنَ البُلغاءِ فيه قلمٌ ولا لسانٌ ، مع أنِّي معترفٌ للإمامِ حُجَّةِ الإسلامِ.. بالعجزِ عن شَقِّ غُبارِهِ[2] ، وأنِّي لا أستطيعُ مع جَودةِ الجَري.. إدراكَ شأوِ عِثارِهِ[3] .

وما مَثَلي وإيَّاهُ رحمَهُ اللهُ ؛ إلا كمَنْ تشاطَرَ فساجَلَ الأتيَّ الأبيَّ

= إليهِ.. العزيزةُ الأثيرةُ ، حتىٰ نيَّفتْ على الأربعين ، وناهزت بلوغَ الخمسين في أنواعِ العلومِ والآدابِ ، فمالي قد أوقفتني منك وراء حجابٍ ؟! فبلِّغني سؤلي ، ويسِّر لي حصول مأمولي ، فما سمتُ شططاً ، وعن عمىً كان قصدي إليكَ لا خَطا ، فلا تُعرِّضْ عِرضَكَ للملامِ ، وأغنني عن إطالةِ الكلامِ) ، وفي (ليدن) : (والإتيان بما يُستحسن ويُستطاب ، حتىٰ نيَّفتْ تصانيف على الأربعين ، وناهزت بلوغَ الخمسين في أنواعِ العلومِ والآدابِ ، فمالي قد وقَّفتني منك الآن وراء حجابٍ ؟! فلا تُعرِّضْ عِرضَكَ للملامِ ، وأغنني عن إطالةِ الكلامِ ، فلن أبرحَ الأرضَ حتىٰ أظفرَ بالمرامِ ، وأبوءَ منك بما ينفعُ الخاصَّ والعام) .

(١) أي : تسهيل نجاحك ، وفتحِ بابه ، سَنَّاهُ تَسْنِيَةً : سَهَّلَهُ وفَتَحَهُ ، وهو منَ المجاز ، وأنشدَ الجوهريُّ : [من الطويل]

وأَعْلَمُ عِلْماً ليسَ بالظنِ أنَّه ... إذا اللهُ سَنَّىٰ عَقْدَ شيءٍ تيَسَّرا

انظر « تاج العروس » (س ن ا) . وفي (ليدن) وحدها : (حاجتك) بدل (نجاحك) .

(٢) في (ليدن) وحدها : (أنِّي عاجزٌ عن أن أشُقَّ غُبارَهُ) بدل (بالعجزِ عن شَقِّ غُبارِهِ) .

(٣) كذا في (أ) : (معترفٌ للإمام حُجَّةِ الإسلام.. بالعجز عن شَقِّ غُبارِهِ ، وأنِّي لا أستطيعُ مع جَودةِ الجَري.. إدراكَ شأوِ عِثارِهِ) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) : (معترفٌ أنَّ الإمامَ حُجَّةَ الإسلام.. لا أقدِرُ أنْ أشُقَّ غُبارَهُ ، ولا أستطيعُ بجدَّةِ سعيي وَجَودَةِ جريي.. أنْ أُدركَ عِثارَهُ) .

بثمادِه[1] ، وبارىٰ فكاثرَ مالكَ الأقاليمِ بفُضَالاتِ زادِهِ ، هيهات أنِّي نَقْعُ[2] قطرةٍ من ذلك البحرِ الخِضَمِّ ! وكيف يكونُ حصاةً بالإضافةِ إلى الطَّودِ الأشمِّ[3] ! إنَّ ذراعيَ ليَقصُرُ عن فِترِهِ ، وباعيَ لا يكادُ يلتَحِقُ بقيدِ شبرِهِ[4] !!

فلو لاحظني السَّعْدُ ، وساعدني الجِدُّ .. لأقلتَني أيُّها الأخُ العارفُ عنِ الجَريِ في هٰذا المضمارِ الذي مَن أُجريَ فيه .. رُميَ بهُجنَةِ الاحتقارِ ، ورضيتَ منِّي بما صنَّفتُهُ أصولاً وفروعاً وفقهاً وتصوفاً وتفسيراً وأدباً وأمثالاً وحِكَماً وحساباً ورسائلَ إلىٰ غيرِ ذلك[5] .

---

(١) إحدى الكلمتين (الأتيّ الأبيّ) ليست في (ب) و(هـ) و(ز) ؛ لكتابتها بلا إعجام . والتشاطر : التباعد ، والمساجلة : المعارَضة ، والأتيُّ : السيل العرم ، والأبيُّ : المترفع ، والثماد : الحفر يكون فيها الماء القليل ، والمعنىٰ علىٰ ذلك : أنَّه قد أبعد المرمىٰ في معارضة واسع علوم شيخه الإمام حُجَّة الإسلام ؛ لأنَّه كحفرة ماء قليل في مقابلة السيل العرم العظيم .

(٢) في (ب) و(هـ) و(ز) : (أن تقع) بدل (أني نقع) .

(٣) في (ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) : (إلىٰ **ذلك** الطَّودِ الأشم) .

(٤) في (ب) و(هـ) : (**بقدر** شبره) بدل (**بقيد** شبره) . وفي (ليدن) وحدها زيادة :

(ومَـا أنـا إلاَّ قَطـرةٌ مِـنْ غَمَـامَـةٍ   تَصُوبُ فَيُرْوىٰ كُلُّ رَطْبٍ ويَابِسِ)

من الطويل ، وقد بحثت عنه كثيراً فلم أقف علىٰ قائله ، ولعلَّه للمؤلِّف الإمام العراقي .

(٥) سقط من (ب) و(هـ) قوله : (ورضيتَ منِّي بما صنَّفتُهُ أصولاً وفروعاً وفقهاً وتصوفاً وتفسيراً وأدباً وأمثالاً وحِكَماً وحساباً ورسائل إلىٰ غير ذلك) . وفي (ليدن) وحدها زيادة ونقص : (ورضيتَ بما صنَّفتُهُ أصولاً وفروعاً وفقهاً وتصوفاً وتفسيراً وأدباً وأمثالاً وحِكَماً **وفرائضَ وأخباراً وأشعاراً وشروحاً وزهداً**=

فإنَّ لهـٰذا الفنِّ الذي تبغيهِ.. قوماً[1] اختصَّهُمُ اللهُ سبحانَهُ بصفاءِ السَّريرةِ، وثُقوبِ البصيرَةِ، وضياءِ الحسِّ، وذكاءِ الحدْسِ، وفيضِ العقلِ، ونورِ النَّظرِ، وغزارةِ الفضلِ، وتوقُّدِ الخاطرِ، وصدقِ المُختبَرِ، وبُعدِ مَطرَحِ الفِكَرِ، ودونَ حِيازَةِ هـٰذه الرُّتَبِ السَّابقةِ[2].. مواقفُ تقصُرُ عنها الخُطا، ومجاهِلُ تضِلُّ فيها القَطا، ومِن أينَ لي إلمامٌ بهـٰذا الطَرَفِ، واغتنامٌ لمثلِ هـٰذه الطُّرَفِ، مع فجاجةِ[3] الطَّبعِ وبلادةِ الذِّهنِ، وكُلُولِ الفَهمِ، وقُصورِ التَّصرُّفِ، وتشعُّثِ الأمرِ، وتشعُّبِ الفِكْرِ، وازورارِ الطُّرُقِ، وانتقاضِ العُلَقِ[4]، والاعتياضِ عن النَّميرِ النُّقاخِ بالآجنِ الطَّرِقِ[5]، والتواءِ المقاصِدِ، واشتباهِ المراشِدِ، وجفوةِ الصَّديقِ الأخصِّ، ومُراوغَةِ ذي القرابَةِ الأمسِّ[6]، ولـٰكنْ إذا كنتَ قد جعلتَ هـٰذا الأمرَ ضربةَ لازبٍ[7]، مع أنَّ مَحلِّيَ منه مناطُ

= ومواعظ وسيراً، إلىٰ غير ذلك ممَّا أنا مرفوقٌ به).

(١) في (ليدن) وحدها: (فإنَّ لهـٰذا الفنِّ الذي عنيته، والقسم الذي بنيته.. قوماً) بدل (فإنَّ لهـٰذا الفنِّ الذي تبغيِهِ.. قوماً).

(٢) كذا في (ب) و(هـ) و(ليدن): (السابقة)، وفي (أ): (السامقة) وكتب بهامشها: (السابقة، صح).

(٣) في (ب) و(هـ): (مجاجة) بدل (فجاجة)، والفَجَاجَةُ: قِلَّةُ النُّضجِ.

(٤) العُلَق: الجمع الكثير.

(٥) سقط من (ب) و(هـ) قوله: (والاعتياضِ عن النَّميرِ النُّقاخِ بالآجنِ الطَّرِقِ)، والاعتياض: الاستبدال، والنَّمير: الماء الكثير النَّاجع في الرِّي، والنُّقاخ: الماء البارد العذبُ الصافي والخالص، والآجن: الماء المتغيِّرُ الطعم واللون، والطَّرِق: ماء السماء الذي خوَّضته الإبلُ وبالت فيه وبعَرت.

(٦) في (ب) و(هـ): (الأسن) بدل (الأمس).

(٧) في (ب) وحدها: (نصرته) بدل (ضربة).

القَعْبِ مِنَ الرَّاكبِ[1] . . فليَعذِرْ مَن وقفَ علىٰ كتابي هـٰذا إنْ وجدَ في ألفاظِهِ[2] نُزولاً عن رُتبَةِ التَّشدُّقِ ، أو ألفىٰ في معانيهِ انحرافاً يسيراً عنِ التَّعمُّقِ[3] ؛ فذلك مقصودُ مَنْ ألَّفتُ الكتابَ برسمِهِ[4] ، وإنْ كان دون رُتبَةِ مَنْ أبرزتُهُ باسمِهِ[5] ، فإذا لم يُضِفْ عليَّ النَّاظرُ فيه ملابِسَ حمدِهِ واستحسانِهِ . . فلا أقلَّ أنْ يَكُفَّ عنِّي غَرْبَ ذَمِّهِ وعُدوانِهِ[6] ؛ « فإنَّني جمعتُ العلومَ التي فرَّقها الإمامُ أبو حامدٍ رضيَ اللهُ عنهُ في تصانيفِهِ

---

(١) في (ب) و(هـ) : (محلُّ التَّعب) بدل (مناطُ القَعْبِ) ، والنَّوْطُ : التعليق ، والقَعْبُ : القدح منَ الخشب ، فالراكِبُ يَحمِلُ رَحْلَه وأَزْوادَه ، ويَتركُ قَعْبَه إلىٰ آخِرِ تَرْحالِه ، ثمَّ يُعَلِّقه علىٰ رَحْله كالعِلاَوَة ، فليس عنده بمُهِمٍّ .

(٢) في (ليدن) وحدها زيادة : (ألفاظه ومبانيه) .

(٣) في (ب) و(هـ) زيادةٌ : (عن منزلة التَّعمُّق) .

(٤) وهو قاضي القضاة أبو الحسن علي بن القاسم الشَّهرُزُوري كما سيأتي ، وسيقول فيما بعدُ : (أورِدُهُ بأوضحِ عبارةٍ ، وأسهلِ لفظٍ ، وأحترزُ بجَهدي مِن إيداعِهِ الألفاظَ المنغلقَةِ ، والكلماتِ الغريبَةِ ، وأتحفَّظُ مِن إيرادِها بطريقٍ يغمُضُ درْكُهُ ، ويعسُرُ الوقوفُ عليهِ . . .) ، ثم قال : (ووقتيَ الآنَ لا يتَّسِعُ للبسْطِ ، فإنْ فسحَ اللهُ سبحانَهُ في المُهَلِ ، ومَنَّ بتأخيرِ الأجَلِ ، وأيَّدَ ببسطةِ يدٍ ولسانٍ ، وأمَدَّ بصفاءِ قريحَةٍ وجَنانٍ . . أريتُكَ كيف تُزَفُّ خرائدُ المعارفِ في ملابسِ الشُّروحِ والبيانِ !) .

(٥) في (ب) و(هـ) : (وجعلته باسمه) ، وفي (ليدن) : (ووضعته باسمه) بدل (وإنْ كان دونَ رُتبَةِ مَن أبرزتُهُ باسمه) ، والمقصود شيخه حُجَّة الإسلام الإمام الغزالي .

(٦) في (ليدن) وحدها : (غَرْبَ لسانِه) بدل (غَرْبَ ذَمِّهِ وعُدوانِهِ) . والغَرْبُ : الحِدَّة ، يُقال : في لسانه غَرْبٌ ؛ أَي : حِدَّةٌ ، وغَرْبُ اللِّسانِ : حِدَّتُه . « تاج العروس » (غ ر ب) .

الكثيرَةِ ، وحصرتُها في أربعةِ أصولٍ ، وذكرتُ لُبابَهَا[١] في عِدَّةِ فصولٍ ، كُلُّ فصلٍ منها ينزِعُ إلىٰ نوعٍ مِنَ العُلومِ ، ويشيرُ إلىٰ طريقٍ مِنَ العمَلِ[٢] ، وسمَّيتُ الكتابَ بـ

«الذخيرة لأهل البصيرة»

وأوردتُ كُلَّ أصلٍ في بابٍ[٣] :

فالأوَّلُ : في معرفَةِ النَّفْسِ .

والثاني : في معرفَةِ الحقِّ سبحانَهُ[٤] .

والثالثُ : في معرفَةِ الدُّنيا .

والرابعُ[٥] : في معرفَةِ الآخرةِ»[٦] .

---

(١) في (ب) و(هـ) و(ليدن) : (وجعلتُها مرتَّبةً) بدل (وذكرتُ لُبابَهَا) .

(٢) كذا في (أ) : (طريقٍ مِنَ العمَلِ) وفي (ب) و(هـ) : (جنسٍ مِنَ العمَلِ) ، وفي (ليدن) : (**طرف** مِنَ العمَلِ **المعلوم**) .

(٣) سقط من (ب) و(هـ) قوله : (وسمَّيتُ الكتابَ بالذخيرةِ لأهلِ البَصيرَةِ ، وأوردتُ كُلَّ أصلٍ في بابٍ) .

(٤) كذا في (أ) : (في معرفَةِ الحقِّ سبحانَهُ) وفي (ب) و(هـ) : (**في معرفة** الخالقِ جلَّ جلالهُ) ، وفي (ليدن) : (**في معرفَةِ الله سبحانَهُ**) .

(٥) في (ب) و(هـ) : (**فالأصل** الأول ، **الأصل** الثاني ، **الأصل** الثالث ، **الأصل** الرابع) بدل (فالأوَّل ، والثاني ، والثالث ، والرابع) .

(٦) أشرت في بداية الكتاب أنَّ هـٰذه المقدمة قد سقطت من (د) كاملةً ، وسقط من (و) أغلبها كما نبَّهت عليه سابقاً ، وأنَّ المقدمة التي جاءت فيها هي قطعة مِنَ المقدِّمة التي في (أ) و(ب) و(هـ) و(ليدن) وقد وضعتها مابين علامتي التنصيص « » ، ثم جاء بعدها : (الباب الأول : في معرفة النفس وبيان وجه كون معرفتها مفتاح معرفة الحق سبحانه وتعالىٰ) ، وسقط من (و) قوله : =

ومَن لاحظَ[1] تصانيفَهُ بعينِ الإنصافِ ، وطالعَها ببصَرِ البصيرَةِ[2] . . ألفاها لا تشُذُّ عن هـٰذه الأصُولِ الأربعةِ ؛ إذ هي فروعُهَا ، وعليها يدورُ مفرَّقُهَا ومجمُوعُهَا .

ووجهُ اندماجِهَا مِن تحتِها واندِرَاجِهَا في تختِهَا : أنَّ الأركانَ أربعةٌ[3] ، رُكنانِ يتعلَّقَانِ بالظَّاهِرِ ، وآخَرانِ[4] يتعلَّقَانِ بالباطِنِ .

فأمَّا رُكنا الظَّاهِرِ . . فأحدُها[5] : امتثالُ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، وقد سمَّىٰ حُجَّةُ الإسلامِ ذلكَ . . بالعباداتِ ، وتحتَ هـٰذا اللفظِ تندرجُ الوظائفُ الشَّرعيَّةُ[6] ، فرضُهَا ونفلُهَا حَسَبَ المشروحِ في كُتُبِ المذهَبِ .

والثاني : حفظُ الأدبِ في الحركاتِ والسَّكَنَاتِ[7] ، وتحتَ هـٰذا يندمجُ[8] الجناياتُ والحدودُ والمعاملاتُ على الوجهِ المذكورِ في كُتُبِ الفقهِ ، وقد سمَّىٰ هـٰذا الفنَّ . . بالمعاملاتِ .

= (فالأوَّلُ : في معرفَةِ النَّفْسِ ، والثاني : في معرفَةِ الحقِّ سبحانَهُ ، والثالثُ : في معرفَةِ الدُّنيا ، والرابعُ : في معرفَةِ الآخرةِ) .

(١) في (ب) و(هـ) : (نظرَ) بدل (لاحظَ) .

(٢) في (ب) و(هـ) : (**ولاحظ كتبه بطرف المعرفة** وبصَرِ البصيرة) بدل (وطالعَها ببصَرِ البصيرَةِ) .

(٣) في (ب) و(هـ) : (أنَّ أركان **المعاملةِ** أربعةٌ) بدل (أنَّ الأركانَ أربعةٌ) .

(٤) في (ب) و(هـ) و(ليدن) : (وركنان) بدل (وآخَران) .

(٥) في (ب) و(هـ) : (فأمَّا **اللذان يتعلَّقان بالظاهر** فأحدهما) بدل (فأمَّا رُكنا الظَّاهرِ فأحدها) .

(٦) في (ب) و(هـ) زيادة : (**الأعمال** والوظائف الشرعيَّة) .

(٧) في (ب) و(هـ) زيادة : (في الحركاتِ والسَّكَنَاتِ **والمعايشِ والتَّصرُّفاتِ**) .

(٨) في (ليدن) وحدها : (تندرج) بدل (يندمج) .

وأمَّا الرُّكنانِ المتعلِّقانِ بالباطِنِ.. فأحدُهما : تطهيرُ القلبِ مِنَ الأخلاقِ الذَّميمةِ ؛ كالحقدِ والغضبِ والبُخلِ والحسدِ والحِرصِ[١] والكِبْرِ[٢] والعُجْبِ ، وسمَّاها في كُتُبِهِ.. بالمُهلِكاتِ .

والثاني : تحليَةُ القلبِ بالأخلاقِ المحمودةِ ؛ كالصَّبْرِ والشُّكرِ والخوفِ والرَّجاءِ والقناعَةِ والورَعِ والتَّوكُّلِ والمحبَّةِ ، وما يجري مَجراها ، وقد سمَّاها.. بالمُنجياتِ .

وجميعُ علومِهِ لا تخرُجُ عن هـٰذه الأركانِ الأربعةِ ، بل علومُ الخَلقِ كافَّةً لا يكادُ يشُذُّ منها شيءٌ عن هـٰذه الأصولِ الأربعةِ[٣] .

وها أنا ذا أشيرُ إلىٰ كلِّ أصلٍ منها في بابٍ مُفرَدٍ ، وأوردُهُ بأوضحِ عبارةٍ ، وأسهلِ لفظٍ ، وأحترزُ بجَهدي مِن إيداعِهِ[٤] الألفاظَ المنغلقَةَ ،

---

(١) قوله : (والحرص) ليس في (ب) و(هـ) و(ليدن) .

(٢) في (ليدن) وحدها زيادة : (والرياء) .

(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (٦/ ٧١١ إلىٰ ص ٧١٤) ، وانظر كذلك ما كتبناه عن كتابنا هـٰذا « الذخيرة لأهل البصيرة » في المقدِّمة (ص ٦٩ إلىٰ ص ٧٢) .
وفي (ب) و(هـ) زيادةٌ : (**بل علومُ الخَلقِ كافَّةً لا يكادُ يشُذُّ منها شيءٌ عن هـٰذه الأصولِ الأربعةِ ، وتعلُّق ذلك كلِّه بأربعةِ أشياءَ ، أحدها : العبدُ وحقيقة الخاصِّيَّة الإنسانيَّة ، والثاني : الموتُ ، والثالث : حالُ العبد في معاملته ربَّه في الحياة الدُّنيا ، والرابع : حاله في معاملة الرَّبِّ سبحانه إياه ؛ فجازاه في الحياة الأخرىٰ ، فوقعَ الكلامُ إذاً في أربعةِ أبوابٍ ، أحدها : في معرفة النَّفْسِ وكيف تكونُ مفتاحاً لمعرفةِ الله سبحانه ، البابُ الثاني : في معرفةِ الرَّبِّ تعالىٰ وتقدَّس ، البابُ الثالث : في معرفةِ الدُّنيا ، البابُ الرابع : في معرفةِ الآخرةِ ، وها أنا ذا أشيرُ إلىٰ كلِّ أصلٍ منها في بابٍ مُفرَدٍ**) .

(٤) في (ب) و(هـ) و(ليدن) : (جَهدي من إيراد) بدل (بجَهدي مِن إيداعِهِ) .

والكلماتِ الغريبَةِ[1] ، وأتحفَّظُ مِن إيرادِها بطريقٍ يغمُضُ درْكُهُ[2] ، ويعسُرُ الوقوفُ عليهِ ، ومَنْ أرادَ ذلك مبسوطاً أو مكسُوّاً[3] بعبارةٍ رشيقَةٍ وألفاظٍ غريبَةٍ[4] .. فعليهِ بكُتُبِ حُجَّةِ الإسلامِ أبي حامدٍ ؛ فهو المنبعُ ومنهُ المأخَذُ[5] .

ووقتيَ الآنَ لا يتَّسِعُ للبسْطِ ، فإنْ فسحَ اللهُ سبحانَهُ في المُهَلِ ، ومَنَّ بتأخيرِ الأجَلِ[6] ، وأيَّدَ ببسطةِ يدٍ ولسانٍ ، وأمَدَّ بصفاءِ قريحَةٍ وجَنانٍ .. أريتُكَ كيف تُزَفُّ خرائدُ المعارفِ في ملابسِ الشُّروحِ والبيانِ[7] .

جعلَ اللهُ التِمَاسَكَ أيُّها الأخُ العارفُ وإجابتي إيَّاكَ[8] بهذه اللطائفِ .. خالصاً مِنَ الرِّياءِ والتَّكلُّفِ ، وجذَبَ بضَبْعِنا[9] عن ورْطَةِ

---

(1) في (ليدن) وحدها زيادة : (الغريبة المنمَّقة) .
(2) في (ب) و(هـ) و(ليدن) : (من ذكر ما يغمُضُ درْكُهُ) بدل (مِن إيرادِها بطريقٍ يغمُضُ درْكُهُ) .
(3) في (هـ) وحدها : (مكسوراً) بدل (مكسواً) !
(4) في (ب) و(هـ) و(ليدن) زيادةٌ : (غريبةٍ أنيقَةٍ) .
(5) في (ب) و(هـ) أعاد الضمير إلى الكتب : (فهي المنبعُ ومنها المأخَذُ) بدل (فهو المنبعُ ومنهُ المأخَذُ) فالضمير فيها عائدٌ إلى الإمام حُجَّة الإسلام رضي الله عنه .
(6) كذا في (أ) : (ومَنَّ بتأخيرِ الأجَلِ) ، وفي (ب) و(هـ) : (وطوَّلَ في الأجَلِ) ، وفي (ليدن) : (وأرخىٰ في طولِ الأجل) .
(7) وهـٰذا لا يُستغربُ من مثله رضي الله عنه ؛ إذ إنَّه تربَّىٰ علىٰ موائد العلامة الأديب أبي القاسم الحريري ، وقرأ عليه « مقاماته » وشرحها ، انظر ماكتبناه في ترجمة المؤلِّف رضي الله عنه .
(8) كلمة (إيَّاك) ليست في (ب) و(هـ) و(ليدن) .
(9) الضَّبْع : العَضُدُ كُلُّها وأوسَطُها بِلَحْمِها ، أو الإِبْطُ ، أو ما بينَ الإِبْطِ إلىٰ نِصْفِ=

التَّعمُّقِ والتَّعسُّفِ ، ووفَّقَنا لكلِّ خيرٍ نُشيرُ إليه ونأمَلُ أنْ نحتوي عليه ، واستعمَلَنا فيما يُرضيهِ ويُزلِفُ لديهِ ، فإليه الملجأُ ، وعليه الاعتمادُ[1] ، أعوذُ بالله منَ الخَطَلِ في القولِ والعمَلِ ، وألوذُ به مِن مَزَلَّةِ القَدَمِ[2] والتَّلَطُّخِ بوِصْرِ الزَّلَلِ[3] .

* * *

العَضُدِ من أعلاهُ .

(١) في (ب) و(هـ) زيادةٌ : (وعليه الاعتمادُ ، وبه المُستعان وعليه التُّكْلان ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيم) ، وفي (ليدن) : (وعليه الاعتماد ، وهو المأمول لأنَّ به السؤل والمراد) .

(٢) في (ب) و(هـ) : (زلَّة القدم) بدل (مَزَلَّةِ القدم) .

(٣) في (ب) و(هـ) زيادةٌ : (وحسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ) ، والوِصْرُ لغةٌ في الإصرِ ، كإرث وورث ، ووسادة وإسادة ، وهو هنا بمعنى : الضيق والحبس .

فصلٌ
في ذِكرِ مَن أُلِّفَ الكتاب برسْمه وأُبرز باسمه[1]

لمَّا فرغتُ من تكوينِ هٰذه العادَةِ.. جرى الجماعةُ معيَ على العادَةِ ، وسألوني جَلوَتَهَا علىٰ خُطَّابِها ، وعَرضِهَا علىٰ أربابِها ، وأنا أتبلَّدُ وأتردَّدُ في حَدْرِ نِقابِها[2] ، إلاَّ عند صَدْرٍ تعلقُ بقلبِهِ أسبابُ الشَّرَفِ ، وتحظىٰ لديه مهائرُ الطُّرَفِ[3] .

وحين استفرغتُ وُسْعِي في ترجِيحِها وتكمِيلِها ، واستنفدتُ جَهدي في تسويرِها وتحجِيلِها ، وامتدَّ في خِدرِ[4] الصِّيانَةِ ثواؤها ، وكادَ ينشِدُ :

والبِيضُ قَدْ عَنَسَتْ وطَالَ جِرَاؤُهَا[5]

---

(١) هٰذا الفصل سقط من (هـ) و (ليدن) كاملاً إلىٰ قوله : (البابُ الأوَّلُ في معرفَةِ النَّفْسِ وَبَيانِ وجهِ كَونِ معرفتُهَا مفتاحَ معرفَةِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ) .

(٢) الحَدْرُ : الإنزال .

(٣) في (أ) : (ويُخطىٰ لديه مهائرُ الطُّرُقِ) ، وفي (ب) : (وتحظىٰ لديه جبائر الطرف)، والمهائر : الحرة ذات المَهر الثمين، والطُّرَف : المال المستحدث . وقد جمعنا بين كلمات النسختين بما يصحُّ به المعنىٰ ، وهو كناية بليغة كما لا يخفىٰ .

(٤) في (ب) : (واستد في حدرِ) بدل (وامتدَّ في خدرِ) .

(٥) في (ب) : (جزاها) بدل (جِرَاؤُهَا) ، وهو صدرُ بيتٍ للأعشىٰ ، عجزه : ونَشَأْنَ فِي فَنَنٍ وَفِي أَذْوادِ .

رفعتُها إلىٰ سامي مجلسِ المولى الرَّضي ، بهاءِ الدَّولَةِ والدِّينِ ، شهابِ الإسلامِ ، قاضي القُضاةِ وشمسِهِم ، مخلِّصِ الدَّولَةِ ، مُعتَمَدِ الملوكِ ، فخرِ المِلَّةِ ، شرفِ المِلَّةِ[1] ، حُجَّةِ الشَّريعةِ ، علَمِ الهُدىٰ ، مُقتدى الورَىٰ ، أبي الحسنِ عليِّ بنِ القاسمِ الشَّهرُزُوريِّ[2] ، أدامَ اللهُ رِفعتَهُ[3] ، وجعلَ جبهةَ النَّثرَةِ رُقعتَهُ[4] ؛ فهو المجلسُ تُجلَبُ[5] إليهِ نتائجُ الألبابِ ، ويُفرَغُ عليه كلُّ ثناءٍ مُستطابٍ ، وتُزَفُّ إليهِ عرائسُ الأفكارِ[6] ، ويَرجِعُ منه بالأيادي . . العَونُ والإبكارُ[7] ، وهو حرسَ اللهُ مجدَهُ وأورَىٰ بالسَّعادَةِ زِندَهُ . . صدرُ خريدَةِ الدَّهْرِ ، وفارسُ مضمارِ العَصْرِ ، بل هو الحُسامُ جلاهُ صيقلٌ طبعيٌّ . . فأخلَصَهُ ،

---

(١) جناس تام ، أراد بالأوَّل : الأُمَّة ، وبالثَّاني : السُّنَّة والطَّريقة .

(٢) في (ب) : (رفعتها إلىٰ فلان) بدل (رفعتُها إلىٰ سامي مجلسِ المولى الرَّضي ، بهاءِ الدَّولَةِ والدِّينِ ، شهابِ الإسلامِ ، قاضي القُضاةِ وشمسِهِم ، مخلِّصِ الدَّولَةِ ، مُعتَمَدِ الملوكِ ، فخرِ المِلَّةِ ، شرفِ المِلَّةِ ، حُجَّةِ الشَّريعةِ ، علَمِ الهُدىٰ ، مُقتدى الورَىٰ ، أبي الحسنِ عليِّ بنِ القاسمِ الشَّهرُزُوريِّ) ! وقد ترجمتُ للعلامة الشَّهرُزُوري في مقدِّمة الكتاب (ص ٦٧) فانظره . وشَهْرُزُور بضم الراء كما في « وَفَيات الأعيان » (٤/ ٧٠) ، وعليه أغلب المصادر ، وفي « معجم البلدان » (٣/ ٣٧٥) بفتح الراء .

(٣) في (ب) : (نعمته) بدل (رفعته) .

(٤) في (ب) : (جبهةَ الشَّرَفِ رِفعَتَهُ) بدل (جبهةَ النَّثرَةِ رُقعتَهُ) ، والنَّثْرَةُ : كوكبٌ فِي السَّماءِ كأنّه لَطْخُ سَحابٍ حِيالَ كَوْكَبَين ، تُسمِّيه العربُ نَثْرَة الأسد . وهي من مَنازِل القمر . انظر « تاج العروس » .

(٥) في (ب) : (الذي تُجلَبُ) .

(٦) في (ب) : (الأبكار) بدل (الأفكار) .

(٧) سقط من (ب) قوله : (ويَرجِعُ منه بالأيادي . . العَونُ والإبكارُ) .

والغمامُ أنشَأهُ نوءٌ فضليٌّ . . فأنشَصَهُ .

فها أنا ذا أسحَبُ به ذيلَ الافتخارِ على الأقرانِ ، وأجعلُ الثناءَ عليه بمنزلَةِ التَّسبيحِ وتلاوةِ القرآنِ[1] .

---

(١) في مقدِّمة كتاب « السَّامي في الأسامي » (ص ٣) (صورة مخطوط للكتاب تاريخ نسخه في سنة ٦٠١هـ ، طبع في إيران سنة ١٩٦٧م) لصاحب « مجمع الأمثال » الإمام أبي الفضل المَيداني (ت: ٥١٨هـ) تشابه كبير في المعنىٰ والمبنىٰ والمناسبة لهٰذه القطعة الأدبيَّة البليغة التي كتبها الإمام العراقي ، فلا أدري هل اقتبسها المؤلِّف العراقي منه ، أم هي من زيادات النساخ ؛ لأنَّها لم تثبت إلاَّ في نسختين من أصل ثمانِ نسخ !
وها أنا أنقل ما ذكره المَيداني في مقدِّمة كتابه المذكور ، محمِّراً المتشابه منه والمنقول ، كما ورد في المخطوط المشار إليه ، قال رحمه الله تعالىٰ متحدِّثاً عن كتابه ، ذاكراً مَنْ أبرزه باسمه واختتمه برسمه : (وقِدْمَاً كنتُ أبسُطُ وأقبِضُ إليه وعنه يَدِي ، وأُسوِّفُ الأمرَ في إتمامه من يومي إلىٰ غَدي ، تكاسُلاً مِنِّي ؛ لِمَا أرىٰ من خمولِ الأدبِ وأهلِه ، وذبولِ مَن يشرَعُ في فرعه أو أصله ، والمُختَلِفونَ إليَّ . . مُلِحُّونَ عليَّ في جَلوَة هـٰذه الغادَة علىٰ خُطَّابِها ، وأنا أتبلَّدُ وأتردَّدُ في خَدْرِ نِقابِها ، إلا عند صَدْرٍ . . يَنهىٰ عليه قلائدُ الشَّرَفِ ، وتحظىٰ لديه مهائرُ الأدب ، وحين استفرغتُ وُسْعِي في ترجِيحِها وتكحيلها ، واستنفدتُ جَهدي في تسويرها وتحجيلها ، وامتدَّ في خدرِ الصِّيانَةِ ثواؤها ، وكادَ ينشِدُ : والبِيضُ قَدْ عَنَسَتْ وطَالَ جِرَاؤُهَا . . زففتُها إلىٰ مجلسِ الشيخ العميد الأجل ، السَّيِّدِ الأعزِّ ، ثقةِ المُلْكِ ، شمس الكتاب ، أبي البركات علي بن مسعود بن إسماعيل ، أدامَ اللهُ رفعتَهُ ، وجعلَ جبهةَ النَّثْرَةِ رُقعتَهُ ؛ فهو المجلسُ تُجلَىٰ فيه جرائدُ الأدب ، وتُجلَبُ إليهِ نتائجُ الألبابِ ، وتُزَفُّ إليهِ عرائسُ الأفكارِ ، ويُرجَعُ منه بالأيادي الأبكارِ ، وهو أدام اللهُ حراسته . . صدرُ جريدة المحتلفة إليَّ ، وفارسُ مضمار الواردة عَلَيَّ ، بل هو الحُسامُ جلاهُ صيقلٌ طبعيٌّ . . فأخلَصَهُ ، والغمامُ أنشَأهُ نَوءٌ فضليٌّ . . فأنشَصَهُ . فهو اليومَ قُرَّةُ عيني ، وفلذَةُ كبدي ، وأعزُّ عليَّ من نفْسي ووَلَدي ، أسحَبُ به ذيلَ الفخارِ علىٰ أقراني ، =

كفا اللهُ فضائلَهُ عينَ الكمالِ ، لكأنَّ[1] ابن الرُّومي نظرَ إليهِ فقال :

[من البسيط]

لـولاَ عَجائِـبُ صُنْـعِ اللهِ مَا ثبتَـتْ   تِلكَ الفَضائِلُ في لَحمٍ ولاَ عَصَبِ[2]

وهـٰذا حينُ أبتدي بأبوابِ الكتابِ ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ .

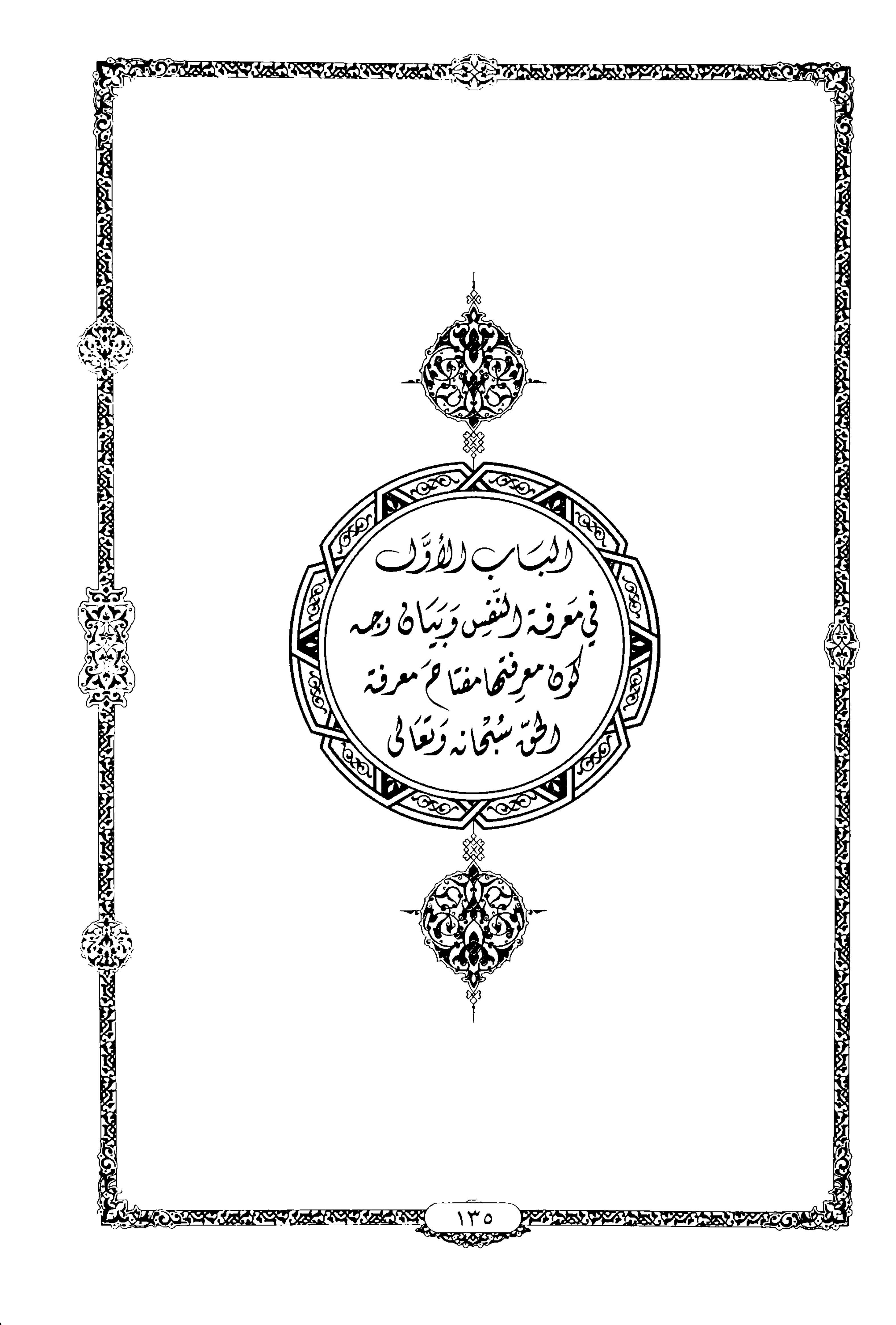
* * *

= وأجعلُ الثناءَ عليه تسبيحي وقُرآني ، ولهـٰذا افتتحتُ الكتاب على اسمه ، واختتمته برسمه) .

(١) في (ب) : (وكأنَّ) بدل (لكأنَّ) .

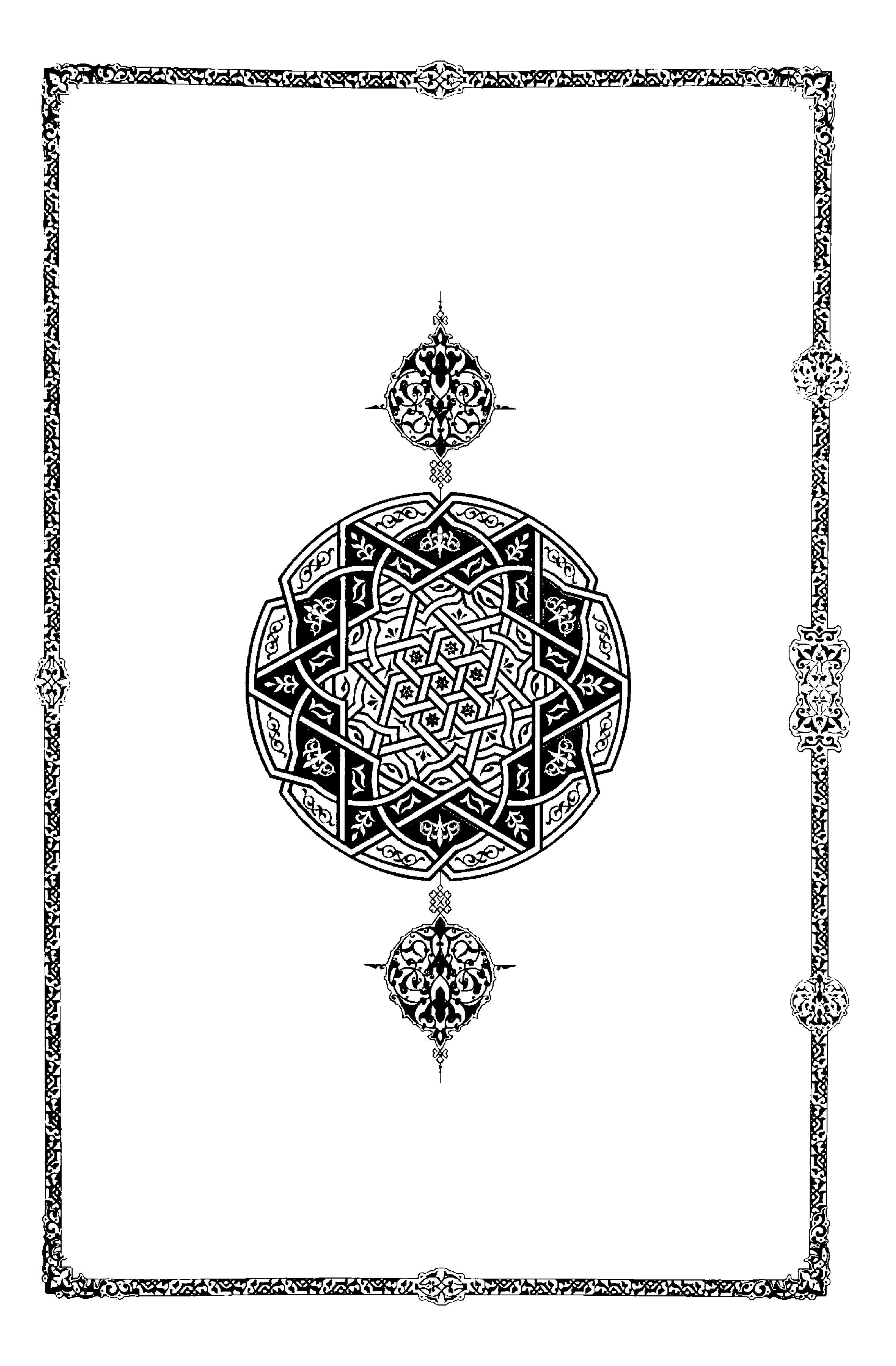
(٢) من قصيدة طويلة قالها ابن الرومي في الحسن بن عبيد الله بن سليمان (ت: ٢٨٤ هـ) . انظر « ديوان ابن الرومي » (١/١٨٩ ، ص ١٩٦) ، وفيه :

لـولاَ عَجائِـبُ لُطفِ اللهِ مَـا نَبَتَـتْ   تِلكَ الفَضائِلُ في لَحمٍ وفي عَصَبِ



الباب الأوّل

في معرفة النّفس وبيان وجه كون معرفتها مفتاح معرفة الحقّ سبحانه وتعالى



الباب الأول
في معرفة النفس وبيان وجه كون معرفتها مفتاح معرفة الحق سبحانه وتعالى[(١)]

اعلم أنَّ مفتاحَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ . . إنَّما هو معرفةُ النَّفْسِ ؛ ولهٰذا قيل : مَن عرفَ نفْسَهُ . . فقد عرفَ ربَّهُ[(٢)] ، وقال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الباب من كتاب « كيمياء السَّعادة » (ص ٧) ، و« ميزان العمل » (ص ٦٨ ، بيان تزكية النَّفْس وقواها واختلافها علىٰ سبيل المثال والإجمال) . وكذا جاء عنوان الباب في (أ) و(د) : (الباب الأول في معرفة النفس وبيان وجه كون معرفتها مفتاح معرفة الحق سبحانه وتعالىٰ) ، وفي (ب) و(هـ) : (بابٌ في معرفة النَّفْس وبيان وجه كونها طريقاً إلىٰ معرفة الله تعالىٰ) وفي (ليدن) : (الباب الأول في معرفة النفس وبيان كونها مفتاح معرفة الحق سبحانه) ، وقد سقط هٰذا الكلام من (و) ، ومن هٰذا الموضع يبدأ اتصال (د) و(و) مع (أ) و(ب) و(هـ) و(ز) و(ليدن) .

(٢) ذكر المؤلِّفُ هٰذا الأثر هنا وفي مقدِّمة الباب الثاني (ص ٢٢٣) كما سيأتي ؛ إذ قال : (وفي الأخبارِ والآثارِ مشهورٌ : مَن عرف نفسه . . عرف ربه) ، وبيِّنٌ أنَّ المؤلِّف لم ينسب الكلام في الموضعين إلى الحضرة النَّبويَّة ، فعبارته محتملة ، وأجمعُ كلامٍ وقفتُ عليه في الكلام عن هٰذا الأثر ؛ ما نقله الإمام العجلوني رضي الله عنه في كتابه « كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر منَ الأحاديث علىٰ ألسنة الناس » (٢/ ٢٦٢ ، رقم : ٢٥٣٢) ، قال : « من عرف نفسه . . فقد عرف ربه » .

قال ابن تيمية : موضوع ، وقال النووي [في « فتاواه » ، ص ٢٤٨] قبله : ليس بثابت ، وقال أبو المظفر بن السمعاني في « القواطع » [٢/ ٦٠] : إنَّه لا يعرف=

ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصّلت : ٥٣] .

= مرفوعاً ، وإنَّما يُحكىٰ عن يحيى بن معاذ الرازي . يعني : من قوله .

وقال ابن الغرس [« تسهيل السبيل » (ق ١٣١/ ب)] بعد أن نقل عن النووي أنَّه ليس بثابت ، قال : لٰكن كُتُب الصوفية مشحونة به يسوقونه مساق الحديث ؛ كالشيخ محيي الدين بن عربي وغيره ، قال : وذكر لنا شيخنا الشيخ حجازي الواعظ شارح « الجامع الصغير » للسيوطي بأنَّ الشيخ محيي الدين بن عربي معدودٌ مِنَ الحُفَّاظ .

وذكر بعض الأصحاب أن الشيخ محيي الدين قال : هٰذا الحديث وإن لم يصحَّ من طريق الرواية . . فقد صحَّ عندنا من طريق الكشف .

وللحافظ السيوطي فيه تأليفٌ لطيفٌ سمَّاه « القول الأشبه في حديث مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه » ، وقال النجم : قلت : وقع في « أدب الدِّين والدُّنيا » للماوردي عن عائشة سُئل النبيُّ صلى الله عليه وسلم : مَنْ أعرف الناس بربِّه ؟ قال : أعرفهم بنفسه) انتهىٰ كلام العلاَّمة العجلوني .

أقول : أمَّا ما ذكره عن كتاب « أدب الدِّين والدُّنيا » فالذي فيه (ص ١٣١ ، ص ٣٧٤) : (وقد قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ؛ متىٰ يعرفُ الإنسانُ ربَّه ؟ قال : « إذَا عَرَفَ نَفْسَهُ » .

وأيضاً : لكلام الإمام ابن الغرس تتمَّة لم يذكرها العلاَّمة العجلوني ، أنقلها للفائدة ، قال رحمه الله تعالىٰ بعد نقله لكلام الشيخ الأكبر ابن العربي : (فحينئذ يجوز لِمَن كُشف له بأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم قاله . . إسنادُه إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ويمتنع ذلك علىٰ غيره ؛ لأنَّه حَكَمَ بما لا يَعلم ، وذلك لا يجوز كما هو مقرَّرٌ في محلِّه ، لٰكن رأيتُ في شرح قصيدة ابن سينا التي مطلعها : (هبطت إليك من المحلِّ الأرفع) للشيخ داود الحكيم صاحب « التذكرة » أنَّ البيهقي خرَّجه حديثاً مرفوعاً ، فليراجَع الشرح المذكور ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم) انتهىٰ كلام العلامة ابن الغرس .

وما نقله العلامة ابن الغرس عن بعض الناس أنَّ الشيخ الأكبر قال : (هٰذا الحديث وإن لم يصح من طريق الرواية . . فقد صحَّ عندنا من طريق الكشف) . . =

وبالجملةِ ؛ فأقربُ الأشياءِ إليك نفْسُكَ ، فإذا جهلتَ نفْسَكَ . . فكيف تَعرِفُ ربَّكَ ؟!

* * *

= لم أقف عليه في كتب الشيخ الأكبر حسب اطلاعي ، وإن كان قد صرَّح رضي الله عنه في « الفتوحات المكيَّة » وغيره من كتبه بنسبته للحضرة النبويَّة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحيَّة .

١ فصلٌ

في تعيين معرفة النفس التي تكون مفتاحاً لمعرفة الله تعالى[1]

عساك تقولُ : أنا أعرِفُ نفسي ولستُ أعرِفُ بذلك ربِّي ؟

فاعلم أنَّ هٰذا الظَّنَّ غلطٌ منكَ[2] ؛ فإنَّ المعرفةَ الحاصلةَ لك بنفْسِك علىٰ ما أرىٰ . . لا تصلحُ أن تكونَ طريقاً إلىٰ معرفةِ اللهِ سبحانَه ؛ فإنَّ هٰذه المعرفةَ يُشَارِكُكَ فيها البهائمُ ؛ لأنَّك إذا عرفتَ نفْسَكَ كما أرىٰ . . فإنَّما تعرِفُها من حيثُ حواسُّكَ وجوارحُكَ ، فلا تكادُ تعرِفُ من ظاهرِ خِلقَتِكَ وصورتِكَ غيرَ هٰذا ، ومن باطنِكَ أنَّك إذا جُعتَ . . أكلتَ ، وإذا غضِبتَ . . أعملتَ[3] ، وإذا شبِقْتَ . . نَكحتَ ، وهٰذا شيءٌ يشاركك فيه سائرُ الدَّوابِّ .

فإذاً ؛ ينبغي أنْ تطلبَ معرفةَ حقيقةِ الإنسانيةِ ما هي ؟

ومن أين جاءتْ ؟

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « كيمياء السَّعادة » (ص ٧) .

(٢) في (هـ) سقط كبير من بعد هٰذا الموضع ؛ فقد جاء فيها : (عساك تقول : أنا أعرفُ نفسي ولستُ أعرفُ بذلك ربي ؟ فاعلم أنَّ هٰذا الظنَّ . . . . مساءة في طينتك ، أجُعلت فيك لتصير مسخَّراً لخدمتها) ، وسأشير إلىٰ موضع نهاية السقط .

(٣) كذا في (أ) ، وفي (ب) و(د) و(و) و(ليدن) زيادة : (أعملتَ غضبَكَ) .

وإلىٰ أين تذهبُ ؟

وما سببُ مُقامِها[١] في هـٰذا المنزلِ ؟

ولماذا خُلِقَتْ ؟

وما سعادتُها وما شقاوتُها ؟

فإنَّ الصفاتِ المجموعةَ في باطنك ؛ بعضُها صفاتُ البهائمِ ، وبعضُها صفاتُ السِّباعِ ، وبعضُها صفاتُ الشَّياطينِ ، وبعضُها صفاتُ الملائكةِ ، فانظر من أيِّ هـٰذه الأوصافِ جوهرُك الحقيقيُّ ؟

فإذا عرفتَ هـٰذا . . كان بقيَّةُ الصفاتِ غريبةً عندكَ وعاريةً معكَ[٢] ، وما لم تعرفْ ذلك . . لا تكادُ تجدُ السَّبيلَ إلىٰ طلبِ سَعادتِكَ ؛ فإنَّ لكلِّ صفةٍ من هـٰذه الصِّفاتِ غذاءً خاصًّا وسعادةً خاصَّةً .

فغذاءُ البهائمِ وسعادَتُها . . الأكلُ والشُّربُ والنَّومُ والجِمَاعُ ، فإنْ كنتَ من جملةِ البهائمِ . . فاقضِ[٣] أيَّامكَ ولياليكَ في تربيةِ حالِ[٤] البطنِ والفرجِ !

وغذاءُ السِّباعِ وسعادَتُها . . القتلُ والعَضُّ والغضبُ ، فإنْ كنتَ منها . . فاشتغِلْ بتربيةِ ذلك !

وغذاءُ الشياطينِ وسعادتُها . . في المكرِ والحيلةِ وإيقاعِ الفتنِ

---

(١) في (ليدن) وحدها : (بقائها) بدل (مقامها) .
(٢) في (ليدن) وحدها زيادة (وعاريةً معك ، وعوناً لك) .
(٣) كذا في (أ) : (فاقضِ) ، وفي (ب) و(د) و(و) و(ليدن) : (فقضِّ) .
(٤) في (د) وحدها : (حالَي) بدل (حال) .

والخصوماتِ ، فإنْ كنتَ من جملتِهمْ . . فاشغَلْ نفْسَكَ بذلك ؛ لتصلَ إلىٰ راحَتِهم !

وغذاءُ الملائكةِ وسعادَتُها . . مشاهدةُ جمالِ الحضرةِ الإلـٰهيّةِ وعدمُ الفتورِ عن الذِّكْرِ ، فليس لصفاتِ البهائمِ والسِّباعِ والشياطينِ سبيلٌ إليهم ولا أثرٌ عندهم ، فإنْ كنتَ من جوهرِ الملائكةِ . . فابذُلْ جَهدَكَ في طلبِ معرفةِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ ، واشغلْ كلِّيَّتَكَ بمشاهدةِ جمالِها ، وأقبلْ بجُملَتِكَ علىٰ محاضرةِ جلالِها ، وخلِّصْ نفْسَكَ من يَدِ الشهوةِ والغضبِ ، واجتهدْ أنْ تعلمَ لمَ خُلِقَتْ فيكَ صفاتُ البهائمِ والسِّباعِ[1] ؟ ولأيِّ معنىً خُمِّرَتْ[2] في طينتكَ ؟

أجُعلتْ فيك لتصيرَ مسخَّراً لخدمتِها ، مشغولاً بمراعاتِها ، مأسوراً في قبضتِها ؟!

أم لتكونَ مأسورةً في قبضتِكَ ، مُسْتَسْعَاةً في خدمتِكَ ، مُسخَّرَةً لحاجتِكَ ، مُساعِدةً لكَ علىٰ سفرِكَ إلىٰ آخرتِكَ ومنزلِ كرامتِكَ ؟!

كلاَّ ؛ إنَّما خُلِقَتْ معاضِدةً لكَ علىٰ شأنكَ ؛ فمنها ما جُعِلَ لك مَرْكباً ، ومنها ما خُلِقَ لتَتَّخِذَهُ آلتَكَ وسلاحَكَ ؛ لتُحَصِّلَ به سببَ سعادتِكَ[3] ، وتصيدَ بمعاونتِها صُيُودَ دولتِكَ ، ولا تزالُ هـٰذه الأشياءُ

---

(١) سقط من (و) وحدها قوله : (وخلِّصْ نفْسَكَ من يَدِ الشهوة والغضب ، واجتهدْ أنْ تعلمَ لمَ خُلِقَتْ فيك صفاتُ البهائم والسِّباع) .

(٢) هنا ينتهي السقط في النسخة (هـ) .

(٣) كذا في (أ) و(و) و(ليدن) : (سبب سعادتك) ، وفي (ب) و(هـ) : (بذر سعادتك) .

بحُكمِكَ وتحت قدمِكَ ، فيكون حظُّ الخواصِّ من ذلك السَّعادةَ بمشاهدةِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ ، وحظُّ العوامِّ من ذلك الفوزَ بالجنةِ .

فإذا عرفتَ ما ذكرتُ . . عرفتَ حينئذٍ الطريقَ[1] إلىٰ معرفةِ نفْسِكَ ، فمَن لم يَقفْ علىٰ هـٰذا ولم يعلمْهُ . . كان حظُّهُ من طريقِ دينِهِ القشرَ دون اللبابِ ، ونصيبُهُ مِنَ الحقيقةِ . . الوقوفَ عنها من وراءِ حجابٍ .

* * *

(١) في (و) وحدها : (عرفتَ علَّتك الطريق) بدل (عرفتَ حينئذٍ الطريق) .

٢ فصل

في أنَّ المراد بالنَّفس المعنى الباطن دون الظاهر(١)

إذا شئتَ أنْ تعرِفَ نفْسَكَ . . فاعلمْ أنَّكَ مخلوقٌ من شيئينِ :

أحدُهما : قالبُكَ الظاهرُ ، وهو بدنُكَ ، وهـٰذا يمكنُكَ الوقوفُ عليه بعينِكَ الظاهرةِ .

الثاني : هو المعنى الباطنُ ، وهو المسمَّىٰ نفْسَاً وروحاً وقلباً ، وهـٰذا المعنىٰ لا سبيلَ إلىٰ معرفتِهِ إلا ببصرٍ بصيرةِ الباطنِ ، وكلُّ ما سواهُ فهو تبَعٌ له ومن جملةِ خدمِهِ وجنودِهِ ، ونحن نسمِّي ذلك بالقلبِ ، فإذا ذكرنا القلبَ هـٰهنا . . فمرادُنا به ذلك المعنى الذي تارةً يسمَّىٰ نفْسَاً ، وتارةً يسمَّىٰ روحاً ، ولا نريدُ به القلبَ الذي هو بَضْعَةٌ من لحمٍ في الصَّدرِ مِنَ الجانبِ الأيسرِ(٢) ؛ فإنَّ ذلك ليس له قَدْرٌ إلا كَقَدْرِ الدَّابَّةِ بالإضافةِ إلىٰ راكبِها ؛ فإنَّ هـٰذه البَضْعَةَ مِنَ اللحمِ . . يستوي فيها الإنسانُ والبهائمُ والحيُّ والميْتُ ، وهي ممَّا يدرَكُ بالعينِ الظاهرةِ ، وكلُّ ما كان مدرَكاً بهـٰذه الحواسِّ . . فهو من عالَمِ الشهادةِ ، وليس حقيقةَ القلبِ

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « كيمياء السَّعادة » (ص ٨) ، و« الإحياء » (٥/١٣) (الكتاب الأوَّل من ربع المهلكات ، وهو كتاب عجائب القلب ، بيان معنى النَّفْس والرُّوح والقلب والعقل ، وما هو المرادُ بهـٰذه الأسامي) .

(٢) في (ليدن) وحدها : (الأيمن) بدل (الأيسر) .

الذي هو مقصودُنا من هـٰذا العالَمِ ؛ لـٰكنَّه غريبٌ فيه وعابرُ سبيلٍ ، ومركَبُه تلك[1] البَضْعَةُ مِنَ اللحمِ ، وسائرُ الجوارحِ والأعضاءِ جنودُهُ وأعوانُهُ ، وآلةٌ لَهُ ، وهو الملِكُ[2] لجميعِ البدنِ ظاهراً وباطناً .

ومن صفتِهِ معرفَةُ اللهِ تعالىٰ ومشاهدةُ جمالِ حضرتِهِ ، وإليه تَوجَّهَ التَّكليفُ والخطابُ ، ولَهُ العقابُ والثَّوابُ والسَّعادةُ والشَّقاوةُ[3] الأصليَّتانِ ، والبدنُ في كلِّ ذلك وأعضاؤهُ وجملَتُهُ تبَعٌ للقلبِ فيهما ، ومعرفةُ حقيقتهِ وصفاتهِ مفتاحُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

فاجتهدْ أنْ تعرفَ قلبكَ ؛ فهو جوهرٌ عزيزٌ مِنْ جنس جوهرِ الملائكةِ ، ومعدِنُهُ الأصليُّ إنَّما هو الحضرةُ الإلـٰهيَّة ، ومِنْ تلك الحضرةِ جاءَ وإليها يرجعُ ، وهو غريبٌ هـٰهنا ، قدِمَ للتِّجارةِ والحِراثةِ حين كانتِ الدُّنيا مزرعةَ الآخرةِ[4] ، وفيما بعدُ يتبيَّنُ لكَ هـٰذه التِّجارةُ والحِراثةُ إن شاء اللهُ تعالىٰ .

* * *

---

(١) في (ليدن) وحدها : (ومركبه سر ملك) بدل (ومركبه تلك) .

(٢) جاء في هامش (هـ) وحدها : (بيان المسلك) ووضع عليها إشارة التصحيح ، فتكون العبارة فيها : (وهو بيان المسلك لجميعِ البدنِ) بدل (وهو الملِكُ لجميعِ البدنِ) .

(٣) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) و(ليدن) : (ولَهُ وعليه العتابُ والعقابُ وله السَّعادةُ والشَّقاوةُ) بدل (ولَهُ العقابُ والثَّوابُ والسَّعادةُ والشَّقاوةُ) .

(٤) قوله : (حين كانتِ الدُّنيا مزرعة الآخرة) سقط من (ب) و(هـ) و(د) و(ليدن) .

٣ فصل
في بيان وجود القلب وأنَّه حقيقة الرُّوح

اعلم أنَّهُ لا سبيلَ إلىٰ معرفةِ القلبِ وحقيقتِهِ . . حتىٰ تعرِفَ وجودَهُ ماذا ؟ ثُمَّ تعرفَ جنودَه وكيفيَّةَ علاقتِهِ بجنودِه واستخدامِه لهم ، ثُمَّ تعرِفَ صفتَهُ وكيف يحصلُ بها معرفةُ اللهِ تعالىٰ ويصلُ إلىٰ سعادتِهِ ؟

ونحن نشيرُ إلىٰ طَرَفٍ من كلِّ ذلك بعونِ اللهِ تعالىٰ ، فنقولُ :

أمَّا وجودُهُ : فظاهرٌ ؛ فإنَّه لا يشكُّ آدميٌّ في وجودِهِ ، ووجودُهُ ليس بقالبِهِ الظاهرِ الذي هو جسدُهُ وبدنُهُ ؛ فإنَّ ذلك موجودٌ للميْتِ ولا رُوحَ فيه ، فإنَّا نريدُ بهٰذا القلبِ حقيقةَ الرُّوحِ ، فإذا لم تكن هٰذه الرُّوحُ . . كان الجسدُ ميْتاً .

ومَنْ فتحَ عينَهُ وأعملَ نظرَهُ[١] في السَّماواتِ والأرضِ وما يمكنُهُ النَّظرُ فيه وغفَلَ عن بدنِهِ بعينِ ظاهرِهِ[٢] . . فهو وإن غابَ عنِ الأشياء كلِّها ـ ما خلا المنظورَ فيه ـ فلا يغيبُ بقَسْمِ الضرورةِ عن معرفتِهِ بوجودِهِ ولا يرتابُ به[٣] .

---

(١) كذا في (أ) و(ليدن) : (وأعمَلَ) ، وفي (د) : (وعمِلَ) ، وفي (ب) و(هـ) كتبت : (وأعملَ نظره) ثمَّ شُطبَ عليها وكتبَ في هامشها : (وغفَلَ عمَّا ، صح) .

(٢) كذا في (ب) و(د) و(هـ) و(ليدن) : (بعين ظاهره) ، وفي (أ) : (تعب ظاهرُه) ، وفي (و) : (تعيَّن ظاهره) !

(٣) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) و(ز) و(ليدن) سقطٌ ؛ فقد=

وإن كانتِ الغفلةُ مستوليةً عليه حتىٰ إنَّه غفَلَ عن بدنِهِ وجسدِهِ ؛ بل عنِ المخلوقاتِ كلِّها بحيث لا يُحِسُّ بشيءٍ منها . . فهو لا يمكنُه أن ينفيَ عن نفسِهِ معرفتَهُ بوجودِهِ[1] .

ومَنْ دقَّقَ النظرَ وأخفى التَّأمُّلَ في هـٰذا . . عرفَ به شيئاً من حقيقةِ الآخرةِ ، وأنَّهُ يجوزُ أن يُنزَعَ عنه هـٰذا القالَبُ[2] ، وأن يُفرَّقَ بينَه وبين هـٰذا الجسمِ والبدنِ ، ويستفيءُ هو بحالِهِ ـ أعني : روحَهُ ـ فلا يكونُ معدوماً . وحالةُ النَّومِ تُحقِّقُ عند البصَرِ هـٰذا القولَ[3] .

* * *

= جاءتِ العبارةُ فيها : (فهو بقسم الضرورة يعرف وجوده ولا يرتاب به) بدل (فهو وإن غابَ عنِ الأشياء كلِّها ـ ما خلا المنظورَ فيه ـ فلا يغيبُ بقسم الضرورة عن معرفتهِ بوجوده ولا يرتاب به) .

(١) كذا في (ب) و(هـ) و(ليدن) : (فهو لا يمكنه أن ينفي عن نفسه معرفته بوجوده) ، وفي (أ) و(و) : (فهو لا يمكنه أن يستفيء عن نفسه معرفته بوجوده) ، وفي (أ) كتب فوق كلمة (يستفيء) : (أي : يسترجع) وهي منَ الفيء ؛ بمعنى : التحول والرجوع . انظر « تاج العروس » (ف ي أ) ، وفي (د) : (فهو لا يمكنه أن يفنىٰ عن نفس معرفته بوجوده) .

(٢) في (ليدن) وحدها : (القلب) بدل (القالب) .

(٣) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) و(ليدن) سقطٌ وتغيير ؛ فقد جاءت العبارةُ فيها : (ويبقىٰ هو بحاله فلا يكون معدوماً) بدل (ويستفيءُ هو بحالِهِ ؛ أعني : روحَهُ فلا يكونُ معدوماً ، وحالةُ النَّومِ تحقِّقُ عند البصَرِ هـٰذا القولَ) .

٤ فصل

في بيان حقيقة القلب وأنها مجردة (١)

أمَّا حقيقةُ ماهيَّةِ القلبِ وصفتِهِ الخاصَّةِ : فإنَّه لم يرخِّصِ الشرعُ في كشفِهِ ولم يأذنْ فيه(٢) ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، فذكَرَ أنَّه من عالَمِ الأمرِ وأنَّه إلـٰهيٌّ ، ولله الأمرُ والخلقُ(٣) .

فكلُّ ما تطرَّقَ إليه مساحةٌ ومعرفةٌ وكميَّةٌ ومقدارٌ . . فهو من عالَمِ الخَلقِ ؛ فإنَّ الخَلقَ في الأصلِ يُرادُ به التَّقديرُ ، قال الشَّاعرُ : [من مجزوء الكامل]

ولأَنْـتَ تَفْـري مـا خلَقْـتَ وبَعْـ ـضُ القَومِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْري(٤)

وليس لقلبِ الآدميِّ مقدارٌ وكمِّيَّةٌ ، ولهـٰذا لا يقبلُ القسمَةَ ؛ فإنَّه لو

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « كيمياء السَّعادة » (ص ٨) .

(٢) في (ليدن) وحدها زيادة : (ولم يأذن فيه بأكثر من أنَّه من عالم الأمر) .

(٣) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) و(ليدن) تقديم وتأخير : (ولله الخلق والأمر) بدل (ولله الأمر والخلق) ، وهو الموافق لقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

(٤) سقط من (ب) و(د) و(هـ) و(ليدن) قوله : (قال الشَّاعر :

ولأنـتَ تفـري مـا خلقـتَ وبعـ ـضُ القوم يخلق ثُمَّ لا يفري)

والبيت لزهير بن أبي سُلمى المزني ، من قصيدة له يمدح فيها هَرِمَ بن سِنان . انظر « ديوان زهير بن أبي سلمىٰ » (ص ٣١) .

قبلَها . . لجازَ أن يكونَ في أحَدِ جانبَيِ القلبِ جهلٌ بشيءٍ وفي الجانبِ الآخرِ عِلْمٌ بذلك الشيءِ في حالٍ واحدةٍ ، فكان يُوصَفُ بكونِه عالِماً جاهلاً في حالٍ واحدةٍ ! وذلك محالٌ .

واعلم أنَّ الرُّوحَ مع أنَّها لا تقبلُ القسمةَ . . مخلوقةٌ ؛ فإنَّ الخَلقَ كما يُستعملُ بمعنى التَّقديرِ . . فإنَّه يُستعملُ بمعنى الإيجادِ[1] ؛ فهو علىٰ هـٰذا المعنىٰ من جملةِ الخَلقِ ، وبالمعنى الآخَرِ من جملةِ عالَمِ الأمرِ لا من جملةِ عالَمِ الخَلقِ ؛ فإنَّ الأمرَ[2] عبارةٌ عن أشياءَ لا تتطرَّقُ المساحةُ والمقدارُ إليها .

ولعمرُكَ ؛ لقد غلِطَ مَنْ قال : إنَّ الرُّوحَ الجسميَّةَ قديمةٌ[3] ، وهـٰكذا مَنْ قال : عَرَضٌ ؛ لأنَّ العرَضَ لا يقومُ بنَفْسِهِ إنَّما يكونُ تَبَعاً ، والرُّوحُ أصلٌ للآدميِّ وجميعُ بدنِهِ تَبَعٌ له ، فكيف يكون عرَضاً ؟!

وهكذا أخطأ مَنْ قال : الرُّوحُ جسمٌ ؛ لأنَّ الجسمَ يقبلُ القسمةَ والرُّوحَ لا يقبلُ ذلك[4] ، وإنَّما هناك رُوحٌ أخرىٰ تقبلُ القِسمةَ ، وهي

---

(١) كذا في (أ) و(و) و(ليدن) : (فإنَّ الخلق كما يستعمل بمعنى التَّقديرِ فإنَّه يستعمل بمعنى الإيجاد) ، وسقط من (ب) و(د) و(هـ) ما ميَّزته ، والعبارة فيها : (فإنَّ الخلق كما يستعمل بمعنى الإيجاد) .

(٢) في (ب) و(د) و(هـ) و(ليدن) زيادة : (فإنَّ عالَم الأمر) .

(٣) جاء في هامش (هـ) : (الظاهر أنَّ لفظ الجسميَّة مستدركٌ كما في أصل « الكيمياء » . حاشية) أي : كتاب « كيمياء السعادة » ، والعبارة فيه : (وقد ظنَّ بعضهم أنَّ الروح قديمة . . فغلطوا) ، ومقصوده مِنَ (الروح الجسمية) الروح الحيوانيَّة ، وهي المضافة للجسم .

(٤) سقط من (د) وحدها قوله : (والرُّوحُ لا يقبل ذلك) .

الرُّوحُ التي يَشتركُ فيها سائرُ الحيوانِ ؛ البهائمُ والطيرُ والحشراتُ وغيرُ ذلك .

أمَّا هـٰذه الرُّوحُ التي نُسمِّيها القلبَ : فهي محلُّ معرفةِ اللهِ سبحانه ، وليست إلا مختصَّةً بالملائكةِ والآدميِّ دون بقيَّةِ الحيوانِ ، وليست بجسمٍ ولا عرَضٍ ، لـٰكنَّها جوهرٌ من جنسِ جوهرِ الملائكةِ ، ويَشُقُّ معرفةُ حقيقتِها ؛ إذ لم يرخِّصِ الشَّرعُ في كشفِ القناعِ عن هـٰذه الرُّوحِ(١) .

---

(١) وقد كرَّر حُجَّة الإسلام هـٰذا المعنىٰ في كتبه ، وهو أنَّ الشَّارع لم يُرخِّص ولم يأذن بذكر حقيقة الرُّوح ، مع أنَّ حقيقتها معلومة لبعض الأولياء ، فقال في كتاب « الإحياء » (٧/ ٣٨٠) (الكتاب الأوَّل من ربع المنجيات ، كتاب الصبر والشكر ، بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالىٰ وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء ، الطرف الثالث) : (وأمَّا الروح التي هي الأصل ، وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن.. فذلك سرٌّ من أسرار الله تعالىٰ لم نصفه ، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال : هو أمر ربَّانيٌّ كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ ، والأمور الربَّانية لا تحتمل العقول وصفها ؛ بل تتحيَّر فيها عقول أكثر الخلق ، وأمَّا الأوهام والخيالات.. فقاصرة عنها بالضرورة ؛ قصورَ البصر عن إدراك الأصوات ، وتتزلزل في ذكر مبادي وصفها معاقدُ العقول المقيَّدة بالجوهر والعرَض ، المحبوسةِ في مضيقها ، فلا يدرَكُ بالعقل شيء من وصفه ؛ بل بنور آخر أعلىٰ وأشرف منَ العقل ، يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ، نسبتُه إلى العقل نسبةُ العقل إلى الوهم والخيال) .
وقال أيضاً بعده بقليل : (ولمَّا كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرَكُ مصالح الدنيا عقولاً قاصرةً عن ملاحظة كُنْه هـٰذا الأمر.. لم يأذن الله تعالىٰ لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدَّث عنه ؛ بل أمره أن يكلِّم الناس علىٰ قدر عقولهم ، ولم يذكرِ الله تعالىٰ في كتابه من حقيقة هـٰذا الأمر شيئاً ، لـٰكن ذكر نسبتَه وفعلَه ، ولم يذكر ذاتَه ؛ أمَّا نسبتُه.. ففي قوله تعالىٰ : ﴿ مِنۡ=

علىٰ أنَّه لا حاجةَ تَمَسُّ إلىٰ معرفةِ حقيقةِ الرُّوحِ ؛ فإنَّ أوَّلَ طريقِ الدِّينِ إنَّما هو المجاهدةُ ، ومَنْ جاهدَ نفْسَهُ على الوجهِ المشترَطِ[1] . . حصلَ لهُ حقيقةُ معرفةِ القلبِ من غيرِ أن يَقِفَهُ[2] عليه أستاذٌ ، وهٰذه المعرفةُ من جملةِ الهدايةِ التي وعدَ اللهُ سبحانَهُ بها مَنْ جاهدَ فيه ؛ فقال سبحانَهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، ومَنْ لم

= أَمۡرِ رَبِّي ﴾ ، وأمَّا فعلُه . . فقد ذُكرَ في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ـ ٣٠]) .

وقال في « الأربعين في أصول الدين » (ص ٤٦٥) : (ولم يأذنِ الشَّرعُ في ذكر تحقيق صفته ؛ إذ لا يحتمله إلا الراسخون في العلم ، وكيف يُذكرُ وله من عجائب الأوصاف ما لم تحتملْهُ عقولُ أكثرِ الخلق في حقِّ الله تعالىٰ ؟! فلا تطمع في ذكر حقيقته ، وانتظر تلويحاً يسيراً في ذكر صفته بعد الموت) .

وقال في « مِحَكِّ النَّظر » (ص ٢٢٧) : (الروح سر الله تعالىٰ كما أنَّ القدر سر الله سبحانه ، ولم يُرخَّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخوض في شرح ، وكان من أوصافه في التوراة أنَّه لا يجيبُ عن كذا وكذا ؛ أي : لا يشرح أسرارها ، ومن جملته الروح .[انظر البخاري (١٢٥) ، ومسلم (٢٧٩٤)]

ولا يُظنُّ أنَّ الله تعالىٰ لم يُطلعْهُ عليه ؛ فإنَّه عرف أموراً أعظم منه ، والجاهل بالروح جاهلٌ بنفسه ، فكيف يُظنُّ أنَّه عرف الله سبحانه وملائكتَه وأحاطَ بعلم الأولين والآخرين وما عرف نفسَهُ ؟! ولٰكنَّه كان عبداً ، فأُمرَ بأمرٍ ، فاتبع الأمر .

فعلىٰ كلِّ مؤمنٍ به ومصدِّقٍ له . . أن يتبعه ، ويسكت عمَّا سكت عنه ، عرفه أو لم يعرفه ، ولا يبعدُ أن يكون في أمَّته منَ الأولياء والعلماء مَن كُشفَ له سِرُّ هٰذا الأمر ، فليس في الشرع برهانٌ على استحالة ذلك) .

(١) في (د) وحدها : (ومَنْ جاهدَ نفْسَهُ على الولي المشترط) بدل (ومَنْ جاهدَ نفْسَهُ على الوجه المشترط) .

(٢) في (د) وحدها : (يقف) بدل (يقِفَهُ) وكتب في هامشها (لعله : يوقف) .

تكمُل مجاهدتُهُ وكان مبتدئاً في رياضتِهِ.. فلا يجوزُ تعريفَهُ حقيقةَ الرُّوحِ ، وإنَّما الذي ينبغي أن يُعَرَّفَ قبلَ المجاهدةِ إنَّما هو جنودُ القلبِ ، فمَن لم يعرِفْ جنودَهُ.. لم يَصلُحْ له المجاهدةُ[1] ، ولم يمكنْهُ[2] .

* * *

(١) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) و(ليدن) : (فمَن لم يعرف جنود القلب.. لم **تصح** له المجاهدة) بدل (فمَن لم يعرف جنودَهُ.. لم يَصلُحْ له المجاهدةُ) .

(٢) جاء في هامش (أ) بنفس القلم في بداية المطلب : (مطلبٌ فافهم ، كتبَهُ علي بن قاسم) ، وقد أفادت هـٰذه الحاشية معرفة اسم الناسخ ، فإنَّه لم يكتب اسمه في نهاية الكتاب .

٥ فصل
في بيان جنود القلب[١]

اعلم أنَّ البدنَ مملكةُ القلبِ ، وفيه جنودُهُ المختلفَةُ ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدّثر : ٣١] ، والقلبَ خُلِقَ لأجلِ الآخرةِ ، وعملُهُ إنَّما هو طلبُ سعادتِهِ ، وسعادَتُهُ إنَّما هي معرفةُ الله سبحانَهُ ، ومعرفتُهُ تعالىٰ إنَّما تَحصُلُ بمعرفةِ صُنعِهِ ، وهو من جُملَةِ هـٰذا العالَمِ[٢] ، والمعرفةُ له بعجائبِ العالَمِ تَحصُلُ لهُ من طريقِ الحواسِّ ، وقِوامُ هـٰذه الحواسِّ بالبدنِ ، فالمعرفَةُ هي الصَّيدُ ، والحواسُّ الحِبالَةُ ، والبدنُ المَركَبُ والحامِلُ ، فهو محتاجٌ إلى البدنِ بهـٰذا السَّببِ .

والبدنُ مُركَّبٌ مِنَ الماءِ والتُّرابِ والحرارةِ والرُّطوبةِ ؛ ولأجلِ ذلك كان ضعيفاً ، وهو في خَطَرِ الهلاكِ بسبَبِ الجوعِ والعطشِ ؛ ولهـٰذا افتقرَ إلى الطَّعامِ والشَّرابِ ، واحتاجَ إلىٰ عسكرين :

أحدهما : ظاهرٌ ؛ كاليدِ والرِّجلِ وسائرِ الأعضاءِ .

والثاني : باطنٌ ؛ كالغضبِ والشَّهوةِ وغيرِ ذلك ؛ فإنَّه لمَّا لم يمكنْهُ الطلبُ عندَ مشاهدةِ الغذاءِ ولم يقدرْ على الدَّفعِ عند رؤيةِ الأذىٰ[٣] . .

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٥/ ٢١) ، و« كيمياء السَّعادة » (ص ٩) وما بعدها .

(٢) أي : القلب .

(٣) في (ب) و(ليدن) : (العدو) ، و(هـ) : (الغذاء) بدل (الأذىٰ) .

احتاجَ إلى الإدراكاتِ فأُعطيَها .

فبعضُها ظاهرٌ ، وهي الحواسُّ الخمسُ : البَصرُ والأنفُ والأذنُ وآلتا الذَّوقِ واللمسِ .

وبعضُها باطنٌ ، وهي : سرُّ هٰذه الآلاتِ الخمسةِ ، وموضعُها الدِّماغُ ، وذلك مثلُ قوَّةِ الخيالِ ، وقوَّةِ التَّفكُّرِ ، وقوَّةِ الحفظِ ، وقوَّةِ التَّوهُّمِ ، وقوَّةِ الذِّكرِ[١] ، ولكلِّ واحدٍ من هٰذه القُوىٰ عملٌ خاصٌّ ، فمتى اختلَّ أحدُها . . اختلَّ حالُ الآدميِّ في أمرِ دينِه ودنياه .

وجملةُ جنودِ الظاهرِ والباطنِ محكومُ القلبِ[٢] وتحت أمرِه وقهرِه ، وهو ملِكُ الجميعِ ، فإذا أمرَ اللسانَ . . نطقَ في الحالِ ، وإذا أمرَ اليدَ . . أمسكتْ وبطشتْ في الحالِ ، وإذا أمرَ الرِّجْلَ . سَعَتْ في الحالِ ، كما قيل :

وما الرِّجْلُ إلا حيث يَسعىٰ بها القلبُ[٣]

ومتىٰ أمرَ العينَ . . نظرتْ في الحالِ ، فإذا أمرَ قوَّةَ التَّفكُّرِ . . تفكَّرَتْ

---

(١) قوله : (وقوَّة الذِّكرِ) ثبت في (أ) و(و) وسقط من النُّسخ الأخرىٰ .

(٢) في جميع النُّسخ : (بحكم القلب) وكتبت في (أ) : (بحكم القلب) ، ولـٰكن تمَّ تصحيحها بالهامش بـ(محكوم القلب) .

(٣) عجز بيت من الطويل ، صدره : أرى الرِّجلَ قد تسعىٰ إلىٰ مَن تُحبُّه ، هـٰكذا ذكره عبدالملك الثعالبي في كتابه « أحسن ما سمعت » (ص ٤٧) دون نسبةٍ ، وذكره الراغب الأصفهاني في « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء » (٢/٣٨) ونسبه للصحابي العبَّاس بن مرداس رضي الله عنه ، وفيه : (ترى الرِّجْلَ) بدل (أرى الرِّجْلَ) ، وهو غير موجود في « ديوان العباس بن مرداس » الذي جمعه الدكتور يحيى الجبوري .

في الحالِ ، وكلُّ ذلك جُعِلَ تحت طاعةِ القلبِ ومتصرِّفاً بحُكمِهِ ؛ ليحفظَ البدنَ مقدارَ ما يتزوَّدُ ، ويُحَصِّل صيدَهُ وتجارتَهُ لآخرتِه ؛ فيبذُرُ بذرَ السَّعادةِ ليحصُلَ منه مرادُه .

وطاعةُ جنودِ القلبِ له ؛ كطاعةِ الملائكةِ للهِ تعالىٰ في أنَّهم لا يمكنُهم مخالفتُه في شيءٍ من أمرِه ؛ لـٰكنَّهم يطيعونَه بالطَّبع الذي جعلَه لهم ، فكذلك جنودُ القلبِ .

* * *

٦ فصل
في معرفة القلب وعسكره (١)

اعلم أنَّ معرفةَ جنودِ القلبِ بطريقِ التَّفصيلِ . . يطولُ شرحُهُ ، فلنوضحِ المقصودَ من ذلك كلِّه بمثالٍ .

وذلك أنَّ مثالَ بدنِكَ كالمدينةِ ، ويدَيكَ ورجلَيكَ وجميعَ أعضائكَ مثلُ صُنَّاعِ تلك المدينةِ ، وشهوتَكَ كعاملِ الخراجِ ، وغضبَكَ كالشِّحْنَةِ(٢) ، وعقلَكَ كالوزيرِ ، وقلبَكَ كالملِكِ ، فالملِكُ محتاجٌ إلىٰ كلِّ ذلك ؛ ليستتِبَّ أمرُ المملكةِ وينحرسَ نظامُها ، ولٰكنَّ جنودَ الشَّهوةِ هم بمنزلة الذي هو عاملُ الخراجِ ، وهو كثيرُ الكذبِ والظُّلمِ والتَّخليطِ والفضولِ ، وهو مجتهدٌ أبداً في مخالفتِه للوزيرِ ـ الذي هو العقلُ ـ في كلِّ ما يأمرُ به ؛ لأنَّه يريدُ أن يأخذَ جميعَ أموالِ المملكةِ بغلَّةِ الخراجِ(٣) ، وذلك الغضبُ الذي هو الشِّحْنَةُ بالمدينةِ . . سيِّئُ الخُلُقِ ، حادُّ الطَّبعِ ، سريعٌ إلى القتلِ والكسرِ والفَتْكِ ، محبٌّ للأذيَّةِ

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٥/ ٢٦ وما بعدها) ، و« كيمياء السَّعادة » (ص ١٠) ، وعنونت للفصل بما عنون به الإمام الغزاليُّ في « كيمياء السعادة » .

(٢) الشِّحْنة في البَلد : مَن فيه من أولياء السُّلطان ، وقال ابن برِّي : وقول العامة في الشِّحْنَةِ إنَّه الأميرُ . . غَلَطٌ . « تاج العروس » مادة (ش ح ن) .

(٣) كذا في (أ) و(و) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) و(ليدن) : (بعِلَّة الخراج) بدل (بغلَّة الخراج) .

والإهلاكِ ، وكما أنَّ ملِكَ المدينةِ يجعلُ جميعَ مشاورتِه مع الوزيرِ ، ويتهاونُ بما يقولُه العاملُ الكذَّابُ ؛ فلا يُصغي إلىٰ شيءٍ ممَّا يقولُه[1] إذا كان مخالفاً لرأي الوزيرِ ، ويسلِّطُ عليه الشِّحْنَةَ ليَكُفَّهُ عنِ الفضولِ . . فكذلك أيضاً يعامِلُ الشِّحْنَةَ بالسِّياسةِ والهيبةِ والقهرِ ؛ لئلا يتجاوزَ حدَّهُ ولا يتعدَّىٰ طورَهُ ، فالملِكُ إذا عاملَ الوزيرَ بالإصغاءِ إليه والعملِ بمشورتِه ، وعاملَ العاملَ الكذَّابَ بالإعراضِ عن كذبِه[2] ، وعاملَ الشِّحْنَةَ بزجرِه وردعِه عنِ الإقدامِ علىٰ ما لا ينبغي له . . كان أمرُ المملكةِ جميلَ النِّظامِ حسَنَ الالتئامِ .

وهكذا ملِكُ البدنِ إذا كان مُصغياً إلىٰ إشارةِ العقلِ ولم يجعلِ العقلَ تحت قهرِ العاملِ والشِّحْنَةِ . . كانت مملكةُ البدنِ منتظمةً وأمورُها مستقيمةً ، ولم يقطعْهُ عن سلوكِ طريقِ السَّعادةِ قاطعٌ ، ولم يمنَعْهُ عنِ الوصولِ إلى الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ مانعٌ .

فأمَّا إنْ جُعِلَ العقلُ أسيراً في قبضةِ الشَّهوةِ ، آخِذاً في يَدِ الغضبِ . . انبترَ مِنَ المملكةِ سِلكُ نِظامِها ، ووهَنَتْ مِنَ الاستقامةِ عُرىٰ أحكامِها ، ومدَّتِ الشقاوةُ نحو الملِكِ يَدَ بسطتِها ، وجذبتْهُ المهالكُ بيَدِ الاستيلاءِ عليه إلىٰ خُطَّتِها ، ونعوذُ باللهِ من ذلك .

* * *

(١) جاء في هامش (أ) إشارة إلىٰ نسخة أخرىٰ : (ممَّا هو له ، خ) .

(٢) كذا في (أ) و(و) و(ليدن) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) زيادة : (عن كذبه وقبول صدقه) .

٧ فصل
في بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

لا شكَّ أنَّك عرفتَ من هـٰذه النُّبذةِ السَّالفةِ أنَّ الشهوةَ والغضبَ خُلِقَا لحفظِ البدنِ والطعامِ والشرابِ ، وكلاهما خادمُ البدنِ ، والطَّعامُ والشَّرابُ قوَّةُ البدنِ وعلفُهُ ، والبدنُ مخلوقٌ لحملِ الحواسِّ ؛ فالبدنُ إذاً خادمٌ للحواسِّ ، والحواسُّ خُلِقَتْ جاسوساً وعيناً للعقلِ ؛ لتكونَ حِبالتَهُ لتحصيلِ[1] معرفةِ عجائبِ صُنعِ اللهِ تعالىٰ ؛ فبها يعرفُهَا ، فجملةُ الحواسِّ خدمٌ للعقلِ ، والعقلُ مخلوقٌ للقلبِ ؛ ليكونَ له كالسِّراجِ ، فيشاهدُ بنورِه تلك الحضرةَ التي هي معدِنُه ، فالعقلُ خادمُ القلبِ ، والقلبُ مخلوقٌ للنَّظرِ إلىٰ جمالِ الرُّبوبيةِ ، فإذا اشتغلَ بذلك . . كان عبداً وخادماً للحضرةِ الإلـٰهيَّةِ[2] ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات : ٥٦] ؛ فإنَّه أرادَ هـٰذا المعنىٰ .

فإنَّه سبحانه خَلقَ القلبَ وجعلَ له هـٰذه المملكةَ وهـٰؤلاءِ الجنودَ ، وسلَّمَ إليه هـٰذا المركَبَ الذي هو البدنُ ؛ ليسافرَ مِنَ العالَمِ التُّرابيِّ إلىٰ أعلىٰ عليينَ .

---

(١) من هنا تبدأ النسخة (ج) وتتصل مع النُّسخ الأخرىٰ . وانظر (ص ٧٦ إلى ص ٨١)

(٢) في (د) وحدها : (كان غير خادم للحضرة الإلـٰهية) بدل (كان عبداً وخادماً للحضرة الإلـٰهية) !!

فإنْ أرادَ قضاءَ حقِّ هـٰذه الخدمةِ وأداءَ شرطِ العبوديَّةِ . . فينبغي أن يجلسَ كالملِك في صدرِ المملكةِ ، ويجعلَ الحضرةَ الإلـٰهيَّةَ مقصِداً وقِبلةً ، ويتَّخِذَ الآخرةَ موطناً ومستقرّاً ، ويتَّخذَ البدنَ له مَركَباً ، والجوارحَ والأعضاءَ أعواناً ، والغضبَ شِحْنَةً ، والحواسَّ جواسيسَ ، فيوكِلُ كلَّ واحدٍ بعالَمٍ علىٰ حِدَةٍ ؛ ليتجسَّسُوا ويأتوا بأخبارِ العالَمِ كلُّ واحدٍ على الوجهِ الصَّحيحِ ، فإذا أتوا بالأخبارِ . . أودعوها في خزانةِ القوَّةِ الحافظةِ التي هي في آخرِ الدِّماغ[1] ، واتخذوها خريطةً يَجمعُ فيها كلُّ بريدَ ما عندَه ، ويضعُ فيها كلُّ جاسوسٍ ما لديه مِنَ الأوضاعِ المشتملةِ علىٰ أخبارِ عالَمِهِ الذي وكِّلَ به ، ويحفظُها ليَعرِضَهَا في أوقاتِها علىٰ وزيرِ العقلِ ؛ فيدبِّرَ الوزيرُ المملكةَ علىٰ وَفقِ ما يتَّصلُ به مِنَ الأخبارِ ، ويرتِّبَ أمرَ سفَرِ الملِك نحو مقصِدِه بحسبِ ذلك .

فإذا رأىٰ أنَّ بعضَ العساكرِ ـ كالشَّهوةِ مثلاً أو الغضبِ ـ قد نَزعَ عنه لباسَ الطاعةِ ، ونفضَ يدَ المخالفةِ في وجهِ التَّباعةِ[2] ، ونبذَ أوامرَ الملِكِ وراءَ ظهرِه ، وهَمَّ أنْ يشُنَّ الغارةَ على البلادِ ويسعىٰ في الممالكِ بأنواعِ الفسادِ . . فإنَّ الوزيرَ يشتغلُ بتدبيرِ كيفيَّةِ استمالتِه والسَّعي في إصلاحِه ، ولا يطمعُ في قتلِه وإتلافِه ؛ إذ لا مندوحةَ بالمملكةِ عنه ، ولا غنىً بالدَّولةِ عنِ الجنودِ ، فيجتهدُ في استمالةِ العاصي مِنَ الأجنادِ ؛

(١) كذا في (أ) و(ج) و(و) : (آخر الدِّماغ) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) و(ز) : (مقدَّم الدِّماغ) ، وفي (ليدن) : (التي هي في مُقدَّم الرأس وآخرِ الدِّماغ) .

(٢) في (ليدن) وحدها : (التباعد) بدل (التباعة) .

ليسيرَ في خدمةِ الملِكِ ، ويكثِّرَ سوادَه في سفرِه ، ويعينَه علىٰ ما يقصِدُه ويوافِقُه ، فإذا فعلَ ذلك . . كان سعيداً ، واستحقَّ ممَّنِ استوزرَه الإحسانَ إليه والإنعامَ عليه حين قامَ بما يجبُ عليه من حراسةِ المملكةِ وحفظِ العساكرِ .

وإن خالفَ هـٰذا التَّدبيرَ ، ووافقَ العُصاةَ في الفسادِ ، واستمرَّ معهم على البغي والفسادِ . . فقد كفرَ النِّعمةَ واستوجبَ النَّكالَ والنِّقمةَ ، وكان شقيّاً محروماً ؛ فاستحقَّ عذاباً أليماً .

* * *

٨ فصل
في بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته [١]

اعلم : أنَّ للآدميِّ مع كلِّ واحدٍ من عسكرِ باطنِه علاقةً ، وله من كلِّ واحدٍ منهم خُلُقٌ وصِفةٌ ، منها أخلاقُ سوءٍ تُهلِكُهُ وتكونُ سبباً لشقاوتِه وردِّه إلىٰ أخسَرِ حالٍ [٢] ، ومنها أخلاقٌ جميلةٌ تكونُ سببَ سعادتِه ووصولِه إلىٰ أعلىٰ رتبةٍ .

وهـٰذه الأخلاقُ كثيرةٌ ، لـٰكنَّها ترجعُ إلىٰ أربعةِ أصولٍ : أخلاقِ البهائمِ ، وأخلاقِ السِّباعِ ، وأخلاقِ الشَّياطينِ ، وأخلاقِ الملائكةِ [٣] .

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٥/٣٩) ، و« كيمياء السَّعادة » (ص ١٢) ، وعنونتُ للفصل بما عنون به الإمام الغزاليُّ في « الإحياء » .

(٢) كذا في (أ) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ : (وترده إلىٰ آخر حال) بدل (وردِّه إلىٰ أخسَرِ حالٍ) ، هـٰذا وقد كُتِبتْ في (أ) : (آخر) وأشير إلىٰ أنَّها نسخة فكتب فوقها : (نخ) ، وصحّحت في الهامش فكتبت : (أخسر ، صح) ، وفي (ليدن) وحدها : (أخس حال) .

(٣) عبَّر المؤلِّفُ هنا عنِ الأصول الأربعة بـ(الأخلاق) ، وقد عبَّرَ عنها شيخه حُجَّة الإسلام بـ(الأوصاف) بدلاً مِنَ (الأخلاق) ، وأطلق وصف (الرَّبانيّة) بدلاً من (أخلاق الملائكة) ؛ فقال : (اعلم أنَّ الإنسانَ قدِ اصطحبَ في تركيبِهِ وخِلقتِهِ أربعَ شوائبَ ؛ فلذلك اجتمعتْ عليه أربعةُ أنواعٍ مِنَ الأوصافِ ، وهيَ الصِّفـاتُ السبُعيَّـةُ ، والبهيميَّـةُ ، والشيطـانيَّـةُ ، والـرَّبَّـانيَّـةُ) . « الإحيـاء » (٥/٣٩) .

فهو لكونِ الشَّهوةِ المركَّبةِ فيه.. يعملُ أعمالَ البهائمِ ؛ كالشَّرهِ في الأكلِ والمجامعةِ وغيرِ ذلك .

ولكونِ الغضبِ الموضوعِ فيه.. يفعلُ أفعالَ الذئبِ والكلبِ والسَّبُعِ ؛ كالقتلِ والضربِ والعضِّ ، وغيرِ ذلك مِنَ المخاصمةِ والوقيعةِ بين الناسِ .

ومن حيث إنَّهُ وضِعَ في جبلَّتِهِ خُلُقُ الشيطانِ.. يوجَدُ منه المكرُ ، والحيلةُ[1] ، والتَّلبيسُ ، والتَّخليطُ ، وإيقاعُ الفِتنِ .

ومن حيثُ إنَّهُ رُكِّبَ في طبيعتِهِ أخلاقُ الملائكةِ.. يوجدُ منه العِلمُ والتعلُّمُ والمعرفةُ ، وطلبُ الصَّلاحِ بين الناسِ ، وعزَّةُ النَّفْسِ ، والتَّأبِّي مِنَ الأفعالِ الخسيسةِ ، والتَّرفُّعُ عنِ الرَّذائلِ ، والابتهاجُ بمعرفةِ الأمورِ ، وتقبيحُ الجهلِ[2] .

---

(١) كذا في (أ) و(ج) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ زيادة : (**والخديعةُ** والحيلةُ) .

(٢) ذكرتُ قبل قليل أنَّ الإمام الغزاليَّ عبَّر عنها بـ(الصِّفات الرَّبَّانيَّة) بدلاً من (أخلاق الملائكة) ؛ ولٰكنَّه نظرَ إليها من حيث منازعة النفس ربَّها لهٰذه الصفات ؛ حيث ظنَّها مستحقَّةً له لا عاريةً عنده ، فقال : (ومن حيث إنَّه في نفْسِهِ أمرٌ ربَّانيٌّ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ .. فإنَّه يدَّعي لنفسه الربوبيَّةَ ، ويحبُّ الاستيلاءَ والاستعلاءَ ، والتخصُّصَ والاستبدادَ بالأمور كلِّها ، والتفرُّدَ بالرئاسة ، والانسلالَ عن ربقةِ العبوديَّةِ والتواضع ، ويشتهي الاطلاعَ على العلوم كلِّها ؛ بل يدَّعي لنفْسِهِ العلمَ والمعرفةَ والإحاطةَ بحقائق الأمورِ ، ويفرحُ إذا نُسِبَ إلى العلم ، ويحزنُ إذا نُسِبَ إلى الجهل . والإحاطةُ بجميع الحقائق ، والاستيلاءُ بالقهر علىٰ جميع الخلائق.. من أوصاف الرُّبوبيَّةِ ، وفي الإنسان حرصٌ علىٰ ذلك) . « الإحياء » (٥/ ٣٩) .

فإذاً ؛ في جملةِ[1] كلِّ آدميٍّ على الحقيقةِ هٰذه الأصولُ الأربعةُ : البهيميَّةُ والسَّبُعيَّةُ والشَّيطَنَةُ[2] والملكيَّةُ ؛ فإنَّ الكلبَ لم يكن خسيساً مذموماً لصُورتِهِ ؛ إنَّما كان حقيراً مُبعَداً نجساً مذموماً . . لِمَا في باطنه مِنَ الخِصالِ الذَّميمةِ والوقيعةِ في النَّاس ، وكذلك الخنزيرُ ليس بمذمومٍ لصورتِه ؛ إنَّما كان مذموماً حقيراً . . لِمَا في طبعِه مِنَ الحرصِ على الأشياءِ القبيحةِ والشَّرَهِ ، وحقيقةُ رُوحِ الكلبيَّةِ والخنزيريَّةِ إنَّما هو هٰذا المعنىٰ ، وهو موجودٌ في الآدميِّ ، وهٰكذا حقيقةُ الشيطانيَّةِ والملكيَّةِ ؛ إنَّما هو ما ذكرنا .

والآدميُّ مأمورٌ أن يكشفَ بنورِ العقلِ الذي هو أثرُ الملائكةِ ، ويرفعَ التَّلبيسَ والمكرَ والخديعةَ الذي هو أثرُ الشَّيطانِ ؛ ليُفتَضَحَ ، فلا يجدُ السَّبيلَ إلىٰ إلقاءِ الفتنِ والخِصَامِ[3] بين النَّاس ، كما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « **لِكُلِّ آدَمِيٍّ شَيْطَانٌ يَسْتَغْوِيْهِ ويأمُرُهُ بِمَا لا رِضَا للهِ فِيهِ ، وَلِيَ شَيْطَانٌ ، إلاَّ أنَّ اللهَ نَصَرَنِي عَلَيْهِ ، فَهُوَ مَقْهُورٌ لِيَ ، لا يَقْدِرُ أنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ حَالاً مِنَ الأحْوَالِ** »[4] .

---

(١) جاء في هامش (أ) الإشارة إلىٰ نسخة أخرىٰ فكتب : (في جبلَّة ، نخ) .

(٢) كذا في (أ) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ : (والشَّيطانيَّة) بدل (والشَّيطنة) .

(٣) كذا في (ب) و(د) و(هـ) : (والخصام) ، وفي (أ) و(ج) و(و) و(ليدن) : (والخصائم) .

(٤) ذكره المؤلِّف بمعناه ، وهو عند مسلم (٢٨١٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلاً ، قَالَتْ : فَغِرْتُ عَلَيْهِ ، فَجَاءَ فَرَأَىٰ مَا أَصْنَعُ ، فَقَالَ : « مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ ؟ أَغِرْتِ ؟! » فَقُلْتُ : وَمَا لِي لاَ يَغَارُ مِثْلِي عَلَىٰ مِثْلِكَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَقَدْ=

وقد أُمِرتَ بتأديبِ خنزيرِ الحرصِ والشَّهوةِ وكلبِ الغضبِ ، وتجعلَهُما تحت حُكمِ العقلِ وطوعِ أمرهِ ؛ بحيث لا يتصرَّفانِ في شيءٍ إلا بإذنِه ، فإذا فَعلَ ذلك . . حصَلَ له من هـٰذه الأخلاقِ والصفاتِ حظٌّ وافرٌ ونصيبٌ صالحٌ ، وكان ذلك بذرَ سعادتِهِ ، وإن أهمَلَ أمرَهمَا وخالفَ الواجبَ في حقِّهما ، وتمنطَقَ بِمنْطَقة خدمتهما[1] . . استولتْ أخلاقُهما عليه ، وكان ذلك بذرَ شقاوتِه وسبباً لهلَكَتِه ، ولو كُشِفَ له الغطاءُ حينئذٍ عن حالِه . . لرأىٰ نفْسَهُ وقد رُبِطَ في وسَطِه مِنْطَقَةُ خِدمَةِ الشَّيطانِ أو الكلبِ أو الخنزيرِ ، وجَعَلَ الأخلاقَ الملَكيَّةَ أسيرةً في قبضةِ الشيطانِ أو السَّبُعِ أو البهيمةِ ، ولا شكَّ أنَّ مَنْ أوقعَ مسلماً في أسرِ كافرٍ . . يبوءُ بإثمٍ عظيمٍ وخزيٍ وافرٍ ، فكيف بحالِ مَنْ أوقعَ ملَكاً في يَدِ خنزيرٍ أو كلبٍ أو شيطانٍ ، وجعلَه أسيرَه ؟! فلا شكَّ أنَّه يكون أعظمَ إثماً وأكثرَ وزراً .

ولو أنصفَ أكثرُ الخَلقِ وطالعوا أحوالَهُم وحاسبوا نفوسَهُم . . لرأوها

= جَاءَكِ شَيْطَانُكِ ؟ » قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَوَ مَعِي شَيْطَانٌ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟! قَالَ : « نَعَمْ ، وَلَـٰكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَسْلَمَ » ، وذكره ابن خزيمة في « صحيحه » (الباب ٤٥٧ ، رقم ١٠٩٣) عن عبدالله بن عباس عن خالته السيدة ميمونة رضي الله عنها ، والطبراني في « المعجم الصغير » (ص ٢٨٨ ، رقم ٤٧٦) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

وفي (د) وحدها جاء بعد ذكر الحديث : (لفظٌ هـٰذا معناه) .

(١) في (د) وحدها : (بمنطق) بدل (بمنطقة) ، والمنطقة : الحزام الذي يُشدُّ في الوسَط .

وقد تمَنْطَقَ كلٌّ منهم بمِنْطَقَةِ العبوديَّةِ ؛ لاتباع هوى النَّفْس ومرادِها[1] .

فهٰؤلاء على الحقيقةِ وإن كانت صُورُهُم آدميَّةً . . فإنَّهم إذا كُشِفَ الغطاءُ يومَ القيامةِ ، وظهرتِ السرائرُ ، وصارتِ الصُّورةُ هباءً لا يُعتَدُّ بها ، وكانتِ المعاني هي المُعتبرةُ . . رأىٰ نفْسَهُ ـ ممَّنِ استحوذتْ عليه الشَّهواتُ ـ في صورةِ خنزيرٍ .

ومَنْ كان في هٰذه الدُّنيا قد استولىٰ عليه الغضبُ . . رأىٰ نفْسَهُ في صورةِ ذئبٍ ؛ ولهٰذا مَنْ رأىٰ في منامِه ذئباً . . كان تأويلُه رؤيةَ رَجُلٍ قذِرٍ مخالِسٍ شريرٍ[2] ؛ فإنَّ النومَ أُنموذجُ الموتِ ، وبقدْرِ نسبةِ

---

(1) قال الإمام الغزاليُّ في « الإحياء » (٥/ ٤١) : (والعجبُ منهُ أنَّه ينكرُ علىٰ عبدةِ الأصنام عبادتَهُم للحجارةِ ، ولو كُشِفَ الغطاءُ عنهُ ، وكُوشِفَ بحقيقةِ حالِهِ ، ومَثَلَ له حقيقةُ حالِهِ كما يمثَّلُ للمكاشَفينَ ؛ إمَّا في النَّومِ أو في اليقَظةِ . . لرأىٰ نفسَه ماثلاً بين يدَي خنزيرٍ ، ساجداً له مرَّةً ، وراكعاً أخرىٰ ، ومنتظراً لإشارته وأمره . ومهما هاجَ الخنزيرُ لطلب شيءٍ من شهواتِهِ . . انبعثَ على الفورِ في خدمَتِهِ وإحضارِ شهوتِهِ ، أو رأىٰ نفْسَه ماثلاً بين يدَي كلبٍ عقورٍ ، عابداً له ، مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسُهُ ، مدقِّقاً للفكر في حيَلِ الوصولِ إلىٰ طاعتِهِ ، وهو بذلك ساعٍ في مسرَّةِ شيطانِهِ ؛ فإنَّه الذي يُهيِّجُ الخنزيرَ ويثيرُ الكلبَ ، ويبعثُهُما علىٰ استخدامه ، فهو من هٰذا الوجه يعبدُ الشَّيطانَ بعبادتِهِما) .

وقال الحافظ الزَّبيديُّ في شرحه « الإتحاف » (٧/ ٢٢٧) بعد هٰذا الكلام : (فكيف يُنكرُ مَن هو مثلُ هٰذا علىٰ عبدةِ الأصنامِ مع إقرارهم بأنَّهم إنَّما يعبدونَها لتُقرِّبَهم إلى الله زُلفىٰ ، وعابدُ الخنزيرِ والكلبِ أسوأ حالاً منهم ؛ لفواتهم تلك النِّيَّة ؟!) .

(2) في (أ) و(و) : (مجالسِ قذرٍ شريرٍ) بدل (قذرٍ مخالسٍ شريرٍ) ، والمخالس : الشجاع الحَذِر .

النَّومِ[١] وبُعدِه من هـٰذا العالَمِ وقُربِهِ مِنَ العالَمِ الآخرِ . . تصيرُ الصُّورةُ تبعاً للمعنىٰ ؛ حتىٰ يُشاهِدَ كلَّ واحدٍ على الصُّورةِ[٢] التي يُبطِنُها ، ولهـٰذا سِرٌّ عظيمٌ لا يُحتمَلُ شرحُهُ في هـٰذا المختصرِ[٣] .

* * *

(١) في (د) وحدها : (وبقدر نسبة **الموت والنوم**) وهو خطأ .

(٢) في (ج) : (على شبه الصُّورةِ) ، وفي (د) و(ليدن) : (على مثل الصُّورةِ) .

(٣) قال حُجَّة الإسلام : (فانظر إلىٰ مَنْ تعوَّد الصدق كيف تصدقُ رؤياه غالباً ؛ لأنَّ الصدق حصَّل في قلبه هيئةً صادقةً ، تَتلقَّىٰ لوائح الغيب في النوم على الصحة ، وانظر كيف تكذب رؤيا الكذَّاب ؛ بل رؤيا الشاعر الذي تعوَّد التخييلات الكاذبة ، فاعوجَّ لذلك صورةُ قلبه . فإن كنت تريد أن تلمح جناب القدس . . فاتركْ ظاهر الإثم وباطنه ، واتركِ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، واتركِ الكذب حتىٰ في حديث النفس أيضاً) . « الأربعين في أصول الدين » (ص ١٩٣) .

٩ فصل
في أحوال القلب مع عسكره[1]

فإذا عرفتَ أنَّ في باطنِك أربعةَ أمراءَ ، كلُّ أميرٍ وقَهْرَمَانٍ[2] يأمرُك بشيءٍ يخصُّهُ ويريدُه منك . . فراقبْ حركاتِك وسكناتِك ؛ حتىٰ يتبيَّن لك في طاعةِ أيِّهم أنتَ ، وموافقةِ أيِّهم أصلحُ ، وفي أيِّ حالٍ .

واعلم أنَّه لا بُدَّ أن يحصُلَ في قلبِكَ أثرٌ ـ على الحقيقةِ ـ وصفةٌ من كُلِّ حركةٍ تُوجِدُها ، وتلك الصِّفةُ والأثرُ يُلازمانِكَ في قبرِك ، ويُعرَضانِ عليك في صحيفتِكَ يومَ القيامةِ ، وتُسمَّىٰ تلك أخلاقُك وصفاتُك ، وكلُّ ذلك إنَّما يُفتحُ به عليك من جهةِ هٰؤلاء الأمراءِ الأربعِ .

فإن كنتَ مُطيعاً لخنزيرِ الشَّهوةِ . . كانت صفتُك التَّقذُّرَ والقِحَةَ[3] والحرصَ والخِسَّةَ والتَّذبذبَ والنِّفاقَ والحسدَ والشَّماتةَ وغيرَ ذلك ؛ فيظهرُ عليك في القيامةِ ذلكَ ، وإن جعلتَهُ مقهوراً لك وكفَفْتَهُ بيَدِ

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٥/٤٢) ، و« كيمياء السَّعادة » (ص ١٢) .

(٢) القَهْرَمَانُ : فارسيٌّ معرَّبٌ ، وهو : المُسيطِرُ الحَفِيظُ علىٰ مَا تحتَ يَدَيه ، وقال ابنُ بَرِّيّ : القَهْرَمَانُ : من أُمَناءِ المَلِكِ وخَاصَّتِه ، وقال أبو زيدٍ : يُقَال : قَهْرَمَانٌ وقَرْهمانٌ ، مَقلُوب ، وهو بِلُغَةِ الفُرْسِ : القائِمُ بِأمُورِ الرَّجُلِ . « تاج العروس » (ق هـ ر م) .

(٣) في (د) وحدها : (التَّقتُّر) بدل (التَّقذُّر) ، والقِحَةُ : قلَّةُ الحياء .

القناعةِ . . ظهرتْ عليك صفةُ الحياءِ والصِّدقِ[1] .

وإن لم تؤدِّبِ الكلبَ لـكن تركتَه وشؤمَ[2] طبعِه واتَّبعتَ هواهُ وأطعتَه . . ظهرَ عليك أثرُ التَّهوُّرِ وقلَّةِ المبالاةِ والكِبْرِ والافتخارِ والتَّعظُّمِ[3] ، واحتقارِ النَّاسِ والاستخفافِ بهم والإيقاعِ فيهم ، وإن ربطتَه بساجورِ الأدبِ[4] ، وصددتَه عنِ اتباعِ طبعِه . . ظهرَ عليك أثرُ الخيرِ[5] والتَّواضعِ والعفوِ والتَّثبُّتِ والشجاعةِ والسُّكونِ والكرمِ والشهامَةِ وغيرِ ذلك .

وإن أطاعتَ ذلك الشيطانَ الذي شيمتُهُ إشلاءُ الكلبِ والخنزيرِ[6] وتأييدُهما وتعليمُهُمَا المكرَ والحيلَةَ . . ظهرَ عليك أثرُ الخيانةِ والتَّخليطِ والتَّداغُلِ والخديعةِ والتَّلبيسِ والتَّملُّقِ .

وإن قُدتَه بوَهَاقِ القهرِ[7] ، وربطتَه بسلاسلِ الأدبِ ، وجعلتَه بحُكمِ

---

(١) كذا في (أ) و(و) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ زيادة : (**والصِّدق والقناعة وشرف النفس وغير ذلك**) .

(٢) كتبت كلمة (وشؤم) في (أ) : (وسوم) وصُحِّحت بالهامش فكتبت : (وشوم ، صح) ، والواو للمعيَّة .

(٣) كذا في (أ) و(ج) و(و) و(ليدن) : (والتَّعظُّم) ، وفي (ب) و(هـ) : (والتعظيم) ، وفي (د) : (والتَّعاظم) .

(٤) السَّاجور : خشبةٌ تُعلَّق أو طوقٌ من حديد ، ومنه : ساجور الكلب ، وهو قلادة من خشبٍ أو حديدٍ تُجعلُ في عنقه لتمسكه ، ويقال في أعناقهم السواجير : أي الأغلال ، مستعارٌ من ساجور الكلب ، والمسجور : المحبوس .

(٥) في (د) وحدها : (الحرية) بدل (الخير) .

(٦) يقال : أَشْلَيْتُ الْكَلْبَ وَغَيْرَهُ إِشْلاَءً : دَعَوْتُهُ ، وأَشْلاهُ على الصَّيْدِ : مثْلُ أَغراهُ زِنَةً ومعْنىً . انظر « تاج العروس » (ش ل و) .

(٧) الوَهَق ، محرَّكة وقد تسكَّن مثل نهَر ونهْرٍ : الحبل تُشدُّ به الإِبِلُ والخَيْلُ لئلا =

عسكرِ العقلِ ، ونصرتَ جنودَ العقلِ علىٰ ذلك الشَّيطانِ . . ظهرَ عليك أثرُ الفطنةِ والمعرفةِ والحِلمِ والحكمةِ والصَّلاحِ وحُسنِ الخُلُقِ والحِشمةِ والرِّياسةِ .

وإذا بقيَتْ معك هـٰذه الأخلاقُ . . كانت بذرَ سعادتِك ، وعُدَّتْ من جملة الباقيات الصالحات ، وتلك الأفعالُ التي تُؤثِّرُ أخلاقاً مذمومةً تُسمَّىٰ معصيةً ، وما كان منها يؤثِّرُ أخلاقاً محمودةً يُسمَّىٰ طاعةً ، وحركاتُ الآدميِّ وسكناتُه لا تخرجُ من هاتينِ الحالَينِ .

والقلبُ يضيءُ كالمرآة ، فيَحدُثُ مِنَ المعاصي أخلاقٌ مذمومةٌ تتَّصلُ بالقلبِ ، فهي دُخَانٌ وظلمةٌ تتصلُ به فيُظلمُ القلبُ ، فلا يشاهِدُ الجمالَ يومَ القيامةِ ؛ لكونه محجوباً بدُخَان المعاصي وظلمةِ الأخلاقِ المذمومةِ .

فأمَّا الأخلاقُ المحمودةُ . . فهي كنورٍ وضياءٍ تتَّصلُ بالقلبِ وتكُفُّ عنه ظُلمةَ المعصيةِ ؛ ولهـٰذا قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « **أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ . . تَمْحُهَا** »[1] ، فإذا كان في القيامةِ . . ظهرَ القلبُ إمَّا مُضيئاً وإمَّا مُظلماً ، ولا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ .

= تَنِدَّ ، ويجمع علىٰ أوهاق ، ومنه حديثُ سيدنا عليٍّ رضي الله عنه : (وأَغْلَقَت المَرْءَ أَوْهاقُ المَنِيَّة) أي : حبال ، وقال ابن فارس في « معجم مقاييس اللغة » (٦/ ١١٤) : فارسيٌّ معرَّب . « تاج العروس » (و هـ ق) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢٢٤٠٩ طبعة المكنز ، طبعة الرسالة ٢١٩٨٨) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه ، وقال عنه : (هـٰذا حديثٌ حسنٌ) ، وفي بعض النُّسخ : (حسنٌ صحيحٌ) .

واعلم(١) بأنَّ قلبَ الآدميِّ في ابتداءِ خَلقِه ؛ كالحديدِ الذي يُتَّخذُ منه مِرآةٌ مضيئةٌ يُشاهَدُ فيها كلُّ مدرَكٍ مِنَ العالَمِ بحاسَّةِ البصرِ . . إنْ حَفظْتَها ممَّا يُذهِبُ ضوءَهَا ، وإنْ أهملتَ حِفظَها . . استولىٰ عليها الصَّدَأُ وانتهتْ إلىٰ حالٍ لا تصلُحُ بعدها أن تُتَّخذَ مرآةً ، كما قال اللهُ سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطفِّفين : ١٤] أي : غطَّىٰ علىٰ قلوبِهم ما كانوا اكتسبوه مِنَ المعاصي حتىٰ صارَ ذلك حجاباً حجَبَهُم عن جمالِ الرُّبوبيَّةِ ؛ كما قال(٢) : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطفِّفين : ١٥] .

* * *

---

(١) في (ليدن) وحدها فُصِل هـٰذا المقطع بقوله : (**فصلٌ** : اعلم بأنَّ قلب الآدميِّ . . .) الخ .

(٢) قوله : (أي : غطَّىٰ علىٰ قلوبهم ما كانوا اكتسبوه مِنَ المعاصي حتىٰ صار ذلك حجاباً حجبَهَم عن جمالِ الرُّبوبيَّةِ ؛ كما قال) ثبت في (ليدن) وحدها .

١٠ فصلٌ
في بيان الصفة التي يفترق بها الإنسان عن بقية الحيوان

عساكَ تقولُ : إذا كان في الآدميِّ صفاتُ السِّباعِ والبهائمِ والشياطينِ والملائكةِ . . فبأيِّ شيءٍ يعلَمُ أنَّ أصلَه الجوهرُ الملَكيُّ ، وبقيَّةَ الصِّفاتِ غريبةٌ غيرُ أصليَّةٍ ؟ وكيف يعلَمُ أنَّهُ خُلِقَ لأجلِ أخلاقِ الملائكةِ فيحصِّلُها دون بقيَّةِ الصِّفاتِ والأخلاقِ ؟

فاعلم أنَّك إنَّما تعرفُ ذلك . . إذا صحَّ عندكَ أنَّ الآدميَّ أشرفُ وأكملُ مِنَ البهائمِ والسِّباعِ والشَّيطانِ وغيرِها ؛ فإنْ كان شيءٌ أُعطِيَ كمالاً هو غايةُ درجتِه ونهايةُ منزلتِه . . كان مخلوقاً لذلك .

مثالُهُ : الفرسُ أشرفُ مِنَ الحمارِ ؛ مِنْ أجلِ أنَّ الحمارَ خُلِقَ للحملِ والفرسَ خُلِقَ للعَدْوِ في الجهادِ والمحاربةِ ؛ ليصرِّفَه الفارسُ تحتَه حيث شاءَ وكيف شاءَ ، وله طاقةٌ بالحملِ أيضاً كالحمارِ ، ويفضُلُه بالجري الذي يقصُرُ الحمارُ عنه ، فإذا عجزَ الفرسُ عن كمالِه الذي خُلِقَ لهُ . . أُعيدَ إلى درجةِ الحمارِ في نقلِ الأحمالِ ، ووُضِعَ عليه الإكافُ لحملِ الأثقالِ ، فيكونُ ذلك هلاكاً له ونقصاً في حقِّه ؛ بسببِ فواتِ كمالِه الذي خُلِقَ لهُ وتميَّزَ به .

واعلم أنَّ قوماً اعتقدوا أنَّ الآدميَّ مخلوقٌ للأكلِ والنَّومِ والتَّمتُّعِ بالجِماعِ ؛ فيُذهِبونَ أعمارَهم في ذلك !

وقوماً اعتقدوا أنَّهم مخلوقونَ للقهرِ والغلَبةِ ؛ كالتُّركِ والعربِ والأكرادِ ؛ فيُذهِبونَ مُدَّةَ حياتهم في ذلك !

وكلُّ هـٰذا خطأٌ فيه ؛ فإنَّ الأكلَ والجِماعَ يكونانِ مِنَ الشَّهوةِ ، وهـٰذا شيءٌ مُنِحَتهُ البهائمُ لم يختصَّ به الآدميُّ دونها ؛ فإنَّ الجَمَلَ مثلاً أكثرُ أكلاً مِنَ الآدميِّ ، والعصفورَ أكثرُ مُجامعةً منه ، فكيف يكون الآدميُّ أشرفَ من هـٰذه الأشياءِ ؟! ولمَّا كان أشرفَ . . عِلمنا أنَّه لأمرٍ وراءَ الأكلِ والشُّربِ والجماعِ[1] .

وأمَّا الغلبةُ والاستيلاءُ الصَّادرانِ عن الغضبِ ؛ فقد مُنِحَتهُ السِّباعُ ، والآدميُّ قد أُعطيَ ما أُوتِيَتهُ البهائمُ والسِّباعُ ، وخُصَّ بزيادةٍ هي كمالُهُ ، وتلك إنَّما هي العقلُ الذي به يَعرفُ خالِقَهُ ، ويقفُ علىٰ عجائبِ صُنعِه ، ويُخَلِّصُ به نفْسَهُ مِن يَدِ الشَّهوةِ التي هي للبهائمِ والغضبِ الذي هو للسِّباعِ ، وهـٰذه صفةُ الملائكةِ ، فهو مُستَولٍ بها على البهائمِ والسِّباعِ ، والكلُّ مُسخَّرٌ لَهُ مع كلِّ ما علىٰ وجهِ الأرضِ ؛ كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

فإذاً ؛ حقيقةُ الآدميِّ ما كان به كمالُه وشرَفُه ، وما سوىٰ ذلك . . فصفةٌ غريبةٌ جُعِلَتْ مَدَداً له وعوناً علىٰ مصالحِه ؛ ولهـٰذا إذا ماتَ وقد كَفَّ غضبَهُ وشهوتَهُ . . بقيَ جوهرُهُ نورانيّاً مُضيئاً مُحَلّىً مزيَّناً بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ، علىٰ صورةِ الملائكةِ ؛ ليكونَ رفيقاً لهم ، وهـٰؤلاء بالحضرةِ

---

(١) سقط من (أ) و(و) قوله : (ولمَّا كان أشرف . . علمنا أنَّه لأمرٍ وراء الأكل والشُّرب والجماع) ، وثبتَ في النُّسخ الأخرىٰ .

الإلـٰهيَّةِ مُحَلَّونَ[1] لا يغيبونَ عنها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥] .

وإمَّا أن لا يَكُفَّ الأوصافَ الذميمةَ . . فتستولي ظُلمَةُ المعصيةِ وصدأُ الخِلال الذَّميمةِ الحاصلةِ مِنْ ميلِه إلى الشَّهوةِ والغضبِ وسكونِهِ إليهما وإلىٰ غيرهما ممَّا كان يميلُ إليه في الدُّنيا ، فإذا ماتَ . . كان تطَلُّعُهُ إلىٰ ما كان خلَّفَهُ فيها ، ووجْهُ قلبِهِ إلىٰ ما كان يُحبُّهُ ويهواهُ منها ، وهـٰذه الدُّنيا تحت الآخرةِ ؛ فيَنْكُسُ[2] ويَخِرُّ علىٰ وجهِه ، وهـٰذا معنىٰ[3] قولِه تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهـٰذا يطلُبونَ الرَّجعةَ إلىٰ دارِ الدُّنيا .

ومَن كانت هـٰذه حالُهُ . . كان مع الشياطينِ في سِجِّين ، ولا يكادُ يَعرفُ معنىٰ سجينَ كلُّ أحَدٍ ؛ ولهـٰذا قال اللهُ سبحانه : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ [المطففين : ٨] .

* * *

(١) ثبتت كلمة (مُحَلَّونَ) في (أ) فقط ، دون النُّسخ الأخرىٰ .

(٢) جاء في هامش (أ) : (أي : فينعكس) .

(٣) في (د) وحدها : (وهـٰذا سِرُّ) بدل (وهـٰذا معنىٰ) .

١١ فصل

في عجائب القلب، وبيان شرفه من جهة العلم والقدرة

اعلم أنَّه ليس لعجائبِ القلبِ نهايةٌ ، وشرفُه إنَّما هو بكونِه أعجبَ الأشياءِ ، وأكثرُ الخَلقِ غافلونَ عنهُ ، وشرفُهُ من وجهينِ :

أحدُهما : من جهةِ العلمِ ، والثاني : من حيث القدرةُ .

فأمَّا من جهةِ العلمِ ؛ فمن قِسمينِ : أحدُهما : يعرفُه جملةُ الخَلقِ ، والآخرُ : قد يخفىٰ عنهم فلا يكادُ يعرفُه كلُّ أحَدٍ ، وهٰذا أعزُّ .

فأمَّا من جهةِ الظاهرِ الذي يعرفُه الخَلقُ بالتَّعريفِ[١] : فهو أنَّ للقلبِ قوَّةً يَعرفُ بها جملةَ العلومِ والصِّناعاتِ ، فيَعلمُ كيفيَّةَ الحِرَفِ وقراءةَ الكُتُبِ ، وكيفيَّةَ الهندسةِ والحسابِ ، وعلمِ النُّجومِ وعلومِ الشَّرائعِ ، وهو مع كونه شيئاً واحداً لا يقبلُ القسمةَ . . فإنَّه يحوي العلومَ كلَّها ؛ بل العالَمُ كُلُّهُ فيه كالذَّرَّة في بحرٍ أو برٍّ ، وفي لحظةٍ واحدةٍ يذهبُ بفكرته وحركتِه مِنَ الثَّرىٰ إلى العُلا ومِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، مع كونه مسجوناً في العالَمِ التُّرابيِّ ، فهو يقدِرُ أن يمسحَ السَّماواتِ ويذرَعها ، ويعلمُ مقدارَ كلِّ كوكبٍ وذرعِهِ بطريقِ المساحةِ ، فيقولُ كم ذراعاً هو ، ويستخرجُ بحيلتِه السَّمكَ من قعرِ الماءِ ، ويأخذُ الصَّيدَ بحُسْنِ تدبيرِهِ من

---

(١) سقط من (ب) و(هـ) قوله : (الذي يعرفُه الخلق بالتَّعريف) ، وكلمة (بالتعريف) ليست في (ج) و(د) و(ليدن) .

جوِّ الهواءِ وفضاءِ الصَّحراءِ ، ويصرِّفُ الحيواناتِ مع قوَّتها كالفيلِ والأسدِ والفَرسِ والجَملِ بين أمرِه ونهيِه ، فهي مسخَّرةٌ لهُ ، وكلُّ عجائبٍ في العالَمِ فبين يديهِ وبحُكمِهِ ، وهـٰذا كلُّه من جملةِ العلومِ التي تحصلُ له من جهةِ الحواسِّ الخمسِ ؛ ولهـٰذا السببِ كان ظاهراً ، فيدرِكُ علمَهُ كلُّ أحدٍ .

وأعجبُ من هـٰذا ؛ أنَّ في باطنِ القلبِ روزنَةً[1] مفتوحةً نحو عالَمِ المحسوساتِ الذي يُسمَّىٰ بالعالَمِ الجسمانيِّ ، كما يُسمَّىٰ عالَمُ الملكوتِ بالعالَمِ الرُّوحاني ، وأكثرُ النَّاسِ يعلمون العالَمَ الجسمانيَّ محسوساً ، وهـٰذا مختصرٌ في جنبِ غيرِه .

والدَّليلُ علىٰ أنَّ للعلومِ روزنَةً أُخرىٰ من باطنِ القلبِ . . شيئانِ :

أحدُهما : النَّومُ ؛ فإنَّه إذا انسدَّتْ بالنومِ طرُقُ الحواسِّ . انفتحتْ تلك الرَّوزنَةُ ؛ فيخبَرُ بما في عالَمِ الملكوتِ واللَّوحِ المحفوظِ مِنَ الغيبِ ، ويَعرفُ ما يأتي في المستقبلِ ويَحدُثُ فيه ، ويراه إمَّا علىٰ حِلْيَةِ الحالِ[2] التي يكونُ عليها ويحدُثُ كذلك ، وإمَّا علىٰ مثالٍ يُفتقرُ فيه إلىٰ تعبيرِ الرُّؤيا .

ومن جهةِ الظَّاهرِ ـ بحسب النَّاس ـ أنَّ المستيقظَ أولىٰ بمعرفةِ ذلك

---

(١) الرَّوْزَنَةُ : الخرقُ في أعلى السَّقفِ . وقال الأزهري في « التَّهْذيبِ » : (يقالُ للكُوَّةِ النافِذَةِ الرَّوْزَنُ ، وأحسَبُه مُعْرَّباً) . « تاج العروس » (ر ز ن) .

(٢) كذا في جميع النُّسخ : (الحال) ، وقد كتبت كذلك في (أ) : (الحال) ، ولـٰكن كتب في هامشها بنفس الخطِّ : (حلية الحلال ، صح ، صح) ، ولم يتبيَّن لي معناها .

مِنَ النَّائمِ ، وهم يرونَ أنَّ المستيقظَ لا يَرى الغيبَ ، وفي حالِ النَّومِ يراه ولٰكن لا من طريقِ الحواسِّ !

ومَنْ وقفَ علىٰ شرحِ حقيقةِ النَّومِ . . عَلِمَ الحالَ ، ولٰكن لذلك كتبٌ مصنَّفةٌ يطولُ ذكرُها ، ويُخرجُ الاشتغالُ بها هٰذا المختصرَ عن وضعِه المقصودِ منه ، وقد صنَّفتُ في ذلك بحمدِ اللهِ كُتُباً بالعربيةِ والفارسيَّةِ[1] .

والذي ينبغي أن يُعرفَ هٰهنا : هو أنَّ القلبَ كالمرآةِ ، إذا كانت صافيةً مِنَ الكدوراتِ متهيِّئةً لقبولِ الأشياءِ . . فإنَّه يظهرُ فيها أثرُ قوَّةِ قَبولِ الأشياءِ وصورِها ، وبالضدِّ من ذلك ، إذا لم تكن صافيةً . . فإنَّه لا يظهرُ فيها أثرُ قوَّةِ قَبولِ شيءٍ .

ومثَلُ عالَمِ الغيبِ . . كالمرآةِ التي فيها صورُ جميعِ الموجوداتِ علىٰ وجهٍ يقعُ فيها الصُّوَرُ فيما قُوبِلَ بها ، كذلك صوَرُ اللَّوحِ المحفوظِ تظهرُ في القلبِ إذا كان صافياً مِنَ الشَّوائب ، عارياً فارغاً مِنَ المحسوسات ، وتصيرُ بينهما مناسبةٌ ، وما دامَ مشغولاً بالمحسوساتِ . . حُجِبَ عن مناسبةِ عالَمِ الملكوتِ ، وفي حالِ النومِ يكونُ فارغاً مِنَ المحسوساتِ ، فلا جَرَمَ يظهرُ ما كان في جوهرِهِ من مطالعَةِ الملكوتِ ، ولٰكنِ الحواسُّ وإن كانت واقفةً عنِ التَّصرُّفِ بسببِ النَّومِ مُرتَجَةَ البابِ . . فالخيالُ بحالِه لم يزلْ ؛ ولهٰذا كلُّ ما يراه إنَّما يراه في كِسوةِ الخيالِ غيرَ صريحٍ ولا مكشوفٍ ولا عارٍ من غطاءٍ وسَترٍ ، فإذا ماتَ . . لم يبقَ حواسٌّ ولا خيالٌ ؛ فيرى الأشياءَ خاليةً عنِ الخيالِ ، عاريةً عنِ الغطاءِ والسَّترِ ،

---

(١) سقط من (ب) و(هـ) قوله : (وقد صنَّفتُ في ذلك بحمد الله كُتُباً بالعربية والفارسيَّة) .

فيقالُ لهُ : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] ، فحينئذٍ يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ [السجدة : ١٢] .

الدَّليلُ الثاني : هو أنَّه ليس أحَدٌ إلا وله فِراساتٌ وخواطرُ تطرُقُ قلبَه علىٰ سبيلِ الإلهامِ ، لا من طريقِ الحواسِّ ، لٰكن يظهرُ في القلبِ بحيث لا يَعلمُ[١] من أين جاء ذلك ، فيتحقَّقُ بهٰذا الطريقِ أنَّ العلومَ كلَّها ليست من طريقِ الحواسِّ فقط .

فإذا عرفتَ ذلك . . عرفتَ[٢] أنَّ القلبَ من عالَمِ الملكوتِ لا من عالَمِ المحسوساتِ ، والحواسَّ المخلوقةَ لهٰذا العالَمِ تصيرُ حجاباً للقلبِ عن مُطالعَةِ عالَمِ الملكوتِ ، فما لم يفرُغ مِنَ المحسوساتِ والحواسِّ . . فلا يهتدي سبيلاً إلىٰ عالَمِ الملكوتِ بحالٍ .

* * *

(١) ثبتت (لا) النَّافية في (أ) وحدها ، وسقطت من النُّسخ الأخرىٰ .
(٢) كذا في (أ) وحدها : (عرفتَ) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ : (عُلِمَ) .

١٢ فصل

في بيان الإلهام وطريق الصوفية في استكشاف الحق[(١)]

لا تظنَّ أنَّ رَوزَنَةَ القلبِ لا تنفتحُ نحو عالَمِ الملكوتِ بغيرِ طريقَي النَّومِ والموتِ ، فليس كما تظنُّ ؛ فإنَّ مَنْ راضَ نفسَهُ في تيقُّظِه ، وخلَّصَ قلبَه من يَدِ الغضبِ والشَّهوةِ والأخلاقِ الذَّميمةِ ، وتجرَّدَ عن طلبِ رياسةِ هٰذه الدُّنيا ، وجلسَ مكاناً خالياً وفتحَ بصَرَهُ وعطَّلَ حواسَّهُ ، وجعلَ بين قلبِه وعالَمِ الملكوتِ مناسبةً بأنْ يقولَ على الدَّوامِ : (الله ، الله ، الله) بقلبِه لا بلسانِه إلىٰ أن يبقىٰ غائباً عن نفسِهِ ، غافلاً عن جملتِهِ وعن جميعِ العالَمِ فلا يشعرُ بشيءٍ غيرِ الله ، فإذا انتهتْ حالُه في اليقَظةِ إلىٰ مثلِ هٰذا .. انفتحتْ رَوزَنَةُ القلبِ ـ وإنْ كان مستيقظاً ـ فيشاهدُ في يقَظتِهِ حينئذٍ ما يشاهدُهُ غيرُه في المنام ، وتظهرُ له أرواحُ الملائكةِ في صورةٍ مُستحسنةٍ ، ويَرى الأنبياءَ ويستفيدُ منهم ، ويجدُ مدداً من لطفِ اللهِ تعالىٰ به ، ويُعرَضُ عليه ملكوتُ السَّماواتِ والأرضِ ، ومَن فُتِحَ له هٰذا البابُ .. رأىٰ أموراً عظيمةً لا تدخلُ تحت حدِّ الوصفِ .

وعن هٰذه الحالِ أخبرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم بقوله :

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٥/٦٧) ، و« كيمياء السَّعادة » (ص ١٥) ، وعنونتُ للفصل بما عنون به الإمام الغزاليُّ في « الإحياء » .

« زُوِيَتْ لِيَ الأَرضُ فَأُرِيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها »[1] ، وكذلك قولُ الله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

وجميعُ علومِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ إنَّما كان من أوَّلِ هـٰذا الطريقِ لا من طريقِ الحواسِّ والتَّعلُّمِ ، وأوَّلُ كلِّ ذلك إنَّما هو المجاهدةُ ؛ كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزَّمِّل : ٨] ؛ يعني : اقطعْ عنِ الكلِّ قلبَكَ وفوِّض إليه كلِّيَّتَكَ[2] ، ولا تشتغلْ بتدبيرِ الدُّنيا ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه يُدبِّرُ ذلك كما ينبغي ، فاكتفِ بهِ وكيلاً ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزَّمِّل : ٩] ، فإذا اتَّخذتَهُ وكيلاً . . فاكتفِ به ، وفرِّغ قلبكَ مِنَ الأسبابِ ، ولا تقفْ مع المخلوقاتِ ، ولا تنظرْ بقلبكَ نحو المُحدَثاتِ ، واصبرْ علىٰ ما يقولون .

هـٰذا كلُّه تعليمٌ لهُ كيف يُرَوِّضُ نفْسَهُ ويجاهدُ ؛ ليصفوَ قلبُهُ من عداوةِ المخلوقاتِ ، ويتنظَّفَ مِنَ الميلِ إلى الشَّهواتِ ، ويفرُغَ مِنْ عرَضِ الدُّنيا وما يُشغِلُ مِنَ المحسوساتِ ، وهـٰذا الطريقُ للصُّوفيَّةِ ، وهو طريقُ الأنبياءِ والنُّبُوَّاتِ[3] .

---

(١) مقطعٌ من حديثٍ رواه بهـٰذا اللفظ ابن ماجه (٣٩٥٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه ، وفيه : (حتىٰ رأيتُ) بدل (فأُريتُ) ، ورواه مسلم (٢٨٨٩) كذلك عن ثوبان رضي الله عنه ، بلفظ : « إنَّ اللهَ زوىٰ ليَ الأرضَ ، فرأيتُ مشارِقَهَا ومغارِبَهَا » .

(٢) كذا في (أ) و(ج) و(و) و(ليدن) : (اقطع عن الكلِّ قلبك وفوِّض إليه كلِّيَّتَكَ) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) : (اقطع عن الكلِّ **علائق** قلبك وفوِّض كلِّيَّتَكَ **إلىٰ ربِّك**) .

(٣) ذكر الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٧/ ٢٤٧) أنَّ هـٰذا المنهج=

أمَّا تحصيلُ العلمِ بطريق التَّعلُّم . . فذاكَ سبيلُ العلماءِ ، وهو طريقٌ عظيمٌ في نَفْسِهِ ، وبالإضافةِ إلىٰ غيره من أسبابِ الدُّنيا ، لـٰكنَّهُ قليلٌ مختصرٌ بالإضافةِ إلىٰ طريقِ النُّبوَّةِ وعلمِ الأنبياءِ والأولياءِ الحاصلِ بغير واسطةِ تعليمِ الآدميِّينَ ؛ فإنَّه يصلُ إلىٰ قلوبِهم من حضرةِ الحقِّ ، وقد عَرفَ خلقٌ كثيرٌ صِحَّةَ ذلك بطريقِ التَّجرِبَةِ وبالبرهانِ العقليِّ ، ومَنْ لم يحصُلْ له من ذلك شيءٌ بالذَّوقِ ولا بطريقِ التَّعلُّمِ بالبرهانِ العقليِّ . . فلا أقلَّ من أنْ يُؤمنَ به ويُصدِّقَ به ؛ لئلا يُحرَمَ الدَّرجاتِ الثلاثَ . . فيَكفُرَ ، وهـٰذا من علومِ القلبِ ، وبه يُتبيَّنُ شرفُ قلبِ الآدميِّ ويُعلَمُ[1] .

= هو طريق شيخ وأستاذ حُجَّة الإسلام الغزالي الإمام أبي علي الفارمذي الطوسي رضي الله عنهما .

(١) وقد تكلَّم الإمام الغزاليُّ في « الإحياء » عن حصول العلم للأولياء من طريق الكشف والإلهام لا من طريق التعلُّم . انظر « الإحياء » (٥/ ٦٧ ، بيان الفرق بين الإلهام والتعلُّم ، والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحقِّ وطريق النُّظَّار) ، و(٥/ ٨٤ ، بيان شواهد الشَّرع علىٰ صحَّة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا مِنَ التعلُّم ، ولا مِنَ الطريق المعتاد) .

وممَّا قال رضي الله عنه : (اعلم أنَّ أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت ؛ تارةً علىٰ سبيل الإلهام بأنْ يخطرَ لهم علىٰ سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون ، وتارةً علىٰ سبيل الرؤيا الصادقة ، وتارةً في اليَقَظة علىٰ سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام ، وهـٰذا أعلى الدرجات ، وهي من درجات النبوَّة العالية ؛ كما أنَّ الرؤيا الصادقة جزء من ستةٍ وأربعين جزءاً مِنَ النبوَّة .

فإيَّاك أن يكون حظُّك من هـٰذا العلم . . إنكارَ ما جاوز حدَّ قصورِكَ ؛ ففيه هلك المتحذلقونَ مِنَ العلماء ، الزاعمونَ أنَّهم أحاطوا بعلوم المعقول . فالجهلُ خيرٌ =

. . . .

= من عقلٍ يدعو إلىٰ إنكار مثل هـٰذه الأمور لأولياء الله تعالىٰ ، ومَنْ أنكر ذلك للأولياء.. لزمه إنكارُهُ للأنبياء ، وكان خارجاً عنِ الدِّينِ بالكُلِّيَّةِ .

قال بعض العارفين : إنَّما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعيُنِ الجمهور . . لأنَّهم لا يطيقون النظر إلىٰ علماء الوقت ؛ لأنَّهم عندهم جُهَّالٌ بالله تعالىٰ ، وهُمْ عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء) . « الإحياء » (١/ ٣٠٢) .

وعلَّق الحافظ الزبيدي علىٰ قول حُجَّة الإسلام : (ومَنْ أنكر ذلك للأولياء . . لزمه إنكارُهُ للأنبياء ، وكان خارجاً عنِ الدِّينِ بالكُلِّيَّةِ) بقوله : (لأنَّ طريق الفيض واحدٌ ، وإنَّما يختلف تلقيه بحسب الاستعدادات ، فما كان للأنبياء . . فهو للأولياء ، مع مباينة الاستعداد ، ما عدا مرتبة النبوَّة التي لا يلحقها لاحق ، ولا يشقُّ غبارها سابق ، فإنكار ما للأولياء . . يورثُه الإنكار لما للأنبياء) . « إتحاف السادة المتقين » (١/ ٤٤٦) .

ويحسن هنا كذلك أن أذكرَ ما ذكره سيدي الشيخ الأكبر محيي الدِّين ابن العربي رضي الله عنه في « فتوحاته » من إنكار العلماء على الأولياء في علومهم الكشفيَّة الإلهاميَّة الحاصلة لهم بغير واسطة تعليم الآدميِّين ـ كما مرَّ معك من قول الإمام ابن حمدان العراقي ـ وأنَّ أقلَّ أحوال العلماء أن يُنزِلوا الأولياء في علومهم الكشفيَّة ـ التي هي فوق مداركهم الحسِّيَّة ـ منزلة أهل الكتاب ؛ فلا يُصدِّقونهم ولا يكذِّبونهم .

قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه : (وقد رأينا هـٰذا كثيراً في زماننا ، وذقناه من علماء وقتنا ، فنحن نعذرهم ؛ لأنَّه ما قام عندهم دليل صدق هـٰذه الطائفة ، وهم مخاطبون بغلبة الظنون ، وهـٰؤلاء علماءٌ بالأحكام غير ظانِّين بحمد الله . فلو وفَّوا النظر حقَّه . . لسلَّموا له حاله ؛ كما يسلِّم الشافعيُّ للمالكيِّ حكمَه ولا ينقضه إذا حكم به الحاكم ، غير أنَّهم رضي الله عنهم لو فتحوا هـٰذا الباب علىٰ نفوسهم . . لدخل الخلل في الدِّين منَ المدَّعي صاحب الغرض ؛ فسدُّوه ، وقالوا : إنَّ الصَّادق من هـٰؤلاء لا يضُرُّه سدُّنا هـٰذا الباب ، ونِعمَ ما فعلوه .

ونحن نسلِّم لهم ذلك ونصوِّبهم فيه ، ونحكم لهم بالأجر التَّام عند الله ، ولـٰكن=

. . . .

* * *

= إذا لم يقطعوا بأنَّ ذلك مخطئٌ في مخالفتهم ، فإن قطعوا . . فلا عذر لهم ؛ فإنَّه أقل الأحوال أن ينزلوهم منزلة أهل الكتاب لا نصدقُهم ولا نكذبُهم ؛ فإنَّه ما دلَّ لهم دليل علىٰ صدقِهم ولا كذبِهم ؛ بل ينبغي أن يُجروا عليهم الحكم الذي ثبت عندهم ، مع وجود التَّسليم لهم فيما ادَّعوه ، فإن صدقوا . . فلهم ، وإن كذبوا . . فعليهم) . « الفتوحات المكيّة » (٢/ ٧٩ ، الباب الثالث والسبعون ، السؤال السَّابع والخمسون) .

١٣ فصل

في بيان صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم، ولا من الطريق المعتاد، والدليل القاطع على ذلك[١]

لا تظنَّ أنَّ هـٰذا الشيءَ المخصوصَ الذي هو جوهرُ الآدميِّ . . غيرُ صالحٍ لهـٰذا بأصلِ الفطرة[٢] من حيث حصولُ ذلك منه أن يحكيَ صورةَ العالَمِ ، إلاَّ مَنْ غاصَ[٣] الصدأُ في جوهره فأخرجَهُ عن مشاهدةِ الأشياءِ ؛ فإنَّ المرآةَ إذا استولىٰ عليها الصدأُ فغطَّىٰ جوهرَها وامتزجَ بذاتها . . خرجتْ عن المقصودِ منها باستيلاءِ ذلك عليها ، فلا يَبِينُ فيها شيءٌ عند مقابلتها به . . فأتلفَها .

فكذلك كلُّ قلبٍ غلبَ عليه حرصُ الدُّنيا وشهواتُ المعاصي ، وتمكَّن فيه بحيث انتهىٰ إلىٰ درجةِ الطَّبعِ والرَّينِ ؛ فإنَّه يَعدِمُ ذلك تلك الصَّلاحية[٤]

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٥/ ٩٢) ، و« كيمياء السَّعادة » (ص ١٦) .
وعنونتُ للفصل بما عنون به الإمام الغزاليُّ في « الإحياء » .

(٢) في (ليدن) وحدها : (جوهرُ الآدميِّ بأصلِ الفطرة . . غيرُ صالحٍ لهـٰذا) بدل (جوهرُ الآدميِّ . . غيرُ صالحٍ لهـٰذا بأصلِ الفطرة) .

(٣) في (ليدن) وحدها : (عارض) بدل (غاص) .

(٤) كذا في (أ) : (فإنَّه يَعدِمُ ذلك تلك الصَّلاحية) ، وفي (و) : (فإنَّه يَعدِمُ من تلك الصَّلاحية) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ : (فإنَّه يَعدِمُ تلك الصَّلاحية) .

ويُبطِلُ منه تلك الخاصِّيَّة[1] ، و« **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وإنَّما أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، وَيُنَصِّرَانِهِ ، وَيُمَجِّسَانِهِ** »[2] فأخبرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم بهٰذا عن عمومِ هٰذه الصَّلاحيَّةِ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] . . عبارةٌ عن حالٍ تكونُ الفطرةُ كذلك مستعدَّةً للتَّصديقِ الذي لا يَعتوِرُه شكٌّ ولا يُداخِله شبهةٌ ؛ كما أنَّه لو سُئِلَ عاقلٌ عنِ اثنينِ ، هل هما أكثرُ من واحدٍ ؟ فيقولُ العاقلُ : بلىٰ ، فقد أجابَ بالصَّحيحِ ، ويكونُ باطنُه محشوّاً بتصديق ذلك ، مملوءاً بتحقيقِه ، وهٰذه فطرةُ جميعِ الآدميِّين .

فهكذا معرفةُ الرُّبوبيَّة . . فطرةُ كلِّ شيءٍ ؛ كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] ، وكما قال تعالىٰ : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] .

وقد عُرِفَ بطريقِ التَّجربةِ وبالبرهانِ العقليِّ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلَّم آدميٌّ كغيرِه مِنَ الآدميِّينَ ؛ كما قال اللهُ تعالىٰ لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الكهف : ١١٠] ، غيرَ أنَّه مَنْ فُتِحَ له

---

(١) قال حُجَّة الإسلام : (فلن يصلح لاقتباس أنوار المعرفة الحقيقية . . إلا قلبٌ صافٍ كأنَّه مرآةٌ مجلوَّةٌ ، وإنَّما يصير كذلك بقوَّة الفطرة وصحة القصد ، ثم بإزالة كدورات الدنيا عن وجهه ؛ فإنَّه الرَّينُ والطبع الذي به يمنع اللهُ القلوبَ عن معرفته ، فإنَّ الله يحولُ بين المرء وقلبه) . « الأربعين في أصول الدين » (ص ٩٠) .

(٢) متفقٌ عليه ، البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ لأحمد في « مسنده » (٧٨٢٧ طبعة المَكنِز ، ٧٧١٢ طبعة الرِّسالة) ، وفيه : (فأبواه) بدل (وإنَّما أبواه) .

الطَّريقُ ، واطَّلعَ علىٰ صلاحِ جميعِ الخَلقِ ، وأُمِرَ بالدعاءِ إلىٰ ذلك . . فالذي أُرِيَهُ ووقفَ عليه يسمَّىٰ شريعةً ، ويسمَّىٰ هو رسولاً ، وتسمَّىٰ حالُه تلك معجزةً .

ومَنْ لم يُؤمَرْ بدعوةِ الخَلقِ ، وقد وقفَ واطَّلعَ علىٰ ذلك . . يُسمَّىٰ وليّاً ، وتسمَّىٰ حالُه كرامةً ، وليس بواجبٍ علىٰ مَنْ فُتحَ لهُ هٰذا البابُ وكان له هٰذه الحالُ . . أن يشتغلَ بدعوةِ الخَلقِ ؛ لٰكن في القدرةِ أن لا يُشغَلَ بدعوةِ الخَلقِ[١] ، إمَّا بسببِ أنَّ هٰذا الشخصَ يكونُ في وقتٍ تكونُ الشريعةُ فيه طريَّةً متَّبَعةً . . فلا يحتاجُ إلىٰ دعوةٍ أخرىٰ ، وإمَّا بسببِ أن يكون للدعوةِ شرائطُ أُخَرُ ليست في هٰذا الوليِّ موجودةً ، فإذاً ؛ يجبُ التَّصديقُ والإيمانُ بالولايةِ وبكراماتِ الأولياءِ .

ويُعلَمُ أنَّ أوَّلَ هٰذا الأمرِ يتعلَّقُ بالمجاهدةِ ، والاختيارُ طريقٌ نحوَه ، ولٰكنْ ليس كلُّ طالبٍ يجدُ ؛ بل كلُّ أمرٍ كان أعزَّ من غيرِه . . كانت شرائطُه أكثرَ من شرائطِ غيرِه ، ووجودُه أكثرَ تعذُّراً مِن وجودِ غيرِه ، وهٰذا أشرفُ حالَي الآدميِّ في مقامِ المعرفةِ[٢] ، ولا يصِحُّ طلبُ ذلك بغيرِ مجاهدةٍ وشيخٍ قد عرَفَ كيفيَّةَ السُّلوكِ[٣] ، فإذا وُجِدَ هٰذانِ

---

(١) كذا في (أ) و(ب) : (يُشغَل بدعوة الخلق) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ : (يَشتغِل بدعوة الخلق) .

(٢) جاء في هامش (أ) حاشية : (أي حالُ النُّبوَّة والولاية) .

(٣) قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه : (ثم يجب على المريد أن يتأدَّب بشيخ ؛ فإنَّ مَنْ لم يكن له أستاذٌ . . لا يفلح أبداً . هٰذا أبو يزيدَ يقول : من لم يكن له أستاذٌ . . فإمامه الشيطان . وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس . . فإنَّها تورق ؛ ولٰكن =

الشيئانِ . . لم يَصلْ إلىٰ مرادِه ما لم يُساعِدْهُ التَّوفيقُ والحُكمُ لهُ بالسَّعادةِ في الأزلِ ، وكذلك تحصيلُ درجةِ الإمامةِ في العلمِ الظاهرِ وسائرِ الأمورِ الاختياريَّةِ .

* * *

= لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفَساً فنفَساً . . فهو عابد هواه ، لا يجد منه نفاذاً) . « الرسالة القشيرية » (ص ٧٧٣ ، باب الوصية للمريدين) .

١٤ فصل
في بيان شرف القلب من طريق القدرة[(١)]

هٰذا القدْرُ المقدَّمُ ذِكرُه أُنموذجُ شرفِ جوهرِ الآدميِّ ؛ أعني : قلبَه في طريقِ علمِ المعرفةِ ، فأمَّا من طريقِ القُدرةِ ، وهو الوجهُ الثاني مِنَ القلبِ من جهةِ القُدرةِ[(٢)] :

فاعلم أنَّ للقلبِ من جهةِ القدرةِ شرفاً آخرَ يختصُّ به لا يُشاركه شيءٌ مِنَ الحيوانِ فيه ، وذلك أنَّه كما أنَّ عالَمَ الأجسامِ مسخَّرٌ للملائكةِ بإذنِ اللهِ تعالىٰ ؛ حتىٰ إذا استَصوبُوا ورأوا حاجةَ الخَلقِ إلى المطرِ مثلاً . . أتوا به في وقتِ الرَّبيعِ ، وكذلك الرِّياحِ ، والحيواناتِ في الأرحامِ ، والنَّباتِ في الأرضِ ، فيُحسنونَ تزيينَ ذلك وتربيتَه ، ولكلِّ جنسٍ من هٰذه الأمورِ جماعةٌ مِنَ الملائكةِ خلقَهُم اللهُ سبحانه وشغَلَهُم بذلك .

فكذلك قلبُ الآدميِّ ـ الذي هو جوهرٌ مَلَكيٌّ ـ له قدرةٌ ؛ حتىٰ سُخِّرَ له بعضُ الأجسام ، والعالَمُ الخاصُّ لكلِّ أحدٍ . . جسدُهُ وبدنُه ، والبدنُ

---

(١) سيتكلَّم المؤلِّف رضي الله عنه في هٰذا الفصل عن الوجه الثاني في بيان شرف القلب ، وقد تقدَّم الكلام عن الوجه الأوَّل في الفصل الحادي عشر (ص ١٧٤) .

(٢) كذا في (أ) و(و) ، وفي النُّسخ الأخرى : (الوجه الثاني مِنْ شرف القلب) بدل (الوجه الثاني مِنَ القلب مِنْ جهة القُدرةِ) .

مُسخَّرٌ للقلبِ ، ومعلومٌ أنَّ القلبَ إذا أمرَ الإصبعَ بالحركةِ . . تحرَّكتْ ، فإذا ظهرتْ صورةُ الغضبِ في القلبِ . . تحلَّلَ العَرَقُ من جميعِ أعضائه ، وهـٰذا مثَلُ المطرِ .

وإذا ظهرتْ صورةُ الشَّهوةِ في القلبِ . . ظهرَ الهوىٰ ، فحينئذٍ يذهبُ إلىٰ جانبِ آلةِ الشَّهوةِ ، وإذا انتهضتْ هِمَّةُ أكلِ الطَّعامِ . . قامتْ في الخدمةِ تلك القوَّةُ التي تحت اللِّسانِ ؛ فيدِرُّ الماءُ ليبتَلَّ به الطعامُ فيمكنُ أكلُه ، ولولا ذلك لَمَا أمكنَ .

وليس بخافٍ[1] نفوذُ تصرُّفِ القلبِ في البدنِ وكونُ البدنِ مُسخَّراً له ، ولـٰكن ينبغي أن يُعلَم أنَّهُ يجوزُ أن يكونَ بعضُ القلوبِ أشرفَ وأقوىٰ من بعضٍ ، وأقربَ إلىٰ جواهرِ الملائكةِ من غيرِه ، ويكونُ مِنَ الأجسامِ الأُخَرِ ما يُشبِهُ بدنَه ، مطيعاً لهُ ، ينفذُ فيه تصرُّفُه ، وإن كانت غيرَ بدنِه الخاصِّ ، وإذا كانت همَّتُه معذوقةً بمريضٍ[2] . . شُفِيَ وصَحَّ ، وإذا ألقىٰ وَهمَهُ في صحيحِ البدنِ . . مَرِضَ ، وإذا علَّقَ همَّتَهُ بمجيءِ مَطَرٍ . . جاء ، وإذا أخطَرَ في همَّتِهِ[3] طلبَ إتيانِ شخصٍ إليه . . وُجِدَتْ في باطنِ ذلك الشَّخصِ حركةٌ تُزعِجُهُ إليه .

حُكيَ[4] عن الجنيد أنَّهُ قال : أرِقتُ ليلةً وثَقُلَتْ علَيَّ أورادي ،

---

(١) في (أ) و(ج) و(و) كتبت : (يُخافُ) بدل (بخافٍ) !

(٢) في (ب) : (معروفة بمريض) ، وفي (ج) : (مصروفةً بمريض) بدل (معذوقةً) ، وكتب تحت الكلمة في هامش (أ) : (معلَّقة) .

(٣) كذا في (أ) و(ب) و(هـ) و(و) : (وإذا أخطَرَ في همَّته) ، وفي (ج) و(ليدن) : (وإذا خطر في وهمه) ، وفي (د) : (وإذا خطَرَ بباله ووهمه) .

(٤) سقط من (ب) و (هـ) و(ز) قوله : (حكي عن الجنيد أنَّه قال) إلىٰ قوله : =

فعالجتُ نفسي بكلِّ قَسَمٍ ، فلم يهمَّها إلا الخروجُ . . فخرجتُ من تحتِ ليلتي ، فبينا أنا أمشي في بعض السِّكك ؛ إذ بصُرتُ بشابٍّ مُلتفٍّ بعباءةٍ مُلقىً على الأرضِ ، فلمَّا دنوتُ منه . . رفعَ رأسَهُ نحوي وقال : إلى الآن يا أبا القاسمِ ؟! فقلتُ : حبيبي ، من غيرِ موعدٍ ، فقال : أردتُ مِنَ الله أن يُحرِّك قلبَكَ إليَّ ، فقلتُ : قد فعلَ ، فما حاجتُكَ ؟ فقال : يا أبا القاسمِ ، متىٰ يكونُ داءُ النَّفْسِ دواءها ؟ فقلتُ : إذا خالفَتْ هواها . . صار داؤُها دواها[1] . فنظرَ إلىٰ نفْسِهِ ، ثمَّ قال : يا نفْسُ قد أجبتُك بهـٰذا الجوابِ سبعَ مرَّاتٍ . . فأبيتِ إلاَّ أنْ تسمعيهِ مِنَ الجنيد ! ثم إنَّه نهض من مكانِهِ وانصرفَ ، فزالَ ما كنتُ أجِدُهُ مِنَ الانزعاجِ والاشتغالِ عنِ الأورادِ[2] .

وقد وردَ في مثلِ ذلك آثارٌ وأخبارٌ كثيرةٌ[3] . وهـٰذا كلُّه ممكنٌ ببرهانِ العقلِ ، معلومٌ بالتَّجربةِ[4] .

ومن هـٰذا البابِ يكونُ ذلك الأمرُ المسمَّىٰ سِحْراً ، ويسمَّىٰ إصابةَ العينِ .

= (وهـٰذا كله ممكنٌ ببرهان العقل ، معلومٌ بالتَّجرِبةِ) .

(١) بتسهيل الهمز في (دواءها) مراعاة للسجع .

(٢) رواها الإمام البيهقي في « الزهد الكبير » (ص ٣٢٤) ، والإمام القشيري في « الرسالة » (ص ٣٩٠ ، باب مخالفة النَّفس وذكر عيوبها) ، والإمام الغزالي في « الإحياء » (٥/ ٢٣٥ ، في كتاب رياضة النَّفس وتهذيب الخُلُق ومعالجة أمراض القلب ، وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات) .

(٣) كذا في (أ) و(ليدن) ، وفي (ج) و(د) زيادةٌ : (وقد ورد في ذلك آثارٌ وأخبارٌ كثيرة **وحكايات جمَّة**) ، وفي (ج) : (وحكايات **لا يحصُرها عددٌ**) .

(٤) انتهى السقط في (ب) و(هـ) و(ز) .

مثلاً : يُشاهِدُ الدابّةَ بحُكمِ الحَسَدِ ، فيرىٰ هلاكَهَا في الوهم وتخطرُ ببالِه . . فتَهلِكَ في الوقتِ ؛ كما جاء في الخبرِ المعلومِ : « **الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ ، وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ** »[١] ، وهـٰذا أيضاً من عجائبِ قُدَرِ القلبِ[٢] .

وهـٰذه الخاصيَّةُ إذا ظهرتْ لشخصٍ ، فإنْ دعا الخَلقَ . . سُمِّيتْ هـٰذه الخاصيَّةُ معجزةً ، وإن لم يَدعُ . . سُمِّيتْ كرامةً ، وإن كانت في أفعالِ الخيرِ . . سُمِّي ذلك الشَّخصُ وليّاً أو نبيّاً ، وإن كانت في أفعالِ الشَّرِّ . . سُمِّي ذلك الشَّخصُ ساحراً .

واعلم بأنَّ السِّحرَ والكراماتِ والمعجزاتِ من خواصِّ قُدرةِ قلبِ الآدميِّ ، وإن كان بين كلِّ واحدٍ منها وبين غيرِه فروقٌ كثيرةٌ لا يَحتملُ هـٰذا المختصرُ شرحَها .

* * *

---

(١) رواه أبو نُعيم في « الحِلية » (٧/ ٩٠) عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه الشهاب القضاعي في « مسنده » (٢/ ١٤٠ رقم : ١٠٥٧) عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، بلفظ : « **إنَّ العَينَ لَتُدخِلُ الرَّجُلَ القبرَ ، وتُدخِلُ الجَمَلَ القِدْرَ** » .

(٢) في (أ) وحدها ضبطها (قُدَر القلب) .

١٥ فصلٌ

في أنّ النبوّة والولاية من درجات قلب الآدميّ

مَنْ قَصُرَ فهمُهُ عن معرفةِ هذه الجملةِ المقدَّمِ ذكرُها.. لم يكن له خبرٌ من حقيقةِ ذلك إلا من جهةِ الصُّورةِ والسَّماعِ : أنَّ[١] النُّبوَّةَ والوِلايةَ مِنْ درجاتِ قلبِ الآدميِّ ، وحاصلُ ذلك ثلاثُ خواصَّ :

أحدُها : أنَّ ما ينكشفُ لعمومِ الخَلقِ في المنامِ.. ينكشفُ له في اليقَظةِ .

الثانيةُ : أنَّ قلبَ عمومِ الخَلقِ إنَّما يفعلُ في البدنِ الخاصِّ به ، وقلبَ النَّبيِّ أو الوليِّ يعملُ في بدنهِ الخاصِّ به وفي الأبدانِ المُختصَّةِ بغيرِهِ الخارجةِ عنهُ ؛ فيؤثِّرُ فيها بطريقٍ يكونُ فيه صلاحُ الخَلقِ ، أو لا يكونُ فيه فسادٌ بحالٍ .

الثالثةُ : أنَّ ما يحصلُ مِنْ علومِ عمومِ الخَلقِ بطريقِ التَّعليمِ والتَّعلُّمِ.. يحصُلُ لهُ من باطنِه من غيرِ تعلُّمٍ .

وإذا جازَ لِمَن كان ذكيّاً فطِناً كيِّساً صافيَ الذِّهنِ أنْ يُحصِّلَ بعضَ العلومِ أو الصَّنائعِ بطريقِ خاطرهِ وجَودَةِ فِطنَتَهِ من غيرِ تعلُّمٍ.. فكذلك يجوزُ لِمَن كان أصفىٰ قلباً وأخلصَ ذهناً وأقوىٰ فطنةً.. أنْ يعرفَ جميعَ العلومِ من تِلقاءِ قلبِهِ ؛ فإنَّه لوِ امتنعَ في الكُلِّ.. لامتنعَ في البعضِ ،

---

(١) في (ليدن) وحدها : (لأنَّ) بدل (أنَّ) .

وهـٰذا النَّوعُ مِنَ العلمِ يُسمَّى اللَّدُنِّيَّ ، كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[1] [الكهف : ٦٥] .

فمَنِ اجتمعتْ له هـٰذه الخواصُّ الثلاثُ . . كان من أكابرِ الأنبياءِ أو أكابرِ الأولياءِ[2] ، ومَنْ وُجِدَتْ فيه أحدُها . . كان قد حصَلتْ له درجةٌ مِنَ الثَّلاثةِ ، وفي كلِّ واحدٍ مِنْ ذلك تفاوتٌ كثيرٌ أيضاً ، فقد يُعطى الواحدُ مِنَ الأشخاصِ أقلَّ ممَّا يُعطىٰ غيرُه .

وكان كمالُ رسول الله صلواتُ اللهِ عليه بجمعِ هـٰذه الخواصِّ الثلاثةِ لهُ في نهايةِ كمالِها وغايةِ رُتبتِها ، ولمَّا أرادَ اللهُ تعالىٰ مِنَ الخلقِ أن

---

(١) في (د) وحدها : (وآتيناه من لدنا علماً) ، وهو خلاف التلاوة .

(٢) كذا في (أ) و(ب) و(هـ) و(و) و(ز) و(ليدن) : (كان من أكابر **الأنبياء** أو أكابر **الأولياء**) ، وفي (ج) : (كان من أكابر الأنبياء أو الأولياء) ، وفي (د) : (كان من أكابر **الأولياء** أو **أجلَّة الأولياء**) ، وظاهر ما أثبتناه مشكلٌ ؛ إذ إنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الدرجات حاصلٌ بلا شكٍّ لجميع الأنبياء بغير كسبٍ ، فلا يُقال : إنَّ مَنْ حصَّل هـٰذه الدرجات . . كان من أكابر الأنبياء ؛ لأنَّ مفهومه أنَّ بقيَّة الأنبياء الذين هم دون أكابرهم ـ وكلهم أكابر ـ لم يحصِّلوا هـٰذه الدَّرجات ! وهـٰذا لا يقول به مسلم . والأمر ليس كذلك ؛ إذ إنَّ المؤلِّف رضي الله عنه قدَّم في بداية الفصل أنَّ النبوَّةَ والولايةَ من درجات قلب الآدميِّ ، وسيقول بعد ذلك : أنَّ كمالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بجمع هـٰذه الخواصِّ الثلاثة لهُ في نهايةِ كمالها وغايةِ رُتبتِها ، وعليه فمفهوم كلام المؤلِّف بقوله : (كان من أكابر الأنبياء) أي : أنَّ مَنِ اجتمعت له هـٰذه الخواص الثلاث على الكمال بطريق **المنَّة المحضة** . . كان من أكابر الأنبياء أُولي العزم منهم ، وإن كان هـٰذا حاصلاً لبقيَّة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ بلا شكٍّ ؛ لـٰكن بتفاوت الدرجات فيما بينهم . ومَنِ اجتمعت له بطريق **المجاهدات والكسب** . . كان من أجلَّة الأولياء وأكابرهم رضي الله عنهم في مرتبة ولايته من حيث اتباعه للأنبياء .

يهديَهُم نحوَ النُّبوةِ ليتبعوه ويتعلَّموا منهُ طريقَ سعادتِهم . . أعطىٰ كُلاًّ منهم أُنموذجاً من هـٰذه الخواصِّ الثلاثةِ ؛ ليتوصَّلوا بذلك إلى المراد ، فالنَّومُ أنموذجُ أحدِ الخواصِّ ، والصِّحَّةُ والاستقامةُ والصدقُ أنموذجٌ مِنَ الخاصِّيَّةِ الأُخرىٰ ، فللصِّدقِ والاستقامةِ أثرٌ في الأشياءِ الخارجةِ عن ذاتِ الصَّادقِ .

حُكيَ عن أبي عَمروٍ الزَّجَّاجي أنَّهُ قال[1] : ورثتُ من أُمِّي داراً[2] ، فبعتُها بخمسينَ ديناراً وتوجَّهتُ نحوَ الحجازِ ، فلمَّا وصلتُ أرضَ بابلَ . . استقبلني بعض القَياقِنَةِ[3] فقال لي : ما معكَ ؟ فقلتُ في

---

(١) سقط من (ب) و(هـ) و(ز) قوله : (حُكيَ عن أبي عَمرو الزَّجَّاجي) إلىٰ قوله : (وأمَّا الأنموذج مِنَ الخاصِّيَّة الثالثة) .
وأبو عمرو الزَّجَّاجي : محمد بن إبراهيم بن يوسف ، أبو عمرو النيسابوري الزجاجي الزاهد ، نزيل الحرم . كان أوحد مشايخ وقته ، صحب الجنيد ، وأبا الحسين النوري ، وبقي شيخ الحرم مدَّة ، وحج بضعاً وخمسين حَجَّة ، وله كلام جليل في التصوف . قال ابن الجوزي : صحب النوري والخواص وصار شيخ الحرم . وقال غيره : صحب الجنيد ، وصحبه الأستاذ أبو عثمان المغربي سعيد بن سلام نزيل نيسابور ، ولم يَبُل في الحرم أربعين سنة ، كان يخرج إلى الحِل . توفي سنة (٣٤٨هـ) . انظر « تاريخ الإسلام » (٧/ ٨٦٨) للحافظ الذهبي .

(٢) في (ج) و(د) و(ليدن) زيادةٌ : (داراً بنيسابور) .

(٣) كذا كتبت في جميع النُّسخ : (**القياقنة**) عدا نسخة (ليدن) : (**القافيه**) ، وصوابه (**القناقنة**) والقِنْقِنُ والقُناقِنُ ، بالضمِّ : البصير بالماء تحت الأرض ، وهو الدليل الهادي ، والجمع القَناقِنُ ، بالفتح . قال ابنُ بريّ : وأصلها بالفارسية ، وهو معرَّب مشتقٌّ مِنَ الحفر من قولهم بالفارسية : كن كن ، أي : احفر احفر . « لسان العرب » (ق ن ن) ، هـٰذا وقد كُتبَ في هامش (أ) تحت الكلمة : (حرام) .

نفسي : الصِّدقُ خيرٌ ، فقلتُ له : معي خمسونَ ديناراً ، فقال : هاتِها ، فأخذها وحلَّ الصُّرَّة وعدَّها فكانت كذلك ، فأعادها إليَّ وقال : خُذها ؛ فقد غلبني صدقُكَ ! فأخذتُها ، فنزلَ عن دابَّتِهِ وقال : خذ هـٰذه ، فقلتُ : لا أفعل ، فقال : لا بُدَّ من ذلك ، فأخذتُها وركبتُها ، فقال : إذا كان في العامِ القابلِ.. فكن منتظري ؛ فإنِّي آتيك هـٰهنا ، ثم ودَّعني وذهبَ ، فلمَّا كان في العامِ الثاني.. رجعتُ فإذا هو منتظري هناك ، فقلتُ : ما منعكَ في عامِ أوَّلَ ؟ قال : إنَّه لمَّا غلبني صدقُك.. ذكرتُ مظالِمَ وحقوقاً كانت عليَّ ؛ فذهبتُ لتخليص نفسي منها ، فلمَّا فرَغتُ من ذلك.. جئتُكَ ليس عليَّ تبِعَةٌ ، قال : فحججنا جميعاً ولازَمَني حتىٰ ماتَ[1] .

وقد جاء في آثارِ الصِّدقِ وتأثيرِهِ ما يطولُ تَعدادُهُ[2] .

وأمَّا الأنموذجُ مِنَ الخاصِّيَّةِ الثالثةِ[3] : فهو خاصِّيَّةُ الصِّحَّةِ في العُلوم ، ولا يمكنُ للآدميِّ أن يؤمنَ ويُصدِّقَ بشيءٍ ليسَ لهُ من جنسهِ ؛ فإنَّ كلَّ ما لم يكن له أنموذجٌ منه.. لا يعرفُه أحَدٌ بكمالِه إلا اللهُ تعالىٰ ، وشرحُ ذلك يُخرجُ الكتابَ عنِ المقصودِ .

ويجوزُ أن يكونَ للأنبياءِ والأولياءِ خواصٌّ أُخَرُ لا عِلمَ لنا بها ؛ إذ ليس عندنا أُنموذجٌ منها ، فكما أنَّا نقول : لا يعرفُ اللهَ تعالىٰ أحَدٌ بنعتِ الكمالِ إلا اللهُ سبحانه.. فكذلك نقول : لا يعرفُ أحَدٌ مِنَ البشرِ الرَّسولَ

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٤٨٤ ، في باب الصِّدق) .

(٢) في (ليدن) وحدها زيادة : (ما يطولُ تَعدادُهُ **ولا يحصرُه كتاب**) .

(٣) انتهى السقط من (ب) و(هـ) ، وفيهما : (وخاصِّيَّة) بدل (فهو خاصِّيَّة) .

صلى الله عليه وسلَّم بنعتِ الكمالِ إلا الرَّسولُ ومَنْ كانت درجتُه أعلىٰ مِنْ درجتِه .

فإذاً ؛ لا يعرفُ قدْرَ الرَّسولِ مِنَ الآدميِّينَ . . إلا الرَّسولُ[1] .

وليس لنا عِلمٌ بأكثرَ من هـٰذا القدْرِ ؛ فإنَّه لو لم نعرفِ النوم مَثلاً ، وقال لنا أحَدٌ : إنَّ شخصاً لا يسمعُ ولا يُبصرُ ولا يتحرَّكُ ولا ينطِقُ . . يَرىٰ ما يكون غداً ويعلمُه ، وحين كان يرىٰ ويُبصرُ ويسمعُ كان غيرَ راءٍ له ولا عالِمٍ به . . لم نُجوِّزْ قطُّ ولم نُصدِّقْهُ ؛ فإنَّ الآدميَّ لا يكادُ يصدِّقُ

---

(١) قال الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه : (فأمَّا منازل الأقطاب المحمديين الذين هم الرسل صلوات الله عليهم أجمعين . . فلا سبيل لنا إلى الكلام علىٰ منازلهم ؛ فإنَّ كلامنا عن ذوقٍ ، ولا ذوق لنا في مقامات الرسل عليهم السلام ، وإنَّما أذواقنا في الوراثة خاصَّة ، فلا يتكلَّم في الرسل إلا رسول ، ولا في الأنبياء إلا نبي أو رسول ، ولا في الوارثين إلا رسول أو نبي أو ولي أو مَنْ هو منهم ، **هـٰذا هو الأدبُ الإلـٰهيُّ** ، فلا تُعرَفُ مراتب الرسل إلا مِنَ الختم العام الذي يختم الله به الولاية العامَّة في آخر الزمان ، وهو عيسى بن مريم روح الله ، فإنْ سئل عن ذلك . . فهو يترجم عنهم وعن تفاضلهم ؛ فإنَّه رسول منهم ، **وأمَّا نحن . . فلا سبيل إلىٰ ذلك**) . « الفتوحات المكيَّة » (٤/ ٧٥) .
وقال أيضاً رضي الله عنه : (لا يعرف اللهَ إلا الله ، ولا النبيَّ إلا النبيُّ ، ولا الوليَّ إلا وليٌّ مثله ، فالنبيُّ ذو عين مفتوحة لمشاهدة النبوَّة ، والوليُّ ذو عين مفتوحة لمشاهدة الولاية ، ذو عين عمياء لمشاهدة النبوَّة ؛ فإنَّها من خلفِه ، فهو فيها كحافظ القرآن ؛ لأنَّه « مَنْ حفظ القرآن . . فقد أدرجت النبوَّة بين جنبيه » ، ولم يقل في صدره ، ولا بين عينيه ، ولا في قلبه ؛ فإنَّ تلك رتبة النبيِّ لا رتبة الوليِّ ، وأين الاكتساب مِنَ التخصيص ؟! فالنبوَّة اختصاصٌ مِنَ الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ، وقد أُغلقَ ذلك الباب وختمَ **برسول الله محمد صلَّى الله عليه وسلَّم** ، والولاية مكتسَبةٌ إلىٰ يوم القيامة) . « الفتوحات المكيَّة » (٣/ ١٤) .

ما لم يرَهُ ، كما قال الله سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [يونس : ٣٩] ، وقال : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ١١] .

ولا تَستبعدْ[1] أن يكونَ للأنبياءِ والأولياءِ صفةٌ لا يعلمُها غيرُهم ، ولهم منها أحوالٌ شريفةٌ ولذَّاتٌ حاصِلةٌ ؛ فإنَّك ترىٰ مَنْ ليس لهُ ذوقٌ مِنَ الشِّعرِ.. فإنَّه لا يجدُ لذَّةَ وزنِ السَّماعِ ، وإذا أرادَ أحَدٌ تفهيمَهُ معنىٰ ذلك.. لم يَقدِرْ ؛ لأنَّ ذلك ليس عندَه خبرٌ مِنْ جنسِه ، وكذلك الأكمَهُ في معنى الألوانِ ولذَّةِ النَّظرِ إليها ؛ فإنَّه لا يستطيعُ فهمَها ؛ إذ ليس له خُبرٌ مِنْ جنسِ ذلك ، فلا تَعجبْ ولا تَستبعِدْ أن يكونَ في قدرةِ اللهِ تعالىٰ أن يخلُقَ بعضَ الإدراكاتِ بعدَ درجةِ النُّبوَّةِ ولم يكن لأحَدٍ قبلَهُ مِنْ عِلمٍ به .

* * *

---

(١) كذا في (أ) و(و) بلا النَّاهية : (ولا تَستبعِدْ) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ بلا النَّافية : (ولا يُستبعَدُ) .

١٦ فصل

في معنى قولهم: العلم حجاب، والترقي من عقيدة العوام إلى أذواق الخواص (١)

قد بانَ ووضحَ بما تقدَّمَ ذِكرُه.. شرفُ جوهرِ الآدميِّ ، وعُرِفَ طريقُ التصوُّفِ والصُّوفيَّةِ ، ومُمكنٌ أنْ يكون قد سمعتَ مِنْ بعضِ الصُّوفيَّةِ قولَهُم : (العلمُ حجابٌ عن هـٰذا الطَّريقِ) وأنكرتَ ذلك منه ، فينبغي أن لا تُبادِرَ إلى الإنكارِ ؛ فإنَّ ذلك حقٌّ .

فإنَّ المحسوساتِ وكُلَّ علمٍ حصلَ بها ومنها ؛ إذا اشتغلتَ به واستغرقَتَ كلِّيَّتَكَ فيه.. كان حجاباً عن هـٰذا .

ومَثَلُ القلبِ كحوضِ ماءٍ ، ومَثَلُ الحواسِّ كأنهارٍ خمسَةٍ ترمي الماءَ في الحوضِ مِنْ خارجٍ ، فإذا أردتَ أن تستخرجَ الماءَ صافياً مِنَ الحوضِ.. فتحتاجُ إلىٰ أن تُدبِّرَ كيف تُخرِجُ الماءَ جميعَه من قعرِ الحوضِ والحَمَأةِ وما اجتمعَ فيه من أثرِ الماءِ .

فطريقُهُ : أن تَسُدَّ سبيلَ الأنهارِ الخمسةِ حتىٰ لا ترميَ في الحوضِ ،

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٦/ ٦٨٧ ، كتاب ذم الغرور ، وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات ، بيان أصناف المغترين ، الصنف الثالث : المتصوِّفة) ، وجاء في هامش (أ) حاشية بخطٍّ مختلفٍ عن خطِّ الأصل : (مطلبٌ : هـٰذا الفصل الشَّريف من أوَّله إلىٰ آخره حريٌّ أن يُكتبَ بالتِّبر) .

ثمَّ تأخذَ الماءَ من قعرِ الحوضِ[1] حتىٰ لا يبقىٰ فيه شيءٌ من ماءٍ ولا غيرِه ، وتحفِرَ الحوضَ حتىٰ ينبعَ الماءُ ، فحينئذٍ يخرجُ الماءُ صافياً من داخلِ الحوضِ ، وما دامَ الحوضُ مشغولاً بذلك الماءِ الواقعِ فيه مِنَ الأنهارِ . . فلا يمكنُ استخراجُ الماءِ الصَّافي من باطنِ الحوضِ[2] .

فكذلك هـٰذا العِلمُ الذي ينبعُ من باطنِ القلبِ . . لا يمكنُ حصولُه حتىٰ يتنظَّفَ القلبُ ممَّا يدخلُ فيه مِنْ خارجٍ ، أمَّا العالِمُ إذا خلا قلبُه عنِ العِلمِ الذي تعلَّمَهُ ولم يتعلَّقْ قلبُه[3] به ولم يُشغِلْه . . لم يكن ذلك العِلمُ الذَّاهبُ حجاباً لهُ ، ويمكنُ أن يحصلَ له هـٰذا الفتحُ ، كما أنَّه إذا خلا قلبُهُ مِنَ الخيالاتِ والمحسوساتِ . . لا تصيرُ الخيالاتُ السَّالفةُ حجاباً له .

وسببُ ذلك : أنَّه إذا تعلَّمَ أحدٌ اعتقادَ أهلِ السُّنَّةِ وأدلَّتَهم ـ كما ذكرنَاه في كتابِ « اصطحابِ المعقولِ والمنقولِ في علمِ الأصولِ » ، وكما يُذكَرُ في المناظرةِ والجدلِ[4] ، وكما ذكرَه شيخُنا حجَّةُ الإسلامِ

---

(١) سقط من (د) وحدها قوله : (من قعرِ الحوضِ **والحمأة وما اجتمعَ فيه من أثرِ الماءِ فطريقُهُ أن تَسُدَّ سبيل الأنهار الخمسة حتىٰ لا ترمي في الحوض ، ثمَّ تأخذُ الماء من قعر الحوض** حتىٰ لا يبقىٰ فيه شيءٌ) ، ولعلَّه فوت نظرٍ ؛ لابتداء السقط وانتهائه بقوله : (من قعر الحوض) .

(٢) قوله : (مِن باطن الحوض) ليس في (أ) .

(٣) كذا في (أ) و(و) : (الذي **تعلَّمَهُ** ولم **يتعلَّق** قلبه) ، وفي (ليدن) : (الذي تعلَّمَهُ ولم **يُعلِّق** قلبه) ، وفي النُّسخ الأخرى : (الذي **يُعلِّمَه** ، ولم **يُعلِّق** قلبه) .

(٤) سقط من (ب) و(هـ) و(ز) قوله : (كما ذكرناه في كتاب « اصطحاب المعقول والمنقول في علم الأصول » ، وسقط من (د) وحدها قوله : (وكما=

قدَّسَ اللهُ روحَه في كتابِ « الاقتصاد في الاعتقاد » وغيرِه من كتبِ الأصولِ[1] ـ وجَعلَ كُلِّيَّتَهُ مشغولةً بذلك ، واعتقدَ أنْ ليس وراءَ ذلك شيءٌ مِنَ العلومِ ، وإن خَطرَ بقلبِه شيءٌ آخرُ.. قال : هـٰذا خلافُ ذلك الذي سمعتُهُ ، وكلُّ ما كان بخلافِه.. فهو باطلٌ ؛ فإنَّ هـٰذا الرَّجُلَ لا يمكنُه قطُّ أنْ يَعلمَ حقيقةَ الأمورِ ؛ فإنَّ ذلك الاعتقادَ الذي يعلَمُه العوامُّ قالبُ الحقيقةِ ، وتمامُ ذلك أنَّها هي المعرفةُ بعينِ الحقيقةِ ، بحيث تنكشفُ الحقائقُ من قوالبها كما يَكشفُ العظمُ عن المخِّ[2] والقِشرُ عن اللبِّ ، ومَنْ حَفِظَ طريقَ الجدلِ في نُصرةِ اعتقادٍ.. لم ينكشفْ له الاعتقادُ علىٰ حقيقتِه ؛ إذ ذلك طريقُ نصرتِه لا طريقُ حقيقتِه[3] ، فإذا ظنَّ أنَّ الكلَّ إنَّما هو ذلك الذي حَفِظَه.. صارَ ذلك الظَّنُّ حجاباً له ، وتَحكُمُ غلبةُ هـٰذا الظنِّ على الشخصِ الذي يَعلَمُ ؛ فلا جرمَ يكونُ محجوباً من هـٰذه الدَّرجةِ بهـٰذا الطريقِ .

= يُذكَرُ في المناظرة والجدل) .

(١) قوله : (وكما ذكرَه شيخنُا حجَّةُ الإسلامِ قدَّس اللهُ روحَه في كتابِ « الاقتصاد في الاعتقاد » وغيرِه من كتب الأصول) ثبت في (ليدن) و(د) فقط ، وسقط من باقي النسخ ، والعبارة في (د) : (إلىٰ غير ذلك من كتب الأصوليين) بدل (وغيرِه من كتب الأصول) .

(٢) قوله : (لا يمكنه قطُّ أنْ يعلم حقيقة الأمور ؛ فإنَّ ذلك الاعتقاد الذي يعلمه العوام قالب الحقيقة وتمام ذلك أنها هي المعرفة بعين الحقيقة بحيث تنكشف الحقائق من قوالبها كما يكشف العظم عن المخ) مطموس في (أ) ، وتمَّ إثباته من النُّسخ الأخرىٰ .

(٣) ولذا قال حُجَّة الإسلام عن هـٰذا الطريق : (صادفتُه علماً وافياً بمقصودِه غيرَ وافٍ بمقصودي) . « المنقذ من الضلال » (ص ٥٦) .

فأمَّا إذا خرجَ الشَّخصُ عن هـٰذا الظنِّ وتعدَّىٰ هـٰذه الرتبةَ . . فلا يصيرُ العِلمُ حجاباً له ، لـٰكن إذا ظهرَ لهُ هـٰذا الفتحُ . . كانت درجتُه في غايةِ الكمالِ ، وطريقُه أعظمَ وأكثرَ أمناً ؛ فإنَّ مَنْ رسَختْ قدمُهُ في العِلمِ إذا عارضَتْهُ شُبهةٌ . . سَهُلَ عليه حلُّها ، فلا يصيرُ له حجاباً[1] ، وغيرُه إذا عَرَضتْ له أدنىٰ شُبهةٍ . . حجبَتْهُ ، وبقيَ مُدَّةً في قيدِ الخيالِ ، والرَّاسخُ في العِلمِ على الوجهِ المقدَّمِ ذكرُه . . آمنٌ من ذلك .

فإذاً ؛ قد بَانَ معنىٰ قولِهم : (**العِلمُ حجابٌ عن هـٰذا الطريقِ**) فافهمه[2] ، ولا تنكرْه إذا سمعتَه ممَّن وصلَ إلىٰ درجةِ المكاشفةِ[3] .

---

(١) سقط من (ليدن) قوله : (سَهُلَ عليه حلُّها ، فلا يصير له حجاباً) .

(٢) انظر كلام حُجَّة الإسلام في « إحياء علوم الدين » (٢/ ٣٠٤) ؛ فقد شرح هـٰذه العبارة (العلم حجاب) بشكل مجمل ، بينما نرىٰ هنا تلميذه الإمام العراقي قد فصَّل كلام شيخه حُجَّة الإسلام وبيَّنه ملتزماً بشرطه في بداية كتابه هـٰذا ، وفي تفصيله هـٰذا يظهر الفرق جلياً بين عقيدة العوامِّ وعقيدة الخواص .

(٣) قال العلامة تاج الدين السبكي رضي الله عنه في « معيد النعم ومبيد النقم » (ص ٩٧) : (اللهَ اللهَ في ألفاظٍ جَرَت من بعض سادات القوم ، لم يَعنوا بها ظواهرَها ، وإنَّما عنَوا بها أموراً صحيحة ؛ فلا ينبغي للشيخ ذكرُها لمريدٍ لا يفهمها ؛ فإنَّه يُضلُّه ؛ مثل ما يُقال عن بعضهم : (العلم حجاب) ؛ فإنَّه لا يريدُ به ظاهرَ ما يفهمُه المبتدئ منه . . ولـٰكن له معنىً لا يناسبُ حالَ المبتدئ الكشفُ عنه ، وغير ذلك من ألفاظٍ ربَّما جرىٰ بعضُها في حال السكر ؛ فإنَّها ممَّا لا يُقتدىٰ بها ، ولا تُوجِب القدحَ في قائلها ؛ بل نُسلِّم إليه حالَه ، ونقيمُ عذرَه فيما سقطَ من بين شفتيه حالةَ الغَيبةِ ؛ فإنَّ الشارع لم يكلِّف غائبَ الذهنِ .
هـٰذا إذا فقدت أسباب التأويل لكلامه بالكلية ، ولن نجد ذلك إن شاء الله تعالىٰ في كلام أحَدٍ مِنَ المعتبرين ؛ بل قد نزَّه الله تعالىٰ ألفاظَهم عن الأباطيلِ ، وما لهم كلمةٌ إلاَّ ولها محملٌ حَسَنٌ) .

أمَّا مَنْ سوىٰ هـٰذا مِنَ الإباحيَّةِ والطَّوافينَ الذين لا حاصلَ لهم ولا دِينَ ، ظهروا في هـٰذا الزَّمانِ ، ولم يكن لأحدِهم هـٰذه الحالُ ، لـٰكن حفظوا عباراتٍ من كلامِ الصُّوفيَّةِ مزوَّقةٍ ، وتعلَّقوا بألفاظٍ من طامَّاتِ القومِ مزيَّفةٍ ، وجعلوا شُغلهُمُ التَّغسُّلَ بالمياهِ ، والتزيُّنَ بلُبسِ الفُوَطِ والمُرقَّعاتِ ، والتَّحلِّي ببسطِ السَّجَّاداتِ ، وأقبلوا علىٰ ذمِّ العلمِ والعلماء.. فهم شياطينُ الخَلقِ وأعداءُ اللهِ ورسولِه ، فينبغي قتلُهُم وتطهيرُ الأرضِ منهم ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ ورسولَه صلى الله عليه وسلَّم مدَحا العِلمَ والعلماءَ ، ودَعَوا النَّاسَ إلى العِلمِ .

وهـٰذا المُدبِرُ الخسيسُ إذا لم يكن صاحبَ حالٍ ولا محصِّلاً لعلمٍ.. فمتىٰ يجوزُ له أن يتلفَّظَ بلفظةٍ في حقِّ أهلِ العلمِ وأربابِ الأحوالِ[1] ؟!

ومَثَلُ هـٰذا الخسيسِ مَثَلُ رجُلٍ سمعَ أنَّ الكيمياءَ خيرٌ مِنَ الذَّهبِ ؛ لأنَّه منه يُعملُ مِنَ الذَّهبِ ما لا نهايةَ لهُ ، فإذا وضِعتْ كنوزُ الذَّهبِ بين يديه.. لم يمدَّ يدَه إليها ؛ بل يقول : لماذا يصلحُ الذَّهبُ ، وأيُّ قدْرٍ له ؟! أنا أريدُ الكيمياءَ الذي هو أصلٌ لهـٰذا ، فلا يأخذُ الذَّهبَ ولا يكونُ واجداً للكيمياءِ قطُّ ! فلا يزالُ[2] مُفلساً مُدبراً عُرياناً جائعاً ، ومن سرورِه

---

(١) وقد تكلَّم حُجَّة الإسلام عن هـٰؤلاء الإباحيَّة الزنادقة ، ذكَرهم في الصنف الثالث من أصناف المغترِّين ، وهم المتصوِّفة ، فقال : (وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية.. لا تحصىٰ ، وكل ذلك بناء علىٰ أغاليط ووساوس خدعهم الشيطان بها ؛ لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير اقتداءٍ بشيخٍ متقنٍ في الدين والعلم ، صالحٍ للاقتداء به) . « الإحياء » (٦/ ٦٩٢) .

(٢) في النُّسخ الأخرىٰ زيادة ؛ فقد جاء في (ب) : (**فهـٰذا الخسيس لايزال**) ، وفي (ج) و(د) و(ليدن) : (**فهو الخسيس لايزال**) ، وفي (هـ) : (**فهو**=

بهـٰذا الكلامِ الذي ذكرَه ـ وهو أنَّ الكيمياءَ خيرٌ مِنَ الذَّهبِ ـ يتداخَلُهُ طربٌ ؛ فيفخرُ بذلك القولِ ، ولا يُغني عنه شيئاً !

فإذاً ؛ مثالُ كشفِ الأنبياءِ والأولياءِ[1] مثلُ الكيمياءِ ، ومثالُ علمِ العلماءِ مثلُ كنوزِ الذَّهبِ ، ولصاحبِ الكيمياءِ فضلٌ علىٰ صاحبِ الذَّهبِ علىٰ سبيلِ الجملةِ .

لـٰكنْ هـٰهنا دقيقةٌ أخرىٰ ، وهي : أنَّ مَنْ له مِنَ الكيمياءِ قدْرٌ يجيءُ منه مئةُ دينارٍ . . لا يكونُ لهُ فضلٌ علىٰ مَنْ معه ألفُ دينارٍ ، وكما أنَّ كتُبَ الكيمياء وحديثَه وطلابَه كثيرٌ ـ ولا يكادُ يحصلُ لأحدٍ حقيقةُ ذلك مع طولِ المدَّةِ ، وأكثرُ مَنْ نهضَ في طلبِه لا يحصلُ إلا على البهرجةِ والقلبِ ـ فكذلك أمرُ الصُّوفيةِ عزيزٌ جداً ، وما يكونُ . . فهو قليلٌ ، ونادرٌ أن يَصلَ فيه إلىٰ درجةِ الكمالِ .

فإذاً ؛ عرفتَ من هـٰذا أنَّ مَنْ ظهرَ له من حالِ الصُّوفيَّة شيءٌ . . لا يكونُ له فضلٌ به علىٰ جميعِ العالَمِ ؛ فإنَّ أكثرَ هـٰؤلاء يَظهرُ عليه أثرٌ من أوائلِ هـٰذا الأمرِ[2] ، ثم يسقطُ من تلك الرُّتبةِ فلا يجري إلىٰ تمامِها ، ومنهم مَنْ يستولي عليه خيالٌ أو سوداءُ فلا يكونُ له حقيقةٌ ، وهو يعتقدُ أنَّ ذلك شيءٌ ، ولعلَّ مِنَ العشرة واحداً لا يكون كذلك ، وكما أنَّ في النَّومِ حقيقةً وأضغاثاً . . فكذلك في تلك الحالِ المذكورةِ من طريقِ التصوُّفِ ، فيكونُ الفضلُ على العلماءِ لشخصٍ كمُلَ في تلك

= الجنس الخسيس لا يزال) .

(١) سقط من (د) وحدها كلمة : (والأولياء) .

(٢) في (ج) وحدها : (من نور أوائل هـٰذا الأمر) .

الحالِ وانتهىٰ إلىٰ درجةِ التَّمامِ ، بحيث إنَّ ما يحصُلُ لغيرِه مِنَ العلومِ بطريقِ التَّعلُّمِ.. يحصُلُ له ذلك لا بطريقِ التَّعلُّمِ ، وهـٰذا الشخصُ نادرٌ جداً[1] .

فإذاً ؛ يجبُ الإيمانُ والتَّصديقُ بأصلِ طريقِ التصوُّفِ وبفضلِ

---

(١) قال حُجَّة الإسلام : (فالعناية بمقامات القلب وأحواله.. هو دأب علماء الآخرة ؛ لأنَّ القلب هو الساعي إلىٰ قرب الله تعالىٰ . وقد صار هـٰذا الفن غريباً مندرساً ، وإذا تعرض العالِم لشيء منه.. استُغرِبَ واستُبعِدَ ، وقيل : هـٰذا تزويق المذكِّرين ، فأين التحقيق ؟! ويرون التحقيق في دقائق المجادلات ! ولقد صدق مَنْ قال : [من البسيط]

الطُّرْقُ شتَّىٰ وطُرْقُ الحقِّ مُفردةٌ ... والسالكونَ طريقَ الحقِّ أفرادُ
لا يُعرفونَ ولا تُدرىٰ مَقاصِدُهُمْ ... فهم علىٰ مَهَلٍ يمشون قُصَّادُ
والناسُ في غفلةٍ عمَّا يُرادُ بِهِمْ ... فجُلُّهُمْ عن سبيلِ الحقِّ رُقَّادُ

وعلى الجملة : فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم ؛ فإنَّ الحقَّ مُرٌّ ، والوقوفَ عليه صعبٌ ، وإدراكَهُ شديدٌ ، وطريقَهُ مُستوعَرٌ ، ولا سيَّما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة ؛ فإنَّ ذلك نزعٌ للروح على الدوام ، وصاحبُهُ يُنزَّلُ منزلة شارب الدواء يصبرُ علىٰ مرارته رجاءَ الشفاءِ ، ويُنزَّلُ منزلة مَنْ جعل مُدَّةَ العمْر صومَهُ ، فهو يقاسي الشدائد ليكون فطرُهُ عند الموت ، ومتىٰ تكثرُ الرغبةُ في مثل هـٰذا الطريق ؟!

ولذلك قيل : إنَّه كان في البصرة مئةٌ وعشرون متكلِّماً في الوعظ والتذكير ، ولم يكن مَنْ يتكلَّمُ في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن.. إلا ثلاثةٌ : سهلٌ التُّسْتَرِيُّ ، والصُّبَيْحِيُّ ، وعبدُ الرحيم ، وكان يجلس إلىٰ أولئك الخلق الكثير الذي لا يحصىٰ ، وإلىٰ هـٰؤلاء عددٌ يسيرٌ قلَّما يجاوزُ العشرة ؛ لأنَّ النفيس العزيز.. لا يصلح إلا لأهل الخصوص ، وما يُبذَلُ للعموم.. فأمرُهُ قريبٌ) ، « إحياء علوم الدين » (١/ ٢٨٨ ، ٢٨٩) ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ٤٣٣) .

الصُّوفيّةِ ، ولا نسيءُ بهِمُ الظَّنَّ لأجلِ ما نُشاهدُه من خسيسٍ دخيلٍ يتزيَّا بزيِّ القومِ ظاهراً ، ولا يُحلِّي باطنَه بحليتِهم ، **فكلُّ مَنْ تراه منهُم أو من غيرِهم يطعنُ** في العلمِ أو العلماءِ . . **فاعلمْ أنَّهُ يفعلُ ذلك من عدَمِ الدِّينِ** وفقدِ التَّحصيلِ ، وأنَّهُ عدوٌّ للهِ ولرسولِه ولشرعِه ؛ **فاجتنبْهُ**[1] .

---

(١) قال حُجَّة الإسلام رضي الله عنه : (علمتُ يقيناً أنَّ الصوفية همُ السالكون لطريق الله تعالىٰ خاصَّةً ، وأنَّ سيرتَهم أحسنُ السِّيَرِ ، وطريقَهم أصوبُ الطُّرُقِ ، وأخلاقَهم أزكى الأخلاق .
بل لو جُمعَ عقلُ العقلاء ، وحكمةُ الحكماء ، وعِلمُ الواقفين علىٰ أسرار الشرع مِنَ العلماء ؛ ليغيروا شيئاً من سيرِهم وأخلاقِهم ، ويبدِّلُوه بما هو خيرٌ منه . . لم يجدوا إليه سبيلاً ؛ فإنَّ جميعَ حركاتِهم وسكناتِهم في ظاهرِهم وباطنِهم . . مقتبسةٌ من مِشكاة النبوةِ ، وليس وراءَ نور النبوة علىٰ وجه الأرض نورٌ يُستضاءُ به .
وبالجملة : فماذا يقول القائلون في طريقةٍ طهارتُها ـ وهي أول شروطها ـ : تطهير القلب بالكُلِّيَّة عمَّا سوى الله تعالىٰ ، ومفتاحُها الجاري منها مجرى التحريم مِنَ الصلاة : استغراق القلب بالكُلِّيَّة بذكر الله ، وآخرُها : الفناء بالكُلِّيَّة في الله ؟!
وهـٰذا آخرُها بالإضافة إلىٰ ما يكادُ يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها ، وهي على التحقيق أوَّلُ الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه .
ومِنْ أوَّلِ الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ؛ حتىٰ إنَّهم وهُمْ في يقظتهم يشاهدون الملائكةَ وأرواحَ الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد .
ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلىٰ درجات يضيق عنها نِطاقُ النطق ، فلا يحاول مُعبِّرٌ أن يعبِّرَ عنها . . إلا اشتمل لفظه علىٰ خطأٍ صريحٍ لا يمكنُهُ الاحتراز عنه .
وعلى الجملة : ينتهي الأمر إلىٰ قُرْبٍ يكاد يتخيل منه طائفةٌ الحلولَ ، وطائفةٌ الاتحادَ ، وطائفةٌ الوصولَ ، وكلُّ ذلك خطأٌ ، وقد بيَّنا وجه الخطأ فيه في كتاب « المقصد الأسنىٰ » . =

١٧ فصل

في بيان أنّ كمال العبد وسعادته وغاية لذّته في معرفة الله تعالىٰ [(١)]

عساكَ تقولُ : بأيِّ شيءٍ يُعلمُ أنَّ سعادةَ الآدميِّ إنَّما هي معرفةُ اللهِ تعالىٰ ؟

فاعلم بأنَّ طريقَ معرفةِ ذلك : أنْ تعلمَ أنَّ سعادةَ كلِّ شيءٍ فيما لهُ فيه اللذَّةُ والرَّاحةُ ، ولذَّةُ كلِّ شيءٍ إنَّما تكونُ فيما هو مقتضىٰ طبعِهِ وما خُلقَ مِن أجلهِ ، كما أنَّ لذَّةَ الشَّهوةِ في الوصولِ إليها ، ولذَّةَ الغضبِ في الانتقامِ مِنَ العدوِّ ، ولذَّةَ العينِ في النَّظرِ إلى الصُّورِ والأشياءِ المستحسَنَةِ ، ولذَّةَ السَّمعِ في الإصغاءِ إلى الأصواتِ والألحانِ الطَّيِّبةِ .

فكذلك لذَّةُ القلبِ إنَّما تكونُ فيما هو خاصِّيَّتُه وهو مخلوقٌ من

= بل الذي لابسته تلك الحالةُ لا ينبغي أن يزيد على أن يقول : [من البسيط]

فكانَ ما كانَ مِمَّا لستُ أذكُرُهُ ... فَظُنَّ خيراً ولا تَسأَلْ عَنِ الخَبَرِ

وبالجملة : فمَنْ لم يُرزَقْ منه شيئاً بالذوق.. فليس يُدرِكُ من حقيقة النبوَّة إلا الاسمَ) . « المنقذ من الضلال » (ص ٩٩ ، ١٠٠) .

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « كيمياء السَّعادة » (ص ١٦) ، و« المقصد الأسنىٰ » (ص ٨٩) ، و« الأربعين في أصول الدِّين » (ص ٤٣٨ ، في المحبَّة ، وهو الأصل الثامن منَ القسم الرَّابع المعقود في الأخلاق المحمودة) ، و« إحياء علوم الدين » (٨/ ٤٠٩) .

أجلِهِ ، وذلك إنَّما هو المعرفةُ بحقيقةِ الأمورِ ؛ فإنَّ ذلك خاصِّيَّةٌ لقلبِ الآدميِّ .

أمَّا الشَّهوةُ والغضبُ والمدرَكاتُ بالحواسِّ الخمسِ . . فإنَّ للبهائمِ ذلك ؛ ولهٰذا يفرحُ الآدميُّ ويبتهجُ بما يعلمُهُ ويفقهُهُ ، ويتبجَّحُ بما يعرفُه ويفتخرُ به ، وإن كان شيئاً خسيساً كالشطرنجِ مثلاً ؛ فإنَّه لو قيل لمَن يعرفُ نقلَ ذلك إذا لُعِبَ في حضرتِه بالشطرنجِ : لا تُعَلِّمْ . . شقَّ عليه الصَّبرُ ، خصوصاً إذا رأىٰ لُعبةً غريبةً ؛ فإنَّه يشتهي أن يُظهِرَ معرفتَهُ ويفتخرَ بدرايتِهِ .

فإذا عرفتَ أنَّ لذَّةَ القلبِ في معرفةِ الأمورِ . . بَانَ لكَ أنَّ المعرفةَ مهما كانت حاصلةً بأشرفِ الأشياءِ وأعظمِها . . كانت اللذَّةُ أكثرَ ؛ فإنَّ مَنْ كان لهُ عِلمٌ بأسرارِ الوزيرِ . . يبتهجُ بذلك ، وإن عَلِمَ أسرارَ الملِكِ وفكرَتَهُ في تدبيرِ أمرِ المملكةِ . . كان سرورُهُ أكثرَ ، ومَنْ عَلِمَ بعِلمِ الهندسةِ شكلَ السَّماواتِ ومقاديرَها . . كان سرورُهُ وفرحتُهُ بذلك أكثرَ منه بعِلمِ الشطرنجِ ، ومَنْ عرفَ عِلمَ الشطرنجِ كيف يوضعُ ووضَعَه كذلك . . كان لذَّتُهُ بذلك أكثرَ من لذَّةِ مَنْ عرفَ كيف يوضَعُ ولم يضَعْ .

وهكذا كلَّما كان المعلومُ أشرفَ من غيرِه . . كان العِلمُ به أشرفَ بغيرِه[1] ، واللذَّةُ الحاصِلةُ مِنَ العلمِ به أكثرَ مِنَ اللذَّةِ الحاصلةِ مِنَ العِلمِ بما هو دونَه .

وليس موجودٌ أشرفَ ممَّن شَرَفُ الموجوداتِ كلِّها به ، وهو سلطانُ

---

(١) كذا في (أ) و(و) : (كان العلم به أشرف بغيره) ، وفي باقي النُّسخ : (كان العلم به أشرف من العلم بغيره) .

العالمينَ وملِكُها ، وجميعُ عجائبِ العالَمِ إنَّما هي آثارُ صنعِهِ .

فإذاً ؛ لا معرفةَ أشرفُ مِنَ المعرفةِ به ، ولا لذَّةَ كالالتذاذِ بمعرفتِه ، ولا نظرَ ألذُّ مِنَ النَّظرِ إلىٰ جمالِ حضرةِ الرُّبوبيَّة ، فمقتضىٰ طبعِ القلبِ إنَّما هو هـٰذا ؛ لأنَّ مقتضىٰ كلِّ شيءٍ خاصِّيَّتُه التي خُلقَ من أجلِها ، فإنْ وُجِدَ قلبٌ ليس فيه اقتضاءُ هـٰذه المعرفةِ وقد بطلَ منه طلبُ ذلك . . فهو كبدنٍ مريضٍ بطلَ عن الاقتضاءِ بالغذاءِ ، وربَّما كانت شهوتُه إلىٰ أكلِ الطِّينِ غالبةً أكثرَ من شهوتِه للغذاءِ ، فمتىٰ لم يُعالَجْ لتعُودَ شهوتُه الطَّبيعيَّةُ إلىٰ ما كانت ويُذهِبَ عنه هـٰذه الشَّهوةَ الفاسدةَ . . كان بِعَرَضِ الهلاكِ[1] ، قد خسرَ دُنياهُ وفقدَ حياتَهُ .

ومَنْ غلبتْ علىٰ قلبِه شهوةُ الأشياءِ الأُخَرِ وبطَلَتْ شهوةُ معرفةِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ من قلبِه . . فقلبُهُ مريضٌ يحتاجُ إلىٰ معالجةٍ ، فإنْ لم يُعالَجْ أو خرجَ عن كونِه قابلاً للعلاجِ . . فقد هلَكَ وخسِرَ آخرتَهُ .

وجميعُ شهواتِ المحسوساتِ ولذَّاتِها تتعلَّقُ ببني آدمَ ؛ فلا جرَمَ تبطلُ بالموتِ[2] ، ولذَّةُ المعرفةِ المتعلِّقةِ بالقلبِ تتضاعفُ بالموتِ ؛ فإنَّ القلبَ لا يهلِكُ بالموتِ لـٰكنْ يزيدُ نوراً وضياءً ، وتتضاعفُ لذَّتُه حينئذٍ أكثرَ ممَّا كانت عند مزاحمةِ بقيَّةِ الشَّهواتِ[3] ، وسيأتي تتمَّةُ شرحِ

---

(١) كذا في (د) و(ليدن) ، وفي (أ) و(و) : (يَعرِضُ الهلاك) ، وفي (ج) : (مُعرَّضاً للهلاك) ، وفي (ب) و(هـ) : (معرض للهلاك) !

(٢) سقط من (ليدن) وحدها قوله : (تبطلُ بالموتِ) .

(٣) قال حُجَّة الإسلام : (الموت لا يهدم محلَّ معرفة الله تعالىٰ ، ومحلُّها الرُّوح الذي هو أمرٌ ربَّانيٌّ سماويٌّ ، وإنَّما الموت يغير أحوالها ، ويقطع شواغلها =

هـٰذا في أصلِ المحبَّةِ مِن آخرِ هـٰذا الكتابِ[1] ، واللهُ الموفِّق .

* * *

= وعوائقها، ويخلِّيها من حبسها، فأمَّا أن يعدمها . . فلا) « الإحياء » (٨/ ٤١٤) .

(١) وجاء في (ليدن) وحدها زيادة : (في أصل المحبَّةِ مِن آخرِ هـٰذا الكتابِ **فهناك موضعه**) .

١٨ فصل

في أن مفتاح معرفة الصفات الإلهية في معرفة الهياكل الإنسانية [١]

هٰذا القدرُ المقدَّمُ ذكرُه في حالِ جوهرِ الآدميِّ .. كافٍ في مثلِ هٰذا المختصرِ ، وإن كان الآدميُّ لا يصيرُ به عارفاً بنفْسِهِ بكمالِ المعرفةِ[٢] ، ولا بأضعافِ هٰذا الشرحِ ؛ لأنَّه شرحٌ لبعضِ صفاتِ القلبِ ، وهٰذا ركنٌ .

والرُّكنُ الآخَرُ للآدميِّ : هو البدنُ ، وفي خَلقِ البدنِ أيضاً عجائبُ كثيرةٌ ، وفي كلِّ عضوٍ من ظاهرِه وباطنِه عجائبُ مِنَ المعاني ، وفي كلٍّ منها حِكَمٌ غزيرةٌ .

وفي بدنِ الآدميِّ عروقٌ وأعصابٌ وعظامٌ كلُّ واحدٍ منها على شكلٍ آخرَ وصفةٍ أخرىٰ ، ومخلوقٌ لغرضٍ خاصٍّ ، وأنتَ غافلٌ عن كلِّ ذلك ، لا عِلمَ لك به ، ولا خبرَ عندك منه ، فلستَ تعرِفُ إلا هٰذا القدْرَ :

أنَّ اليدَ للقبضِ ، والرِّجلَ للسَّعي ، واللسانَ للنُّطقِ ، أمَّا تركيبُ

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « إحياء علوم الدين » (٧/ ٣٧٠) ، و« كيمياء السَّعادة » (ص ١٧ ، ١٨) .

(٢) كذا في (أ) و(ج) و(و) و(ليدن) : (بكمال المعرفة) ، وفي (ب) و(هـ) و(د) و(ز) : (معرفة كاملة) .

العينِ من عشرِ طبقاتٍ ورطوباتٍ[1] مختلفةٍ ـ بحيث لو نَقَصَتْ طبقةٌ واحدةٌ مِنَ العشرةِ . . اختلَّ النَّظرُ ـ فإنَّك لا تَعرفُ ذلك ، ولا تعلمُ كلَّ طبقةٍ ممَّاذا ولماذا ؟ ومِن أيِّ وجهٍ يَحتاجُ إليه النَّظرُ ؟

هـٰذا شكلُ العينِ وقدْرُ صورتِها . . ظاهرٌ ، وشرحُ علمِها مذكورٌ في مجلَّداتٍ كثيرةٍ ؛ بل إنْ لم تعرِفْ ذلك . . فليس بعجبٍ ؛ فإنَّك لا تعلمُ أحشاءَ باطنِك ، وهو أهونُ وأيسرُ ؛ كالكبدِ والطِّحالِ والمَرارةِ والكِليَةِ وغير ذلك ، ولا تعرفُ لماذا هو ؟

فإنَّ الكبدَ جُعلَتْ لتصلَ إليها الأطعمةُ المختلفةُ مِنَ المعدةِ ، فتَجعلُ الكلَّ علىٰ صفةٍ واحدةٍ وحالٍ واحدةٍ في لونِ الدَّم ؛ ليكونَ صالحاً لغذاءِ الأعضاءِ السَّبعةِ ، فإذا استحكمَ نضجُ الدَّمِ في الكبدِ واستوىٰ . . بقيَ عليه رغوةٌ سوداءُ ، فالطِّحال جُعِلَ لها ليأخذَ تلك السوداءَ مِنَ الكبدِ ، ويبقىٰ علىٰ رأسِ ذلك الدَّمِ المنطبخِ في الكبدِ رغوةٌ صفراءُ ، فتأخذُها المرارةُ وتجذبُها مِنَ الكبدِ ، فيبقىٰ في الدَّم مائيَّةٌ ورِقَّةٌ فتجذبُها الكِليةُ ليبقى الدَّمُ خالصاً مِنَ السوداءِ والصَّفراءِ والمائيَّةِ ، فيصلُ إلى العروقِ وله قِوامٌ ، فإنْ أدركَ المرارةَ آفةٌ منعتْها عنِ اجتذابِ الصفراءِ حتىٰ بقيتْ في موضعِها مِنَ الكبدِ . . حدثَ بسببِ ذلك اليرقانُ وغيرُه مِنَ الأمراضِ الصَّفراويةِ ، وربَّما احترقتْ حتىٰ صارتْ سوداءَ[2] ، فإنْ أصابَ الطِّحالَ آفةٌ منعَتْه عن اجتذابِ السَّوداءِ حتىٰ بقيَتْ مع الدَّم . . حدثَ من ذلك أمراضٌ

---

(١) قوله : (ورطوبات) ثبت في (أ) و(و) فقط .

(٢) قوله : (وربَّما احترقت حتىٰ صارت سوداء) ثبت في (أ) و(و) ، وسقط من النُّسخ الأخرىٰ .

سوداويَّةٌ ؛ كحُمَّى الرِبْعِ ووجعِ الطِّحالِ والمالخوليا والجُذامِ وغيرِ ذلك[1] ، وإنْ عَرَضَ الكِليةَ آفةٌ منعتْها عنِ اجتذابِ المائيَّةِ مِنَ الدَّمِ فبقيتْ فيه . . حدثَ من ذلك استسقاءٌ وغيرُه .

وهكذا كلُّ جُزءٍ مِنَ الأجزاءِ الظاهرةِ والباطنةِ . . مخلوقةٌ لفائدةٍ وعملٍ ؛ ليدومَ صلاحُ الجسمِ وقِوامُه بها ، فلو فُقِدَ جزءٌ منها أو بطلَ عن عمله . . اختلَّ البدنُ وفسدَ نظامُه ، وعَرَضَ ما يفضي إلىٰ تلفِه .

كيف وبدنُ الآدميِّ مع صغرِ شكلِه . . مثالٌ لجميعِ العالَمِ ، فليس في العالَمِ شيءٌ إلا في الآدميِّ أُنموذجٌ منه ؛ فعظامُه أنموذجٌ مِنَ الجبلِ ، وعَرَقُه كالمَطَرِ ، وشَعرُه كالشجرِ ، ودِماغُه كالسَّماءِ ، وحواسُّه كالنُّجومِ .

والاشتغالُ بتفصيلِ ذلك . . يُخرجُ الكتابَ عنِ المقصودِ ولا يكادُ يُحصرُ في مجلَّداتٍ ؛ فإنَّ لكلِّ جنسٍ مِنَ المخلوقاتِ مثالاً في الآدميِّ[2] ؛ كالخنزيرِ والكلبِ والذِّئبِ والفَرسِ والشَّيطانِ والملَكِ كما تقدَّمَ ذكرُه .

---

(١) قوله : (كحُمَّى الرِبْع ووجع الطِّحال والمالخوليا والجُذام وغير ذلك) ثبت في (أ) و(و) ، وسقط من باقي النُّسخ . والماليخوليا : أحد الأمراض النفسية التىٰ عرفها وعالجها الأطباءُ المسلمون القدامىٰ . وهي بحسب تعريف الطبيب ابن النَّفيس : تشوُّشٌ فى الفكر ، والظنون إلى الفساد والخوف ، ويبتدئ بسرعة غضبٍ وحُبِّ الخلوة وخوف ما لا يُخاف منه عادةً ، فإذا استحكم . . قويت هـٰذه الأعراض ، وعروضه للرجال أكثر ، وللنساء أفحش . انظر كتاب « الشامل في الصناعة الطبية » (٢/ ٤٦٧) للطبيب ابن النَّفيس القرشي (ت : ٦٨٧هـ) .

(٢) في (د) وحدها : (مثالٌ في الأرض) بدل (مثالاً في الآدميِّ) .

بل فيه أُنموذجٌ من كلِّ صناعةٍ في العالَمِ ؛ فالقوَّةُ الهاضمةُ التي في المعدةِ . . مثلُ الطباخِ ، والقوَّةُ التي تُصفِّي الطعامَ وتُرسلُه إلى الكبدِ وتُرسلُ الثفلَ إلى المِعىٰ . . مثلُ العصَّارِ ، والقوَّةُ التي تخضبُ الطَّعامَ في الكبدِ حتىٰ تُحيلَهُ دماً أو في لونِ الدَّم . . مثلُ الصَّباغِ ، والقوَّةُ التي تجعلُ الدَّمَ في الصَّدرِ أخضرَ وأبيضَ وتجعلُهُ في الأُنثيينِ نطفةً . . مثلُ القصَّارِ والغسَّالِ ، والقوَّةُ الجاذبةُ[1] التي في كلِّ عضوٍ تجذبُ الغذاءَ مِنَ الكبدِ إلى العضو . . مثلُ الحلاَّبِ[2] ، والقوَّةُ التي في الكِليَةِ تستقي مائيَّةَ الدَّمِ مِنَ الكبدِ حتىٰ تذهبَ به في المثانةِ . . مثلُ السَّقاءِ ، والقوَّةُ التي ترمي الثُّفلَ إلىٰ خارجٍ . . مثلُ الكنَّاسِ ، والقوَّةُ المُحدِثةُ للصَّفراءِ والسَّوداءِ في الباطنِ حتىٰ يتلفَ به البدنُ . . مثلُ العيَّارِ المفسدِ ، والقوَّةُ الدَّافعةُ للصفراءِ والسوداءِ . . مثلُ الرَّئيسِ العادلِ .

وهٰذا أيضاً ممَّا يطولُ شرحُه ؛ فإنَّ المقصودَ مِنَ الإشارةِ إلىٰ ذلك وأمثالِه . . أنْ تعلَمَ أنَّ في باطِنكَ وباطنِ كلِّ آدميٍّ عوالِمَ كثيرةً مختلفةً ، كلُّ عالَمٍ منها مشغولٌ به وبمصالِحه وخدمتِه لا يفتُرونَ عن شغلِه ، وهو نائمٌ في لذَّةِ نومِه ، غافلٌ عنهم ، لا يعرفُهم ولا يؤدِّي شكرَ مَنْ شغلَهُم به ، وسخَّرهم له ، وجعلَهُم ملازمينَ خِدمتَه .

واعلم بأنَّه لو أرسَلَ أحَدٌ من أُمراء الدُّنيا غلامَهُ أو ولدَه ليخدِمكَ ساعةً مِنَ الدَّهرِ[3] . . أفنيتَ عمْرَكَ في شكرِه ، وأذهبتَ وقتَكَ في الثناءِ

---

(١) كذا في النُّسخ ، وفي (أ) و(و) : (الحادثة) بدل (الجاذبة) .

(٢) في (ج) و(د) و(ليدن) : (الجلاب) بدل (الحلاَّب) .

(٣) قوله : (ساعة من الدَّهر) ثبت في (أ) و(و) فقط .

عليه ، وأنتَ مقصِّرٌ في حقِّ مَنْ سخَّرَ لك كذا كذا ألفِ صانعٍ وخادمٍ في باطنِك ؛ بحيث لا يفتُرونَ لحظةً واحدةً عن شُغلِك في جميعِ عمْرِك ، ومُشتغلٌ[1] عنه بما لا يرضيه وتلتهي عن ذكرِه وعبادتِه !!

واعلم أنَّ لمعرفةِ تركيبِ البدنِ ومنفعةِ الأعضاءِ كُتُباً كثيرةً يسمَّىٰ علمَ التشريحِ ، وهو علمٌ عظيمٌ غفَل عنهُ أكثرُ الخَلقِ فلا يكادون يقرأونَهُ ، ومَنْ قرأه منهم . . فإنَّما يقرؤه ليكونَ به أستاذاً حاذقاً في علمِ الطبِّ ، والطبُّ وعلمُهُ محتقرٌ مختصرٌ في جنبِ ما هو المقصودُ ، وإن كان علمُ الطِّبِّ علماً شريفاً يُحتاجُ إليه ، لـٰكن ليس له كثيرُ[2] تعلُّقٍ بطريقِ الدِّينِ .

ومَنْ أمعنَ النَّظرَ في علمِ التَّشريحِ ليقفَ علىٰ عجائبِ صُنعِ الله تعالىٰ ويشاهدَ غرائبَ قدرتِه . . حصلَ لهُ العلمُ بثلاثِ صفاتٍ مِنَ الصِّفاتِ الإلـٰهيَّةِ ، وصارتْ ضروريَّةً له :

أحدُها : يَعلمُ أنَّ بانيَ هـٰذا القالَبِ وخالقَ هـٰذا الشَّخصِ . . قادرٌ كاملٌ ، لا يتطرَّقُ إلىٰ قدرتِه نقصٌ ولا عجزٌ ، فيقدِرُ علىٰ كلِّ ما يريدُ ؛ فإنَّه ليس في الدُّنيا أعجبُ من خَلقِ شخصٍ علىٰ هـٰذا الوصفِ من قطرةِ ماءٍ ! ومَنْ قَدَرَ علىٰ ذلك . . قَدَرَ على الإحياءِ بعد الموتِ ، وكان ذلك

---

(١) وقع سقط كبير في (ب) وحدها من عند قوله هنا : (ومشتغل عنه بما لا يرضيه) إلىٰ قوله : (كان تعظيمُكَ للشَّاعر والمُصنِّفِ) ، وجاءت العبارة فيها : (عن شغلك في جميع عمْرِك ، والصانع أكثر) ، وسأشير إلىٰ نهاية السَّقط .

(٢) في (د) و(هـ) : (كبير) بدل (كثير) .

أسهلَ ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الرُّوم : ٢٧] .

الصِّفةُ الثَّانيةُ : يعلمُ أنَّه عالِمٌ ، وعلمُهُ محيطٌ بجميعِ الأمورِ ؛ فإنَّ مثل هـٰذه الحِكَمِ الغرائبِ . . لا يمكنُ إيجادُها إلا بكمالِ علمٍ .

الصِّفةُ الثَّالثةُ : أنْ يَعلمَ أنَّهُ لا نهايةَ لرحمتِه ولطفِه وعنايتِه بعبيدِه من حيث إنَّهُ لا يُفتقَرُ إلىٰ شيءٍ إلا وقد خَلقَ لهم ذلك ولم يدَّخِرْه عنهم ، بل أعطىٰ كُلاًّ ما يَحتاجُ إليه ضرورةً ؛ كالقلبِ والكبدِ والدِّماغِ وأصولِ الحيوانِ .

وكذلك ما يَحتاجُ إليه وإن كان يبقىٰ بدونِه[1] ؛ حتَّىٰ إنَّه يُتصوَّرُ وجودُ حياتِه به[2] ، فلا يَضطرُّ وجودُ حياتِه إليه ؛ كاليدِ والرِّجلِ والعينِ واللسانِ ، فإنَّه غيرُ مضطَّرٍّ إليه ؛ إذ البقاءُ والحياةُ تحصلُ بدونِه ، لـٰكنَّه زينةٌ ومعونةٌ .

وكذلك أعطاه ما أعطاه علىٰ أحسنِ وجهٍ ؛ كسوادِ الشَّعرِ ، وحُمرةِ الشَّفةِ ، وكثافةِ الحاجبِ ، واعتدالِ شَعرِ الأجفانِ وغيرِ ذلك ، وليس هـٰذا اللُّطفُ مقصوراً منه على الآدميِّ ، لـٰكنَّ لُطفَهُ قد عمَّ جميعَ المخلوقاتِ ؛ حتى الزُّنبورَ والذُّبابَ ؛ فإنَّه أعطىٰ كلَّ واحدٍ من مخلوقاتِه ما يَحتاجُ إليه لبقائه وقِوامِه وزينتِه ، فزيَّنَ ظاهرَ كلِّ جنسٍ بزينةٍ ولونٍ ، وجعلَ له قريناً من جنسِه وشكلِه يسكنُ إليه .

---

(١) سقط من (و) وحدها : (بل أعطىٰ كُلاًّ ما يَحتاج إليه ضرورةً كالقلب والكبد والدِّماغ وأصول الحيوان ، وكذلك ما يحتاج إليه وإن كان يبقىٰ بدونه) ولعلَّه فوت نظرٍ ؛ لابتداء السَّقط وانتهائه بقوله : (ما يحتاج إليه) .

(٢) سقط من (ج) و(د) و(ليدن) قوله : (حتَّىٰ إنَّه يُتصوَّرُ وجود حياته به) ، وسقط من (هـ) قوله : (وإن كان يبقىٰ بدونه حتَّىٰ إنَّه يُتصوَّرُ وجود حياته به) .

فإذاً ؛ النَّظرُ في تفاصيلِ بدنِ الآدميِّ . . مفتاحُ معرفةِ الصِّفاتِ الإلـٰهيّةِ علىٰ هـٰذا الوجهِ ؛ ولهـٰذا المعنىٰ كان هـٰذا العلمُ شريفاً ، لا من حيث إنَّهُ يَحتاجُ إليه الطبيبُ ، فكما أنَّ غرائبَ الشِّعرِ والتَّصانيفِ والصَّنائعِ كلَّما عرفتَهُ واطَّلعتَ علىٰ دقائقِه أكثرَ . . كان تعظيمُكَ للشَّاعرِ والمُصنِّفِ والصَّانعِ أعظمَ[1] ، وحرمتُهُ في قلبك أوفرَ ؛ فكذلك عجائبُ صنعِ الله تعالىٰ هي مفتاحُ العلمِ بعظمةِ الصَّانعِ جلَّ جلالُهُ .

وهـٰذا أيضاً بابٌ من معرفةِ النَّفْسِ[2] ، لـٰكنَّه مختصرٌ بالإضافةِ إلىٰ عِلمِ القلبِ ؛ لأنَّ هـٰذا علمُ البدنِ ، والبدنُ مثلُ المركوبِ ، والقلبُ راكِبٌ ، والمقصودُ إنَّما هو الرَّاكبُ[3] ؛ فإنَّ المركوبَ مُعدٌّ للرَّاكبِ لا الرَّاكبُ مُعدٌّ للمركوبِ .

ولـٰكن هـٰذا المقدارُ ذكرتُه أيضاً ؛ لتعلمَ أنَّكَ عاجزٌ عن معرفةِ نفْسِكَ بنعتِ التَّمامِ ، مع أنَّها أقربُ إليك من غيرِها ، فليس شيءٌ أقربَ إليك من نفْسِكَ ، ومَنْ جهلَ نفْسَهُ ولم يعرفْهَا وادَّعىٰ معرفةَ شيءٍ آخَرَ . . فهو مِثلُ رجُلٍ مُفلسٍ لا يقدِرُ علىٰ إطعامِ نفْسِهِ وإشباعِها ، يدَّعي أنَّه يَقومُ[4] بمؤنةِ فقراءِ البلدِ كلِّهم ، وذلك محالٌ وقبيحٌ جداً ، فافهمه .

* * *

---

(١) كذا في (أ) و(و) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ : (أكثر) بدل (أعظم) ، وهنا ينتهي السقط في (ب) .

(٢) في (أ) وحدها : (بانَ من معرفة النَّفْسِ) بدل (بابٌ من معرفة النَّفْسِ) .

(٣) سقط من (د) وحدها قوله : (والقلبُ راكِبٌ ، والمقصودُ إنَّما هو الرَّاكبُ) .

(٤) كذا في (د) و(ليدن) : (يقوم) ، وفي (أ) و(ب) و(هـ) و(و) و(ز) : (يقيم) ، وفي (ج) : (مقيم) .

١٩ فصل

في معرفة نقص الآدمي وضعفه وطريق ترقيه إلى الشرف والعزة [١]

الآن إذا عرفتَ شرفَ جوهرِ الآدميِّ وقدْرَه وحرمَتَهُ وعزَّتَهُ من هٰذه الجملةِ المقدَّمِ ذكرُها.. فاعلم أنَّك أوتيتَ هٰذه الجوهرةَ النَّفيسةَ علىٰ وصفٍ هي مستورةٌ مخفيَّةٌ عنك ، فإذا لم تطلُبْها ، بل ضيَّعتَها أو غفَلتَ عنها.. كان ذلك في نهايةِ العيبِ والخسرانِ ؛ فاجتهدْ في طلبِ قلبِكَ وابذُلْ طاقتَكَ وجَهدَكَ في تخليصِه من مُشغلاتِ الدُّنيا ، واستخراجِه من غُمَارِها[٢] ، وتَوَصُّلِه إلىٰ نهايةِ شرفِه وعزِّه وغايةِ كمالِه وراحتِه ، وذلك إنَّما يظهرُ لهُ ويجدُهُ في الدَّارِ الآخرةِ.. سروراً لا يشُوبُهُ غَمٌّ ، وبقاءً لا يعقبُهُ فناءٌ ، وقدرةً لا عجزَ معها ، ومعرفةً لا شبهةَ فيها ، ومشاهدةَ جمالِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ من غيرِ حجابٍ ، وصفاءَ الحالِ من غيرِ كدورةٍ .

أمَّا في هٰذه الدُّنيا.. فشرفُ القلبِ إنَّما هو بكونِه مُستَعِدّاً صالحاً لبلوغِ ذلك الكمالِ والشَّرفِ الحقيقيِّ ، وإلاَّ.. فليس شيءٌ أنقصَ ولا أحقرَ ولا أقلَّ حيلةً منه في هٰذه الدُّنيا ؛ فإنَّه تارةً أسيرُ الجوعِ والعطشِ ، وأُخرىٰ أسيرُ المرضِ ، وتارةً أسيرُ الحَرِّ ، وأُخرىٰ أسيرُ

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « كيمياء السَّعادة » (ص ١٨ ، ١٩) .

(٢) أي : كثرة الدنيا وزحمتها .

البردِ ، وهـٰكذا مع الغَمِّ والهمِّ والتَّعبِ والغضبِ ، وكلُّ ما لَهُ فيه راحةٌ أو لذَّةٌ . . فهو مُضِرٌّ به ، وكلُّ ما كان له فيه منفعةٌ . . فهو مع المرارةِ[١] والتَّعبِ والكراهةِ .

ثم شرفُ الشيءِ وعزُّهُ ورتبتُهُ يكون إمَّا بعِلمِه أو بقوَّتِه أو بقدرتِه أو بهمَّتِه أو بإرادتِه أو بحُسنِ صورتِه .

فإنْ نظرتَ في علمِه . . فمَن أجهلُ منه ؟! فإنَّه لو فسدَ أو تقلَّصَ عِرقٌ في الدِّماغ . . فإنَّه يصيرُ في خَطَرِ الهلاكِ أو يُشرفُ على الجنونِ ، وهو لا يعلمُ من أيِّ شيءٍ نالَه ذلك ، ولا بماذا يكونُ علاجُهُ ، وربَّما كان دواؤه مُلقىً بين يديه بحيث يراهُ وهو لا يعلمُ أنَّه ينفعُه .

وإن نظرتَ في قدرتِه وقوَّتِه . . لم يكن شيءٌ أعجزَ منه ؛ فإنَّه لا يطيقُ الذُّبابةَ ، فلو سُلِّطَتْ عليه بعوضةٌ . . أهلكتْهُ ، ولو أصابَتْهُ إبرةُ زنبورٍ أو زُبانيُّ عقربٍ[٢] . . منعَهُ ذلك لذيذَ النَّومِ وسلَبَهُ القرارَ .

وإن نظرتَ في همَّتِهِ . . وجدتَها لا شيءَ أدنىٰ ولا أخسَّ منها ؛ فإنَّه يتغيَّرُ حالُه بتلفِ درهمٍ ، ويتأذَّىٰ بأيسرِ شيءٍ ، فلو فاتَتْهُ لقمةٌ في وقتِ جوعِه . . لدُهِشَ وتحيَّرَ وطاشَ وشقَّ عليه ، فأيُّ شيءٍ يكونُ أخسُّ من هـٰذا ؟!

وإن نظرتَ إلىٰ جمالِ صورتِه . . وجدتَهُ جلداً غُطِّي علىٰ مزبلةٍ ، فلو

---

(١) في (د) وحدها : (فهو أمَرُّ المرارة) بدل (فهو مع المرارة) .

(٢) كذا في (أ) و(و) : (زُبانيُّ عقرب) ، وفي (د) و(ليدن) : (حمَّة عقرب) ، وفي (ج) : (جمَّةُ عقرب) ، وزُبانيُّ العقرب : قرناها ، وسقطت من (ب) و(هـ) و(ز) .

تَركَ نفْسَهُ يومين لم يغتسلْ . . لظهرَ عليه مِنَ القذارةِ والقُبحِ ما يعافُ نفْسَه ويكرهُها ، علىٰ أنَّه أيُّ شيءٍ أقبحُ وأجيفُ وأقذرُ ممَّا هو حاملٌ لهُ في باطنِه أبداً ، ويغسلُهُ بيدِهِ في كلِّ يومٍ مرَّةً أو مراتٍ ؟!

حُكيَ أنَّ الشيخَ أبا سعيدٍ رحمةُ اللهِ عليه كان ماشياً مع جماعةٍ مِنَ الصُّوفيَّةِ . . فاجتازوا بكَنيفٍ يُنَظَّفُ ، وقد أخرجوا منه النَّجاسةَ إلى الطَّريقِ ، فهربَ الجماعةُ كلُّهُم ، وغَطَّوا وجوهَهُم وأنوفَهُم من نَتَنِ ريحِه ، فوقفَ الشيخُ أبو سعيدٍ ، ثم قال : ياقومُ ؛ أتدرونَ ما تقولُ لي هٰذه النَّجاسة ؟ قالوا : وما عساها تقولُ ؟ فقال الشيخُ : إنَّها تقولُ : كنتُ بالأمسِ في السُّوقِ وأنتم تبذلونَ فيَّ دنانيرَكم وتنثرونَ عليَّ دراهمَكم حتىٰ حَصَلتُ بأيديكم ، فلم أبقَ في صحبتِكم إلا ليلةً حتى انتهىٰ حالي إلىٰ ما ترونَ ، فأنا أَولىٰ بالهرَبِ منكم من هربِكم منِّي !

وعلى الحقيقةِ فالآدميُّ في هٰذه الدُّنيا علىٰ غايةِ العجزِ والنَّقصِ والمسكنةِ ، ويومُ شرفِه[1] وسعادتِه إنَّما هو غداً في القيامةِ ، فإنْ ألقىٰ كيمياءَ السَّعادةِ علىٰ جوهرِ قلبِه . . ارتفعَ عن درجةِ البهائمِ إلىٰ درجةِ الملائكةِ ، وإنْ أقبلَ بوجهِهِ نحوَ الدُّنيا وشهواتِها . . كان الكلبُ والخنزيرُ في القيامةِ أفضلَ منه وأحسنَ حالاً ؛ فإنَّهما يصيرانِ تُراباً ، فيَخلُصانِ من تعبِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ ، ويبقىٰ هو في العذابِ الأليمِ .

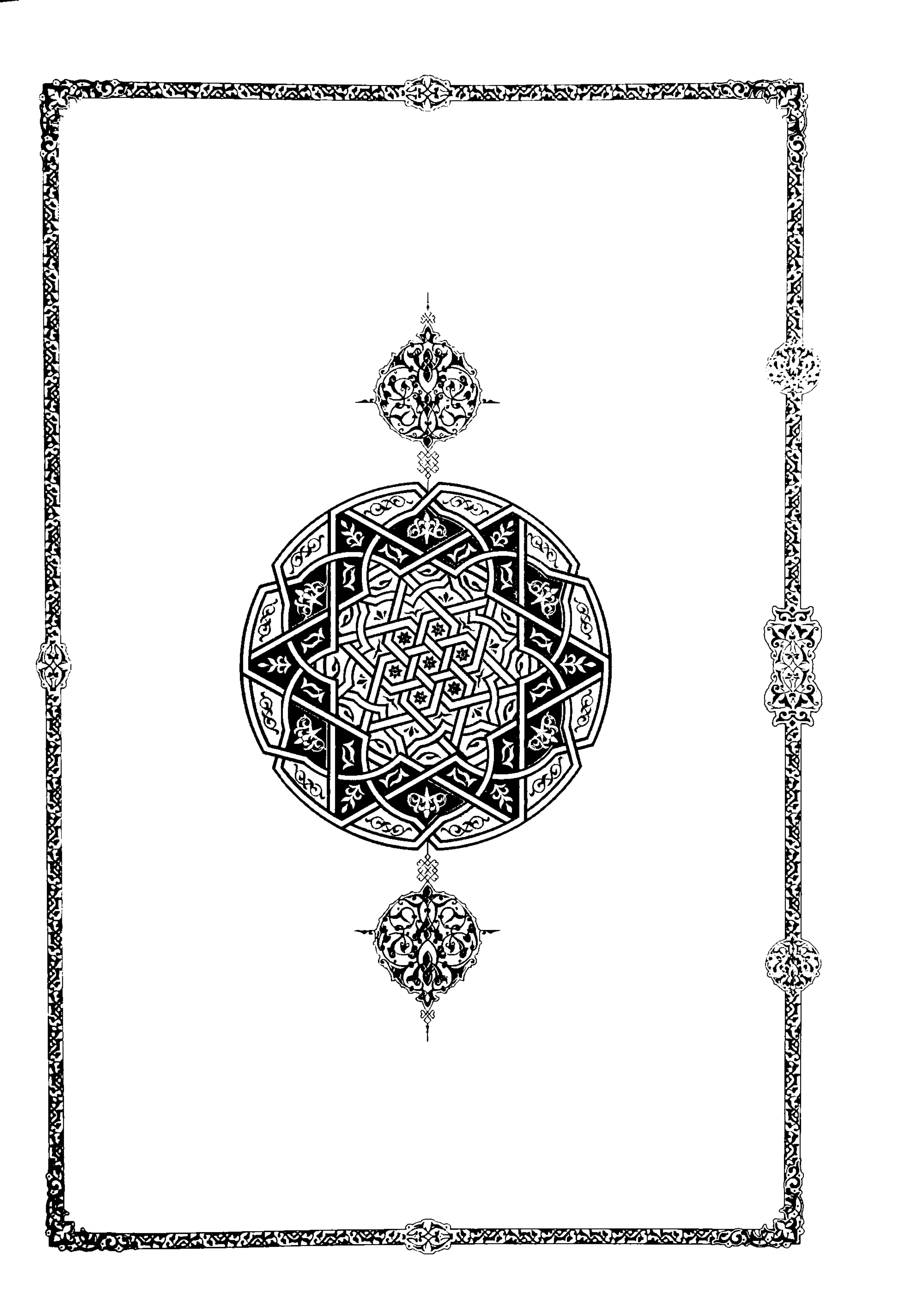
فإذا عرفتَ شرفَ الآدميِّ وكرامتَهُ وعزَّتَهُ . . فاعرفْ نقصَهُ وضَعفَهُ

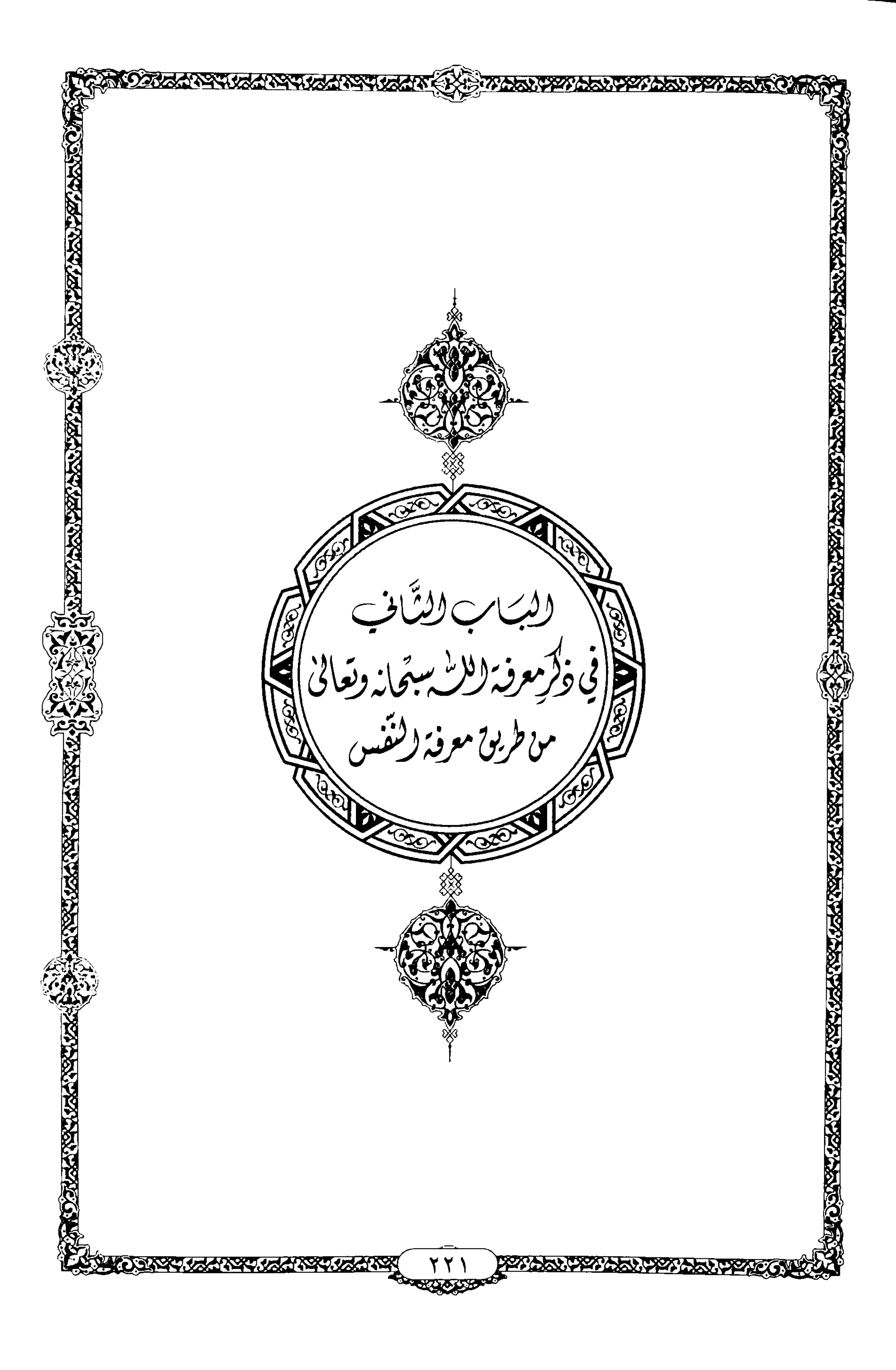
(١) كذا في (ب) و(ج) و(هـ) و(ز) : (ويوم شرفه) ، وفي (أ) و(و) و(ليدن) : (ويوم شوقه) ، وفي (د) : (ويوم سروره) .

ومسكنَتَهُ ؛ فإنَّ معرفةَ النَّفْسِ مِن هـٰذا الوجهِ.. مفتاحٌ من مفاتيحِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في معرفةِ النَّفْسِ ، ولا يكادُ يحتمِلُ هـٰذا المختصرُ أكثرَ ممَّا ذكرناهُ ، فلنختِمْهُ ولنأتِ بما شرطناهُ بعدَهُ في أوَّلِ الكتابِ ، واللهُ الموفِّقُ .

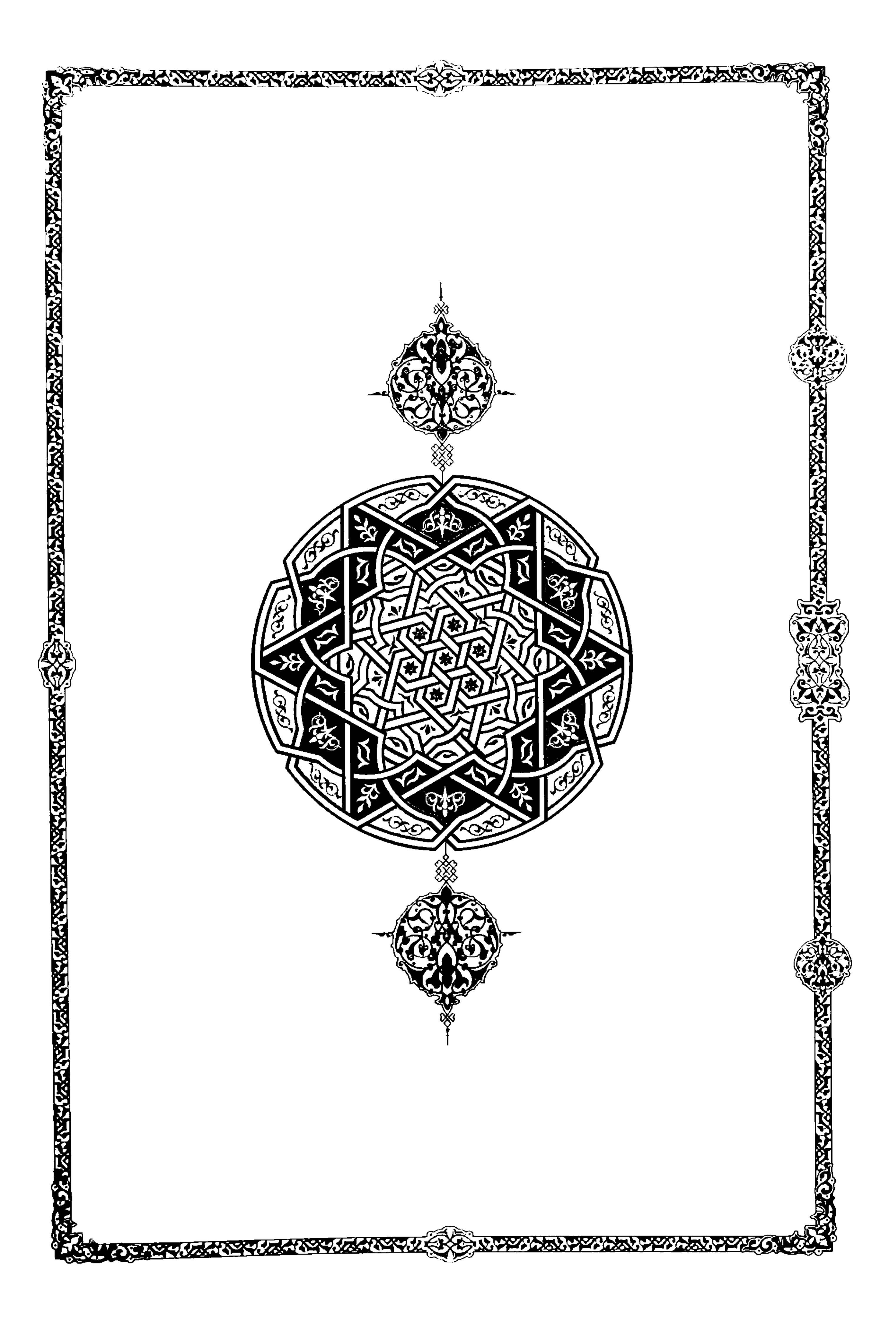
* * *





الباب الثّاني

في ذكر معرفة الله سبحانه وتعالى من طريق معرفة النّفس



الباب الثاني
في ذكر معرفة الله سبحانه وتعالىٰ من طريق معرفة النفس[1]

جاء في كُتُبٍ أنزلها اللهُ سبحانه علىٰ مَنْ تقدَّمَ مِنَ الأنبياءِ : (اعرِفْ نَفْسَكَ . تَعْرِفْ رَبَّكَ)[2] ، وفي الأخبارِ والآثارِ مشهورٌ[3] : (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . عَرَفَ رَبَّهُ)[4] .

وهٰذا دليلٌ علىٰ أنَّ نفْسَ الآدميِّ مثلُ المِرآةِ ، كلَّما نظرَ فيها . رأى اللهَ تعالىٰ ، وكثيرٌ مِنَ العالَمِ يرىٰ وينظرُ في نفْسِهِ ولا يعرفُ ربَّهُ ، فإذاً ؛ لا بُدَّ للمعرفةِ مِن وجهٍ مِنَ النَّظرِ . هو مرآةُ المعرفةِ ، وذلك من

---

(١) أصل مقدِّمة هٰذا الباب موجود في كتاب « ميزان العمل » (بيان تزكية النَّفس وقواها واختلافها علىٰ سبيل المثال والإجمال ص ٦٨) ، وجاء في هامش (د) حاشية : (ولله تعالىٰ طرائق في عدد أنفاس الخلائق) .

(٢) نقله عن « التوراة » الإمام الفخر الرازي في كتابه « المطالب العالية من العلم الإلٰهي » (١/ ٢٤٧) ، ونقله عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه الإمامُ ابن عطية في تفسيره « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » (٥/ ٢٩١) في تفسيره لأواخر سورة الحشر .
وقال العلاَّمة الراغب في « تفصيل النشأتين » (ص ٣٧) : (روي أنَّه ما أنزل الله كتاباً إلا وفيه : « اعرف نفسك يا إنسان . تعرف ربَّك » ، وهٰذا معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ [فصلت : ٥٣]) .

(٣) في (د) وحدها : (وفي الخبر الصحيح) بدل (وفي الأخبارِ والآثارِ مشهورٌ) .

(٤) تقدَّم الكلام عليه في بداية الباب الأوَّل (ص ١٣٧) .

وجهينِ ، أحدُهما أغمضُ مِنَ الآخَرِ ، ولا يكادُ يحتملُه كثيرٌ من أفهامِ العلماءِ الذين لم يشتغلوا برياضةِ نفوسِهم ويجمعونَ بين العلمِ والعملِ[1] ، فكيف بالعوامِّ الذين يجهلونَ الظَّواهرَ ؟!

فلا جرَمَ نُعرِضُ عن ذكرِه ؛ صيانةً للقومِ عنِ التَّسرُّعِ إلىٰ ما لا يجوزُ ، فالإنسانُ عدوُّ ما جهلَ ، ونشتغلُ بذكرِ طرفٍ مِنَ الوجهِ الآخَرِ ، فربَّما أدركَه المميِّزُ مِنَ العوامِّ :

وذلك أنَّ الآدميَّ يعلمُ من وجودِ ذاتِه . . وجودَ ذاتِ الحقِّ سبحانه ، ومن صفاتِ نفْسِهِ . . صفاتِ الحقِّ جلَّ جلالُهُ ، ويعرفُ من تصرُّفِهِ في مملكتِهِ وهي بدنُه وأعضاؤه . . تصرُّفَ الحقِّ في جملةِ العالَمِ .

وبيانُ ذلك : أنَّه إذا عرفَ وجودَ نفْسِهِ بعد أنْ لم يكنْ لهُ أثرٌ ولا خَبرٌ كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] ، جاء في تفسيره : أنَّ ﴿ هَلْ ﴾ بمعنىٰ : قد ، و﴿ ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ أُريدَ به آدمُ صلواتُ اللهِ عليه[2] ، وإذا أخفى الآدميُّ الطَّلبَ ودقَّقَ النَّظرَ في أصلِ خِلقَتِهِ قبلَ وجودِ ذاتِهِ . . وجدَها نُطفةً مِن ماءٍ مهينٍ ، ليس لها عقلٌ ولا سمعٌ ولا بصرٌ ولا يَدٌ ولا رِجلٌ ولا عينٌ ولا لسانٌ ولا عِرقٌ

---

(١) كذا في (ب) و(د) و(هـ) و(ز) : (أفهام العلماء الذينَ **لم يشتغلوا** برياضة نفوسهم **ويجمعون** بين العلم والعمل) ، وفي (أ) و(و) : (أفهام العلماء الذين **يشتغلون** برياضة نفوسهم **ويجمعون** بين العلم والعمل) ، وفي (ج) و(ليدن) : (العلماء الذينَ **لم يشتغلوا** برياضة نفوسهم **ولم يجمعوا** بين العلم والعمل) ، وما أثبتناه هو الأصوب إن شاء الله تعالىٰ .

(٢) في (ليدن) وحدها : (أي : قد أتىٰ علىٰ آدم حينٌ مِنَ الدَّهر) بدل (جاء في تفسيره : أنَّ ﴿هَلْ﴾ بمعنىٰ : قد ، و﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أُريد به آدمُ صلوات الله عليه) .

ولا عظامٌ ولا لحمٌ ولا جِلدٌ ، ثم ظهرتْ فيه هـٰذه العجائبُ الباطنةُ والظَّاهرةُ ، فلا يخلو إمَّا أن يكونَ هو الذي أوجَدَ نفْسَهُ أو أوجَدَهُ غيرُه .

وإذا نظرَ بعينِ الحقيقةِ . . فهو الآنَ أكملُ من حينِ كونِه نطفةً ، وهو الآنَ مع كمالِه . . يعجزُ عن خَلقِ شعرةٍ واحدةٍ ، فهو في تلك الحالِ الضعيفةِ الحقيرةِ الخسيسةِ . . أعجزُ وأنقصُ وأقصرُ عن إيجاد شعرةٍ واحدةٍ فضلاً عن إيجادِ نفْسِهِ أو غيرِه .

فيَعلمُ بقَسْمِ الضرورةِ أنَّ له خالقاً أوجَدَهُ ، وذلك إنَّما هو اللهُ تعالىٰ ، فيحصلُ له معرفةُ وجودِ الخالقِ من طريقِ الضرورةِ الذي لا يمكنُ دفعُه .

وإذا نظرَ في عجائبِ بدنِه من جهةِ الظَّاهرِ ومن جهةِ الباطنِ كما أشرنا إلىٰ شرحِ بعضِه في البابِ الأوَّلِ . . عَرفَ من ذلك قُدرةَ صانعِه وموجدِه معرفةً ضروريَّةً لا يمكنُ دفعُها ، ويتحقَّقُ أن لا قُدرةَ أكملُ وأتمُّ من قدرةٍ تُوجِدُ مِن ماءٍ مهينٍ خلقاً وشخصاً[1] علىٰ هـٰذا الوجهِ مِنَ الكمالِ والجمالِ وكثرةِ البدائعِ والعجائبِ التي فيه .

وإذا نظرَ في غرائبِ صفاتِه ومنافعِ أعضائه ، ولأيِّ حكمةٍ خُلقَ كلُّ عُضوٍ وجارحةٍ كاليدِ والرِّجلِ والعينِ واللسانِ والأسنانِ ، وكذلك الأعضاءُ الباطنةُ كالكبدِ والطِّحالِ والمرارةِ وغيرِ ذلك . . عَلِمَ خِلقتَهُ ، وأنَّ خالقَهُ عالِمٌ ، وعِلمُهُ في نهايةِ الكمالِ محيطٌ بكلِّ شيءٍ ، فلا يغيبُ عنه شيءٌ ؛ فإنَّه لو أعَملَ جميعُ العقلاءِ عقولَهم ودبَّروا آراءهم ،

---

(١) في (د) وحدها : (خلقاً سويّاً وشخصاً) .

وأَفكَرُوا في نفوسِهم[1] ، ومُدَّتْ أعمارُهُم طولاً[2] ، واجتهدوا أن يخلقُوا عُضواً من هـٰذه الأعضاءِ أو يجدوا لهُ وجهاً في الخِلقَةِ أحسنَ من وضعِه خارجاً عن خِلقَتِه . . لا يستطيعونَ ذلك .

فإنَّهم لو أرادوا مثلاً أن يخلُقوا للإنسانِ صورةً أُخرىٰ . . لم يكن حَسَناً[3] ؛ فإنَّ الأسنانَ التي تلي بابَ الفمِ . . حادَّةُ الرَّأسِ ؛ لتقطعَ الطَّعامَ ، والتي تلي داخلَ الفمِ . . عريضةٌ ؛ لتطحنَ الطعامَ ، واللسانَ كمجرَفَةِ الطَّحّان التي يُلقي الطعامَ بها في الرَّحىٰ ، والقوَّةَ التي تحت اللسانِ كالعجَّان يصبُّ الماءَ وقتَ الحاجةِ بقدرِ الحاجةِ إليهِ ؛ حتىٰ يبُلَّ الطَّعامَ فينعجنَ وينزلجَ في الحلقِ ، ولولا ذلك . . لبقيَ في الحلقِ ولم يمكن بلعُه .

فلو أعملوا فِكرَتَهُم وطُوِّلَتْ أعمارُهُم أضعافاً مضاعفةً . . لَمَا استطاعوا أن يُوجِدُوا أو يضعوا صورةً أكملَ ولا أجودَ من هـٰذه الصُّورةِ في الترتيبِ[4] .

---

(١) في (د) وحدها : (وفكَّروا) بدل (وأَفكَروا) ، قال في « مختار الصَّحاح » (ف ك ر) : (أَفْكَرَ فِي الشَّيْءِ ، وَفَكَّرَ فِيهِ بِالتَّشْدِيدِ ، وَتَفَكَّرَ فِيهِ بِمَعْنًىٰ) .

(٢) في (ج) و(د) : (ومدَّةِ أعمارِهِم طولاً) معطوفة علىٰ (نفوسهم) ، بدل (ومُدَّتْ أعمارُهُم طولاً) .

(٣) كذا في (أ) و(و) : (فإنَّهم لو أرادوا مثلاً أن يخلقوا للإنسان صورةً أُخرىٰ . . **لم يكن حسناً**) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ : (فإنَّهم لو أرادوا مثلاً أن يخلقوا للإنسان صورةً أُخرىٰ **أجود منَ التي وضعها الله سبحانه . . لم يقدروا علىٰ ذلك**) .

(٤) كذا في (ج) و(د) و(ليدن) : (في الترتيب) ، وفي النسخ الأخرىٰ : (من الترتيب) .

وكذلك اليدُ فيها خمسُ أصابعَ ، أربعةٌ منها في صفٍّ واحدٍ ، والإبهامُ ناحيةً عنها أقصرُ منها ؛ بحيث يُعينُ كلَّ أصبعٍ مِنَ الأربعِ ويطوفُ عليها ، ولكلِّ أصبعٍ ثلاثُ مفاصلَ والإبهامُ مِفصلانِ ، فإذا شاءَ قبضَ بها مع الأصابعِ ، وإن شاء جَعلَ منها كالمِجرَفَةِ أو المِغرَفَة ، وإن شاء جمعَ بها ، وإن شاء اتَّخذها سلاحاً ، وإن شاء بسَطها فجعلَها طبقاً أو مِغرفةً ، إلىٰ غيرِ ذلك مِنَ الوجوه التي يُنتَفَعُ بها .

فلو اجتمعَ الخلقُ كلُّهم وأرادوا أن يضعوا لذلك وجهاً غيرَ ما وضعَه . . لقصَروا وعجَزوا ؛ فإنَّه لو كانتِ الأصابعُ الخمسُ في صفٍّ واحدٍ ، أو ثلاثةٌ منها في صفٍّ واثنتان في صفٍّ ، أو كانت ستَّةً عوضَ الخمسةِ ، أو أربعةً أو ثلاثةً ، أو ما لَهُ ثلاثةُ مفاصلَ يُجعلُ له مِفصلانِ ، إلىٰ غيرِ ذلك مِنَ الوضعِ . . لكانت ناقصةً عن أداءِ ما هو حاصلٌ مِنَ المنفعةِ والزِّينة بهٰذا الوضعِ الذي وضعَهُ اللهُ تعالىٰ ، ولكانَ[1] الكمالُ في ما رتَّبَهُ جلَّ جلالُهُ .

فإذا نَظرَ في ذلك . . عَرفَ أنَّ علمَ الخالقِ جلَّ جلالُهُ محيطٌ بهٰذا الشَّخصِ وغيرِهِ ، مُطَّلِعٌ علىٰ كلِّ شيءٍ ، وفي كلِّ جزءٍ من أجزاءِ الآدميِّ مِنَ الحِكمِ هٰكذا ، وكلَّما ازدادَ معرفةُ الإنسانِ بالحِكَم التي في أعضائهِ والغرائبِ في خِلْقَتِهِ . . ازدادَ تعظيمُهُ للهِ تعالىٰ في نفْسِهِ .

وإذا نظرَ الإنسانُ فيما يحتاجُ إليه أوَّلاً مِنَ الأعضاءِ ثمَّ الطَّعامِ ثمَّ اللِّباسِ ثمَّ المسكنِ ، ثمَّ رأىٰ حاجةَ الطَّعامِ إلى المطرِ والرِّيحِ والغيمِ

---

(١) في (ج) وحدها : (ولٰكن) بدل (ولكان) .

والبَرْدِ والحَرِّ ، ثمَّ إلى الصَّنائعِ التي تجلبُ صلاحَ ذلك ، ثمَّ ما تحتاجُ الصَّنائعُ إليه مِنَ الآلاتِ كالحديدِ والخشبِ والمِسِّ[1] والصُّفْرِ وغيرِ ذلك ، ثمَّ حاجةَ الآلاتِ إلىٰ كيفيَّةِ الاهتداءِ إلىٰ عملِها ومعرفةِ عملِها ، ثمَّ نظرَ حينئذٍ ورآها مخلوقةً معمولةً علىٰ أتمِّ الوجوهِ وأجودِها ، من كلِّ نوعٍ أنواعٌ كثيرةٌ ، ولو لم يخلقْها لم يكن أن تخطرَ ببال أحدٍ أنْ يلتَمِسَها أو يَعلمَ ما الذي يحتاجُ إليه ، فإذا رآها مهيَّأةً مصنوعةً مخلوقةً له من غيرِ أن يتقدَّمها طلبُهُ لها أو يسبِقَ معرفتُهُ بها . . علِمَ حينئذٍ أنَّ ذلك كلَّهُ مخلوقٌ بلطفٍ مِنَ الخالقِ ورحمتِهِ ؛ فيحصلُ له من هـٰذا النَّظرِ معرفةُ صفةٍ أخرىٰ من صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، بها حياةُ جميعِ الأنبياءِ[2] والأولياءِ ، وهي صفةُ لطفِه ورحمتِه وعنايتِه بمخلوقاتِه ؛ كما قال سبحانه : « **سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي** »[3] ، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم : « **إنَّ اللهَ تعالىٰ أَرْأَفُ بِعَبْدِهِ مِنَ الأُمِّ البَرَّةِ بِوَلَدِهَا الرَّضِيعِ** »[4] .

فحصل ممَّا ذكرنا أنَّ الإنسانَ يعرفُ مِنْ نظرِهِ في وجودِه . . وجودَ الخالقِ سبحانَه ، ومِنْ نظرِه في تفاصيلِ أجزائه وأطرافِه . . كمالَ قدرةِ الخالقِ جلَّ جلالُه ، وفي عجائبِ الحِكمِ والمنافعِ في أعضائه

---

(١) قال في « تاج العروس » مادة (م س س) : (المِسُّ ، بالكسر : النُّحاسُ . قال ابن دُريد : لا أدري أعربيٌّ هو أم لا . قلت : هي فارسيَّةٌ) .

(٢) قوله : (الأنبياء) ثبت في (أ) و(و) ، وسقط من بقيَّة النُّسخ .

(٣) حديثٌ قدسيٌّ متَّفقٌ عليه ، البخاري (٧٥٥٣) واللفظ له ، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) بلفظ : « **للهُ أرحَمُ بعبادِهِ مِنْ هـٰذه بولَدِها** » من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وأطرافِه.. يشاهدُ كمالَ خالقِه ، وإذا نظرَ فيما يَحتاجُ إليه لبقائه أو لحاجتِه أو لزينتِه فوجدَه مخلوقاً معَهُ من غيرِ مسألةٍ ولا عِلمٍ سابقٍ منه به.. عرفَ بذلك كمالَ لطفِ الله سبحانَه ورحمتَه .

فإذاً ؛ معرفةُ نفْسِ الآدميِّ.. مفتاحُ معرفةِ الله تعالىٰ ، ومِرآةٌ لها علىٰ هـٰذا الوجهِ[1] .

* * *

(١) قال الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المالكي (ت : ٥٤٣هـ) قرين المؤلِّف العراقي في تلمذته علىٰ حُجَّة الإسلام الغزالي رضي الله عنهم أجمعين ، في كتابه « قانون التأويل » (ص ١٣٢) : (قد سردنا من معرفة الرب في معرفة النفس أنموذجاً يتبين به المطلوب ، ويظهر منه وجهُ الدليل ، ويُحكَم به لمن قال : (مَن عرف نفسه.. عرفَ ربَّه بالعلم) .

وإذا أضاء لك الفجر على الطريق.. فاسلكه ؛ حتىٰ تطلع الشمس فيرتفع اللبس ، وقد قال العلماء قولاً متفرِّقاً.. نظمنا من كلامهم فائدةً مجموعةً : إنَّ الله خلق العبد جسماً مواتاً ، ثم نفخ فيه الرُّوح ، فإذا به قد صار حيّاً ، عَالِماً ، قادراً ، سميعاً ، بصيراً ، حكيماً ، مُدَبِّراً .

فإذا رَدَّ العبدُ نظرَه إلىٰ نفسه ، ورآها علىٰ هـٰذه الصفات ، متمكِّناً في هـٰذه المرتبة باقتران معنىً موجودٍ بالذات سمَّاه الله روحاً تارةً ، وسمَّاه نفساً أخرىٰ ، ولم يقدِرِ العبدُ علىٰ إدراك حقيقةِ هـٰذا المعنى الذي اقتضى اقترانُهُ بالذات وجودَ هـٰذه الصفاتِ.. كان ذلك دليلاً علىٰ صحة الاستدلال علىٰ وجود الله تعالىٰ بأفعاله ، وإن لم تُدرَك ماهية ذاته ، ولا يقدر عاقل أن ينكر وجود الرُّوح مع نفسه ؛ لوجود أفعاله ، وإن كان لم يدرِك حقيقته.. كذلك لا يقدر أن ينكر وجود الباري سبحانه الذي دلَّت أفعاله عليه ، وإن لم يُدرِك حقيقَتَهُ) .

١ فصل

في معرفة تنزيه الحق وتقديسه من طريق تنزيه النفس وتقديسها

كما عرفتَ صفاتِ اللهِ تعالىٰ من صفاتِكَ . . فينبغي أيضاً أن تعرفَ تنزيهَ الحقِّ وتقديسَهُ من تنزيهِ نفْسِكَ وتقديسِها .

فاعلم أنَّ معنىٰ تنزيهِ اللهِ تعالىٰ وتقديسِهِ : هو أنَّهُ مُنَزَّهٌ عمَّا يخطرُ في الوهمِ أو يحصلُ في الخيالِ ، أو أن يُضافَ إلىٰ مكانٍ يقيمُ فيه ، وإنْ كان لا يخلو مكانٌ من تصرُّفِه ، وهـٰذا لا يُستَبعَدُ ؛ فإنَّ في الآدميِّ أُنموذجاً من ذلك ، وهو أنَّ حقيقةَ رُوحِه التي عبَّرنا عنها بلفظِ القلبِ فيما سلفَ . . مُنزَّهةٌ عن أن تدخلَ في وهمٍ أو خيالٍ ؛ فإنَّها ليس لها مقدارٌ ولا كميَّةٌ ، ولا تقبلُ القسمةَ ، وإذا كانتِ الرُّوحُ كذلك . . لم يكن لها لونٌ ، وكلُّ ما لا يكونُ له لونٌ ولا مقدارٌ . . فإنَّه لا يدخلُ تحت الوهمِ والخيالِ ؛ لأنَّه إنَّما يدخلُ تحت الخيالِ ما يُدرَكُ بحاسَّةِ البصرِ ، فتكون العينُ قد رأتْه أو جنسَه ، فحينئذٍ يدخلُ تحت الخيالِ كالألوانِ والأشكالِ التي هي من قبيلِ المُدرَكاتِ بالبصرِ ، فتدخلُ تحت الخيالِ وما يقتضيه الطبعُ أبداً ، فتقولُ : كيف هو معناهُ ؟ أيُّ شكلٍ هو ؟ صغيرٌ أو كبيرٌ ، وما لا تتطرَّقُ[١] الصِّفةُ نحوَه . . فالكيفيَّةُ في حقِّهِ محالٌ[٢] .

---

(١) في (أ) و(و) : (يستطرق) بدل (تتطرق) .

(٢) سقطت كلمة (محال) من (ب) و(هـ) و(ز) .

فإن شئتَ أن تعرفَ شيئاً لا سبيلَ للكيفيّة نحوَهُ.. فانظرْ في ذلك الشيءِ منكَ الذي هو حقيقتُكَ ومحلٌّ للمعرفةِ ؛ فإنَّه لا يقبلُ القسمةَ والمقدارَ والكمِّيَّةَ والكيفيَّةَ ، فلو سألَ سائلٌ عن كيفيَّةِ الرُّوحِ ما هي ؟ لكان جوابُهُ : إنَّ الرُّوحَ لا تتكيَّفُ ، ولا طريقَ للتَّكييفِ نحوَها .

فإذا عرفتَ نفْسَكَ علىٰ هـٰذا الوجه.. فاعلمْ أنَّ الباري سبحانه أَولىٰ بهـٰذا التَّنزيهِ والتَّقديسِ مِنَ المخلوقِ ، ولعلَّك تَعجبُ من وجودِ موجودٍ لا يتكيَّفُ ، ولا تَعلمُ أنَّ روحَكَ بهـٰذه الصِّفةِ !

فإذا عرفتَ أنَّ روحَكَ بهـٰذه الصِّفةِ.. عرفتَ أنَّهُ إذا جازَ وجودُ موجودٍ هـٰكذا ؛ فاللهُ سبحانه أَولىٰ به[1] .

علىٰ أنَّ مَنْ طلبَ مثلَ هـٰذا من نفْسِه ؛ فإنَّه يجدُ كثيراً مِنَ الأشياءِ بهـٰذه الصِّفةِ غيرَ مُكيَّفةٍ وهو يعلمُها ؛ فإنَّ العشقَ والألمَ واللذَّةَ معلومُ الوجودِ ولا يتكيَّفُ ، ولا يمكنُ طلبُ كيفيَّتِه ، فلمَّا كانت هـٰذه الأشياءُ غيرَ ذواتِ أشكالٍ.. لم يكنِ السُّؤالُ سائغاً عن كيفيَّتِها .

وأيضاً : فإنَّكَ لو طلبتَ حقيقةَ الصَّوتِ ، أو حقيقةَ الطَّعمِ وأردتَ معرفةَ كيفيَّتِهِ.. لأعجزكَ دَرْكُ ذلك ؛ والعلَّةُ فيه أنَّ اللَّونَ والكيفيَّةَ من تقاضي الخيالِ إذا كان قد حصلَ لحاسَّةِ البصرِ ، فالخيالُ يطلبُ من كلِّ شيءٍ نصيبَ حاسَّةِ البصرِ ، وما هو حالٌّ في خاصِّيَّةِ الأذنِ كالصوتِ

---

(١) في (ب) و(هـ) و(ز) زيادة : (هكذا وكان ذلك صفة كمال فالله سبحانه أولىٰ به) .

مثلاً ؛ فليس للبصرِ[١] فيه من نصيبٍ ، وإذا التمسَ فيه الكيفيَّةَ أو اللَّونيَّةَ . . كان ذلك مُحالاً ؛ فإنَّ الصَّوتَ مُنَزَّهٌ عن دركِ البصرِ له[٢] .

وهكذا ما كان نصيبَ القلبِ ويُعرَفُ بالعقلِ . . فإنَّه منزَّهٌ عن درك الحواسِّ كلِّها ، فلا يتطرَّقُ إليه تكييفُ المحسوساتِ ، ولهٰذا غَورٌ عميقٌ وغموضٌ وتحقيقٌ لا يحتملُه هٰذا المختصر ، فإن فسحَ اللهُ في مُهَلِنا[٣] ، وأيَّدَنا بتوفيقٍ منه . . شرَحْنا ذلك في كتابٍ مُفردٍ يحتملُه ، وإلا ففي كُتُبِ إمامنا أبي حامدٍ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ وتصانيفِه في المعقولاتِ . . ما يقفُ منه الفطِنُ الكيِّسُ عند تصفُّحِها على المقصود ، واللهُ الموفِّقُ .

وغرضُنا في هٰذا المختصر : أن يقفَ الآدميُّ[٤] من معرفةِ جوازِ صفةِ الله تعالىٰ . . بأنَّه لا يجوزُ عليه ولا علىٰ شيءٍ من صفاتِه التَّكييفُ[٥] ؛ فكما أنَّ روحَهُ موجودةٌ وهي مَلِكُ بَدنِهِ ، وكلَّ ما لَهُ كيفيَّةٌ من بَدنِهِ تحت

---

(١) جاء في هامش (أ) وحدها : (للتَّصرُّف ، صح) .

(٢) كذا في (أ) : (فإنَّ الصَّوتَ مُنَزَّهٌ عن دركِ البصر له) ، وفي بقيَّة النُّسخ زيادة : (فإنَّ الصَّوتَ مُنَزَّهٌ **عن اللَّون والكيفيَّة وعن نصيب العين ، كما أن اللَّون منزَّهٌ عن درك السَّمع إيَّاه**) ، وفي (ب) و(هـ) : (كما أنَّ الصَّوت) بدل (كما أنَّ اللون) وما فيهما خطأ .

(٣) كذا في (أ) : (**فإن فسحَ اللهُ في مُهَلِنا**) ، وفي بقيَّة النُّسخ : (**فإن مدَّ الله في عمْرِنا**) .

(٤) كلمة (الآدمي) ليست في (أ) و(ج) و(و) .

(٥) كذا في (أ) و(ج) و(ليدن) ، وفي بقيَّة النسخ : (**أن يقف الآدميُّ من معرفة جواز صفة روحه بذاك علىٰ جواز صفة الله تعالىٰ ؛ بأنه لا يجوز عليه ولا علىٰ** شيء من صفاته . . التَّكييف) .

حُكمِ روحهِ ، وهي لا تتكيّفُ . . فكذلك مَلِكُ العالَمِ لا يتكيّفُ ، وكلُّ ما يتكيّفُ كالمحسوساتِ . . مملوكةٌ لهُ ، جاريةٌ تحت حُكمِهِ .

نوعٌ آخرُ مِنَ التنزيهِ :

وهو أنّه لا يجوزُ إضافةُ اللهِ تعالىٰ إلىٰ مكانٍ ؛ كما أنّه لا يضافُ الرُّوحُ إلىٰ شيءٍ مِنَ البدنِ والأعضاءِ ، فلا يجوزُ أن يقالَ : في اليدِ أو غيرِه ؛ فإنَّ جميعَ أجزاءِ البدنيّةِ وتوابعَه قابلٌ للقسمةِ ، وما لا يقبلُ القسمةَ . . لا يجوزُ ولا يصحُّ أن يحلَّ فيما يقبلُ القسمة ؛ فإنّه يصيرُ بحلولِه في ذلك قابلاً للقسمةِ[1] ، وذلك محالٌ .

ومع أنَّ الرُّوحَ لا تضاف إلىٰ شيءٍ مِنَ الأعضاء . . فلا يخلو شيءٌ مِنَ الأعضاءِ من تصرُّفِ الرُّوحِ ؛ بلِ الجميعُ بحُكمِ تصرُّفها ، وهي ملِكُ جميعِ البدنِ ، فكما أنَّ عالَمَ البدنِ كلَّهُ في تصرُّفِ الرُّوحِ وهي منزَّهةٌ عنِ الإضافةِ إلىٰ محلٍّ مِنَ الأعضاءِ . . فكذلك مالكُ العالَمِ وموجِدُهم ، يجوزُ أن يكونَ تصرُّفُه نافذاً في الكُلِّ وهو منزَّهٌ عنِ الإضافةِ إلىٰ جهةٍ خاصّةٍ ، وهـٰذا مِنَ التّنزيهِ[2] ، ولا يمكنُ ذكرُ حقيقةِ التّنزيهِ بكمالِه . . إلا بإظهارِ سِرِّ الرُّوحِ وخاصِّيّتِها ، ولا رُخصةَ في ذلك من جهةِ الشَّرعِ ، وليس لنا مدُّ الباعِ نحوَ ما حظرَه علينا الشّارعُ .

وكذلك قولُ النّبيِّ صلى الله عليه وسلَّم : « **إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ علىٰ**

---

(١) جاء في (أ) وحدها : (وما لا يقبل القسمة . . لا يجوز ولا يصحُّ أن يحلَّ فيما يقبل القسمة ذُكرَ من قبلُ أنّه يصيرُ بحلوله . . .) .

(٢) كذا في (أ) و(و) ، وفي بقيّة النسخ : (وهـٰذا نوعٌ مِنَ التّنزيهِ) .

صُوْرَتِهِ »[1] إنَّما يظهرُ معناهُ حقيقةً . . إذا كُشفَ القناعُ في ذكرِ سِرِّ الرُّوحِ وماهيَّتِها ، وذلك ممنوعٌ منه[2] .

* * *

(١) متَّفقٌ عليه ، البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) واللفظُ له ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) قال حُجَّة الإسلام : (ليس لأحدٍ من علماء الدِّين أن يكشفَ عن سرِّ الرُّوحِ وإنِ اطَّلعَ عليه ، وإنَّما المأذونُ فيه ذكرُ حالِ الرُّوحِ بعد الموتِ) . « الإحياء » (٩/ ٤٧٢) .

٢ فصل

في معرفة سلطان الله ونفوذ أمره وتصرُّفه من طريق معرفة النفس [(١)]

قد بيَّنَّا كيفيَّةَ التَّوصُّلِ إلىٰ معرفةِ وجودِ الحقِّ ، وتقدُّسِ ذاتِه وصفاتِه عنِ التَّكييفِ والتَّشبيه ، وتنزُّهِهِ عنِ الإضافةِ[(٢)] إلىٰ جهةٍ أو مكانٍ ، وأوضحْنا أنَّ مفتاحَ ذلك كلِّه نفْسُ الآدميِّ .

فقد بقي علينا بيانُ معرفةِ سلطنتِه ، وكيفيَّةِ تصرُّفِه في المملكةِ ونفوذِ أمرِه ، كلُّ ذلك كيف يكونُ ؟

وعلىٰ أيِّ وجهٍ يأمرُ ملائكتَه[(٣)] ؟

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « الأربعين في أصول الدين » (ص ٤١٤) ، و« مشكاة الأنوار » (ص ٤١ وما بعدها) ، و« معارج القدس في مدارج النفس » (ص ١٧١ إلىٰ ١٨١) ، وكتاب « معارج القدس » من الكتب المشكوك في نسبتها لحُجَّة الإسلام الغزالي بحسب ما قال الدكتور عبد الرحمٰن بدوي في كتابه « مؤلَّفاتُ الغزالي » (ص ٢٤٤) : (لم يذكره أحدٌ ممَّن ترجموا للغزالي حتى المرتضىٰ ؛ كما أنَّه لا يشير إلىٰ أي كتاب آخر للغزالي ، ولا يشير إليه الغزالي في أيِّ كتاب من كتبه ، ومن هنا ثار الشكُّ حول صحَّة نسبته إليه ، وإن كان ما ورد فيه لا يخالف في شيءٍ ما ورد في سائر كُتب الغزالي) ، ولعلَّ مشابهة كلام الإمام العراقي هنا لما في « معارج القدس » ممَّا يفيد الباحثين حول تحقيق نسبة هٰذا الكتاب لشيخه حُجَّة الإسلام الغزالي .

(٢) سقط من (د) قوله : (عنِ التَّكييفِ والتَّشبيه ، وتنزُّهِهِ عنِ الإضافةِ) .

(٣) سقط من (أ) و(و) قوله : (وعلىٰ أيِّ وجهٍ يأمر ملائكته) .

وعلىٰ أيِّ وجهٍ تكونُ طاعتُهم له وامتثالُهم لأمرِه ؟

وكيف تجري الأمورُ علىٰ أيدي الملائكةِ ؟

وكيف يُرسِلُ الأوامرَ مِنَ السَّماء إلى الأرضِ ؟

وكيفيَّةِ تحريكِ السَّماواتِ والكواكبِ ؟

وكيف تتعلَّقُ أمورُ أهلِ الأرضِ بالسماءِ ؟

وإحالةِ مفاتيحِ الأرزاقِ على السَّماءِ ؟

وهـٰذا بابٌ عظيمٌ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ويُسمَّىٰ معرفةَ الأفعالِ[(١)] ومعرفةَ الصفاتِ أيضاً[(٢)] ، ومفتاحُهُ معرفةُ النَّفْسِ أيضاً ، فإنَّك إذا لم تَعلَمْ كيف تتصرَّفُ في نفْسِكَ ومملكةِ بدنِكَ .. كيف تَعلمُ تصرُّفَ اللهِ سبحانه في خلقِه ؟! فاعرفْ نفْسكَ أوَّلاً وفعلاً واحداً من أفعالِكَ .

مثلاً : إذا أردتَ أن تكتبَ (بسمِ اللهِ) علىٰ كاغدٍ .. فإنَّه يظهرُ فيك أوَّلاً رغبةٌ وإرادةٌ لذلك ، ثم يتبعُهَا حركةٌ في قلبِكَ ـ لا أعني به قلبَ

---

(١) في (ب) و(هـ) و(ز) : (معرفة **الأحوال**) بدل (معرفة **الأفعال**) .

(٢) ومعرفةُ أسماء الحقِّ سبحانه وتعالىٰ مُشتقَّةٌ من معرفة أفعاله ، قال حُجَّةُ الإسلام في « المقصد الأسنىٰ » (ص ١٩٤ ؛ عند الكلام عنِ اسمه « العدل » سبحانه وتعالىٰ) : (إنَّ شرح كلِّ اسم من أسمائه تعالىٰ .. يفتقرُ إلىٰ مجلَّداتٍ ؛ فإنَّ الأسامي المشتقَّة منَ الأفعال .. لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال ، وكل ما في الوجود من أفعالِ الله تعالىٰ ، ومَنْ لم يحط علماً بتفاصيلها ولا بجملتها .. فلا يكون معه منها إلا محض التفسير واللغة ، ولا مطمع في العلم بتفصيلها ؛ فإنَّه لا نهاية له .

وأمَّا الجملة .. فللعبد طريق إلىٰ معرفتها ، وبقدر اتساع معرفته فيها .. يكون حظه من معرفة الأسماء ، وذلك يستغرق العلوم كلَّها) . اهـ بتصرُّفٍ

ظاهرِكَ الذي هو قطعةٌ مِنْ لحمٍ في الجانبِ الأيسرِ مِنَ الصدرِ ، إنَّما أُريدُ به القلبَ المقدَّمَ ذكرُهُ ـ ثمَّ يتحرَّكُ مِنَ القلبِ نحوَ الدِّماغِ جسمٌ لطيفٌ يُسمِّيه الأطباءُ روحاً حاملةً لقوَّةِ الحسِّ والحركةِ ، وهـٰذه روحٌ يَشتركُ فيها الآدميُّ والبهيمةُ ، وهي التي يتطرَّقُ إليها الموتُ ، فأمَّا الرُّوح المسمَّاةُ قلباً . . فهي للآدميِّ خاصَّةً دون البهائمِ ، ولا يتطرَّقُ إليها الموتُ ؛ لأنَّها محلُّ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

ثمَّ إذا وصلتِ الرُّوحُ المشتركةُ إلى الدِّماغِ . . ظهرَ صورةُ (بسمِ اللهِ) في خزانةِ أوَّلِ الدِّماغِ التي هي موضعُ قوَّةِ الخيالِ ، ويصلُ أثرٌ مِنَ الدِّماغِ إلى الأعصابِ ، فإذا ظهرَ مِنَ الدِّماغ إلى الأعصاب . . اتصلَ بجملةِ الأطرافِ حتىٰ يقفَ في منتهىٰ رؤوسِ الأصابعِ كالخيوطِ ـ وقد تشاهَدُ صورةُ ذلك في ساعدِ مَنْ يكون نحيفَ الجسمِ ـ ثمَّ تتحركُ الأعصابُ علىٰ وَفْقِ مرادِه ، فيرقمُ صورةَ (بسمِ اللهِ) على الكاغدِ مثلَ وَفْقِ ما في خزانةِ الخيالِ بمعاونةِ الحواسِّ ، خصوصاً حاسَّةُ البصر ؛ فإنَّه يكونُ بين يديها كالحاجبِ .

فإذاً ؛ لمَّا كان أوَّلُ هـٰذا الأمرِ رغبةً . . ظهرَ فيكَ ؛ فكذلك أوَّلُ الأمورِ كلِّها يكونُ صفةً من صفاتِ اللهِ تعالىٰ يُعبَّرُ عنها بالإرادةِ ، وكما أنَّ أثرَ تلك الرَّغبةِ والإرادةِ إنَّما ظهرَ علىٰ قلبِكَ ثم تعدَّىٰ بواسطتِه إلى المواضعِ المذكورةِ . . فكذلك أوَّلُ أثرِ إرادةِ اللهِ تعالىٰ إنَّما يظهرُ على العرشِ ثمَّ بعد ذلك يتصلُ بالأغيارِ .

وكما أنَّه يرتقي جسمٌ لطيفٌ مثلُ البخارِ ـ يسمَّىٰ هـٰذا الجسمُ روحاً في عُرفِ الأطباءِ ـ فيُوصلُ ذلك الأثرَ إلى الدِّماغِ . فكذلك للهِ تعالىٰ من

خلقِه جوهرٌ لطيفٌ يوصلُ ذلك الأثرَ مِنَ العرشِ إلى الكرسيِّ ، وذلك الجوهرُ يُسمَّى الملَكَ ، ويُسمَّى الرُّوحَ ، ويسمىٰ روحَ القُدسِ .

وكما يصلُ الأثرُ منَ القلبِ إلى الدِّماغِ ، والدِّماغُ تحت يدَي القلبِ وفي ولايتِه وبحُكمِ تصرُّفِه . . فكذلك الأثرُ الإلـٰهيُّ يصلُ مِنَ العرشِ إلى الكرسيِّ ، والكُرسيُّ تحت العرشِ .

وكما أنَّ صورةَ (بسمِ اللهِ) ـ المسمَّىٰ فعلَك ومرادَك ـ يظهرُ في الخزانةِ الأولىٰ[1] مِنَ الدِّماغ ، ويظهرُ الفعلُ علىٰ وَفْقِهِ . . كذلك صورةُ كلِّ ما يريدُ أن يظهرَ في العالَمِ ؛ يظهرُ نقشُه أوَّلاً في اللوحِ المحفوظِ .

وكما أنَّ القوَّةَ اللَّطيفةَ التي في الدِّماغِ تُحرِّكُ أعصابَ اليدِ والأصابعِ ؛ حتىٰ تُحرِّكَ الأصابعُ واليدُ القلمَ . . فكذلك الجواهرُ اللَّطيفةُ الموكَّلةُ بالعرشِ والكرسيِّ ؛ يحرِّكون السَّماءَ والنُّجومَ .

وكما أنَّ قوَّةَ الدِّماغ تحرِّكُ الأصابعَ بالرَّوابطِ والأوتارِ والأعصابِ . . كذلك تلك الجواهرُ اللَّطيفةُ المسمَّاةُ بالملائكةِ ؛ يحرِّكون أمَّهاتِ طبائعِ العالَمِ السُّفليِّ بواسطةِ الكواكبِ والرَّوابطِ وشعاعاتِها المتَّصلةِ بالعالَمِ السُّفليِّ ، والطَّبائعُ هي أربعةٌ : الحرارةُ والبرودةُ والرُّطوبةُ واليُبوسةُ .

وكما أنَّ القلمَ يمتلئُ بالمدادِ ويجمعُه حتىٰ يظهرَ به صورةَ (بسمِ اللهِ) . . كذلك الحرارةُ والبرودةُ تحرِّكُ الماءَ والترابَ وأمَّهاتِ هـٰذه المركَّباتِ .

وكما أنَّ الكاغدَ يكونُ قابلاً للمدادِ بحيث يفرِّقُهُ أو يجمعُهُ . . كذلك

(١) في (ب) و(هـ) و(ز) : (الوسطىٰ) بدل (الأولىٰ) .

الرُّطوبةُ تجعلُ هـٰذه المركَّباتِ قابلةً للشَّكلِ حافظةً له بحيث لا تتركُهُ ؛ فإنَّه لو لم تكن الرُّطوبةُ . . لَمَا تشكَّلَ ، ولولا اليُبوسةُ . . لَمَا انحفظَ الشَّكلُ .

وكما أنَّ القلمَ لمَّا تمَّمَ فعلَهُ وحركتَهُ . . جاءتْ صورةُ (بسم الله) علىٰ وَفْقِ النَّقشِ الذي تكوَّنَ في خزانةِ الخيالِ بمعاونَةِ حاسَّةِ البصر . . كذلك الحرارةُ والبرودةُ تُحرِّكُ أمَّهاتِ المركَّباتِ بمعاونَةِ الملائكةِ ، فيظهرُ في العالَمِ صورةُ الحيوانِ والنَّباتِ وغيرِ ذلك علىٰ وَفْقِ تلك الصُّورةِ التي في اللَّوحِ المحفوظِ .

وكما أنَّ أوَّلَ الفعلِ[1] في البدنِ انتهضَ مِنَ القلبِ ثم تفرَّقَ في جميعِ الأعضاءِ . . فكذلك أوَّلُ الأمرِ في عالمِ الأجسامِ يظهرُ في العرشِ أوَّلاً .

وكما أنَّ تلك الخاصِّيَّةَ المشاهدةَ أوَّلاً هي القلبُ والباقي دونَهُ ، يُضافُ القلبُ إلى الجملةِ فيُعتقَدُ أنَّه ساكنُ ذلك . . فكذلك لمَّا كان الاستيلاءُ علىٰ جميعِ الموجوداتِ بواسطةِ العرشِ ؛ ظنُّوا أنَّه ساكنُ العرشِ !

وكما أنَّك إذا استويتَ على القلبِ[2] واستقامَ أمرُهُ ، وقدَرتَ أن تقومَ بتدبيرِ أمرِ مملكةِ بدنِكَ بواسطةِ استقامةِ القلبِ بحكمِكَ ، يقالُ : استوىٰ علىٰ قلبِه ؛ حتىٰ قيل : لسانُ العاقلِ وراءَ قلبِه وقلبُ الجاهلِ

---

(١) كذا في (أ) و(و) : (الفعل) ، وفي بقيَّة النُّسخ : (الأمر) ، وقد جاء في هامش (أ) : (الأمر ، صح ، معاً) ، وفي (ليدن) وحدها : (الفعل للآمر) .

(٢) في (أ) و(و) : (إلى القلب) بدل (علىٰ القلب) .

وراءَ لسانِه(١) ، وذلك أنَّ العاقلَ إذا أرادَ أن يقولَ شيئاً . . فإنَّه يعتبِرُهُ بعقلِه ويلحظُهُ بقلبِه ، فإنْ صَلَحَ . . قالَهُ ، وإنْ لم يصلُحْ . . لم يقُلْهُ ، والجاهلُ إنَّما يفكِّرُ فيما قال بعد فواتِ القولِ ، خطأً كان أو صواباً .

فإذاً ؛ العاقلُ مستولٍ علىٰ قلبِه ومستوٍ عليه . . فكذلك الباري سبحانه لمَّا استوىٰ على العرشِ بخَلقِ العرشِ ، واستقامَ العرشُ واستوىٰ ، واستقرَّ ترتيبُ المملكةِ واستتبَّ وتهيَّأَ . . عبَّر عنه بقولِه تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس : ٣] .

وهـٰذا كلُّهُ حقيقة ، وقد ظهرَ ذلك لأهلِ البصائرِ بالمكاشفةِ فعلِمُوه ، وعرفوا هـٰذا المعنىٰ على الحقيقةِ : أنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ .

واعلم بأنَّ المُلْكَ وأمرَ الممالكِ . . لا يعرفُهُ إلاَّ الملوكُ ، ولولا أنَّك أوتيتَ مملكةَ بدنِكَ ، وفوِّضَتْ إليك سلطنةُ التَّصرُّفِ في جُملَتِكَ ، وأُعطيتَ نُسخةً مختصرةً مِنْ مملكةِ الحقِّ . . وإلا فمتىٰ كنتَ تعرفُ إلـٰهَ الخَلقِ ؟!

فينبغي أن تَشكرَ مَلِكاً خلقكَ وآتاكَ سلطنةً ومملكةً أُنموذجاً مِنْ

---

(١) رواه أبو بكر الدينوري المالكي (ت : ٣٣٣هـ) في كتابه « المجالسة وجواهر العلم » (٧/٢٠٨) عن الحسن البصري ، وذكر شيخ الأزهر العلاَّمة عبد الله الشبراوي (ت : ١١٧١هـ) في كتابه الماتع « عنوان البيان وبستان الأذهان » (ص ٥٢) : (لِسَانُ العاقلِ في قَلبِهِ ، وقلبُ الأحمَقِ في فَمِهِ) ، ونقل بيتان في ذلك ، وهما لأبي المؤيد الجزري الطبيب ، محمد بن المجلي ، المعروف بالعنتري (ت : ٥٦٠هـ) : [من السريع]

مَنْ لَزِمَ الصمتَ اكْتَسَىٰ هَيْبَةً ... تَخْفَىٰ عنِ النَّاسِ مَسَاوِيهِ
لِسَانُ مَنْ يَعْقِلُ في قلبه ... وقَلْبُ مَنْ يَجْهَلُ في فِيهِ

مملكتِهِ[1] ، وإلىٰ هـٰذا أشارَ يُوسُفُ الصِّديقُ عليه السَّلامُ فيما أخبرَ اللهُ عنه بقولِه : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف : ١٠١] ، ولم يُرِدْ مُلْكَ مِصْرَ ؛ فإنَّ ذلك حقيرٌ في جنْبِ مُلْكِ الدُّنيا ، ومُلْكُ الدُّنيا حقيرٌ في جنْبِ هـٰذه المملكةِ ؛ فإنَّه جعلَ لك من قلبِكَ . . عرشاً ، وجعلَ لكَ مِنَ الرُّوحِ الحيوانيَّةِ التي هي منبعُ ذلك القلبِ . . إسرافيلَ ، ومِنَ الدِّماغِ . . كرسيّاً ، ومِنْ خزانةِ الخيالاتِ . . لوحاً محفوظاً ، ومِنْ قُبَّةِ الدِّماغِ الذي هو منبعُ الأعصابِ . . سماءً ونجوماً ، ومِنَ الأصابعِ والقلمِ والمدادِ . . طبائعَ كلامِكَ ، وخَلَقَكَ فرداً لا مِثلَ لكَ ولا كيفيَّةَ ، وجعلَ لك سُلطاناً على الكُلِّ ، ثم قال لك : اللهَ اللهَ ، لا تغفُلْ عن نفْسِكَ ومملكتِكَ ؛ فإنَّكَ إذا غفَلتَ عنهُما . . غَفَلتَ عن خالقِكَ ؛ فإنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ علىٰ صورتِه ، فاعرفْ نفْسَكَ يا إنسانُ . . تعرفْ ربَّكَ[2] .

* * *

---

(١) وهـٰذا هو حظُّ العبدِ مِنَ التَّخلُّقِ باسمه تعالىٰ « مالك المُلك » ، قال حُجَّةُ الإسلام في « المقصد الأسنىٰ » (ص ٢٨١) : (ومملكة كلِّ عبدٍ بدنُهُ خاصَّةً ، فإذا نَفَذَتْ مشيئتُهُ في صفات قلبه وجوارحه . . فهو مالكُ مملكة نفسه بقدْرِ ما أُعطيَ مِنَ القدرة عليها) .

(٢) في (د) وحدها : (فاعرف نفسك يا إنسانَ ربَّكَ) بدل (فاعرف نفسك يا إنسانُ . . تعرفْ ربَّكَ) .

٣ فصلٌ

في الإشارة إلى العِلمين اللذين تنتجها الموازنةُ بين مملكة الحقِّ سبحانه ومملكة الآدميِّ

قد وقعتِ الإشارةُ فيما ذكرناهُ مِنَ الموازنةِ بين مملكةِ الحقِّ سبحانَهُ ومملكةِ الآدميِّ إلىٰ عِلمَينِ كبيرينِ :

أحدُهما : علمُ نفْسِ الآدميِّ ، وكيفيَّةُ تعلُّق الصِّفاتِ والقوَّاتِ بالقلبِ ، وهـٰذا علمٌ عظيمٌ طويلٌ لا يمكنُ تحقيقُهُ في مثلِ هـٰذا الكتابِ بأكثرَ ممَّا ذكرناهُ ؛ فإنَّ الإمامَ أبا حامدٍ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ قد صنَّفَ في ذلك كُتباً عدَّةً ، وهي في جنْبِ هـٰذا العلمِ كحصاةٍ بالإضافةِ إلىٰ جبلٍ[١] .

الثاني : تفصيلُ ارتباطِ مملكةِ إلـٰهِ العالَمِ بالملائكةِ ، وارتباطِ بعضِ الملائكةِ ببعضٍ[٢] ، وارتباطِ السَّماواتِ والعرشِ والكرسيِّ بهـٰؤلاء ، وهـٰذا أيضاً علمٌ عظيمٌ طويلٌ[٣] .

---

(١) في (د) وحدها : (جبلِ قاف) ، وسقط من (ب) و(هـ) قوله : (فإنَّ الإمام أبا حامدٍ قدَّس اللهُ روحه قد صنَّفَ في ذلك كُتباً عدَّة ، وهي في جنْبِ هـٰذا العلمِ كحصاة بالإضافة إلىٰ جبلٍ) .

(٢) سقط من (أ) وحدها قوله : (تفصيلُ ارتباطِ مملكة إلـٰه العالَم بالملائكة ، وارتباط بعض الملائكة ببعضٍ) .

(٣) انظر « المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ » (ص ٢٨٠) لحجَّة الإسلام الغزالي ، في الكلام على اسمه تعالىٰ « مالك المُلك » .

والمقصودُ من هٰذه الإشارةِ : ليقفَ الذَّكيُّ النِّحريرُ علىٰ ذلك ويعتقِدَه ، ويعرفَ بذلك عظمةَ اللهِ سبحانَهُ .

ومَنْ كان بليداً ؛ إذا وقفَ عليه . . عَرفَ مِنْ نفْسِهِ هٰذا القدْرَ ، وهو كيفيَّةُ غفلتِه[1] وكونِه مغبوناً حين حُرِمَ مطالعةَ جمالِ الحضرةِ الإلٰهيَّةِ !

علىٰ أنَّ هٰذا القدْرَ الذي أوردتُهُ . . مُحتَقرٌ في جنبِ ما يعرفُهُ العارفُ إذا اطَّلعَ عليه على الوجه الذي يوفَّقُ لمعرفتِه ، فإذا قايستَ به ما ذكرناهُ . . كان بالإضافةِ إلىٰ ما يعرفُه العارفُ كطريقٍ غامضٍ في بريَّةٍ[2] ؛ فإنَّ ذلك الطريقَ حقيرٌ في جنبِ سَعَةِ البرِّيَّةِ ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

(١) في (أ) و(و) و(ليدن) : (وهو كيفيَّةٌ عقليَّةٌ) بدل (وهو كيفيَّةُ غفلتِهِ) ، والمعنىٰ : أنَّ البليد إذا وقف علىٰ هٰذا القدر ممَّا ذُكِرَ . . فإنَّه لا يدركه إلا بتصرُّفات عقله وفكره ، لا بأذواق قلبه وسِرِّه .

(٢) سقط من (ليدن) قوله : (ما يعرفُهُ العارفُ إذا اطَّلع عليه على الوجه الذي يوفَّقُ لمعرفته ، فإذا قايستَ به ما ذكرناهُ . . كان بالإضافة إلىٰ ما يعرفُه العارفُ كطريقٍ غامضٍ في بريَّةٍ) ولعلَّه فوت نظر ؛ لابتداء السقط وانتهائه بقوله : (ما يعرفه العارف) .

٤ فصل
في مراتب الوجود بين المُلك والملكوت (١)

هـٰؤلاء المساكينُ المنجِّمونَ والطبائعيونَ الذين حُرموا حقيقةَ المعرفةِ ؛ حتىٰ أضافوا الأمورَ إلى النُّجومِ والطبائعِ . . مَثلُهُم كنملةٍ دبَّتْ علىٰ قرطاسٍ ، فرأتْهُ يسوَدُّ ويظهرُ عليه نقوشٌ ، فتأمَّلَتهُ ؛ فإذا هي برأسِ القلمِ ينقشُ القرطاسَ ويسوِّدُه ، ففرحتْ وقالتْ : عرفتُ حقيقةَ هـٰذا الأمرِ ؛ فإنَّه إنَّما يصدرُ مِنَ القلمِ ! وهـٰذا مثَلُ الطبيعيِّ الذي لم يَعرفْ مِنَ المحرِّكات إلا الدَّرجةَ الأخيرةَ .

فجاءتْ نملةٌ أخرىٰ أحدُّ بصراً مِنَ الأولىٰ وأدقُّ نظراً . . فقالتْ للأُولىٰ : إنَّكِ غلطتِ ؛ فإنَّني أرى القلمَ مُسخَّراً ، ووراءه شيءٌ آخَرُ ، وهو الذي يَنقشُ ، وابتهجتْ بذلك وقالتْ : هـٰذا حقيقةُ الأمرِ ؛ فإنَّني قد علمتُ أنَّ الذي يَنقشُ إنَّما هو الإصبعُ لا القلمُ ؛ فإنَّ القلمَ مُسخَّرٌ له . وهـٰذا مثالُ المنجِّم .

فنظرُ النَّملةِ الثَّانيةِ وهي رُتبةُ المنجِّم . . أوسعُ وأدقُّ من نظرِ الأُولىٰ ، وهي رُتبةُ الطَّبائعيِّ ، ولم يعلمِ المنجِّمُ المسكينُ حين جعلَ الطَّبائعَ

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٨/٢٠١ وما بعدها ، كتاب التوحيد والتوكل ، وهو الكتاب الخامس من ربع المُنجيات) ، و« الأربعين في أصول الدين » (ص ٤١٤) .

مسخَّرةً للكواكبِ . . أنَّ الكواكبَ مسخَّرةٌ للملائكةِ ، ولم يهتدِ إلىٰ هـٰذه الدَّرجةِ .

وكما أنَّه وقعَ هـٰذا الخلافُ في عالَمِ الأجسامِ بين الطَّبيعيِّ والمنجِّم . . كذلك وقعَ الخلافُ في عالَمِ الأرواحِ بين مَنْ ترقَّىٰ ؛ فإنَّ كثيراً مِنَ الخَلقِ ترَقَّوا عن عالَمِ الأجسامِ ؛ فوجدوا شيئاً خارجاً عن معهودِهم ؛ فنزلوا علىٰ أوَّلِ درجةٍ . . فانسدَّ عليهم طريقُ المعراجِ إلىٰ عالَمِ الأرواحِ .

وهكذا في عالَمِ الأرواحِ الذي هو من عالَمِ الأنوارِ . . عقباتٌ وحُجُبٌ كثيرةٌ ، بعضُها في الجَريِ مثلُ الكواكبِ ، وبعضُها مثلُ القمرِ ، وبعضُها مثلُ الشمسِ ، وهـٰذه مراقي معراجِ قومٍ يُعرَضُ عليهم ملكوتُ السَّماوات ، كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ في حقِّ الخليلِ صلواتُ اللهِ عليه بقولِه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام : ٧٥] ؛ ولذلك قال النَّبيُّ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ : « **إنَّ للهِ سبعينَ حجاباً من نورٍ**[١] **، لو كشفها . . لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه كُلَّ شيءٍ أدركَهُ بصَرُهُ** »[٢] .

---

(١) كذا في (أ) و(ج) و(و) : (من نور) ، وفي بقيَّة النسخ : (من نورٍ وظُلمة) ، وقد جاء الحديث في (أ) في الفصل الذي يليه : (من نورٍ وظُلمة) .

(٢) روى الطبراني في « الأوسط » (٦٤٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « **سَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، هَلْ تَرَىٰ رَبَّكَ ؟ قَالَ : إنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ ، لَوْ رَأَيْتُ أَدْنَاهَا لاَحْتَرَقْتُ** » .

وروىٰ أبو الشيخ ابن حبَّان في « العَظَمَة » (٢/ ٧١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « **بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلاَئِكَةِ الَّذِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ سَبْعُونَ حِجَاباً مِنْ ظُلْمَةٍ . . .** » الحديث . =

والمقصودُ : أن تَعرفَ مسكنَةَ الطَّبيعيِّ وحيرتَه ، وأنَّه صَدَقَ في إضافتِه إلى الحرارةِ والبرودةِ ؛ بأنَّه لولا كونُ هـٰذينِ مِنَ الأسبابِ الإلـٰهيَّةِ في البَيْنِ . . لبطلَ علمُ الطبِّ ، ولـٰكنْ أخطأ مِنْ حيث قلَّةُ نظرِه وضعفُ بصرِه ، وأنَّه حطَّ راحلةَ قلبِه في أوَّلِ منزلٍ ، وجعلَ ذلك أصلاً وموطناً ، وجعلَهُ مُسخِّراً لا مُسخَّراً ، وسيِّداً لا عبداً ! وهو ؛ أعني : ما تمسَّكَ به الطبائعيُّ مِنَ الطَّبائع . . من جملةِ العبيدِ المرتَّبينَ في آخرِ رُتبةٍ ، المُوقَفِينَ(١) في صفِّ النِّعالِ .

وكذلك المنجِّمُ . . صدقَ حين أتىٰ بالنُّجومِ في جملةِ الأسبابِ ؛ فإنَّه لو لم تكن . . لتماثَلَ اللَّيلُ والنَّهارُ واستويا ؛ فإنَّ الشَّمسَ نجمٌ ، الضياءُ

= وعند الطبراني في « الأوسط » (٨٩٤٢) : « بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلاَئِكَةِ الَّذِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ سَبْعُونَ حِجَاباً مِنْ نَارٍ ، وَسَبْعُونَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ ، وَسَبْعُونَ حِجَاباً مِنْ ظُلْمَةٍ . . . » الحديث .

أما لفظ : « لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ » ؛ فهو عند مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعاً : « حِجَابُهُ النُّورُ ـ وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ : النَّارُ ـ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ »

وأخرج أبو الشيخ في « العظمة » (٢/ ٦٩١) عن مجاهدٍ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ، قال : (بَيْنَ الْعَرْشِ وَبَيْنَ الْمَلاَئِكَةِ سَبْعُونَ حِجَاباً ؛ حِجَابٌ مِنْ نَارٍ ، وَحِجَابٌ مِنْ ظُلْمَةٍ ، وَحِجَابٌ مِنْ نُورٍ ، وَحِجَابٌ مِنْ ظُلْمَةٍ) .

وعند أحمد في « المسند » (١٩٨٩٦ طبعة المكنز ، ١٩٥٨٧ طبعة الرسالة) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « حِجَابُهُ النَّارُ لَوْ كَشَفَهَا . . لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ » ، وعند ابن ماجه (١٩٦) من حديث أبي موسىٰ أيضاً رضي الله عنه مرفوعاً : « حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهَا . . لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ »

(١) قوله : (الموقفين) ليس في (ب) و(هـ) و(ز) .

والحرارةُ يوجَدانِ منه في العالَم ، فلولاه.. لتماثَلَ الصَّيفُ والشِّتاءُ ؛ فإنَّ حرارةَ الصَّيفِ إنَّما تكونُ إذا كانتِ الشَّمسُ تقرُبُ إلىٰ وسَطِ السَّماءِ ، وبرودةَ الشِّتاءِ تكونُ بحُكمِ بُعدِها عن ذلك ، والرَّبُّ تعالى الذي كان في قدرتِه أن خَلقَ الشَّمسَ حارَّةً مُضيئةً.. ليس يعسُرُ عليه أن يكونَ خَلقَ زحلَ بارداً يابساً ، والزُّهرةَ حارَّةً رطبةً ، وهـٰذا لا يقدحُ في الإسلامِ .

فالمنجِّمُ غيرُ مخطىءٍ مِنَ الوجهِ الذي ذكرنا ، إنَّما غلِطَ من وجهٍ آخرَ ؛ وهو أنَّه جعلَ النُّجومَ أصلاً يُخاطَبُ ويُدعىٰ ويُخشىٰ ويُرجىٰ ، وجعلَها متصرِّفةً بطريقِ الاستقلالِ ، ولم يَنظرْ ـ لقصورِ بصرِه[1] ـ في كونِها مُسخَّرةً مُدبَّرةً ، كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، والمسخَّرُ : هو الذي رُتِّبَ لعملِ شيءٍ مِنَ الأمورِ[2] .

فإذاً ؛ هـٰؤلاء عُمَّالٌ ، ولـٰكن لا من جهةِ نفوسِهم وقِبَلِها ، لـٰكنَّهم مُرتَّبونَ للعملِ من جهةِ الملائكةِ ؛ كما أنَّ الأعصابَ تَستعمِلُ ما دونَها من أجنابِ الأطرافِ من جهةِ القوَّةِ التي في الدِّماغ.. فكذلك الكواكبُ كلُّها مِنَ المستخدَمينَ في المراتبِ الأخيرةِ ، وإن كانوا في صفِّ النُّقباءِ لا في صفِّ النِّعالِ الذي فيه الطبائعُ الأربعةُ مسخَّرةً ، وهي آخرُ رُتبةٍ ؛ كالقلمِ في الكتابةِ .

* * *

---

(١) في (ب) و(ز) : (نظره) ، وفي (هـ) : (بصيرته) بدل (بصره) .

(٢) ضبطت في (أ) : (والمسخِّرُ : هو الذي رَتَّبَ لعملِ شيءٍ مِنَ الأمور) .

٥ فصلٌ

في معنىٰ قوله ﷺ « إنّ لله سبعين حجابًا من نور وظلمة ، لو كشفها .. لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره »(١)

كأنّي بكَ أيُّها الأخُ العارفُ أدامَ اللهُ تأييدَك ، وأجزَلَ من عوارفِه مزيدَكَ . . تتشوَّفُ إلى الوقوفِ علىٰ معنىٰ قولِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ : « **إنَّ للهِ سبعينَ حجاباً مِنْ نُورٍ وظُلمَةٍ . . .** » الخبر(٢) ، وتقولُ لي : قد شرطتَ في صدرِ الكتابِ أنَّكَ تُشيرُ إلىٰ طرَفٍ من كُلِّ فنٍّ تُورِدُهُ ، ولا تُغادرُ شيئاً ممَّا تذكُرُهُ ؛ محتاجاً إلى البحثِ عنهُ في كتابٍ آخَرَ .

فاعلم أنَّ في بعضِ الرِّواياتِ « **سَبعَ مئةِ حجابٍ** » ، وفي بعضِها « **سبعونَ ألفاً** »(٣) ، ولا مزيدَ لديَّ علىٰ ما أوردَه الإمامُ حُجَّةُ الإسلامِ في

---

(١) العنوان مثبت من « مشكاة الأنوار » (ص ٨٤) ، وموارد المؤلِّف في هٰذا الفصل كما صرَّح من كتاب « مشكاة الأنوار » (ص ٨٤ إلىٰ ٩٣) ، وقد نَقلَ الفصل كاملاً مع تصرُّفٍ يسير ، هٰذا وبالإضافة إلى النسخ الخطيّة لكتابنا « الذخيرة لأهل البصيرة » ؛ قمتُ بمقابلةِ الفصل مع النسخة المطبوعة لكتاب « مشكاة الأنوار » بتحقيق المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفي ، وكذلك رجعتُ إلىٰ نسخة خطِّيَّة نفيسة لكتاب « مشكاة الأنوار » نُسخت سنة (٥٤١هـ) .

(٢) تقدَّم تخريجه (ص ٢٤٥) .

(٣) كذا جاءت مقدمة الفصل في (أ) و(و) ، أمَّا بقيَّة النُّسخ . . ففيها سقطٌ وتغيير ؛ فقد جاءت مقدِّمة الفصل فيها : (أظنُّك تتشوق إلى الوقوف علىٰ معنى الخبر ، وماهية المراد بالحجب المذكورة ، لا سيَّما وفي بعض الروايات « سبع=

كتابِه المسمَّىٰ بـ« المشكاةِ »[1] ؛ فإنَّه ذكرَ أصولاً لو تصدَّىٰ متصَدٍّ لتفريعِها وبسطِها. . لبلغَ العددَ المذكورَ أو قاربَهُ ، ولـٰكنْ إحصاءُ فروعها ممَّا يطولُ ؛ فلنقتصرْ علىٰ إيرادِ ما ذكرَه مع زيادةِ بسطٍ واختصارٍ في موضعٍ يليقُ به كلُّ ذلك ، واللهُ الموفِّقُ .

اعلم أنَّ اللهَ سبحانه مُتَجَلٍ في ذاتِه لذاتِه ، والحُجُبُ المذكورةُ كلُّ واحدٍ منها يكونُ حجاباً بالإضافةِ إلىٰ محجوبٍ لا محالةَ ، ثمَّ

= مئة حجاب » ، وفي بعضها « سبعون ألفاً ») ، وفي (أ) و(و) : (تتشوَّق) بدل (تتشوَّف) ، وقد أُشير في هامش (أ) إلىٰ أنَّ (تتشوَّف) نسخة ثانية ، وقال : (أي : تترقَّب) .

أمَّا بالنسبة للرواية الأولى التي ذكرها المؤلِّف : « سَبعَ مئةِ حجابٍ » ؛ فلم أجدها .

أمَّا الرواية الثانية : « سَبعونَ ألفاً » ؛ فقد روى الطبراني في « الكبير » (١٤٢٤٨) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٢/ ٦٦٧) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٤٧) كلاهما من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً : « **دُونَ اللهِ سَبْعُونَ ألفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وظُلْمَةٍ ، فَمَا مِنْ نَفْسٍ تَسْمَعُ شَيْئاً مِنْ حِسِّ تِلْكَ الحُجُبِ . . إلاَّ زَهِقَتْ** » .

وأخرج أبو الشيخ في « العظمة » (٢/ ٦٨٥) عن مجاهدٍ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ، قال : (بَيْنَ الْمَلاَئِكَةِ وَبَيْنَ الْعَرْشِ سَبْعُونَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ)

(١) كذا في (أ) و(و) : (في كتابه المسمَّىٰ بـ « المشكاة ») ، وفي (ليدن) : (وضمَّنه كتاب « مشكاة الأنوار » ، أمَّا بقيَّة النُّسخ ؛ ففي (ب) و(هـ) و(ز) : (في بعض كُتُبه) ، وفي (د) : (في ذلك وأودعه كتبه) ، وفي (ج) : (في ذلك في بعض كتبه) .

والكتاب هو « مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار » ، من أواخِرِ مؤلَّفات حُجَّة الإسلام ، وزُبدة علومه عليه مِنَ الله الرَّحمة والسَّلام ، صرَّح فيه بما قصرت عنه الأفهام ؛ فأنكره بعضهم دون الأئمَّة الأعلام .

المحجوبونَ مِنَ الخَلقِ ثلاثةُ أقسامٍ :

منهم محجوبونَ[1] بمجرَّدِ الظُّلمةِ ، ومنهم محجوبٌ بالنُّورِ المحضِ ، ومنهم محجوبٌ بنورٍ مقرونٍ بظُلمةٍ ، وأصنافُ هٰذه الأقسامِ كثيرةٌ جدّاً[2] ، فلتقعِ الإشارةُ إلىٰ بعضِ أصنافِ كلِّ قسمٍ ؛ ليُتنبَّهَ به علىٰ ما سواه بطريقِ المجاهدةِ .

فأمَّا القسمُ الأوَّلُ : وهمُ المحجوبونَ بالظُّلمةِ المحضةِ ؛ فإنَّهم المُلحِدةُ الذين لا يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وهمُ الذين استحبُّوا الدُّنيا على الآخرةِ ؛ لأنَّهم لا يؤمنونَ بها أصلاً .

وهٰؤلاء صنفانِ :

صنفٌ تشوَّفَ إلىٰ طلبِ سببٍ لهٰذا العالَم ؛ فأحالَه إلى الطَّبعِ الذي هو عبارةٌ عن صفةٍ مركوزةٍ في الأجسامِ حالَّةٍ فيها ، وهي مظلمةٌ ؛ إذ ليس لها معرفةٌ وإدراكٌ ، ولا خبرَ لها من نفسِها ولا ممَّا يصدرُ منها ، وليس لها نورٌ يُدرَكُ بالبصرِ الظَّاهرِ أيضاً .

---

(١) سقط من (ب) و(هـ) و(ز) قوله : (لا محالة ، ثمَّ المحجوبون منَ الخَلقِ ثلاثة أقسام : منهم محجوبونَ) .

(٢) قال حُجَّة الإسلام في « مشكاة الأنوار » (ص ٨٤) : (وأصناف هٰذه الأقسام كثيرة أتحقَّقُ كثرتها ، ويمكنني أن أتكلَّف حصرها في سبعين ، لٰكن لا أثق بما يلوح لي من تحديد وحصر ؛ إذ لا أدري أنَّه المراد بالحديث أم لا ؟
أمَّا الحصر إلىٰ (سبع مئة) و(سبعين ألفاً).. فذلك لا يستقل به إلا القوَّة النبوية ، مع أن ظاهر ظني أنَّ هٰذه الأعداد مذكورة للتكثير لا للتحديد ، وقد تجري العادة بذكر عددٍ ولا يُرادُ به الحصر ؛ بل التكثير ، والله أعلم بتحقيق ذلك ، فذلك خارج عن الوسع) .

والصِّنفُ الثَّاني : همُ الذين شُغِلوا بأنفسهم ، ولم يفرُغوا لطلبِ السَّببِ أيضاً ؛ بل عاشوا عيشَ البهائم ؛ فكان حجابُهم نفوسَهم الكدِرَةَ وشهواتِهم المظلمَةَ ، ولا ظُلمةَ أشدُّ منَ الهوىٰ والنَّفْسِ ؛ ولذلك قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، وقال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « **الهَوىٰ أَبغَضُ إلـٰهٍ عُبِدَ في الأَرضِ** »[١] .

وهـٰؤلاء انقسموا فِرَقاً :

ففرقةٌ : زعمتْ أنَّ غايةَ المطلبِ في الدُّنيا قضاءُ الأوطارِ ، ونيلُ الشَّهواتِ ، وإدراكُ اللَّذاتِ البهيميَّةِ من مَنكَحٍ ومَطعَمٍ ومَلبَسٍ ؛ فهـٰؤلاء عبيدُ اللَّذَّةِ ، يعبُدونَها ويطلبونَها ، ويعتقدونَ أنَّ نيلَها غايةُ السَّعادةِ ! رَضُوا لأنفسِهم أن يكونوا بمنزلةِ البهائمِ بل أخسَّ منها ! فأيُّ ظلمةٍ أشدُّ من ذلك ؟! فقد حُجِبَ هـٰؤلاء بمحضِ الظُّلمةِ .

وفرقةٌ : رأتْ أنَّ غاية السَّعادةِ هي الغَلَبَةُ والاستيلاءُ والقتلُ والفتكُ والأسرُ والسَّبيُ ، وهـٰذا مذهبُ الأعرابِ والأكرادِ وكثيرٍ مِنَ الحمقىٰ ، وهم محجوبونَ بظُلمةِ الصِّفاتِ السَّبُعيَّةِ ؛ لغَلَبَتِها عليهم ، وكونِ إدراكِ مقصودِها.. أعظمَ اللَّذَّاتِ عندهم ، وهـٰؤلاءِ قَنِعُوا أن يكونوا بمنزلةِ السِّباعِ بل أخسَّ .

وفرقةٌ ثالثةٌ : زعمتْ أنَّ غايةَ السَّعادةِ.. كثرةُ المالِ واتِّساعُ

---

(١) قال الحافظ العراقي في « المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء مِنَ الأخبار » (١/ ٢٧) : (روي من حديث أبي أُمامة بلفظ : « **أَبْغَضُ إِلَـٰهٍ عُبِدَ عِنْدَ اللهِ فِي الأَرْضِ هُوَ الْهَوَىٰ** » هـٰكذا رواه الطبراني بإسناد ضعيف) .

الشأنِ[١] ؛ لأنَّ المالَ آلةُ قضاءِ الشَّهوات كلِّها ، وبها يحصُل للإنسانِ الاقتدارُ علىٰ قضاءِ الأوطارِ ، فهـٰؤلاء هِمَّتُهم جمعُ الأموالِ واستكثارُ العَقارِ والضِّياعِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ وكنزِ الدَّنانيرِ تحتَ الأرضِ ، فترى الواحدَ يجتهدُ طولَ عمْرِه ؛ فيرتكبُ الأخطارَ في البوادي ، والأسفارَ والتِّجاراتِ ، ويجمعُ الأموالَ بأنواعِ الاحتيالِ ويشحُّ بها علىٰ نفسِه فضلاً عن غيرِه ، وهمُ المرادونَ بقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : « **تَعِسَ عبدُ الدِّرهمِ ، تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ** »[٢] ، وأيُّ ظلمةٍ أعظمُ ممَّا يُلبَّسُ على الإنسان ؟!

إنَّ الذَّهبَ والفضةَ حجران لا يُرادانِ لأعيانِهما ، وهي إذا لم تُقضَ بها الأوطارُ ولم تُنفَقْ . . بمنزلةِ الحصىٰ ، ولا فَرقَ بينهما حينئذٍ .

وفرقةٌ رابعةٌ : ترقَّتْ من جهالةِ هـٰؤلاءِ وتعاقلتْ[٣] ، وزَعمَتْ أنَّ أعظمَ السَّعاداتِ اتِّساعُ الجاهِ والصِّيتِ ، وانتشارُ الذِّكرِ ، وكثرةُ الأتباعِ ، ونفوذُ الأمرِ المطاعِ .

فتراها لا هَمَّ لها إلا المراءاةُ وعِمارةُ مطارحِ أبصارِ النَّاظرينَ ؛ حتىٰ

---

(١) كذا في جميع النسخ الخطيّة : (واتِّساعُ **الشأن**) ، والذي في طبعة « مشكاة الأنوار » (ص ٨٦) ، ومخطوطته (ق ٤٢/ب) : (واتِّساعُ **اليسار**) .

(٢) رواه الطبراني بهـٰذا اللفظ في « المعجم الأوسط » (٢٥٩٥) ، والبخاري (٢٨٨٧) بلفظ : « تَعِسَ عبدُ الدِّينار وعبدُ الدِّرهم » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) كذا في (ج) و(هـ) و(و) و(ليدن) : (وتعاقلت) وهو الموافق لما في المطبوع والمخطوط من « مشكاة الأنوار » ، وفي (أ) و(ز) : (وتغافلت) ، وفي (ب) و(د) : (وتعاملت) .

إنَّ أحدَهم يجوعُ في بيتِه ويحتَمِلُ الضَّرَرَ ، ويصرفُ مالَهُ إلىٰ ثيابٍ يتجمَّلُ بها عند خروجِه ؛ كي لا يَنظُرَ إليه أحَدٌ بعينِ الحقارةِ .

وأصنافُ هـٰؤلاء لا يُحصَونَ كثرةً ، وكلُّهم محجوبونَ عن اللهِ تعالىٰ بالظُّلمةِ المحضةِ ، وهي نفوسُهُمُ المظلمةُ ، فلا نطيلُ بذكرِ آحادِ الفِرَقِ بعد وقوعِ التَّنبيهِ على الأجناسِ .

ويدخلُ في زمرةِ هـٰؤلاء أقوامٌ يقولونَ بلسانِهم : (لا إلـٰه إلا الله) ، ولـٰكنْ ربما حَمَلَهُمْ علىٰ قولِها خوفٌ أو استظهارٌ بالمسلمينَ ، وتجمُّلٌ بهم ، أو استمدادٌ من مالِهم ، أو لأجلِ التَّعصُّبِ لنُصرةِ مذهبِ الآباءِ .

فهـٰؤلاء إذا لم تحملهمْ هـٰذه الكلمةُ على العملِ . . فلا تُخرجُهمُ الكلمةُ مِنَ الظُّلماتِ إلى النورِ ؛ بل أولياؤهمُ الطاغوتُ يُخرجونَهم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلماتِ[1] .

أمَّا مَنْ أثَّرَتْ فيه الكلمةُ بحيث ساءَتْهُ سيِّئَتُهُ وسرَّتْهُ حسنَتُهُ . . فهو خارجٌ من محضِ الظُّلمةِ وإن كان كثيرَ المعصيةِ[2] .

وأمَّا القسمُ الثاني : طائفةٌ حُجِبُوا بنورٍ مقرونٍ بظُلمةٍ ، وهم ثلاثةُ أصنافٍ :

صنفٌ منشأُ ظلمتِهم مِنَ الحسِّ ، وصنفٌ منشأُ ظلمتِهم مِنَ الخيالِ ، وصنفٌ منشأُ ظلمتِهم مِنْ مُقايساتٍ عقليَّةٍ فاسدةٍ .

---

(١) اقتباسٌ من الآية (٢٥٧) في سورة البقرة .

(٢) جاء في الحديث عن سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « مَنْ سَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ ، وَسَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ . . فَهُوَ مُؤْمِنٌ » ، أخرجه أحمد في « مسنده » (١٥٩٣٦ طبعة المَكنِز ، ١٥٦٩٦ طبعة الرسالة) من حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه .

فالصِّنفُ الأوَّلُ : المحجوبونَ[1] بالظُّلمةِ الحسِّيَّةِ : وهم طوائفُ ، لا يخلو واحدٌ منهم عن مجاوزةِ الالتفاتِ إلىٰ نفْسِهِ ، وعنِ التَّألُّهِ والتَّشوُّفِ إلىٰ معرفةِ ربِّهِ .

وأوَّلُ درجاتِهم عبَدَةُ الأوثانِ ، وآخرُهم الثَّنويَّةُ ، وبينهما درجاتٌ لا نُطيلُ بذِكرِها ، بل نُشيرُ إلىٰ بعضِها تنبيهاً علىٰ باقيها .

أمَّا عبدةُ الأوثانِ : فإنَّهم عَلِموا على الجملةِ أنَّ لهم ربّاً يلزمُهُم إيثارُهُ علىٰ نفوسِهِمُ المظلمةِ ، واعتقدوا ربَّهُم أعزَّ من كلِّ شيءٍ ، وأنفسَ من كلِّ شيءٍ نفيسٍ ، ولٰكنْ حجبتْهُم ظُلمةُ الحسِّ عن أن يُجاوزوا العالَمَ المحسوسَ ؛ فاتَّخذوا من أنفَسِ الجواهرِ ؛ كالذَّهبِ والفضةِ والياقوتِ . . أشخاصاً مُصَوَّرةً بأحسنِ الصُّوَرِ ؛ فاتَّخذوها آلهةً !

وهٰؤلاء محجوبونَ بنورِ العِزَّةِ والجمالِ ، والعِزَّةُ والجمالُ من صفاتِ اللهِ تعالىٰ وأنوارِه ، ولٰكنَّهم ألصقوها بالأجسامِ المحسوسةِ ، وصدَّهم عن ذلك ظُلمةُ الحسِّ ؛ فإنَّ الحسَّ ظلمةٌ بالإضافةِ إلى العالَمِ الرُّوحانيِّ العقليِّ .

الطائفةُ الثَّانيةُ : جماعةٌ من أقاصي التُّركِ ليس لهم مِلَّةٌ ولا شريعةٌ ، يعتقدونَ أنَّ لهم ربّاً ، وأنَّهُ أجملُ الأشياءِ ، فإذا رأوا إنساناً في غايةِ

---

(١) كذا في (أ) و(ز) : (المحجوبون) وهو الموافق لما في المطبوع والمخطوط من « مشكاة الأنوار » ، وفي (ب) : (المتردِّدون) ، وفي (ج) و(ليدن) : (المُمْنَون) ، وفي (د) : (المنوَّر) ، وفي (هـ) : (الممْنُونون) ، وفي (و) : (المُقِرُّون) ، وقد كتبت في (أ) في متن الكتاب مثل ما جاء في (ج) : (المُمْنَون) ، وصُحِّحت في الهامش بنفس القلم إلى (المحجوبون) .

الجمالِ أو شجراً أو فرساً . . سجدوا لَهُ ! وقالوا : إنَّه ربُّنَا !

فهٰؤلاء محجوبونَ بنورِ الجمالِ مع ظُلمةِ الحسِّ ، وهم أدخلُ في ملاحظةِ النُّورِ من عبَدَةِ الأوثانِ ؛ لأنَّهم يعبدونَ الجمالَ المطلَقَ دونَ الشَّخصِ الخاصِّ ، فلا يُخصِّصُونَهُ بشخصٍ[1] ، ثمَّ يعبدونَ الجمالَ المطبوعَ ، لا المصنوعَ من جهتِهم وبأيديهم .

وطائفةٌ ثالثةٌ : قالوا : ينبغي أن يكون ربُّنَا نورانياً في ذاتِه ، بهيّاً في صورتِه ، ذا سُلطانٍ في نفسِه ، مَهيباً في حضرتِه ، لا يُطاقُ القُربُ منهُ ، ولٰكنْ ينبغي أن يكونَ محسوساً ؛ إذ لا معنىٰ لغيرِ المحسوسِ عندهم ، ثمَّ وجدوا النَّارَ بهٰذه الصِّفةِ . . فعبدوها واتَّخذوها ربّاً !

فهٰؤلاء محجوبونَ بنورِ السَّلطنةِ والبهاءِ ، وكلُّ ذلك من أنوارِ اللهِ تعالىٰ .

وطائفةٌ رابعةٌ : زعموا أنَّ النَّارَ نستولي عليها نحنُ بالإشعالِ والإطفاءِ ، فهي تحت تصرُّفِنا ؛ فلا تصلحُ للإلٰهيَّةِ ؛ بل ما يكونُ بهٰذه الصِّفاتِ[2] ، ثمَّ نكونُ نحنُ تحتَ تصرُّفه ، ويكونُ مع ذلك موصوفاً

---

(١) كذا في جميع النسخ : (فلا يُخصِّصُونَهُ بشخصٍ) وهو موافق لمخطوط « مشكاة الأنوار » ، وفي النسخة المطبوعة من « المشكاة » : (فلا يُخصِّصُونَهُ بشيء) .

(٢) في النسخة المطبوعة من « مشكاة الأنوار » زيادة غير موجودة في نسخ « الذخيرة » ولا في النسخة الخطيَّة لكتاب « المشكاة » : (بل ما يكون بهٰذه الصِّفاتِ ، **ولم يكن تحت تصرُّفنا**) ، وقد أشار الدكتور العفيفي إلىٰ أنَّها ساقطة من إحدى النسخ .

بالعلوِّ والارتفاع . . أَولىٰ[1] .

ثمَّ كان المشهورُ فيما بينهم علمَ النُّجومِ وإضافةَ التَّأثيراتِ إليها ؛ فمنهم مَنْ عبَدَ الشِّعْرَىٰ ، ومنهم مَنْ عبَدَ المشتري ، إلىٰ غيرِ ذلك مِنَ الكواكبِ ، حسبَ ما اعتقدوهُ في النُّجومِ من كثرةِ التَّأثيراتِ !

فهٰؤلاء محجوبونَ بنورِ العلوِّ والإشراقِ والاستيلاءِ ، وهي من أنوارِ اللهِ تعالىٰ .

وطائفةٌ خامسةٌ : ساعدتْ هٰؤلاء في المأخذِ ، ولٰكنْ قالتْ : لا ينبغي أن يكونَ ربُّنا موسوماً بالصِّغَرِ بالإضافةِ إلى الجواهرِ النُّورانيَّةِ ، بل ينبغي أن يكونَ أكبرَها ؛ فعبدُوا الشَّمسَ ، وقالوا : هي أكبرُ !

فهٰؤلاء محجوبونَ بنورِ الكبرياءِ مع بقيَّةِ الأنوارِ مقروناً بظُلمةِ الحسِّ .

وطائفةٌ سادسةٌ : ترقَّوا من هٰؤلاءِ ، وقالوا : النُّورُ كلُّه لا تتفرَّدُ به الشَّمسُ ؛ بل لغيرِها أيضاً أنوارٌ ، ولا ينبغي للرَّبِّ شريكٌ في نورانيَّتِهِ ؛ فعبدوا النُّورَ المطلَقَ الجامعَ لجميعِ أنوارِ العالَمِ ، وزعموا أنَّه ربُّ العالَمِ ، والخيراتُ كلُّها منسوبةٌ إليه ، ثمَّ رأوا في العالَمِ شروراً ؛ فلم يستحسنوا إضافتَها إلىٰ ربِّهم ؛ تنزيهاً لهُ عنِ الشَّرِّ ، فجعلوا بينه وبينَ الظُّلمةِ منازعةً ، وأحالوا العالَمَ إلى النُّورِ والظُّلمةِ ، وربما سمَّوهما (يزدَان) و(أهرَمَن) ، وهمُ الثَّنويَّةُ[2] .

---

(١) سقطت كلمة (أولىٰ) من النسخة المطبوعة والمخطوطة لـ« مشكاة الأنوار »! وبها يتمُّ المعنىٰ .

(٢) وبعد هٰذا التفصيل من حُجَّة الإسلام وتلميذه الإمام العراقي في الكلام عن هٰذه=

وهٰذا القدرُ كافٍ مِنَ التَّنبيهِ علىٰ هٰذا الصِّنفِ وإن كثُرَ ، واللهُ الموفِّقُ .

الصِّنفُ الثَّاني : وهم المحجوبونَ ببعضِ الأنوارِ مقرُوناً بظُلمةِ الخيالِ : وهمُ الذين جاوزوا الحسَّ ؛ فأثبتوا وراءَ المحسوساتِ أمراً ، لٰكن لم يمكنهم مجاوزةُ الخيالِ ؛ فعبدوا موجوداً قاعداً على العرش(١) ! وأخسُّهم رُتبةً . . الجسميَّةُ ، ثمَّ أصنافُ الكرَّاميَّةِ بأجمعِهم ، وهم فِرَقٌ يكثرُ ذِكرُ مقالاتِهِمُ الخبيثةِ ، فلا نطيلُ بذكرِهم ؛ فإنَّ أرفعَهم درجةً مَنْ نفى الجِسميَّةَ وجميعَ عوارِضِها إلا الجهةَ ؛ فإنَّهم خصَّصُوهُ بجهةِ فوقٍ ؛ لأنَّ الذي لا يُنسَبُ إلى الجهاتِ ولا يُوصَفُ بأنَّهُ خارجَ العالَمِ ولا داخِلَهُ . . لم يكنْ عندَهم موجوداً ؛ إذ لم يكن مُتخيَّلاً ! ولم

= الطوائف ، وأنَّ سبب حجابهم هو بعض أنوار الحقِّ تعالىٰ ، فقد قال عن عبدة الأوثان : بأنَّهم محجوبون بنور العزَّة والجمال ، وقال عن طائفة ترقَّت عنهم : بأنَّهم محجوبون بنور الجمال ، وهم أدخل من عبدة الأوثان في ملاحظة النور ، وقال عن طائفة ترقَّت عنهم : بأنَّهم محجوبون بنور السلطنة والبهاء ، وقال عن طائفة ترقَّت عنهم : بأنَّهم محجوبون بنور العلوِّ والإشراق والاستيلاء ، وقال عن طائفة ترقَّت عنهم : بأنَّهم محجوبون بنور الكبرياء مع بقيَّة الأنوار ، ثم قال : بأنَّ كل ذلك من أنوار الله تعالىٰ . . تعلم من هٰذه الحيثية صحَّة قول الشيخ الأكبر في « فصوص الحكم » (فصُّ حِكْمةٍ سُبوحيَّة في كلمةٍ نُوحيَّة) (ص ٧٢) : (فما عُبِدَ غير الله في كل معبود) . ومَنْ أراد الاستزادة ينظر في « مدخل إلىٰ علوم أهل الحقائق » الذي كتبناه مقدِّمةً لرسالة « حبل الله المتين في عقيدة الشيخ الأكبر محيي الدين » للعارف البيتماني .

(١) في جميع نسخ « الذخيرة » : (قاعداً على الأرض) ! وما أثبتُّه من « مشكاة الأنوار » بنسختيه المخطوطة والمطبوعة .

يُدرِكوا أنَّ أوّلَ درجاتِ المعقولاتِ تجاوزُ النِّسبةِ إلى الجهاتِ .

الصِّنفُ الثَّالثُ : المحجوبونَ بالأنوارِ الإلـٰهيَّةِ مقرونةً بمقايساتٍ عقليّةٍ فاسدةٍ مُظلمَةٍ : فعبدوا إلـٰهاً سميعاً بصيراً عالماً مُتكلِّماً قادراً [مريداً][1] حيّاً ، مُنزَّهاً عنِ الجهاتِ ؛ لـٰكن فهموا هـٰذه الصِّفاتِ علىٰ حسَبِ مناسبةِ صفاتِهم ، وربما صرَّحَ بعضُهم فقال : كلامُهُ أصواتٌ ككلامِنا ! وربما ترقَّىٰ بعضُهم فقال : لا بل هو كحديثِ أنفُسِنا ، ولا صوتَ ولا حرفَ !

وكذلك إذا طُولِبوا بحقيقةِ السَّمعِ والبصرِ والحياةِ . . رجَعوا إلى التَّشبيهِ من حيث المعنىٰ وإن أنكروها من حيث اللفظُ ؛ إذ لم يُدركوا أصلاً معانيَ هـٰذه الإطلاقاتِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ[2] ؛ ولذلك قالوا في إرادته : إنَّها حادثةٌ مثلَ إرادتِنا ! وأنَّهُ طلبٌ وقصدٌ مثلَ قصدِنا[3] !

---

(١) ما بين [] زيادة من « مشكاة الأنوار » بنسختيه المخطوطة والمطبوعة .

(٢) قال سيدي الأستاذ عبد الغني النابُلُسي رضي الله عنه (ت١١٤٣هـ) في كتابه « الأنوار الإلـٰهيّة في شرح المقدِّمة السنوسية » (ص ١٠٨) : (والحقُّ أنَّ صفات الله تعالىٰ كلَّها الواردة في القرآن كلامه القديم ، وعلىٰ لسان نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم . . متشابهةٌ ، لا يُعلمُ المراد من معناها القديم ، وهي فينا مسمَّاةٌ : بأسماء القوى الرُّوحانيَّة ؛ كالقدرة والإرادة والعلم والحياة ونحو ذلك ، وبأسماء الأعضاء الجسمانيَّة ؛ كاليد والوجه ونحو ذلك . وبعضُ الجهلة يُطلق المتشابه علىٰ ما كان من أسماء الأعضاء دون ما كان من أسماء القوىٰ ، فكأنَّه فهم معنى القدرة الأزليَّة مثلاً ، والإرادة الأزليَّة ، والعلم الأزلي ! وهيهات هيهات أن يدرِك القديمَ المحدَثون ، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦]) انتهىٰ .

(٣) وقد قال المؤلِّف من قبلُ : (إذا تعلَّمَ أحدٌ اعتقادَ أهلِ السُّنَّة وأدلَّتَهم ، وجَعلَ=

وهٰذه مذاهبُ مشهورةٌ ، فلا حاجةَ إلىٰ تفصيلِها ، فهٰؤلاء محجوبونَ بجملةٍ مِنَ الأنوارِ مع ظُلمةِ المقايساتِ العقليّةِ .

وكلُّ هٰؤلاء أصنافُ القسمِ الثاني الذين حُجِبُوا بنورٍ مقرونٍ بظُلمَةٍ .

وأمّا القسمُ الثالثُ : وهمُ المحجوبونَ بمحضِ الأنوارِ :

فإنَّهم أصنافٌ لا يمكنُ حصرُهم ، ولٰكن نُشيرُ إلىٰ ثلاثةِ أصنافٍ منهم :

الأوّل : طائفةٌ عرفوا معانيَ الصِّفاتِ تحقيقاً ، وأدركوا أنَّ إطلاقَ اسمِ الكلامِ والإرادةِ والقدرةِ والعِلمِ وغيرِه علىٰ صفاتِه.. مثلُ إطلاقِه على البشرِ ؛ فتَحَاشَوا عن تعريفِه بهٰذه الصِّفاتِ ، وعرَّفوه بالإضافةِ إلى المخلوقاتِ ؛ كما عرَّفَ موسىٰ صلواتُ اللهِ عليه في جوابِ قولِ فرعونَ : ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ٢٣] ، قال : إنَّ الربَّ المقدَّسَ المنزَّهَ عنِ المفهومِ الظَّاهرِ من معاني هٰذه الصِّفاتِ.. هو مُحرِّكُ السَّماواتِ ومُدبِّرُها .

والصِّنفُ الثَّاني : ترقَّوا من هٰؤلاء ، حيث ظهرَ أنَّ في السَّماواتِ والأرضِ كثرةً ، وأنَّ محرِّكَ كلِّ سماءٍ خاصَّةٍ.. موجودٌ آخرُ يُسمَّىٰ ملَكاً ، وفيهم كثرةٌ ، وإنَّما نِسبَتُهُم إلى الأنوارِ الإلٰهيَّةِ.. نسبةُ

= كُلِّيَتَهُ مشغولةً بذلك ، واعتقد أنْ ليس وراء ذلك شيءٌ مِنَ العلوم ، وإن خطر بقلبه شيءٌ آخر.. قال : هٰذا خلاف ذلك الذي سمعتُهُ ، وكل ما كان بخلافه.. فهو باطل ؛ فإنَّ هٰذا الرَّجُل لا يمكنه قطُّ أنْ يَعلمَ حقيقة الأمور) ، وبه تعلم أنَّ مذاهب المتكلمين حجابٌ بالنسبة إلىٰ علوم وأذواق العارفين كما سينصُّ عليه في آخر هٰذا الفصل .

الكواكبِ[١] ، ثمَّ لاحَ لهم أنَّ هـٰذه السَّماواتِ في ضمنِ فلَكٍ آخَرَ يتحرَّكُ الجميعُ بحركتِه في اليومِ واللَّيلةِ مرَّةً ؛ فقالوا : الرَّبُّ هو المُحرِّكُ للجرمِ الأقصى المنطوي على الأفلاكِ كلِّها ؛ إذ الكثرةُ منفيَّةٌ عنه .

الصِّنفُ الثَّالثُ : ترقَّوا مِنْ هـٰؤلاء ، وقالوا : تحريكُ الأجسامِ بطريقِ المباشرةِ ؛ ينبغي أن يكونَ خدمَةً لربِّ العالمينَ ، وعبادةً له ، وطاعةً مِنْ عَبدٍ من عبادِهِ يُسمَّىٰ ملَكاً ، نِسبَتُه إلى الأنوارِ الإلـٰهيَّةِ[٢] . . نسبةُ القمرِ في الأنوارِ المحسوسةِ ؛ فزعموا أنَّ الرَّبَّ هو المطاعُ من جهةِ هـٰذا المحرِّكِ ، ويكونُ الرَّبُّ سبحانه مُحرِّكاً للكلِّ بطريقِ الأمرِ لا بطريقِ المباشرةِ[٣] .

فهـٰذه الأصنافُ كلُّها محجوبةٌ بالأنوارِ المحضةِ .

وإنَّما الواصلونَ صنفٌ رابعٌ : تجلَّىٰ لهم أنَّ هـٰذا المُطاعَ أيضاً موصوفٌ بصفةٍ تُنافي الوحدانيةَ المحضةَ والكمالَ البالغَ ، ونسبةُ هـٰذا المُطاعِ . . نسبةُ الشمسِ في الأنوارِ ؛ فتوجَّهوا مِنَ الذي حرَّكَ السَّماواتِ ، ومِنَ الذي أمرَ بتحريكِها . . إلى الذي فطرَ السَّماواتِ وفطرَ الآمرَ ؛ فوصلوا إلىٰ موجودٍ منزَّهٍ عن كُلِّ ما أدركَه بصرُ مِنْ قِبَلِهِمْ ، فأحرقتْ سُبحاتُ وجه الأوَّلِ الأعلىٰ . . جميعَ ما أدركَه بصرُ النَّاظرينَ

---

(١) في (ب) و(د) و(هـ) و(و) زيادة : (نسبةُ الكواكب **إلى الشَّمسِ**) .

(٢) كذا في (أ) و(و) ، وفي بقيَّة النُّسخ : (الأنوار الإلـٰهيَّةِ **المحضة**) وهو الموافق لـ« مشكاة الأنوار » بنسختيه المخطوطة والمطبوعة .

(٣) قال حُجَّة الإسلام : (ثم في تقسيم ذلك الأمر وماهيَّته . . غموض يقصر عنه أكثر الأفهام ، ولا يحتمله هـٰذا الكتاب) . « مشكاة الأنوار » (ص ٩١) .

وبصيرتُهم ؛ إذ وجدُوهُ مقدَّساً منزَّهاً عن جميعِ ما وصفناهُ من قبلُ .

ثمَّ إنَّ هـٰؤلاء انقسموا :

فمنهم : مَنِ احترقَ منه جميعُ ما أدركَه بصرُه وانمحقَ وتلاشىٰ ، ولـٰكنْ بقيَ هو ملاحظاً للجمالِ والقُدْسِ ، ومُلاحظاً ذاتَه في جمالِه الذي نالَه بالوصولِ إلى الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ ، وانمحقتْ منه المُبصَراتُ دون المبصَرِ .

وجاوزَ مِنْ هـٰؤلاء طائفةٌ هم خواصُّ الخواصِّ ، فأحرقتهُم سُبحاتُ وجهِه في أنفسِهم ، وغشيَهم سلطانُ الجلالِ .. فانمحقُوا وتلاشَوا في ذاتِهم ، فلم يبقَ لهم لِحاظٌ إلىٰ أنفسِهم ؛ لفنائهم عن أنفسِهم ، ولم يبقَ إلا الواحدُ الحقُّ ، وصارَ معنىٰ قولِه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] لهم ذوقاً وحالاً[١] .

ومنهم : مَنْ لم يتدرَّجْ في التَّرقي والعُروجِ على التَّفصيلِ المذكورِ ، ولم يَطُلْ عليهمُ الطريقُ .. فسبقوا في أوَّلِ وهلةٍ إلىٰ معرفةِ القُدْسِ وتنزيهِ الرُّبوبيَّةِ عن كلِّ ما يجبُ تنزيهُهُ عنه ؛ فغلبَ عليهم أوَّلاً ما غلبَ على الآخَرين آخِراً ، وهجَمَ عليهمُ التَّجلي دَفعةً ؛ فأحرقتْ سُبحاتُ وجهِه جميعَ ما يمكنُ أن يدركَه بصرٌ حِسِّيٌّ أو بصيرةٌ عقليَّةٌ ، ويشبِهُ أن يكونَ الأوَّلُ طريقَ الخليلِ ، والثاني طريقَ الحبيبِ صلواتُ اللهِ عليهما[٢] .

---

(١) في جميع نسخ « الذخيرة » : (له ذوقاً وحالاً) ، وما أثبتُّه من « مشكاة الأنوار » بنسختيه المخطوطة والمطبوعة .

(٢) قال حُجَّة الإسلام : (والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما) ، « مشكاة الأنوار » (ص ٩١) .

فهـٰذه نُبذةٌ تُشيرُ إلىٰ أصنافِ المحجوبينَ ، ولا يمتنعُ أن يبلغَ عددُهم إلىٰ سبعين ألفاً إذا فُصِّلتِ المقاماتُ وتُتُبِّعَتْ حُجُبُ السَّالكينَ[1] ، ثم إذا فتَّشتَ[2] . . لا تجدُ واحداً منها خارجاً عنِ الأقسامِ المذكورةِ ؛ فإنَّهم إمَّا أن يُحجَبوا بصفاتِهمُ البشريَّةِ ، أو بالحسِّ ، أو بالخيالِ ، أو بمقايسةِ العقلِ ، أو بالنُّورِ المحضِ ، وقد وقعتِ الإشارةُ إلىٰ كلِّ ذلك ، مع أنَّ خوضَ غمرةِ الأسرارِ الإلـٰهيَّةِ . . خطيرٌ[3] ، واستشفافَ أنوارِها من وراءِ الحُجُبِ البشريَّةِ . . عسيرٌ غيرُ يسيرٍ ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

---

(١) في (أ) : (اتُّبعت حُجُب السَّالكين) ، وفي (د) : (تشعَّبت حُجُب السَّالكين) ، وفي بقيَّة النسخ : (تُتُبِّعت حُجُبُ السَّالكين) ، وهو الموافق لـ« مشكاة الأنوار » بنسختيه المخطوطة والمطبوعة .

(٢) في (أ) : (قِيسَت) ، وفي (و) : (قست) ، وفي بقيَّة النُّسخ : (فتَّشتَ) ، وهو الموافق لـ« مشكاة الأنوار » بنسختيه المخطوطة والمطبوعة .

(٣) في جميع نسخ « الذخيرة » : (خطر) ، وفي « مشكاة الأنوار » بنسختيه المخطوطة والمطبوعة : (خطير) وهو الموافق لسجعة العبارة .

٦ فصل

في سبب اختلاف الناس في الاعتقادات

اعلم أنَّ هٰذا الفصلَ في شرحِ الحُجُبِ. . لم يكن مقصودَنا في هٰذا الكتابِ ، وإنَّما غرضُنا وفاءً بالشرطِ المذكورِ ؛ لئلا نوردَ في كتابِنا شيئاً ونحيلَ الأمرَ فيه علىٰ غيرِه[1] .

فإذا عرفتَ ذلك. . فاعلم أنَّ[2] أكثرَ الخلافِ بين الخلائقِ ؛ تراه أنَّ أحدَهم يصْدُقُ من وجهٍ ويخطىءُ من غيرِه ، فيعتقدُ أنَّه قد أصابَ من جميعِ الوجوهِ ، ورأى الكلَّ ، ولم يرَ إلا البعضَ ، ومثَلُهم كجماعةِ عُميانٍ بلَغَهم وصولُ الفيلِ إلىٰ أرضِهم. . فمضَوا ليعرفُوه ؛ ظنّاً منهم أنَّ معرفتَه تحصلُ لهم بطريقِ اللَّمسِ باليدِ ، فوضعَ كلٌّ منهم يدَه عليه ، فوقعتْ يدُ أحدِهم علىٰ أُذُنِ الفيل ، ويدُ آخَر علىٰ رجلِه ، ويدُ آخَر علىٰ أسنانِه ؛ فرجعوا وكلٌّ منهم يعتقدُ أنَّه قد عرَفَه ، فلقيَهم جماعةٌ أخرىٰ مِنَ العُميانِ. . فسألوهم عنه ؟ فقال الذي وقعتْ يدُه علىٰ رجل الفيلِ : إنَّ

---

(١) وقد تقدَّم الكلام في خطبة الكتاب (ص ١١٧) عن هٰذا الشرط ، وهو الأمر الثاني الذي شكاه السائلُ للمؤلِّف في كتب حُجَّة الإسلام الغزالي .

(٢) سقط من (ب) و(هـ) و (ز) قوله : (اعلم أنَّ هٰذا الفصل في شرح الحُجُب. . لم يكن مقصودنا في هٰذا الكتاب ، وإنَّما غرضنا وفاءً بالشرط المذكور ؛ لئلا نوردَ في كتابنا شيئاً ونحيلَ الأمر فيه علىٰ غيرِه . فإذا عرفت ذلك. . فاعلم أنَّ) ، وجاء فيها : (فصلٌ : أكثر الخلاف بين الخلق تراه. . .) الخ .

الفيلَ مثلُ العمودِ ، وقال الواضعُ يدَه على أذنِه : ليس الأمرُ كذلك ، بل هو مثلُ الكساءِ .

وهكذا كلُّ واحدٍ منهم وصفَ الفيلَ بما وقعتْ يدُه عليه ، وكلُّهم صدَقوا حين أصابوا بعضَ صفاتِهِ ، وكلُّهم أخطؤوا حين ظنَّ كلُّ واحدٍ أنَّه قد أدركَ جملةَ الفيلِ ، ولم يدركوه[1] .

فكذلك المنجِّمُ والطَّبيبُ ، كلُّ واحدٍ وقعَ بصرُه على أحَدِ غِلمانِ المملكةِ الإلـٰهيَّةِ . . فعجِبَ من ذلك الاستيلاءِ والسَّلطنةِ التي بحُكمِهِ ، وذلك التصرُّفِ الصادرِ منه ، فقال : هـٰذا هو الإلـٰهُ ، هـٰذا ربِّي !

ومنهم مَنْ هُديَ وفُتحَ له بابُ الطَّريقِ ؛ حتىٰ رأىٰ نقصانَ ما استعظمَه الأوَّلُ ، وكونَه منحطَّ الرتبةِ عن غيرِه ، لا يصلحُ للرُّبوبيَّةِ ؛ فقال : لا أحبُّ الآفلينَ[2] .

* * *

(١) هـٰذا المثال ذكره حُجَّة الإسلام في « إحياء علوم الدين » (٧/ ٢٧) ، وقال : (فاستبصر بهـٰذا المثال واعتبر به ؛ فإنَّه مثالُ أكثرِ ما اختلف الناس فيه) .

(٢) اقتباسٌ من الآية (٧٦) في سورة الأنعام .

٧ فصل

في منهاج سلطنة الإنسان على مملكته خارجاً عن بدنه

مثالُ الكواكبِ والطَّبائعِ وبروجِ فلكِ الكواكبِ المنقسمةِ اثنا عشرَ قسْماً ، والعرشِ الذي هو وراءَ ذلك كلِّه من وجهٍ .. مثالُه : مَلِكٌ[١] له حُجرةٌ خاصَّةٌ يجلسُ فيها وزيرُه ، ويحيطُ بتلك الحجرةِ رِواقٌ فيه اثنا عشرَ مجلساً ، وفي كلِّ مجلسٍ منها نائبٌ للوزير جالسٌ ، وخارجٌ عن تلك المجالسِ سبعةُ نُقباءَ فرسانٌ يطوفونَ حولَ هاذه الاثني عشرَ مجلساً ؛ يستمعونَ ما يصِلُ إلى النُّوابِ من أوامرِ الوزيرِ ، وبين يدي النُّقباءِ أربعةُ رَجَّالةٍ ، أبصارُهم طامحةٌ نحوَ النُّقباءِ ؛ يترقَّبونَ ما يأتيهم من أوامرِ الحضرةِ ، وفي يَدِ كلِّ راجلٍ وِهَاقٌ[٢] يُلقيه بحكمِ الأمرِ إلىٰ قومٍ ؛ فيأتي بهم إلى الحضرةِ ، وإلىٰ آخرينَ ؛ فيبعدُهم عنها ، فيَخلَعونَ علىٰ قومٍ ويُعاقبونَ قوماً .

فالعرشُ مثلُ الحجرةِ الخاصَّةِ للملِكِ ، وهي مستقَرُّ وزيرِ المملكةِ ، وهو الملَكُ الذي هو أقربُ المقرَّبينَ .

وفلَكُ الكواكبِ كذلك مثلُ الرِّواقِ ، والاثنا عشرَ بُرجاً مثلُ الاثني عشرَ مجلساً ، ونوَّابُ الوزيرِ همُ الملائكةُ الذين درجتُهم دون درجةِ

---

(١) كذا في (أ) وحدها : (مثالُه مَلِكٌ) ، وفي بقيَّة النسخ : (مثالُ ملِكٍ) .

(٢) الوَهَق : الحبل تُشدُّ به الإبلُ والخَيْلُ ؛ لئلا تَنِدَّ . وتقدَّم في (ص ١٦٨) .

الملَكِ المقرَّبِ ، وإلىٰ كلِّ واحدٍ منهم عملٌ مفوَّضٌ يخصُّه ، والكواكبُ السَّبعةُ كالفرسانِ النُّقباءِ السَّبعةِ الذين يطوفونَ حولَ المجالسِ الاثني عشرَ ، ويتصلُ بهم من كلِّ مجلسٍ منها أمرٌ علىٰ حِدَةٍ ، والذي يسمُّونه بالعناصرِ الأربعةِ ، وهو الماءُ والتُّرابُ والنَّارُ والهواءُ ؛ فهو كالغلمانِ الأربعةِ الذين بأيديهم الوِهَاقاتُ لا يُفارِقون مكانَهم ، والطبائعُ الأربعُ ـ وهي الحرارةُ والبرودةُ والرطوبةُ واليبوسةُ ـ مثلُ الوِهَاقاتِ التي بأيديهم .

فإذا تغيَّرَ مثلاً الحالُ علىٰ شخصٍ فاستولىٰ عليه الغَمُّ والخوفُ ، وأعرضَ عنِ الدُّنيا وأسبابِها ، وتكرَّهَ أحوالَها وهمَّها ، وبكىٰ علىٰ ما ينالُه في عاقبةِ أمرِه وما ينتهي إليه حالُه :

قال الطبيبُ : هـٰذا مريضٌ به علَّةُ الماليخوليا ، ومعالجتُه بطبخِ الأفتيمُون[1] .

وقال الطبيعيُّ : أصلُ هـٰذه العلَّةِ مِنَ الطَّبيعةِ اليابسةِ إذا استولتْ على الدِّماغِ ، وسببُهُ : يُبْسُ الهواءِ الشَّتَويِّ ، وما لم يأتِ الرَّبيعُ وتستولي الرُّطوبةُ على الهواءِ . لا يقبلُ الصَّلاحَ ولا يبرأ من علَّتِه .

ويقول المنجِّمُ : هـٰذا به سوداءُ قد ظهرتْ عليه ، وذلك يحصلُ من

---

(١) الماليخوليا : أحد الأمراض النفسية ، وقد تقدَّم الكلام عليه في (ص ٢١١) .
أمَّا الأفتيمُون : فهو دواءٌ عشبي يؤخذ أطرافُه مِنَ البذر والزهر والقضبان الدِّقاق الخفيفة المتهشِّمة فتطبخ للعلاج ، وقد عقد له الطبيب ابن النَّفيس القرشي (ت : ٦٨٧هـ) في كتابه « الشامل في الصناعة الطبية » (٢/ ٤٦٧) فصلاً كاملاً ، فانظره .

عطاردَ إذا وقعَ بينه وبين المرِّيخ مشاكلةٌ مذمومةٌ ، فما لم يتَّصِلْ عطاردُ بمقارنةِ سعدٍ مع التثليثِ . . لا يمكنُ انصلاحُ هٰذه الحالِ .

وكلُّهم يقولونَ ، ولٰكنَّ ذلك مبلغُهم مِنَ العلمِ .

أمَّا كونُه محكوماً بسعادتِه في حضرةِ الرُّبوبيَّةِ ، وإرسالُ نقيبَينِ جَلِدَينِ نافذَيِ الأمرِ يُسمَّيانِ بالعربيةِ عطاردَ والمريخَ ، أُرسِلا ليأمرا أحَدَ رَجَّالةِ البابِ ـ وهو الهواءُ ـ حتىٰ يُلقيَ وِهَاقَ اليبوسةِ في دماغِ هٰذا الشخصِ ورأسِه ، ويجذبَ قصدَهُ ، ويلفتَ وجهَهُ عنِ الدُّنيا ولذَّاتِها ، ويقودَهُ بزمامِ الطلبِ والإرادةِ ، ويسوقَهُ بسوطِ الخوفِ والغمِّ إلى الحضرةِ الإلٰهيَّةِ . . فليس هٰذا في علمِ الطبيعةِ ولا في علمِ النُّجومِ ، إنَّما يُغترفُ هٰذا من بحرِ عِلمِ النُّبوَّة ، ويُستخرَجُ من قعرِ بحرِ الرِّسالةِ ؛ إذ كان محيطاً بسائرِ الأطرافِ والأعمالِ والنُّقباءِ والعُمَّالِ والغِلمانِ الذين للحضرةِ ، وعارفاً بهم ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم في أيِّ شيءٍ رُتِّبَ ، وبماذا أُمِرَ ، وإلىٰ أين يَدعونَ الخَلقَ ، ومن أين يمنعونَهم .

فإذاً ؛ كلُّ قائلٍ منهم . . صدقَ ، ولٰكنْ لم يكنْ لهم من أسرارِ مالِكِ المملكةِ وأسرارِ أصْفَهْسَلارِيَّةِ الدَّولةِ خبرٌ[1] .

---

(١) كذا في (ب) و(ج) : (أصْفَهْسَلارِيَّة) ، وفي (أ) كُتبت وضُبِطت : (أسِهسلاَّرية) وفي (و) كذلك من دون ضبطٍ ، وفي (د) و(ليدن) : (أساه سالاريَّة) ، وفي (هـ) : (أسبهسلاريَّة) ، وفي (ز) : (أصفلاريَّة) . والأَصْفَهْسَلارِ ، أو الأسْفَهْسَلار ، أو الأسْفَهْلار : وظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامَّة الجند ، وإلىٰ صاحبها يرجع أمر الأجناد ، فهو أمير الجيوش ، أو القائد العام للعسكر . وهو مُركَّبٌ من لفظين فارسي وتركي ، فـ(أسفه) بالفارسيَّة بمعنى المقدَّم ، و(سلار) بالتركيَّة بمعنى العسكر . انظر « معجم =

فإنَّ الحقَّ سبحانه يدعو الخَلقَ إلىٰ بابِه تارةً بالبلاءِ ، وأخرىٰ بالمرضِ ، وتارةً بالمحنِ ، ويقولُ : هـٰذا ليس بمرضٍ ولا بلاءٍ ، إنَّما ذلك وِهاقُ اللُّطفِ نجتذبُ به أولياءنا إلىٰ حضرتِنا ؛ فإنَّ البلاءَ موكَّلٌ بالأنبياءِ ، ثم الأولياءِ ، ثم الأمثلِ فالأمثلِ[1] ، فلا ينظروا إليهم بعينِ المرضىٰ[2] ؛ فإنَّ هـٰؤلاء مِنَّا كما قال تعالىٰ : « **مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي** »[3] .

حُكيَ أنَّ بعضَ الأكابرِ كان له جاريةٌ يُحبُّها محبَّةً شديدةً ، فكان إذا نهضَ من عندِها وقتَ السَّحَرِ . . أوجعَها ضرباً ، وكلَّما ضربَها نادتْ : ياسيِّدي ياسيِّدي ، فنُظِرَتْ . . فقيل لهُ في ذلك ؟ فقال : أنا شديدُ المحبَّةِ لها كما يقولونَ ، وإنَّما أضربها لتلك الكلمةِ ، وهي قولُها : ياسيِّدي ياسيِّدي ؛ فإنَّ ذلكَ يُعجبُني منها ويُطربُني[4] .

= الألفاظ التاريخيَّة في العصر المملوكي » (ص ١٦) .

(١) يشير إلى الحديث الشريف الذي رواه الترمذي (٢٣٩٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٤٣٩) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال : يارسول الله ؛ أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاء ؟ قال : « **الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ** » قال الترمذي : (هـٰذا حديث حسنٌ صحيح) .

(٢) كذا في (أ) و(ليدن) : (فلا ينظروا إليهم بعين المرضىٰ) ، وفي (ب) : (فلا ينظرنَّ إليهم بعين المرض) ، وفي (ج) و(هـ) : (فلا تنظرنَّ إليهم بعين المرضىٰ) ، وفي (د) : (فلا ينظرون إليهم بعين المرضىٰ) ، وفي (و) و(ز) : (ولا يُتطرَّق إليهم بعين المرض) .

(٣) حديث قدسيٌّ ، رواه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) كذا في (و) : (ويطربني) ، وفي (أ) كتبت : (ونظرتني) .

فاعلمِ الآنَ أنَّ[1] ذلك المثالَ الأوَّلَ . . منهاجُ سلطنةِ الآدميِّ في باطنِ بدنِه ، وهـٰذا المثالُ أيضاً . . منهاجُ سلطنتِه على مملكتِه خارجاً عن بدنِه ، وبهـٰذا الوجهِ تتبيَّنُ هـٰذه المعرفةُ ؛ بسببِ أنَّ معرفةَ النَّفْسِ هو المنهاجُ الأوَّلُ .

* * *

(١) من قوله : (حُكيَ أنَّ بعض الأكابر) إلى : (فاعلمِ الآنَ أنَّ) ثبت في (أ) و(و) فقط ، وسقط من بقيَّة النُّسخ ، وفيها : (فإذاً ؛ ذلك المثال . . .) .

٨ فصل

في بيان أنه لا يعرف الله تعالى بنعت الحقيقة والكمال .. من هو جزئي (١)

كثيراً ما يجري على ألسُنِ النَّاسِ هـٰذه الكلماتُ ولا يعرفونَ معناها ، وهي : (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر) ، وهي بالحقيقةِ أربعُ كلماتٍ مختصرةٍ جامعةٍ لمعرفةِ اللهِ تعالىٰ .

فإذا عرفتَ مِنْ تنزيهِ نفْسِكَ تنزيهَ الحقِّ سبحانه.. عرفتَ معنىٰ قولِك : (سبحان الله) .

وإذا عرفتَ مِنْ سلطنتِكَ تفصيلَ(٢) سلطنةِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ الأسبابَ والوسائطَ مُسخَّرةٌ كالقلمِ في يَدِ الكاتبِ.. عرفتَ معنىٰ قولِك : (الحمد لله) من قِبَلِ أنَّهُ إذا لم يكنْ مُنعِمٌ غيرُه.. فلا ينبغي الحمدُ والشُّكرُ إلا لَهُ .

وإذا عرفتَ أنَّه ليس لأحَدٍ أمرٌ مِنْ سِرِّه إلا لَهُ ، والكلَّ مأمورونَ وهو الآمرُ.. عرفتَ معنىٰ قولِك : (لا إلـٰه إلا الله) .

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « إحياء علوم الدين » (٨/ ٤٠٩) (بيان أنَّ أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالىٰ) ، « الأربعين في أصول الدين » (الأصل السادس : في ذكر الله تعالىٰ علىٰ كل حال) (ص ١٤٣ إلىٰ ١٤٦) .

(٢) في (ب) و(د) و(ز) : (تفضيل) بدل (تفصيل) .

وقد بيَّنّا تلك الطُّرُقَ . . فافهمْ بها ما انتهتْ إليه[1] ، ولم يبقَ إلا إيضاحُ طريقٍ تعرفُ به معنىٰ قولِك : (والله أكبر) ، وهـٰذا أوانُ ذكرِ ذلك :

فاعلم أنَّك قد عرفتَ ما عرفتَ . . وما عرفتَ مِنَ الحقِّ سبحانه شيئاً ؛ فإنَّ الإلـٰهَ الأكبرَ إنَّما هو الذي لا يُدرِكُهُ الخَلقُ بطريقِ مقايسةِ نفوسِهِم ، وليس معناه أنَّه أكبرُ مِنْ شيءٍ آخرَ ؛ إذ ليس معه شيء فيقالُ : هو أكبرُ من ذلك الشيءِ ؛ فإنَّ الموجوداتِ جميعَها من نورِ وجودِه ؛ فإنَّ نورَ الشَّمسِ ليس شيئاً آخَرَ غيرَ الشمسِ[2] ؛ حتىٰ إنَّه لا يقالُ : إنَّ الشَّمسَ أكبرُ من نورِها[3] .

---

(١) كذا في (أ) و(و) : (فافهم بها ما انتهت إليه) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) و(ز) و(ليدن) : (فافهم بها ما انتهىٰ إليك) ، وفي (ج) : (فافهم) فقط .

(٢) وقع بتر كبير في (ز) من قوله : (ليس شيئاً آخرَ غيرَ الشمس) إلىٰ قوله : (وضعوا عن نفوسهم مراعاة حدود الله) ، وسأشير إلى انتهاء البتر في موضعه (ص ٢٨٢) .

(٣) عبارة الإمام العراقي هنا في كتابه « الذخيرة » أصرح من عبارة شيخه حُجَّة الإسلام الغزالي في كتابه « الأربعين في أصول الدِّين » (ص ١٤٥) وهي : (وقولك : (الله أكبر) فليس المعنيُّ به أنَّه أكبر من غيره ؛ إذ ليس معه سبحانه غيرُهُ حتىٰ يقال : إنَّه أكبر منه ؛ بل كل ما سواه فهو نورٌ من أنوارِ قدرته ، وليس لنور الشمس مع الشمس رتبة المعيَّة حتىٰ يقال : إنها أكبر منه ! بل رتبة التَّبعيَّة) فانظر لصريح قول الإمام العراقي : (فإنَّ الموجودات جميعها من نور وجودِه) حيث أرجعها إلىٰ نور الذات ، وانظر لإشارة قول شيخه حُجَّة الإسلام : (بل كل ما سواه فهو نورٌ من أنوار قدرته) حيث أرجعها إلىٰ أنوار الأسماء والصفات . وقد صرَّح حُجَّة الإسلام في كتابه « مشكاة الأنوار » (ص ٥٦)=

فإذاً ؛ معنىٰ قولنا : (الله أكبر) : هو أنَّه أكبرُ مِنْ أنْ يُعرفَ بقياسِ عقلِ الآدميِّ ، ومعاذَ اللهِ أن يكونَ تقديسُه وتنزيهُه كالآدميِّ ؛ فإنَّه مُقدَّسٌ عن مشابهةِ جميعِ المخلوقاتِ ، ومعاذَ اللهِ أن تكونَ سلطنتُه مثلَ سلطنةِ الآدميِّ علىٰ نفْسِه ، أو أن تكونَ صفاتُه ـ كعلمِه وقدرتِه ـ كصفاتِ الآدميِّ ، وإنَّما هـٰذه الأشياءُ أُنموذجٌ ؛ لعلَّهُ أن يحصلَ للآدميِّ علىٰ قدرِ عجزِ بشريَّتِه . . شيءٌ من جمالِ الحضرةِ الصَّمديَّةِ[1] .

= الذي هو من أواخر مؤلَّفاته بإرجاعها إلى الذات فقال : (ولم يفهموا من معنىٰ قوله : (الله أكبر) أنَّه أكبر من غيره ، حاش لله ؛ إذ ليس في الوجود معه غيرُه حتىٰ يكون أكبر منه ؛ بل ليس لغيره رتبة المعيَّة ، بل رتبة التبعيَّة ، بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه ، فالموجود وجهه فقط ، ومحال أن يقال : إنَّه أكبر من وجهه ؛ بل معناها : أنَّه أكبر من أن يقال له أكبر ، بمعنى الإضافة والمقايسة ، وأكبر من أن يدرِك غيره كُنْه كبريائه ، نبيّاً كان أو ملَكاً ، بل لا يعرف اللهَ كُنْه معرفته إلا اللهُ) .

(١) فائدةٌ : جاء في كتاب « روضة الطالبين وعمدة السالكين » (ص ٩٥ ، ٩٦) ، وهو مِنَ الكتب المشكوك في نسبتها لحُجَّة الإسلام الغزالي ـ انظر « مؤلَّفاتُ الغزالي » (ص ٤٥٠ إلىٰ ٤٥٢) للدكتور عبد الرحمـٰن بدوي ـ جملة تتعلَّق بهـٰذه الكلمات الباقيات الصَّالحات ، قال : (اعلم : أنَّ معاني أسماء الله الحسنىٰ مندرجةٌ في أربع كلمات ، وهُنَّ الباقيات الصالحات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلاَّ الله ، والله أكبر .

الكلمة الأولىٰ : (سبحان الله) ومعناها في كلام العرب : التنزيه والسلب ، فهي مشتملة علىٰ سلب النقص والعيب عن ذات الله تعالىٰ وصفاته ، فما كان من أسمائه سلباً . . فهو مندرجٌ تحت هـٰذه الكلمة ؛ كالقُدُّوس : وهو الطاهر من كلِّ عيب ، والسَّلام : هو الذي سَلِم من كلِّ آفة .

الكلمة الثانية : قول (الحمد لله) وهي مشتملة علىٰ إثبات ضروب الكمال لذاته وصفاته سبحانه وتعالىٰ ، فما كان من أسمائه متضمناً الإثبات ؛ كالعليم والقدير =

. . . .

= والسميع والبصير . . فهو مندرجٌ تحتها ، فنفينا بـ(سبحان الله) كل عيب عقلناه وكل نقص فهمناه ، وأثبتنا بـ(الحمد لله) كل كمال عرفناه وكل جلال أدركناه ، ووراء ما نفيناه وأثبتناه . . شأنٌ عظيم قد غاب عنَّا وجهلناه ، فنُحقِّقه من جهة الإجمال بقولنا : (الله أكبر) .

وهي الكلمة الثالثة ، ومعناها : أنَّه أجلُّ مما نفيناه ومما أثبتناه ، وذلك معنىٰ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك » ، فما كان من أسمائه متضمناً فوق ما عرفناه وأدركناه ؛ كالأعلىٰ والمتعالي . . فهو مندرجٌ تحت قولنا : (الله أكبر) ، فإذا كان في الوجود مَنْ هـٰذا شأنه . . نفينا أنْ يكون في الموجودِين مَنْ يُشاكله أو يناظره ، فحقَّقنا ذلك بقولنا : (لا إلـٰه إلا الله) .

وهي الكلمة الرابعة ؛ إذ الألوهية ترجع إلى استحقاق العبودية ، ولا يستحق العبودية إلا مَنِ اتصف بجميع ما ذكرناه ، فما كان من أسمائه متضمناً للجميع على الإجمال ؛ كالواحد الأحد ، وذي الجلال والإكرام . . فهو مندرجٌ تحت قولنا : (لا إلـٰه إلا الله) ، وإنما استحق العبودية ؛ لِمَا وجب له من أوصاف الجمال ونعوت الكمال التي لا يصفها الواصفون ولا يعدُّها العادُّون ، ولو أدرجت الباقيات الصالحات في كلمة علىٰ سبيل الإجمال وهي : (الحمد لله) . . لاندرجت فيها ؛ كما قال السيد الجليل والإمام الحفيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (لو شئت أن أُوقِر بعيراً من قول الحمد لله . . لفعلتُ) ؛ فإنَّ الحمدَ لله ، هو : الثناء ، والثناء يكون بإثبات الكمال تارةً وسلب النقص أخرىٰ ، وتارةً بالاعتراف بالعجز عن إدراك الإدراك ، وتارةً بإثبات التفرُّد بالكمال ، والتفرُّد والكمال . . من أعلىٰ مراتب المدح والكمال ، وقد اشتملت هـٰذه الكلمة علىٰ ما ذكرناه في الباقيات الصالحات ؛ لأنَّ الألف واللام فيها لاستغراق جنس المدح ، والحمد ما علمناه وجهلناه ، ولا خروج للمدح عن شيء مما ذكرناه ، ولا يستحق الإلـٰهية إلا مَنِ اتصف بجميع ما ذكرناه ، ولا يخرج عن هـٰذا الاعتقاد ملَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسلٌ ولا أحد من

وهـٰذا الأُنموذجُ مثالُه : ما لو سَألَنَا صبيٌّ عن كيفيّةِ لذَّةِ الرِّياسةِ والسَّلطنةِ وتربيةِ المملكةِ ؟

فإنَّا نقولُ له : لذَّةُ هـٰذه الأشياءِ عند أهلِها . . كلذَّةِ لَعبِكَ بالكُرَةِ والصَّولَجانِ عندكَ ؛ لأنَّه[1] لا يَعرفُ غيرَ هـٰذه اللذَّةِ ، وكلُّ ما لم يكن له ذوقٌ منه . . فإنَّما يعرفُه بأنْ يُقاسَ علىٰ ما عندَه ، ونحن نَعلمُ أنَّ لذَّةَ السَّلطنةِ لا مناسبةَ بينها وبين لذَّةِ ضربِ الصولجانِ[2] ، ولـٰكنْ علىٰ سبيلِ الجملةِ ينطلقُ عليه اسمُ اللذَّةِ والفرحِ[3] .

فإذاً ؛ هما في الاسمِ سواءٌ علىٰ سبيلِ الجملةِ من هـٰذا الوجهِ الذي جعلناهُ أُنموذجاً .

فاعلمِ الآن أنَّ تلك الأمثلةَ المقدَّمَ ذكرُها . . أطلقناها علىٰ هـٰذا الوجهِ .

فإذاً ؛ لا يعرفُ اللهَ تعالىٰ بنعتِ الحقيقةِ والكمالِ . . مَنْ هو جزئيٌّ[4] .

= أهل المُلْك . . إلاَّ مَنْ خذله الله واتبع هواه وكان أمره فرطاً وعصىٰ مولاه ، أولـٰئك قوم قد غمرهم ذلُّ الحجاب ، وطُردوا عن الباب ، وأُبعدوا عن ذلك الجناب ، وحَقٌّ لِمَن حُجبَ في الدنيا عن إجلاله ومعرفته . . أن يُحجبَ في الآخرة عن إكرامه ورؤيته) .

(١) قوله : (لأنَّه) سقط من (أ) وثبت في بقيّة النُّسخ ، وفي (ج) : (أنه) بدل (لأنه) .

(٢) في (ب) و(هـ) : (ضرب الكرة بالصولجان) .

(٣) (واللَّذَّةُ نوعُ إدراكٍ ، والإدراك يستدعي مدرَكاً ويستدعي قوَّةً مدركةً ، فمَن لم تكمل قوَّةُ إدراكِهِ . . لم يُتصوَّر منه التلذُّذُ) . « إحياء علوم الدين » (٤/ ٤٤٧) .

(٤) للاستزادة انظر كتاب « المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ » (الفصل=

٩ فصل

في منهاج التحقق بالعبودية[١]

ذِكرُ طُرُقِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ وشرحِها.. يطولُ ؛ لأنَّها بعددِ أنفاسِ الخَلقِ ، بل بعددِ نظراتِهم ، بل لا يعلمُ قدرَ ذلك إلا اللهُ تعالىٰ[٢] ، فلا يحتملُ هٰذا المختصرُ ولا غيرُه منَ المبسوطاتِ الاشتغالَ بشرحِ ذلك ، لٰكنَّ هٰذا القدْرَ الذي أودعناه في هٰذا المختصرِ.. كافٍ للتَّنبيهِ والتَّشويقِ إلىٰ طلبِ تمامِ المعرفةِ بقدْرِ ما يكونُ في وُسْعِ الآدميِّ ؛ فإنَّ ذلك تمامُ سعادتِه ؛ فإنَّ كمالَ سعادةِ الآدميِّ يكونُ في معرفةِ الحقِّ جلَّ جلالُه وفي عبوديَّتِه وعبادتِه ، ووجهُ كونِ المعرفةِ سعادةَ الآدميِّ.. ما قدَّمنا ذِكرَه .

ودليلُ كونِ عبوديَّتِه وعبادتِه سببَ سعادتِه : أنَّه إذا ماتَ الآدميُّ ؛ فإنَّما يكون مرجعُهُ إلى الله سبحانه ، وشُغلُهُ معه ، وعليه يُعرَضُ

= الرَّابع منَ الفنِّ الأوَّل ، وهو في بيان أنَّ كمال العبد وسعادته في التَّخلُّق بأخلاق الله تعالىٰ والتَّحلِّي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يُتَصوَّرُ في حقِّه) (ص ٨٩) .

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٥/ ٣٤٥ وما بعدها ، كتاب كسر الشهوتين ، وهو الكتاب الثالث من ربع المُهلكات) .

(٢) قوله : (بل بعدد نظراتهم ، بل لا يعلم قدر ذلك إلا الله تعالىٰ) ثبت في (أ) و(و) ، وسقط من النُّسخ الأخرىٰ .

عملُه[1] ، ومَنْ كان مستقَرُّه مع أحدٍ[2] . . فسعادتُه أن يكونَ بينه وبين ذلك الأحَدِ موَدَّةٌ ومحبَّةٌ ، وكلَّما كانت محبَّتُهُ أكثر . . كانت سعادتُه أكثرَ ؛ فإنَّ لذَّةَ مشاهدةِ المحبوبِ والرَّاحةَ في لقائه . . لا يعدِلُها شيءٌ ، ولا تغلِبُ محبَّةُ اللهِ تعالىٰ علىٰ قلبٍ إلاَّ بمعرفتِه وكثرةِ ذكرِه[3] ؛ فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ مِنْ ذِكرِه[4] ؛ فيزدادُ له محبَّةً ؛ ولهـٰذا أوحى اللهُ

---

(١) في (ب) و(د) و(هـ) زيادة : (وعليه يُعرَضُ عمله ، **وهو مكافيه بأعماله ومجازيه بأحواله . . .**) .

(٢) سقط من (ج) قوله : (ووجه كون المعرفة سعادة الآدميِّ . . ما قدَّمنا ذكره ، ودليل كون عبوديَّته وعبادته سببَ سعادته ؛ أنَّه إذا مات الآدميُّ . . فإنما يكون مرجعه إلى الله سبحانه ، وشُغلُهُ معه ، وعليه يُعرَضُ عمله ، ومَن كان مستقرُّه مع أحدٍ) .

(٣) قوله : (وكثرة ذكره) سقط من (ب) و(هـ) .

(٤) قوله : « **مَن أحبَّ شيئاً . . أكثر مِن ذِكرِهِ** » ذكره الإمام السيوطي في « الجامع الصغير » (٢/ ٤٧٨ ، رقم : ٨٣١٢) ، وقال : (رواه الدَّيلمي في « الفردوس » عن عائشة مرفوعاً) . وقال في « الجامع الكبير » (٨/ ٣٨٨) : (رواه أبو نُعيم عن عائشة) . وقد استدرك الإمام المناوي في « فيض القدير » (٦/ ٣٠) على الإمام السيوطي فقال : (ورواه عنها [أي : السيدة عائشة رضي الله عنها] أيضاً أبو نُعيم ، ومن طريقه وعنه أورده الديلمي ، فلو عزاه المصنف إليه أو جمعهما . . لكان أولىٰ) .

قلت : لعلَّه لم يطَّلع على « الجامع الكبير » فاستدرك على الإمام السيوطي بذلك رضي الله عنهما .

ومتعارفٌ عند أهل العلم أنَّ إطلاق (رواه أبو نُعيم) دون إحالة إلىٰ كتابٍ من كتُبه ينصرفُ عادةً إلىٰ كتاب « حلية الأولياء » أو كتاب « معرفة الصحابة » ، وقد بحثتُ في كتب الإمام أبي نُعيم كلها في جميع طبعاتها . . فلم أجد الحديث ، وبحثتُ أيضاً في « الفردوس بمأثور الخطاب » فلم أجده كذلك . =

. . . .

= ولا إشكال في الأمر ، ولا خيانة ولا قلَّة أمانة مِنَ الحافظين السيوطي والمناوي كما قال وشنَّع به عليهما العلامة أحمد الغماري في كتابه « المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي » (٦/ ٦٨) ؛ لأنَّنا لسنا على يقينٍ من وصول كتب الإمام أبي نُعيم كاملة ، وكذلك لسنا على يقينٍ من وصول كتاب « الفردوس بمأثور الخطاب » كاملاً ، وهـٰذا معروف بين أهل العلم .

وأيضاً : فإن الإمام الزركشي قال في كتابه « اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة » (ص ١١٥) : (أسنده في « الفردوس » من حديث سليمان بن حيان عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً) .

وبهـٰذا يندفع ما شنَّع به عليهما العلامة أحمد الغماري في كتابه « المداوي » سامحه الله تعالىٰ ورضي عنه .

والعجيب أنَّ بعضهم قد خرَّج الحديث المذكور من كتاب « حلية الأولياء » وكتاب « الفردوس بمأثور الخطاب » ، وأحال على الجزء والصفحة !! فقد رأيت في كتاب « التنوير شرح الجامع الصغير » (١٠/ ٣٥) للعلاَّمة محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت :١١٨٢هـ) ، ط١ (١٤٣٢هـ ، ٢٠١١ م) ، مكتبة دار السلام ، الرياض ، السعودية ، تحقيق : د . محمد إسحاق محمد إبراهيم ، وفيه : الحديث أخرجه أبو نعيم (٤/ ٣٥٠) ، والديلمي في الفردوس (٥٨٧٢) ، والبيهقي في الشعب (٥٠١) !

والمُصنِّفُ الإمام محمد بن علي العراقي في كتابه هـٰذا « الذخيرة » قد تابع شيخه حُجَّة الإسلام الغزالي رضي الله عنهما في كتابه « الإحياء » في عدم نسبة هـٰذا الكلام للحضرة النَّبويَّة ، وهـٰذا فيه مزيدُ تحرٍّ وورعٍ منهما رضي الله عنهما ، خصوصاً وأنَّ هـٰذا الكلام (مَن أحبَّ شيئاً . أكثر مِن ذِكرِه) قد ورد في كلام العرب من جملة الأمثال ، فلا ملامة عليهما ولا مقال .

انظر « البيان والتبيُّن » (٣/ ٢٧٤) لأبي عثمان الجاحظ (ت : ٢٥٥هـ) ، و« الأمثال المولدة » (ص ١٣٣) لأبي بكر الخوارزمي (ت : ٣٨٣هـ) ، و« مجمع الأمثال » (٢/ ٣٢٩) لأبي الفضل الميداني (ت : ٥١٨هـ) ،

سبحانه إلىٰ داودَ عليه السَّلام : (أنا بُدُّك اللاَّزِمُ . . فالزمْ بُدَّكَ)[1] .

وطريقُ غلبةِ المحبَّةِ والذِّكرِ على القلبِ : أن يواظبَ على العباداتِ ويتفرَّغَ لها ، وإنَّما يمكنُه التفرُّغُ لها . . إذا قطعَ العلائقَ والشهواتِ

---

(1) أورده الإمام الغزالي في « الأربعين في أصول الدِّين » في (القسم الثالث : في تزكية القلب عن الأخلاق المذمومة ، الأصل السادس : في الرُّعونة وحبِّ الجاه) (ص ٢٦٦) . وقد عزاه إلىٰ بعض الكُتب الإلـٰهيَّة الإمامُ أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/ ٧٠٠) ، وذكره الشيخ عبدالقادر الجيلاني في « فتوح الغيب » (ص ٩٥) عن سيدنا داود عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نظام الدِّين النَّيسابوري في تفسيره « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » (١/ ٥٢١ ، تفسير الآية ١٨٥ من سورة البقرة) للشيخ أبي يزيد البسطامي ، واتَّفق المُحدِّثون علىٰ بطلان رفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر ذلك في « تاريخ بغداد » (٣/ ٤٢) ، و« لسان الميزان » (١/ ٥٢٢) في ترجمة أحمد بن الجارود ، وهو المُتَّهم برفع الحديث إلى الحضرة النَّبويَّة .
والكلامُ معناه صحيحٌ لا يصادم شيئاً مِنَ الشَّريعة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٤٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق : ٨] .
أقول ذلك ؛ لِمَا رأيته عند بعض الجهال من حُكمِهِ علىٰ هـٰذا الكلام بالبطلان ! وعلَّته في ذلك : أنَّ البُدَّ اسمٌ لبيتٍ فيه أصنامٌ وتصاوير ، أو هو نفسه الصَّنم الذي يُعبد علىٰ قول ابن دُريد كما ذكره عنه ابن منظور في « لسان العرب » .
والجواب عنه : أنَّ للبُدِّ معانٍ عدَّة ، منها : الصَّنم أو بيته ، ومنها : العِوَضُ والنَّصيبُ وما لا ضرورة عنه ؛ أي : لا محيدَ ولا خلاص عنه ومنه . فحمل الكلام حمَّال الأوجه علىٰ معنىً واحدٍ لإسقاطه . . دليلٌ علىٰ جهل فاعله .

و« ربيع الأبرار ونصوص الأخيار » (١/ ٣٩) للزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) وقد نسبه للسيدة رابعة العدويَّة ، وكذلك نسبه لها الإمام الذهبي في « تاريخ الإسلام » (٤/ ٦١٨) و« سير أعلام النُّبلاء » (٨/ ٢٤١) ، ونسبه الإمام البيهقي (ت : ٤٥٨هـ) في « شعب الإيمان » (٤٩٩) للإمام مالك بن دينار .

والشواغلَ عن قلبه وجُملتِه[1] ؛ بأن يُقلعَ عنِ المعاصي ويحترزَ منها ؛ فإنَّ ذلك سببُ خُلوِّ القلبِ ، وأداءُ الطاعاتِ . . سببُ غلبةِ الذِّكر على القلبِ ، وهـٰذان سببانِ للمحبَّةِ التي هي بذرُ السَّعادةِ ، التي يُعبَّرُ عنها بالفلاحِ ؛ كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] ، و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ : ١٤ـ ١٥] .

وإذا كانت الأعمالُ كلُّها لا تصلحُ أن تكون عبادةً ، إنَّما يكونُ بعضُها عبادةً وبعضُها غيرَ عبادةٍ . . فكذلك الشَّهواتُ كلُّها لا يمكنُ الإعراضُ عنها بالكلِّيَّةِ ، ولا يجوزُ أيضاً ؛ فإنَّه إذا لم يأكلِ الطعام . . يهلِكُ ، وإذا لم يُباضِعْ . . انقطعَ النَّسلُ ، فإذاً ؛ بعضُ الشهواتِ يُعرَضُ عنها دون البعضِ .

فعلىٰ هـٰذا لا بُدَّ من حَدٍّ يفصِلُ بين ما يُتناولُ وبين ما يُعرَضُ عنه ، وهـٰذا الحدُّ لا يخلو من شيئينِ :

إمَّا أن يأخذَ به ويضعَه من تلقاءِ عقلِه وهواه واجتهادِه .

أو يتلقَّاه من غيرِه .

ومِنَ المحالِ أن يتلقَّاه باختيارِه واجتهادِه ؛ فإنَّ الهوىٰ إذا استولىٰ عليه . . غطَّىٰ عنه الحقَّ وسَتَرَهُ ، وأظهَرَ له أنَّ الصَّوابَ في مرادِه .

فإذاً ؛ ينبغي أن لا يكون زِمامُ الاختيار بيَدِه[2] ، بل بيَدِ غيرِه ،

---

(١) قوله : (عن قلبه وجملته) سقط من (ب) و(هـ) .

(٢) كذا في (أ) و(و) : (زِمام الاختيار بيده) ، وفي النُّسخ الأخرىٰ : (زِمام الأمر والاختيار بيده) ، وقد كتبت كلمة (الأمر) في (ب) وشطب عليها بجرَّة قلم .

وذلك الغيرُ لا يصلحُ أن يكونَ كلَّ أحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، إنَّما ينبغي أن يكونَ أبصرَ النَّاسِ ، وهمُ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم .

فإذاً ؛ بقَسْمِ الضرورةِ تكونُ السَّعادةُ في متابعةِ الشَّريعةِ وملازمةِ حدودِ الأحكامِ[1] ، ويتعيَّنُ ذلك .

ومعنى العبوديَّة : التَّذلُّلُ بأوامرِ الشرعِ ، وإنَّ مَنْ تعدَّى الحدودَ وتجاوزَها باختيارِه ورأيِه . . فإنَّه يقعُ في خطرِ الهلاكِ ؛ كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[2] [الطلاق : ١] .

---

(١) في (ب) و(هـ) : (وملازمة الحدود والأحكامِ) بدل (وملازمة حدود الأحكام) .

(٢) قال حُجَّة الإسلام بعد أن ذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفيَّة الحاجة إليها ، وكيفيَّة غلط الناس في مقاصدها ، وكيف أنَّها صرفتِ الخلقَ عنِ الله تعالىٰ ، وأنستْهُمْ عاقبةَ أمورِهم ، ثم ذكرَ انقسام مذاهبهم ، واختلافَ آرائهم بطريقة بديعة : (ووراء هـٰذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلىٰ أن تبلغ نيفاً وسبعين فرقة ، وإنما الناجي منها فرقة واحدة ، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالكليَّة ولا يقمع الشهوات بالكليَّة ، أما الدنيا . . فيأخذ منها قدر الزاد ، وأما الشهوات . . فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ؛ فلا يتبعُ كل شهوة ، ولا يترك كلَّ شهوة ؛ بل يتبع العدل ، ولا يترك كل شيء من الدنيا ، ولا يطلب كل شيء من الدنيا . بل يعلم مقصود كل ما خلق الله من الدنيا ، ويحفظه علىٰ حدِّ مقصوده ، فيأخذ من القوت ما يقوِّي به البدنَ على العبادة ، ومن المسكن ما يحفظه من اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتىٰ إذا فرغ القلب من شغل البدن . . أقبل على الله تعالىٰ بكنه همته ، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ، ومراقباً لها حتىٰ لا يجاوز حدود الورع والتقوىٰ . ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية ، وهم =

. . . .

*　*　*

= الصحابة ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم لما قال : « الناجي منها واحدة ».. قالوا : يا رسول الله ؛ ومن هم ؟ قال : « أهل السنة والجماعة » ، فقيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » . وقد كانوا على المنهج القصد ، وعلى السبيل الواضح ؛ فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا ؛ بل للدين . وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط ؛ بل كان أمرهم بين ذلك قَواماً ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى) . « الإحياء » (٦/١٠٨ إلى ١١٠) بتصرُّف يسير .

١٠ فصل

في طبقات الإباحية وفضائحهم[1]

جماعةٌ مِنْ أهلِ الإباحةِ وضعوا عن نفوسِهم مراعاةَ حدودِ اللهِ[2] ، وأقدموا على ارتكابِ نواهيه وإغفالِ أوامرِه ، وغلِطوا وجهِلوا من سبعةِ أوجهٍ :

أحدُها : جهلُ قومٍ لا إيمانَ لهم باللهِ تعالىٰ ، طلبوه مِنْ كنزِ الخيالِ والوهمِ ، فلمَّا لم يجدُوه بمقتضىٰ هٰذه الأسبابِ . . أحالوا الأمورَ على النُّجومِ والطبيعةِ ، وظنُّوا أنَّ هٰذا الشَّخصَ الآدميَّ وغيرَه مِنَ الحيواناتِ ، وهٰذا العالَمَ العجيبَ مع هٰذه الحِكَمِ الكثيرةِ والترتيبِ العجيبِ . . موجودٌ من نفسِه ولم يزل كذلك ، أو فعلُ الطبائعِ ، فكان

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٥/ ٢٠٣ ، كتاب رياضة النفس ، وهو الكتاب الثاني من ربع المُهلكات) ، (٦/ ١٠٣ وما بعدها ، كتاب ذم الدنيا ، وهو الكتاب السادس من ربع المُهلكات) ، (٦/ ٦٩١ ، كتاب ذم الغرور ، وهو الكتاب العاشر من ربع المُهلكات) ، (٩/ ٤٦٨ الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، الباب السابع في حقيقة الموت ، وما يلقاه الميت في القبر إلىٰ نفخة الصُّوْر) ، و« الأربعين في أصول الدِّين » (ص ٣٧٥ ، في الصبر ، وهو الأصل الرابع مِنَ القسم الرَّابع المعقودِ في الأخلاق المحمودة) ، وإن رجعت إلىٰ ما أحلناك عليه من كتب حُجَّة الإسلام . . فسوف ترىٰ كيف أنَّ المؤلِّف قد مزج بشكل بديع بين أطراف كلام شيخه !

(٢) هنا ينتهي البتر في (ز) ، وانظر (ص ٢٧١) .

وجودُ هـٰذه الأشياءِ لا مِنْ مُوجِدٍ !

ومَثَلُ هـٰؤلاء : كالإنسانِ يرىٰ خطّاً مكتوباً جيِّداً ، وهو يظنُّ أنَّ الكتابةَ وُجِدَتْ بنفسِها لا مِنْ كاتبٍ قادرٍ عالِمٍ مريدٍ ، أو كانت موجودةً هـٰكذا لم تزلْ !

ومَنْ كان عماه إلىٰ هـٰذه الغايةِ . . فهو ينظرُ مِنْ طريقِ الشقاوةِ ، وقد تقدَّمَ القولُ في غلطِ المنجِّمِ والطَّبيعيِّ ، فلا نعيدُ هـٰهنا[١] .

حُكيَ[٢] أنَّ بعضَ الدَّهريَّةِ كان يحضرُ مجلسَ المُكتفي ، ويُناظِرُ الأئمَّةَ عن مذهبِه ، فاتَّفقَ أنَّ بعضَ الأئمَّةِ أبطأَ يوماً في حضورِه ؛ فقال الدَّهريُّ : لِمَ تأخَّرتَ اليومَ ؟ فقال الإمامُ : إنَّ منزلي في ذلك الجانبِ الآخَرِ من دجلةَ ، فلمَّا أردتُ العبورَ . . وقفتُ أنتظرُ الأرضَ حتىٰ أنبتَتْ شجراً ، فتشقَّقَ الشَّجرُ ألواحاً وصارَ سفينةً ، فجلستُ فيها حتىٰ عَبَرتُ إلىٰ هـٰذا الجانبِ .

فقال الدَّهريُّ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ هـٰذا الرَّجُلَ قد جُنَّ .

قيل : وكيف ذاك ؟! قال : أمَا سمعتَ قولَه ؟! قيل : وما أنكرتَ من قولِه ؟ فقال الدَّهريُّ : كيف تُنبِتُ الأرضُ شجراً فتشقَّقُ ألواحاً من غيرِ منشارٍ وشقَّاقٍ ؟! وكيف يصيرُ زورقاً من غيرِ نجَّارٍ وحدَّادٍ ؟!

فقال المسلِمُ للدَّهريِّ : يا ملعون ؛ إذا كان هـٰذا مستحيلاً من غيرِ

---

(١) في الفصل الرابع من هـٰذا الباب (ص ٢٤٤) .

(٢) سقطت هـٰذه الحكاية من (ب) و(د) و(هـ) و(ز) و(ليدن) ، وثبتت في (أ) و(ج) و(و) مع بعض خلافٍ بينهما ، وسأذكر سرد القصَّة من (ج) في الهامش آخر الحكاية .

صانعٍ . . فكيف يجوزُ أن توجدَ السَّماواتُ والأرضُ وما بينهما من غيرِ صانعٍ ؟!

فسُقِطَ الدَّهريُّ في يدِه ، وأسلمَ[1] .

الوجهُ الثاني : قومٌ لم يؤمنوا بالآخرةِ ، بل ظنُّوا أنَّ الآدميَّ كالنَّباتِ والحيوانِ[2] ، إذا ماتَ . . عُدِمَ ، ولم يكن عليه عتابٌ ولا عقابٌ ، ولا له أجرٌ ولا ثوابٌ !

وسببُ ذلك : الجهلُ بنفوسِهم ؛ فإنَّهم لم يعرفوا مِنَ الوجودِ[3] إلا ما يعرفونَهُ مِنَ الحميرِ والبقرِ والحشيشِ ، فأمَّا الرُّوحُ التي هي حقيقةُ الآدميِّ . . فجهلُوها ، وعَمُوا عن معرفتِها بأنَّها أبديَّةٌ لا تموتُ قطُّ ،

---

(١) انتهى السقط في (ب) و(د) و(هـ) و(ز) و(ليدن) ، ورواية الحكاية في (ج) : (حُكيَ أنَّه ظهر طبيعيٌّ في زمان المعتصم ، وكان يُفحمُ الأئمَّة في المناظرة ؛ فينقطع في يدِه كلُّ مَنْ ناظرَه ، وكان يحضرُ الأئمَّة من أقطار الأرض لمناظرته في كلِّ يومٍ ، فاتَّفق أنَّ بعض مَنْ كان يحضرُه كلَّ يوم . . تأخَّرَ عنِ الوقت الذي جرتْ عادتُه الحضور فيه ، فلمَّا حضرَ . . قال له الطَّبيعيُّ : يا شيخ ، ما أخَّركَ عن وقتكَ ؟ قال : اعلَمْ أنِّي وقفتُ علىٰ دجلةَ أنظرُ أن تَنبُتَ شجرةٌ ، ثم تنشق ألواحاً ، ثم تصير سفينةً ، ثم تعبرُ دجلةَ من غير صانعٍ ولا ملاَّحٍ . قال الطَّبيعيُّ : جُنَّ الشيخُ فأدركوه ! قالوا : وكيف ذلك ؟! قال : أما تسمعون حديثه ؟! قالوا : وما تُنكِرُ منه ؟ قال : كله منكرٌ ، كيف تنبت شجرة وتنشقُّ لنفسها وتصيرُ بنفسها سفينةً من غير صانع ؟! قال الشيخُ : يا ويلكَ ؛ إذا كان هـٰذا مستحيلاً من شجرةٍ وسفينةٍ بغير صانعٍ أنَّها لا توجدُ . . فكيفَ لا يستحيلُ وجود السماوات والأرض وجميع المخلوقات من غير صانعٍ ؟! فسُقِطَ في يده وانقطعَ ؛ فأسلمَ) .

(٢) في (أ) و(و) : (كالنَّبات ، وأنَّ الحيوان إذا مات . . عُدِمَ) .

(٣) كذا في (أ) : (الوجود) ، وفي بقيَّة النُّسخ : (نفوسهم) .

وإنَّما يُسترجعُ[1] منها القالبُ الذي هو البدنُ ؛ فيسمَّىٰ ذلك موتاً ، وسيأتي تحقيقُ ذلك في البابِ الرابعِ إن شاء اللهُ تعالىٰ[2] ، وبه الثِّقةُ .

الوجهُ الثالثُ : جهلُ قومٍ آمنوا باللهِ واليومِ الآخرِ لكنَّ إيمانهم ضعيفٌ ؛ من أجلِ أنَّهم لم يعرفوا معنى الشريعةِ ، فيقولون : إنَّ اللهَ سبحانه مستغنٍ عن طاعاتِنا ، فلا حاجةَ به إليها ، ولا ضررَ ينالُه من معاصينا ؛ لأنَّه الملِكُ المستغني عن طاعتِنا وعن أعمالِ الخَلقِ ، فالطَّاعةُ والمعصيةُ سِيَّانَ عندَه !

وهؤلاء الجهَّالُ يسمعونَ في القرآنِ قولَه تعالىٰ : ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾[3] [فاطر : ١٨] ، وقوله : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت : ٤٦] ، فهذا المدْبِرُ الجاهلُ بالشَّريعةِ يعتقدُ أنَّ معنى الشريعةِ : الأمرُ بالعملِ للهِ لا لنفسِه !

وهذا كلُّه مِثلُ المريضِ إذا لم يحتَمِ ويقولُ : ماذا على الطبيبِ منِّي ، امتثلتُ أمرَه في الاحتماءِ أم لم امتثلْ ؟!

وهذا القولُ صحيحٌ ، لكن هو الذي يَهلِكُ ، لا لأجلِ حاجةِ الطبيبِ ؛ ولكن لأنَّه لم يحتَمِ من طريقِ الهلاكِ ، وقد أرشدَهُ الطبيبُ إليه ، وليس على الطبيبِ ضررٌ ، لكنِ المريضُ يَهلِكُ .

فكما أنَّ مرضَ الجسمِ سببُ هلاكِ البدنِ في هذه الدُّنيا . . فكذلك مرضُ القلبِ سببُ الشَّقاوةِ في الآخرةِ .

---

(١) كتب في (أ) بنفس القلم فوق كلمة (يسترجع) : (أي : يذهب) .

(٢) في الفصل الرابع من الباب الرابع ، (ص ٣٣٧) .

(٣) في (ب) و(هـ) و(ز) جاءتِ الآية : (فمن تزكى) وهو خلاف التلاوة .

وكما أنَّ الدَّواءَ والحِمية سببُ سلامةِ الجسدِ.. فكذلك الطَّاعةُ والمعرفةُ سببُ سعادةِ الآخرةِ[1] ، والاحترازُ مِنَ المعاصي سببُ سلامةِ القلبِ ، ولا ينجُو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ .

الوجهُ الرابعُ : جهلُ آخرينَ بالشَّريعةِ أيضاً من وجهٍ آخرَ ، يقولونَ : إنَّ الشَّرعَ يأمرُ بتطهيرِ القلبِ مِنَ الشَّهوةِ والغضبِ والرِّياءِ ، وهـٰذا ليس بممكنٍ ؛ لأنَّ الآدميَّ مخلوقٌ من ذلك ، فهو كما لو قيل لإنسانٍ : عالِجِ المِسْحَ الأسودَ حتىٰ يبيضَّ ، وذلك محالٌ.. فكذلك تنظيفُ القلبِ مِنَ الشَّهوةِ والغضبِ والرِّياء والحسدِ وغيرِ ذلك ، فطلبُ الشَّرعِ ذلك مِنَ القلبِ محالٌ .

ولم يَعرِفْ هـٰذا القائلُ الأحمقُ أنَّ الشَّرعَ لم يأمرْ بذلك ، وإنَّما أَمَرَ بجعلِ الشَّهوةِ والغضبِ أسيرَينِ تحت قهرِ القلبِ والشَّرعِ ، بحيث لا يستوليانِ فيُخرِجانِ الشَّخصَ عن كونه مُتَّبِعاً حدودَ اللهِ غيرَ مُتَعَدٍّ لها ، حافظاً لحدودِ الشَّرعِ غيرَ متجاوزٍ عنها ، مُتَجنِّباً للكبائرِ غيرَ مُصِرٍّ على الصَّغائرِ ، وإذا كانا مقهورَينِ للقلبِ والشَّرعِ.. صحَّ منهُ ذلك ، وهـٰذا ممكنٌ ، وقد بلغَ إليه كثيرٌ ، وقد نهىٰ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم عنِ اتِّباعِ الشَّهوةِ وإعمالِ الغضبِ ، مع أنَّه قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « **إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ** »[2] ، وقد قال اللهُ سبحانه : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، فأثنىٰ

(١) قوله : (سببُ سعادة الآخرةِ) ثبت في (أ) وحدها .

(٢) رواه مسلم (٢٦٠٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأحمد في « مسنده » (٧٤٣١ طبعة المَكنِز ، ٧٣١١ طبعة الرسالة) .

علىٰ مَنْ كظمَ غيظَهُ لا علىٰ مَنْ ليس له غيظٌ وغضبٌ .

الوجهُ الخامسُ : جهلُ قومٍ بصفةِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهم يقولونَ : اللهُ غفورٌ رحيمٌ ، وعلىٰ كلِّ حالٍ فلا بُدَّ أن يرحمَنا ، وهم لا يتصوَّرونَ أنه كريمٌ وشديدُ العقابِ ، لا سيَّما وهم يرونَ أنَّه أبلىٰ وأمرضَ وأجاعَ خلقاً كثيراً في الدُّنيا ، مع أنَّه كريمٌ ورحيمٌ ، غيرَ أنَّهم لا يعقلونَ .

وكذلك مَنْ لم يحرُثْ أو يتَّجِر . . لا يكادُ يحصِّلُ المالَ ، ومَنْ لم يجتهد . . لا يتعلَّمُ العلمَ ، وهـٰؤلاء الجُهَّالُ لا يكادُ يجري منهم تقصيرٌ في طلبِ الدُّنيا ؛ تعويلاً منهم علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِه ، فيَتركُونَ التِّجارةَ والحِراثةَ والطَّلبَ ؛ اعتقاداً أنَّ اللهَ يرزقُ الخَلقَ ! مع أنَّه ضمنَ ذلك لهم بقولِه تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] ، لـٰكنَّهم يتركونَ عملَ الآخرةِ ؛ إحالةً علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ ، مع أنَّه أخبرَ أنْ ليس للإنسانِ إلا ما عمِلَه بقولِه تعالىٰ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] ، فإذا كانوا لا يُعوِّلونَ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِه في أمورِ دنياهُم ، وقد وعدهُمُ اللهُ بها وضمِنها لهم . . فكيف يُعوِّلون علىٰ كرمِه ورحمتِه في أمرِ الآخرةِ ، وقد قال لهم : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ؟!

فإذاً[1] ؛ ما يصدرُ منهم من ذِكْرِ كرمِه ورحمتِه . . صحيحٌ ، إلا أنه

---

(١) سقط من (ليدن) وحدها قوله : (﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فإذا كانوا لا يُعوِّلونَ علىٰ كرمِ الله تعالىٰ ورحمتِه في أمورِ دنياهُم ، وقد وعدهُمُ اللهُ بها وضمِنها لهم . . فكيف يُعوِّلون علىٰ كرمِه ورحمتِه في أمرِ الآخرةِ ، وقد قال لهم : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فإذاً) ، ولعلَّه فوت نظر ؛ لابتداء =

طريقٌ استزلَّهُمْ به الشَّيطانُ حتى اشتغلوا بدنياهُم عن آخرتِهم ! وذلك عينُ الخُسرانِ .

الوجهُ السَّادسُ : قومٌ جهِلوا نفوسَهم واغترُّوا بأحوالِهم ؛ فقالوا : نحن قد انتهينا إلىٰ حالٍ لا تضرُّنا المعصيةُ ؛ لأنَّا قد بلَغْنا إلىٰ حالِ الكمالِ ، فلا تنجَسُ مياهُ أحوالِنا[1] بنجاساتِ المعاصي ؛ لأنَّها قد بلغتْ إلىٰ رتبةِ القُلَّتينِ !!

ومِثلُ هـٰؤلاء الحمقىٰ يتبيَّنُ حُمقُ أحدِهم ونقصُهُ بأقلِّ شيءٍ ؛ فإنَّه لو اطَّرحَ أحدٌ في محادثتِه لهم شرطَ الأدبِ الجاري بين النَّاس مِنْ قولِ : (سيدنا) أو غير ذلك مِنَ الألفاظِ مثلاً ، أو أعرَضَ عن حراسةِ حِشمَتِهم واحترامِهم مرَّةً واحدةً . . فإنَّهم يُبطنونَ له العداوةَ أبداً ، وربَّما مَسُّوهُ بمكروهٍ في الحالِ !

وكذلك لو فاتَ أحدَهم لقمةٌ واحدةٌ ممَّا كان يطمعُ فيه مِنَ الدُّنيا . . لضاقتْ عليه الأرضُ برُحبِها ، وأظلمَ عليه النهارُ في وجهِه !

وهـٰؤلاء الحمقىٰ لم تبلغْ رتبتُهم في الرُّجوليَّةِ إلىٰ قلَّتينِ ؛ حتىٰ إنَّ أحدَهم يتأثَّرُ بما ذكَرنا ، فكيف تُسلَّمُ لهم دعواهُم ؟! علىٰ أنَّه لو بلغتْ رُتبةُ أحدِهم ـ مثلاً ـ إلىٰ أن قهرَ غضبَه وشهوتَه ، وملَكَ نفْسَهُ في اطِّراحِ المُعاداةِ وتجنُّبِ الرِّياءِ . . فهو بهـٰذه الدَّعوىٰ مغرورٌ أيضاً ؛ إذ درجتُه

= السقط وانتهائه بالآية الكريمة .

(١) كذا في (أ) و(ج) و(و) و(ليدن) : (فلا تنجَسُ مياهُ أحوالنا) ، وفي (د) و(هـ) : (أمواه أحوالنا) ، وفي (ب) : (مرآة أحوالنا) .

لا تتجاوزُ درجةَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ ، وقد صحَّ أنهم ناحوا علىٰ معاصيهم المتطرِّقةِ عليهم بطريقِ السَّهوِ وغيرِه ، وأكثروا البكاءَ ، واشتغلوا بالاعتذارِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وطلبوا إليه أن يتجاوزَ عنهم ، وكذلك الصِّدِّيقونَ والصَّحابةُ احترزوا مِنَ الصَّغائرِ ، وكانوا يهربونَ مِنَ الحلالِ خيفةَ أدنىٰ شبهةٍ .

فهـٰؤلاء الحمقىٰ لا يعلمونَ أنَّهم قد حَصَلوا في حبائلِ الشيطانِ ، ويعرفونَ أنَّ درجتَهم لا تفضُلُ درجةَ الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ .

وربَّما قال بعضُ هـٰؤلاء الحمقىٰ : إنَّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ كانوا كذلك ؛ لا تضرُّهم معصيةٌ ، والذي كان يظهرُ منهم إنَّما أظهروه لأجلِ الخَلقِ !

فيقالُ لهم : أيُّها الحمقىٰ ؛ هلاَّ فعلتُم أيضاً كفعلِهم لأجلِ الخَلقِ ؟! فإنَّ مَنْ رآكم مِنَ الخَلقِ لا تُبالونَ بمعصيةٍ ؛ فإنَّه يقتدي بكم ، ويتأذَّىٰ بمشاهدةِ ذلك منكم !

فإن قالوا : اتِّباعُ الخَلقِ لنا في المعاصي . . لا يضرُّنا ؛ لأنَّا انتهينا إلىٰ حالٍ لا تضرُّنا معاصينا ، فكيف تضرُّنا معصيةُ مَنِ اتَّبعَنا فيها ؟!

فيقالُ لهم : إذا كان اتِّباعُ الخَلقِ لكم في المعاصي لا يضرُّكم . . فأَولىٰ أن لا يضرَّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلام ؛ فكان ينبغي أن لا يتعفَّفوا ويحترزوا مِنَ الذُّنوبِ ، وأن لا يَسجُنوا نفوسَهُم عنِ الشَّهواتِ ، ويحبِسُونها عن تناولِ الشُّبهاتِ والمحظوراتِ فضلاً عنِ المباحاتِ !

وقد صحَّ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم ألقىٰ تمرةً من تمرِ

الصَّدقةِ من فمِ الحُسينِ رضي الله عنه[1] .

فليتَ شعريَ ؛ لو أكلَها ماذا كان يضرُّ الخَلقَ ، فإنَّه كان مباحاً للكُلِّ ؟!

وكذلك أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه أتاه عبدٌ له بقَعبٍ فيه لبنٌ ؛ فشرِبَهُ ، ثمَّ سألَهُ عنه ، فأخبَره أنَّهُ تكهَّنَ لقومٍ فأعطوه ذلك ؛ فوضعَ الصِّدِّيقُ يدَه في فيه ، ولم يزل يعالجُ نفْسَهُ حتىٰ قذفَ ما كان في مَعدتِهِ ، وقال : لو علمتُ أنَّ قطرةً من هـٰذا اللبنِ قد بقيتْ في مَعدتي . . لخفتُ أن يسلُبَني اللهُ معرفتَه[2] !

فليتَ شعريَ ؛ أيُّ ضررٍ كان على الخَلقِ مِنْ شُربِهِ لذلك اللبنِ ؟!

---

(١) كذا في (أ) ، وفي بقيَّة النُّسخ زيادة : (وقد صحَّ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ألقىٰ تمرةً من فم الحُسين رضي الله عنه كان تناولها من تمر الصدقة فأدخل النبي صلى الله عليه وسلَّم أصبعه في فم الحسين رضي الله عنه وهو طفل ، وقال له : « كِخْ كِخْ » حتىٰ ألقاها) ، وفي جميع النسخ (الحسين رضي الله عنه) ، والحادثةُ رواها البُخاريُّ (١٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيها : (فَجَعَلَ الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَلْعَبَانِ بِذَلِكَ التَّمْرِ ، فَأَخَذَ أَحَدُهُمَا تَمْرَةً) ، وعيَّنتِ الرواية الثانية (رقم ١٤٩١) الآخذَ : (أَخَذَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ) ، ورواها مسلم (١٠٦٩) أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٣٨٤٢) ، ولفظه : (عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : (كان لأبي بكرٍ غُلامٌ يُخرِجُ له الخَراجَ ، وكان أبو بكرٍ يأكلُ من خراجِهِ ، فجاء يوماً بشيءٍ فأكلَ منهُ أبو بكرٍ ، فقال له الغُلامُ : أتدري ما هـٰذا ؟ فقال أبو بكرٍ : وما هو ؟ قال : كنتُ تكهَّنتُ لإنسانٍ في الجاهليَّةِ ، وما أُحسِنُ الكهانةَ ، إلا أنِّي خدَعتُهُ ، فلقيني فأعطاني بذلك ، فهـٰذا الذي أكلتَ منهُ ، فأدخلَ أبو بكرٍ يدَهُ ، فقاءَ كلَّ شيءٍ في بَطنِهِ) .

فإن كان أكلُ التَّمرةِ وشربُ اللَّبنِ يضرُّهما.. فكيف لا يضرُّ هـٰؤلاء الحمقىٰ أقداحُ الخمرِ ؟!

وبكلِّ حالٍ ؛ درجةُ هـٰؤلاء لا تزيدُ علىٰ درجةِ النُّبوَّةِ ؛ فإنَّ درجةَ مئةِ قدحٍ خمراً.. فوقَ درجةِ تمرةٍ واحدةٍ[(١)] ، فهـٰؤلاء الحمقىٰ يجعلونَ نفوسَهم كالبحرِ لا يتغيَّرُ بألفِ زِقِ خمرٍ ! ويجعلونَ الأنبياءَ والأولياءَ والصِّدِّيقينَ[(٢)] بمنزلةِ كوزِ ماءٍ يتغيَّرُ بتمرةٍ مثلاً ! فهـٰؤلاء المساكينُ يسخرُ منهم جُهَّالُ الأُمَّةِ فضلاً عن علمائها ، ويلعبُ الشَّيطانُ بعقولِهم .

وأمَّا أكابرُ الدِّين : فيعلمونَ أنَّ مَنْ لم يكن هواهُ أسيرَهُ.. فليس بذي قَدْرٍ ؛ بل الدَّابَّةُ خيرٌ منه .

فإذا علمتَ أنَّ نفسَ الآدميِّ مكَّارةٌ مُحتالةٌ خدَّاعةٌ غدَّارةٌ ، تدَّعي كلَّ شيءٍ وتفتخرُ بأيسرِ شيءٍ ، وربَّما خدَعَتْ فقالتْ : أنا طوعُ يديك[(٣)] وبحُكمِكَ ، لا أخرجُ عن مرادِكَ.. فينبغي أن لا يصدِّقها في ذلك ، لـٰكن يطالبُها ببرهانِ ما قالتْ[(٤)] ؛ فإنَّها مُحتالةٌ ليس علىٰ قولِها حُجَّةٌ البتَّةَ ؛ فإنَّها لا تكونُ بحُكمِ أحَدٍ طوعاً ؛ لأنَّها تخدعُ صاحبَها ؛ لتجعَلَهُ بحُكمِهَا ، وإنَّما تُصدَّقُ.. إذا استولىٰ عليها .

وعلامةُ ذلك : أن تكونَ مطاوعةً للشَّريعةِ أبداً ، تتصرَّفُ بحُكمِ أمرِ

---

(١) في (ب) و(د) و(هـ) و(ز) زيادة : (فإنَّ درجة مئة قدحٍ خمراً.. فوق درجة تمرةٍ واحدةٍ في **التحريم**) .

(٢) قوله : (والأولياء والصِّدِّيقين) ليس في (ب) و(هـ) و(ز) .

(٣) في (أ) و(و) : (بدنك) بدل (يديك) .

(٤) في (ب) و(ج) و(د) و(هـ) و(ليدن) : (**ما ادَّعت وقالت**) .

الشَّارعِ ونهيِه ، ومتى اشتغلَتْ بطلبِ الرُّخَصِ والتَّأويلِ في الأمورِ والحِيلَةِ . . فهو عبدُ الشَّيطانِ[١] ، ومع ذلك تدَّعي الولايةَ !

ولا بُدَّ من طلبِ البرهانِ ـ الذي هو اتِّباعُ الشَّرعِ ـ والتماسِهِ منها إلىٰ حينِ مُفارقةِ الدُّنيا ، ومتىٰ لم تكن كذلك . . فصاحبُها مغرورٌ مخدوعٌ قد أشفىٰ على الهلاكِ وهو لا يشعرُ ؛ فإنَّ حَمْلَ النَّفْسِ علىٰ مُتابعةِ الشَّرعِ . . أوَّلُ درجةٍ مِنَ الإسلامِ ، فمَنْ لم يصحَّ له ذلك . . فليس بمسلمٍ ، ومَنْ صحَّ له ذلك . . فقد صحَّتْ له أوَّلُ درجةٍ مِنَ الإسلامِ[٢] .

الوجهُ السَّابعُ : يصدرُ مِنَ الغفلةِ والسَّهوِ ومِنْ جهةِ الجهلِ[٣] ، وهـٰذه الإباحةُ تصدرُ مِنْ قومٍ لم يقفوا علىٰ شيءٍ مِنَ الشُّبَهِ السَّالفَةِ[٤] ، لـٰكنَّهم يقلِّدونَ قوماً قبلَ أن يسلكوا طريقَ الإباحةِ ، فيوردونَ لهم ألفاظاً مُزيَّفةً ، وكلماتٍ مُزوَّقَةً ، ويدَّعونَ التَّصوُّفَ والوِلايةَ ويلبسونَ ثيابَهم ، فلا يأمرونَ النَّاسَ بصريحِ الفسادِ ؛ لـٰكن يهوِّنونَ عليهم أشياءَ تسوقُ إلىٰ ذلك ، فيوافِقُ ما يدْعُونَ إليه . . ما في الطَّبائعِ من حُبِّ البَطالةِ والشَّهوةِ ، ويقولونَ للنَّاسِ : معاذَ اللهِ أن نرضىٰ بالفسادِ أو نأمرَ به أو نُبيحَ الزِّنا ـ مثلاً ـ أو نرتضيَهُ ، ولـٰكن لا بأسَ بالحديثِ والدُّعابةِ ؛ فإنَّ ذلك مِنَ

---

(١) في (أ) و(و) : (فهو عندَ الشَّيطان) بدل (فهو عبدُ الشَّيطان) .
(٢) في (د) وحدها اختلَّت العبارة بسبب السَّقط ؛ فجاء فيها : (فمَن لم يصح له ذلك فقد صحَّ له أوَّلُ درجةٍ منَ الإسلام) بدل (فمَن لم يصح له ذلك . . فليس بمسلمٍ ، ومَن صحَّ له ذلك فقد صحَّت له أوَّلُ درجةٍ منَ الإسلام) .
(٣) في (ب) و(هـ) و(ز) : (يصدرُ مِنَ الغفلة والسَّهوِ ، لا مِنْ جهة الجهلِ) .
(٤) في (ب) و(هـ) و(ز) : (مِنَ السُّنَّة السَّالِفَةِ) بدل (مِنَ الشُّبَهِ السَّالِفَةِ) .

الخُلُقِ الحَسَنِ(١) ، فيسهِّلونَ ذلك ؛ لئلا يتنغَّصَ على المخدوعينَ بتسميتِهِ فساداً ؛ فيمتنعونَ منه ، لكن يَستَجِرُّونَهم بكونه حديثاً أو لمَماً ، وهم لا يعرفونَ معنىٰ ذلك .

وهٰذا تمريدٌ(٢) وتدريبٌ على اتِّباعِ شهوةِ الشَّيطانِ ؛ فيفضي بهم ذلك إلى الزِّنا مثلاً ، فهٰؤلاء المساكينُ اتَّبعوا الشَّيطانَ ، ونالَهُمُ الألمُ والفتنةُ من غيرِ قصدٍ ومعرفةٍ بها ، لكنْ بطريقِ الجهلِ بالألفاظِ وميلِ الطَّبعِ إلى البطالاتِ والشَّهواتِ ، فالشبهةُ التي واقعُوها إنَّما حصلَتْ لهم من جهةِ الكلامِ .

وأكثرُ هٰؤلاء القومِ مِنَ الذين قال اللهُ سبحانه وتعالىٰ فيهم : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام : ٢٥] ، ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾(٣) [الكهف : ٥٧] ، وكذلك قولُه

---

(١) قوله : (فإنَّ ذلك مِنَ الخُلُقِ الحَسَنِ) ثبت في (أ) وحدها .

(٢) كذا في جميع النُّسخ : (تمريدٌ) ، وجاء في هامش (أ) : (تمرينٌ ، صح) .

(٣) هٰذه الآية مِنَ المتشابه اللفظي في القرآن الكريم ، وقد تمَّ التلفيق في (أ) و(ج) و(د) و(و) بين بداية استشهاد المؤلِّف بها وخاتمته ، فجاءت بدايتها : ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ وهي كذلك في (الأنعام : ٢٥ ، والإسراء : ٤٦) بدل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ ، وخاتمة استشهاده بالآية من سورة الكهف : ٥٧ ، والذي فيها : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ وليس ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ ؛ لذلك قمتُ بفصل الشاهد وأثبته من موضعين مختلفين . أمَّا في (ب) و(هـ) فذكرت فيهما الآية الأولىٰ دون الثانية ، وكتبت الآية الأولىٰ غير تامَّة ، فجاء الكلام فيهما : (﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ . . . ﴾ الآية ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾) ، ثم وقفتُ علىٰ نسخة (ليدن) فكتبت على الصواب كما أثبتها ، والحمد لله .

تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٦] .
فإذاً ؛ المعاملةُ لهـٰؤلاء بالسَّيفِ أولىٰ من معاملتِهم بالحُجَّةِ .

وهـٰذا القدرُ كافٍ في ذِكرِ فضائحِ الإباحيَّةِ[١] ، وإنما أوردناهُ هـٰهنا ؛ لأنَّه من قبيلِ الجهلِ بالنَّفْسِ ، أو من قبيلِ الجهلِ بالحقِّ ، أو من قبيلِ الجهلِ بسلوكِ الطَّريقِ مِنَ النَّفْسِ إلى الحقِّ ؛ وهي الشريعةُ ، والجهلُ إذا كان في أمرٍ يُوافقُ الطَّبعَ . . صَعُبَ زوالُهُ وشقَّ رفعُهُ ؛ ولهـٰذا السَّببِ سلكَ جماعةٌ طريقَ الإباحةِ بغيرِ شُبهةٍ ، ويقولونَ : نحن متحيِّرونَ ! ولو سُئِلَ أحدُهُم في أيِّ شيءٍ أنتَ مُتحيِّرٌ ؟ لمَا عَرفَ ؛ لأنَّه لم يكن له طلبٌ قطُّ ولا شُبهةٌ فيتحيَّرُ فيها .

ومَثَلُ هـٰذا ؛ كَمَنْ يقولُ لطبيبٍ : أنا مريضٌ[٢] ، ولا يذكرُ له في أيِّ شيءٍ مرضُهُ ليعالجَه ، والطَّبيبُ ما لم يَعرفِ المرضَ . . لا يقدرُ على المعالجةِ[٣] .

والصَّوابُ أن يُقالَ لهـٰذا المسكينِ : كُن مُتحيِّراً في أيِّ شيءٍ شئتَ ، ولـٰكن لا تشُكَّ في أنَّ الذي خلقَكَ وأوجدَكَ . . قادرٌ عالِمٌ مريدٌ . ويُبيِّنُ

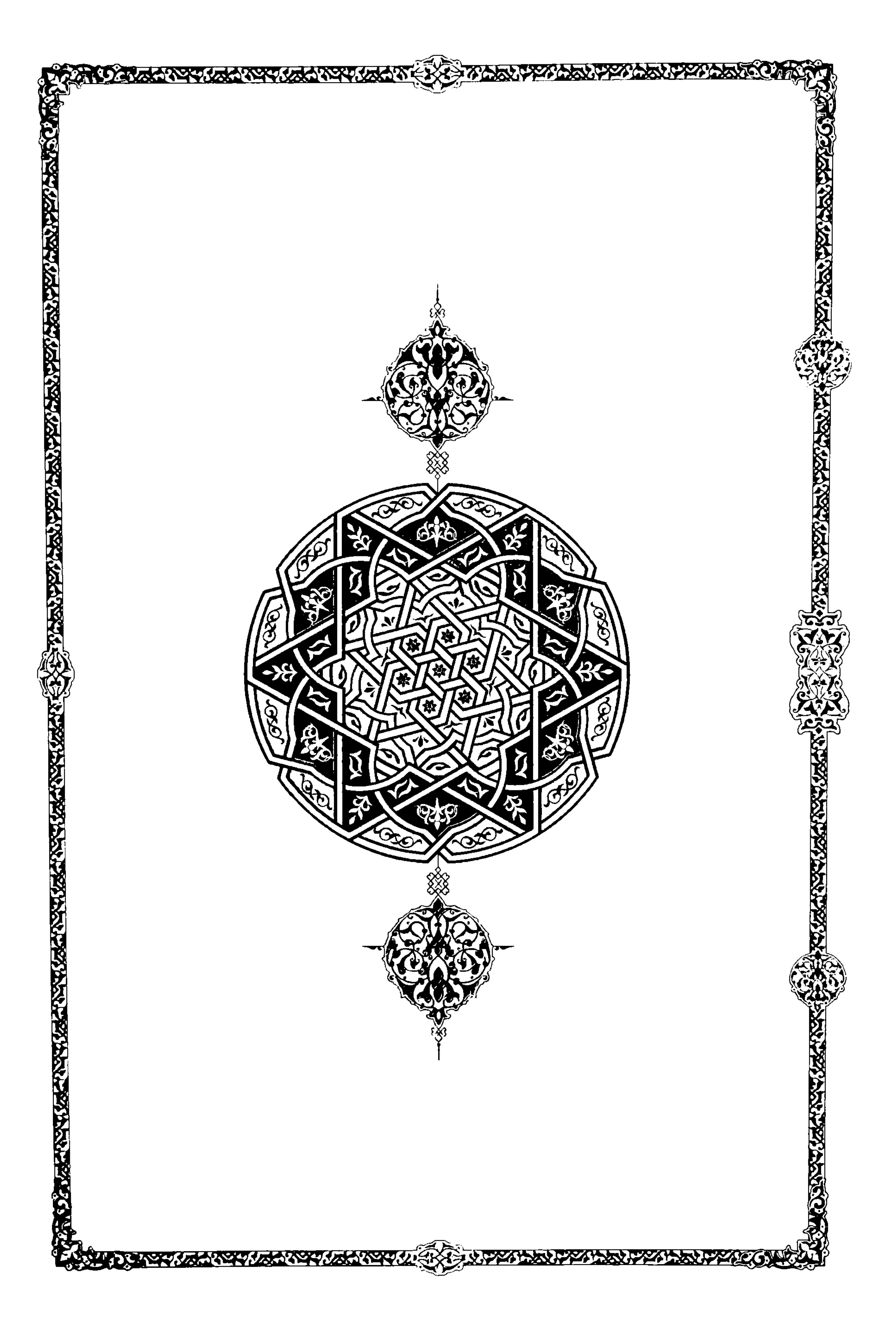
---

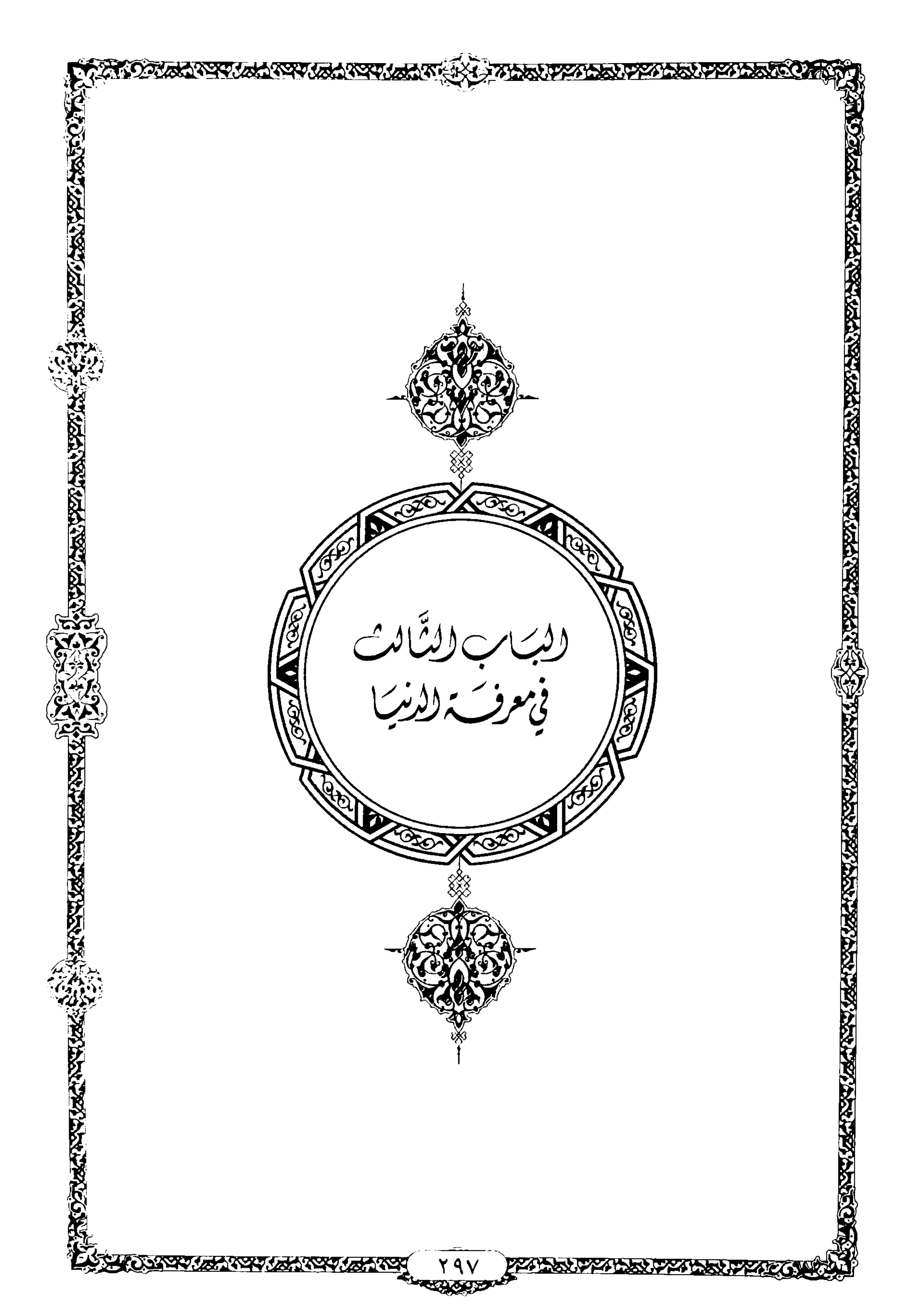
(١) في (ج) و(د) و(ليدن) زيادة : (وقد صنَّف الإمام أبو حامد قدَّس اللهُ روحَه في فضائحهم كتاباً مفرداً) ، قلت : وهو كتاب « فضائح الباطنيَّة وفضائل المستظهريَّة » ، المشهور بـ« المُستظهِريّ » .
(٢) قوله : (ولا شُبهةٌ فيتحيَّرُ فيها . ومَثَلُ هـٰذا كَمَنْ يقول لطبيبٍ : أنا مريضٌ) سقط من (هـ) .
(٣) سقط من (د) قوله : (والطَّبيبُ ما لم يعرف المرضَ لا يقدرُ على المعالجة) .

هـٰذا بطريقِ البرهانِ[1] ، وقد تقدَّمَ ذِكرُه ، واللهُ الموفِّقُ .

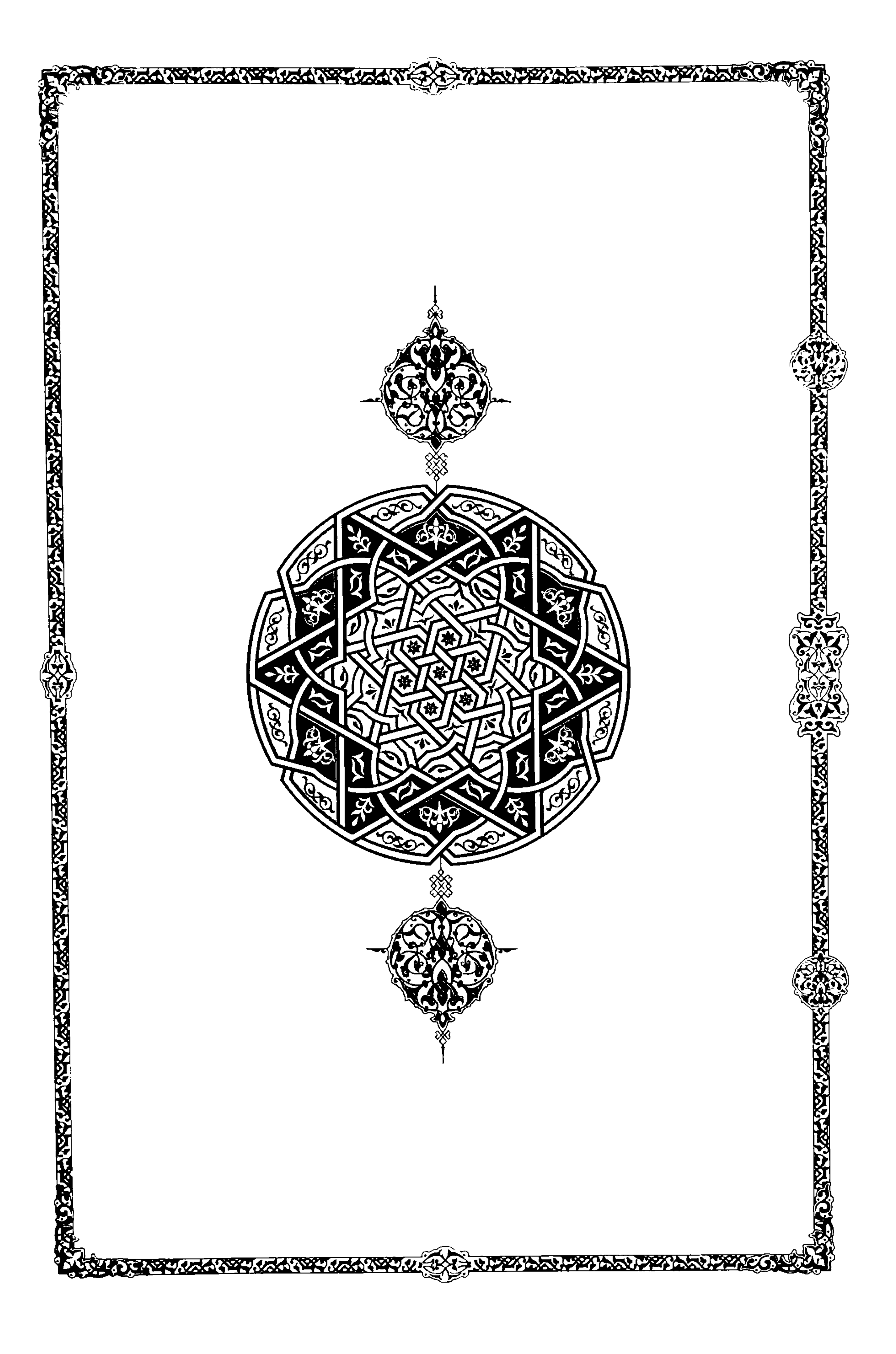
* * *

(١) من هـٰذا الموضع يبدأ البترُ الأوَّل في (أ) إلىٰ قوله : (وأنت بحالك في مكانك) في الباب الرابع ، الفصل الثاني (ص ٣٣٠) ، وعليه سيتمُّ إثبات الفروق بين النُّسخ الأخرىٰ دونها .





الباب الثَّالث
في معرفة الدنيا



الباب الثالث
في معرفة الدنيا

اعلم أنَّ الدُّنيا منزلٌ من منازلِ الآخرةِ ، وطريقٌ من طُرُقِ الدِّينِ ، وسبيلٌ للمسافرينَ إلىٰ حضرةِ الحقِّ سبحانه ، وسُوقٌ مُزيَّنٌ علىٰ فاتحةِ طريقِ الباديةِ التي تُقطَعُ إلى اللهِ سبحانه ؛ ليأخذَ المسافرونَ منها زادَهم لمدَّةِ سفرِهم .

ثمَّ الدُّنيا والآخرةُ عبارتانِ عن حالَينِ ، فما قَبْلَ الموتِ هو أقربُ . . فيُسمَّىٰ دُنيا ، وما بعدَ الموتِ . . يُسمَّىٰ آخرةً ، والمقصودُ مِنَ الدُّنيا التَّزوُّدُ للآخرةِ ؛ فإنَّ الآدميَّ في ابتداءِ خلقِه فارغٌ ناقصٌ خِلْوٌ مِنَ الكمالِ ، لٰكنْ خُلِقَ متهيِّأً صالحاً للبلوغِ إلىٰ تحصيلِ الكمالِ بحيث يصلحُ للحضرةِ الإلـٰهيَّةِ بذلك المعنى الذي يُجِدُّ إليه السبيلَ ؛ حتىٰ يصيرَ من نُظَّارِ جمالِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ ، وهـٰذا منتهىٰ سعادتِه ، وهو جنَّتُه ؛ ولذلك خُلِقَ .

ولا يقدرُ أن يكونَ مِنَ الناظرين . . ما لم يفتحْ بصرَه ويدركْ ذلك الجمالَ ، وهو إنَّما يحصلُ بالمعرفةِ ، ومعرفةُ جمالِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ . . مفتاحُهُ معرفةُ عجائبِ الصُّنعِ الإلـٰهيِّ ، ومعرفةُ الصُّنعِ الإلـٰهيِّ . . مفتاحُهُ حواسُّ الآدميِّ ، ولا يمكنُ كونُ هـٰذه الحواسِّ إلا في هـٰذا القالبِ المركَّبِ مِنَ الماءِ والتُّرابِ ؛ فلهـٰذا وقعَ إلىٰ عالَمِ الماءِ والتُّرابِ ؛ ليأخذَ

زادَه ويحصِّلَ معرفةَ اللهِ تعالىٰ بمفتاحِ معرفةِ نفْسِهِ ومعرفةِ جُملةٍ مِنَ الآفاقِ المدرَكةِ بالحواسِّ ؛ لتكونَ الحواسُّ معه ، وتكونَ جاسوساً وعيناً له ما دامَ في الدُّنيا ، فإذا فارقَ الحواسَّ . . بقيَ هو وما هو من صفاتِ ذاتِه[1] ؛ فيقالُ : ذهبَ إلى الآخرةِ .

فإذاً ؛ سببُ كونِه في الدُّنيا هٰذا ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) في (د) وحدها : (بقي هو وما معه من صفاتِ ذاتِه) .

فصل

في تعهد الشهوات بالمراقبة لتكون زاداً للآخرة[1]

يحتاجُ الإنسانُ في دنياه إلىٰ شيئين :

أحدُهما : ما يخلِّصُ قلبَه من أسبابِ الهلاكِ ويحصِّلُ غذاءه .

والثاني : ما يحفظُ بدنَه مِنَ المُهلكاتِ .

فأمَّا غذاءُ القلبِ : فمعرفةُ اللهِ تعالىٰ ومحبَّتُه ؛ فإنَّ غذاءَ كلِّ شيءٍ . . مقتضىٰ طبعِهِ الذي هو أخصُّ به ، وقد تقدَّمَ القولُ فيه أنَّ خاصِّيَّةَ الآدميِّ هـٰذا[2] .

وسببُ هلاكِ قلبِ الآدميِّ : أن يستغرقَ بمحبَّةِ سوى اللهِ تعالىٰ ، والبدنُ يُحفظُ ويُتعهَّدُ لأجلِ القلبِ ؛ فإنَّ البدنَ فانٍ والقلبَ باقٍ ، والبدنُ للقلبِ[3] كالجملِ للحاجِّ في طريقِ الحجازِ ، فالحاجُّ يتعهَّدُ الجملَ ضرورةً بالعلفِ والماءِ والحُداءِ إلىٰ أن يصلَ إلى الكعبةِ ، ويخلُصَ مِنَ التَّعبِ لأجلِه ، ولـٰكنَّ تعهُّدَه بقدْرِ الحاجةِ[4] ، فأمَّا إذا

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « جواهر القرآن » (ص ٣٦) ، و« الأربعين في أصول الدِّين » (ص ٢٥١) .

(٢) في الفصل السابع عشر من الباب الأول ، (ص ٢٠٥) .

(٣) في (هـ) وحدها : (والقلب للبدن) بدل (والبدن للقلب) !

(٤) سقط من (ب) وحدها قوله : (إلىٰ أن يصل إلى الكعبة ويخلص من التعب لأجله ولـٰكن تعهده بقدر الحاجة) .

شَغلَ نهارَه وليلَه بعلفِ الجملِ وتزيينِه[1] وتعهُّدِه.. فإنَّه يتخلَّفُ عنِ القافلةِ ؛ فيهلِكُ .

فكذلك الآدميُّ إذا شَغلَ أيَّامَه في تعهُّدِ بدنِه وحفظِ قوتِه وحراستِه من أسبابِ الهلاكِ.. تخلَّفَ عن سعادتِه .

فأمَّا حاجةُ البدنِ في الدُّنيا : فهي ثلاثةُ أشياءَ لا غيرُ : المأكلُ ، والملبسُ ، والمسكنُ لحَرٍّ أو بردٍ ؛ ليأمنَ أسبابَ الهلاكِ .

فإذاً ؛ يضطرُّ الآدميُّ من دنياه إلىٰ هـٰذه الأشياءِ الثلاثةِ مع أنَّها أصولُ الدُّنيا .

وغذاءُ القلبِ المعرفةُ ، وكلَّما كثُرتْ.. كان أجودَ ، وكلَّما كثُرَ غذاءُ البدنِ.. كان أدعىٰ إلى الهلاكِ ، غيرَ أنَّ اللهَ سبحانه وكَّلَ بالآدميِّ ما يقتضيه بالطَّعامِ والمسكنِ واللباسِ ، وهو الشَّهوةُ التي تطالبُه ؛ لأنَّ البدنَ هو المَركَبُ.. فلا يهلِكُ ، وخُلِقَتِ الشَّهوةُ علىٰ صفةٍ لا تقفُ عندَ حدٍّ ونهايةٍ ، لـٰكن تطلبُ الكثيرَ ، فخلقَ اللهُ سبحانَه العقلَ.. لتقفَ الشَّهوةُ علىٰ حدِّها ؛ فلا يتركُها تتعدَّىٰ طورَها ، وجعلَ الشَّريعةَ علىٰ لسانِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مبيِّنةً للحدودِ ، إلا أنَّ الشَّهوةَ وضِعتْ في أوَّلِ الخِلقةِ في حالِ الصِّغرِ ؛ لمكانِ الحاجةِ إليها ، ثم جعلَ العقلَ بعد ذلك ، فالشَّهوةُ قد استقرَّتْ في النَّفْسِ أوَّلاً واستولتْ ، فهي تخرُجُ عن طوعِ العقلِ في وقتٍ ، وتتجاوزُ الحدَّ الذي يأمرُ به العقلُ ؛ فجاء الشَّرعُ

---

(١) كذا في (ب) و(هـ) : (وتزيينه) ، وفي النسخ الأخرىٰ : (وتربيته) ، وفي (ليدن) : (وزينته) .

بعد ذلك وأمرَ أن لا يشتغلَ بالكُلِّيَّة بطلبِ القوتِ واللِّباسِ والمَسكنِ ، وأنْ لا يُذهبَ جميعَ العُمْرِ في تحصيلِ ذلك ، فبحُكمِ تقدُّمِ الشَّهوةِ في الطَّبعِ[1] وتمكُّنِها واستيلائها.. تتجاوزُ حدَّ العقلِ ، وتخالفُ أمرَ الشرعِ ، وتقولُ : أحتاجُ إلىٰ أكثرَ من هٰذا الذي يندفعُ به الوقتُ ويمكنُ الاكتفاءُ به ، وتقولُ : إنَّه يجبُ إعمالُ الجملةِ[2] في الطَّلبِ والاشتغالِ بتحصيلٍ مهما أمكنَ !

وبهٰذا السَّببِ ينسىٰ نفْسَه ، ولا يعلمُ لأيِّ شيءٍ يُرادُ القوتُ والملبسُ والمَسكنُ ؟! ووجودُه في هٰذا العالَمِ لأيِّ شيءٍ كان ؟! وينسىٰ غذاءَ القلبِ الذي هو زادُ الآخرةِ !

فإذا عرفتَ من هٰذه الجملةِ حقيقةَ الدُّنيا وآفتَها وغرضَها.. فافهمِ الآن شُغلَ الدُّنيا وسعيَها[3] ؛ لتنتفعَ بها إن شاء اللهُ تعالىٰ .

* * *

---

(١) قوله : (في الطبع) ليس في (ب) و(هـ) .

(٢) كذا في جميع النسخ : (وتقول : إنه يجب إعمال الجملة) ، وفي (ب) وحدها أجري شطبة قلم علىٰ هٰذه العبارة ، وكتب بهامشها بخطٍّ مختلفٍ : (ويصرف جميع عمره ، صح) ، فتكون العبارة فيها : (**ويصرف جميع عمره** في الطَّلب والاشتغال بتحصيلٍ مهما أمكن) .

(٣) كذا في (ج) و(و) و(ليدن) : (وسعيَها) ، وفي (ب) و(د) و(هـ) : (وشُعَبِها) ، وفي (ز) : (وسعتها) .

٢ فصل

في بيان تفاصيل الدنيا، وأنّ الطمع فيها سبب الفساد

اعلم أنَّك إذا نظرتَ في تفاصيلِ الدُّنيا.. وجدتَها عبارةً عن ثلاثةِ أشياءَ :

أحدُها أعيانُ الأشياءِ التي خُلِقَتْ علىٰ وجهِ الأرضِ ؛ كالنباتِ والمعادنِ والحيوانِ ؛ فإنَّ الأرضَ تُرادُ في الأصلِ للمسكنِ ، ومنفعةُ الزِّراعاتِ ومعادنُ المِسِّ[1] والصُّفْرِ والنُّحاسِ والحديدِ وغيرِ ذلك.. تُرادُ لهٰذا ، والحيواناتُ تُرادُ للركوبِ والأكلِ ، وقد شَغَلَ الآدميُّ قلبَه وبدنَه بذلك ، أمَّا قلبُه.. فمشغولٌ بمحبَّتِها وطلبِها والنِّزاعِ نحوَها ، ويظهرُ من ذلك في القلبِ ما هو سببٌ للهلاكِ[2] ؛ كالحرصِ والبخلِ والحسدِ والعداوةِ وغيرِ ذلك ، ومِن اشتغالِ البدنِ بطلبِها.. يظهرُ شغلُ القلبِ بها ؛ بحيث ينسىٰ نفسَهُ ، ويجعلُ همَّتَه مصروفةً إلىٰ أمورِ الدُّنيا .

وكما أنَّ أصلَ الدُّنيا ثلاثةُ أشياءَ : القوتُ واللباسُ والمسكنُ..

---

(١) المِسُّ ، بالكسر : النُّحاسُ . تقدَّمَ في (ص ٢٢٨) .

(٢) في (هـ) وحدها حصل تقديم وتأخيرٌ في العبارة ، ونقص لبعض الكلمات ، فجاءت العبارة فيها مختلَّة : (وغير ذلك يرادُ ، أمَّا قلبه فمشغول بمحبتها وطلبها والنِّزاع نحوها ، ويظهر من ذلك لهٰذا ، والحيوانات ترادُ للركوب ، وقد شَغَلَ الآدميُّ قلبه وبدنه بذلك في القلب ما هو سبب للهلاك) ، ثمَّ قام النَّاسخ بكتابة العبارة في هامشها كما أثبتناه موافقة لبقيَّة النُّسخ ، وقال : (هكذا في نسخة أخرىٰ ، ولعلَّها أحسن) .

فكذلك أصلُ الصَّنائع التي يضطرُّ إليها الآدميُّ ثلاثةُ أشياءَ : البناءُ والحراثةُ والحياكةُ ، وما سِواها ففرعٌ وتتمَّةٌ وعونٌ لها ؛ كالحلاَّجِ والغزَّالِ عونُ الحائكِ ، ومنها ما هو تتمَّةٌ كالخيَّاطِ ؛ فإنه يكمِّلُ ويتمِّمُ شغلَ الحائكِ ، وذلك كلُّه يحتاجُ إلىٰ آلةٍ كالخشبِ والحديدِ والجلودِ وغيرِ ذلك ، ثم الآلاتُ تحتاجُ إلىٰ مَنْ يُعمِلُها ؛ كالنَّجَّارِ والحدَّادِ والخرَّازِ ، فظهرَ كيفيَّةُ تعلُّقِ الأشياءِ بعضِها ببعضٍ .

ثم هٰؤلاء يحتاجُ كلٌّ منهم إلىٰ مساعدةِ غيرِه لَهُ ؛ فإنَّ الواحدَ لا يقدِرُ أن يقومَ بأمورِه كلِّها ؛ فافتقرَ إلىٰ تعاضدٍ واجتماعٍ ، فصارَ الخيَّاطُ يعملُ عملَ الحائكِ ، والحدادُ يعملُ ما يحتاجُ إليه هٰذان في أمورِهما ، وهٰكذا كلُّ مَنْ عملَ شيئاً . . فإنَّه يحتاجُ إلىٰ غيرِه في عملِ شيءٍ آخَرَ لَهُ ؛ فظهرتْ بينهم معاملاتٌ فُتِحَتْ منها خصوماتٌ حينَ لم يقنعْ كلٌّ منهم بحقِّه ، وقصَدَ كلٌّ منهم الإيقاعَ بصاحبِه ؛ فاحتاجوا بمقتضىٰ ذلك إلىٰ ثلاثةِ أشياءَ أُخَرَ مِنَ الصِّناعاتِ :

أحدُها : صناعةُ السِّياسةِ والسَّلطنةِ .

والثاني : صناعةُ القضاءِ والحكومةِ .

والثالثُ : صناعةُ الفقهِ ؛ فإنَّه به يُعرفُ قانونُ الوساطةِ بين الخَلقِ .

وكلٌّ واحدةٍ من هٰذه . . صناعةٌ ، وإن كان أكثرُ أمورِها لا يتعلَّقُ باليدِ ، فكثُرتْ أشغالُ الدُّنيا من هٰذا الوجهِ ، وارتبطَ بعضُها ببعضٍ ، وأكثرَ الخَلقُ فيما بينَهم ونقَّصوا[1] ، ولم يعلَموا أنَّ أصلَ هٰذا كلِّه في

---

(١) كذا في (ج) و(د) و(هـ) و(ليدن) : (وأكثر الخلق فيما بينهم ونقصوا) ، =

الأوّلِ . . ثلاثةُ أشياءَ لا زيادةَ عليها : الطعامُ واللِّباسُ والمسكنُ ، وهـٰذا كلُّه كان لأجلِ هـٰذه الأشياءِ الثلاثةِ ، وهـٰذه الثلاثةُ تُرادُ لأجلِ البدنِ ، والبدنُ يُرادُ لأجلِ القلبِ ليتَّخذَه مَركَباً ، والقلبُ يُرادُ للحقِّ سبحانه ، فنسيَ النَّاسُ نفوسَهم وربَّهم[1] ، وصاروا كالحاجِّ الذي نسيَ نفسَه والكعبةَ وسفرَه ، وأذهبَ جميعَ أيَّامه في تعهُّدِ الجَمَلِ !

فإذاً ؛ الدُّنيا وحقيقتُها ما ذكرنا ، فمَن لم يكن فيها مستوفزاً واضعاً عينَ هِمَّتِه[2] على الآخرةِ ، لا يَقبلُ من مَشغلةِ الدُّنيا إلا قدْرَ الحاجةِ . . كان جاهلاً غيرَ خبيرٍ بها ، وبسببِ هـٰذا الجهلِ . . قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم : « **الدُّنْيَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . . فَاحْذَرُوهَا** »[3] .

وفي (و) : (وأكثر الخلق فيما بينهم ونقضوا) وفي (ب) أجري شطب على كلمة : (ونقصوا) ، وكتب بهامشها : (اشتغلوا به ، صح) ، فتكون العبارة فيها : (وأكثر الخلق فيما بينهم واشتغلوا به) .

(١) في (ب) و(هـ) زيادة ليس لها معنىً : (فنسي النَّاس نفوسهم وربَّهم ، وصاروا الإنسان قلبه وربَّه) ! وقد تمَّ شطبها في (ب) فقط ، وهـٰذا يدلُّ علىٰ ما ذهبنا إليه في المقدِّمة عند الكلام عن النُّسخ الخطِّيَّة من أنَّ النسخة (ه/ برلين) مأخوذة عن (ب/ جار الله) أو عن نسخة مأخوذة عنها . وفي (ليدن) : (نفوسهم وزيَّهم) بدل (نفوسهم وربَّهم) !

(٢) في (ج) وحدها : (حكمته) بدل (همَّته) .

(٣) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠٢٢) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (ص ٥٣) ، و« ذم الدنيا » (ص ٧٠) كلاهما من رواية أبي الدرداء الرهاوي مرسَلاً بلفظ : « احذروا الدُّنيا ؛ فإنَّها أسحر من هاروت وماروت » ، وقال البيهقي : إنَّ بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجلٍ من الصحابة . وصرَّح باسمه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١/ ٣١٢) قال : عن أبي الدرداء=

فإذا كانتِ الدُّنيا في هـٰذه الغايةِ مِنَ السِّحرِ . . فيجبُ معرفةُ مكرِها وخديعتِها وإيضاحُ أمرِها للخَلقِ ؛ ليعرِفوها ؛ فيجتنبوها ويحذروها .

* * *

= الرهاوي عن عبد الله بن بُسْرٍ المازني رضي الله عنه مرفوعاً . قال الذهبي : (لا يُدرىٰ مَنْ أبو الدرداء ، وهـٰذا مُنكَر لا أصل له) .

وأخرجه أبو طاهر المُخلِّص (ت : ٣٩٣هـ) في « المخلِّصيَّات » (٣/ ٤٤٩) بسنده من حديث إمِّ الدرداء رضي الله عنها موقوفاً : (وللدنيا أسحر من هاروت وماروت ، ولا يؤثرها عبدٌ إلا أضرعتْ خدَّه) .

٣ فصلٌ

في بيان صفة الدنيا بالأمثلة(١)

المثال الأوَّل : اعلم أنَّ أوَّلَ سِحرِ الدُّنيا . . هو أن تُرِيَكَ نفْسَها بحيث تعتقدُ أنَّها ساكنةٌ إليك ، قارَّةٌ معك ، مصاحبةٌ لك ، وهي أبداً مع إظهارِ هٰذا لك . . هاربةٌ منك طالبةٌ لغيرِك ، ولٰكن ذرَّةً ذرَّةً وقليلاً قليلاً على التَّدريجِ ، كما قيل فيها : [من السريع]

تَسْتَنْكِحُ الْبَعلَ وقَد وَطَّنَتْ ... فِي مَوْضعٍ آخرَ منهُ بديلْ(٢)

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « إحياء علوم الدين » (٦/ ٥٦) ، وجاء في (و) وحدها زيادة : (فصلٌ في ذكر الأمثلة) ، وهو مخالفٌ لعادة المؤلِّف من عدم عنونة الفصول في الكتاب كما هو في جميع النُّسخ ، فلعلَّها زيادةٌ مِنَ النَّاسخ ، وقد عنونتُ للفصل بما عنون به الإمام الغزاليُّ في « الإحياء » .

(٢) كذا في (ج) : (وقد وطنت) ، وفي (ب) و(د) و(ليدن) : (وقد بدلت) ، والبيتُ من أبياتٍ أوردها ابن أبي الدُّنيا في « ذمُّ الدُّنيا » (ص ٨٦) ، و« الزُّهد » (ص ١١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٣٩) كلاهما نسبها لخيثم بن جحشة العابد ، أبو بكرٍ العجلي ، قال :

يَا خاطبَ الدُّنيا إلىٰ نَفْسِهِ ... إنَّ لها فِي كُل يوم خليلْ

مـا أقتلَ الدُّنيا لخُطَّابِها ... تقْتُلُهم قُدماً قتيلاً قَتِيلْ

تَسْتَنْكِحُ الْبَعلَ وقَد وَطَّنتْ ... فِي مَوْضعٍ آخرَ منهُ بديلْ

إنِّي لمُغتَرٌّ وَإنَّ الْبِلَىٰ ... يَعْمَلُ فِي جِسمِي قليلاً قليلْ

تَزوَّدُوا للموتِ زاداً فَقدْ ... نادىٰ مُنَادِيهِ الرَّحيلَ الرَّحيلْ =

ومثَلُها في هٰذا الفعلِ كالظِّلِّ ، إذا نظرتَ إليه.. رأيتَه ساكناً وهو يسيرُ مع الدَّوامِ ، ومعلومٌ أنَّ عُمْرَك هٰكذا ، يسيرُ مع الدَّوامِ شيئاً وينقصُ بالتدريجِ شيئاً فشيئاً مع الأيامِ ، وتلك إنَّما هي الدُّنيا تهربُ من قومٍ وتودِّعُ ، وأنتَ غافلٌ عن ذلك .

مثالٌ آخَرُ بوجهٍ آخَرَ من وجوهِ سِحرِها(١) : وذلك أنَّها تُريكَ نفسَها كأنَّها مُحبَّةٌ لك ، وأنَّها لا تزالُ موافقةً معك لا توافقُ غيرَك ، ولا ترغبُ في سواك ؛ حتىٰ تميلَ بك إلىٰ عشقِها ، وتطرَحَك في شبكةِ المحبَّةِ لها ، ثمَّ تنصرفُ عنكَ علىٰ غفلةٍ منكَ إلىٰ عدوِّك .

ومَثَلُها : كامرأةٍ مُفسدةٍ تُغِرُّ الرِّجالَ ليعشقُوها ، فإذا أحبُّوها.. حمَلَتْهم إلىٰ منزلِها وأهلكتْهم ، كما قيل فيها : [من السريع]

يَا خاطبَ الدُّنيا إلىٰ نَفْسِهِ ... إنَّ لهـا فـي كـلِّ يـومٍ قتيـلْ(٢)

قال عيسى بنُ مريمَ عليه السَّلامُ : رأيتُ الدُّنيا ـ يعني : في بعضِ مكاشفاتِه ـ في صورةِ امرأةٍ عجوزٍ فقلتُ لها : كم نكحتِ بعلاً ؟ فقالت : لا يحصرُهم عدداً إلا اللهُ تعالىٰ من كثرتِهم ، فقلتُ : ماتوا

= وأوردها الصَّفدي في « الوافي بالوفَيَات » (١٥/ ١٢٠) ، وابن شاكر الكُتُبي في « فوات الوفَيَات » (٢/ ٤٩) كلاهما في ترجمة سعدون المجنون رضي الله عنه : (أنَّ عبدالله بن سويد قال رأيت سعدون المجنون وبيده فحمة وهو يكتب بها علىٰ جدار قصرٍ خَرَاب. . .) الأبيات .

(١) عنون الإمام الغزالي لهٰذا المثال بـ : (مثالٌ آخرُ للدُّنيا في عداوتها لأهلها ، وإهلاكها بنيها) . « الإحياء » (٦/ ٥٨) .

(٢) انظر (ص ٣٠٨ ، الحاشية ٢) .

عنكِ أم طلَّقوكِ ؟ فقالت : لا ، بل قتلتُهم كلَّهم ، فقلتُ : ليس العجبُ من فعلِك بهم ، إنَّما العجبُ من هؤلاء الحمقى الذين يرونَ قتلَكِ للرِّجالِ وهم يرغبونَ فيكِ ولا يَعتبرونَ بما يَرونَ[1] !!

ما أقتَلَ الدُّنيا لخُطَّابِها   تقْتُلُهم قُدْماً قتيلاً قَتيلْ[2]

مثالٌ آخَرُ في ذكرِ سِحرِها من وجهٍ آخَرَ[3] : وذلك أنَّها تُزيِّنُ ظاهرَها بالمحابِّ وتغطِّي ما كان منها محنةً أو بلاءً ؛ لينظرَ الجاهلُ إلىٰ ظاهرِها . . فيغترَّ بذلك .

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في « ذمِّ الدُّنيا » (ص ٢٤) ، و« الزُّهد » (ص ٣٢) ، وعنه حُجَّة الإسلام الغزالي في « الإحياء » (٦/٥٨) بلفظ : (وقد رُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليه السَّلامُ كُوشفَ بالدُّنيا ، فرآها في صورة عجوزٍ هتماءَ ، عليها من كلِّ زينةٍ ، فقال لها : كم تزوَّجتِ ؟ قالت : لا أُحصيهم ، قال : فكلُّهُم مات عنكِ أو كلُّهُم طلَّقكِ ؟ قالت : بل كلُّهُم قتلتُ ، فقال عيسىٰ عليه السَّلامُ : بؤساً لأزواجِكِ الباقينَ كيف لا يعتبرونَ بأزواجِكِ الماضينَ ؟! كيف تُهلكينَهُم واحداً بعدَ واحدٍ ولا يكونون منكِ علىٰ حذرٍ ؟!) . والهتماء : مُكسَّرة الأسنان .
وقال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السَّادة المتَّقين » (٨/١٠٨) : (نقله صاحب « القوت » ، وقد رُوِيَ ذلك مرفوعاً من حديث أنسٍ بلفظِ : « مُثِّلَتْ لأخي عيسى بن مريم الدُّنيا فىٰ صورة امرأةٍ ، فقال لها : لكِ زوجٌ ؟ قالت : نعم ، أزواجٌ كثيرة ، قال : هم أحياء ؟ قالت : لا ، قتلتُهم . فعلمَ حينئذٍ أنَّها دنيا مُثِّلتْ له » ، رواه الدَّيلمي في « مسند الفردوس » [٤/١٦٧ ، رقم : ٦٥٢٠]) .

(٢) انظر (ص ٣٠٨ ، الحاشية ٢) ، وفي (ليدن) وحدها ثبت هٰذا البيت في هٰذا الموضع .

(٣) عنون الإمام الغزالي لهٰذا المثال بـ : (مثالٌ آخرُ للدُّنيا في مخالفة باطنها لظاهرها) . « الإحياء » (٦/٥٩) .

ومَثَلُها : كامرأةٍ عجوزٍ قبيحةِ المنظرِ لبِسَتْ ثياباً جميلةً وحُليّاً كثيراً ، وتزيَّنتْ بأنواعِ الزِّينةِ ، وتنقَّبتْ ، فإذا رآها أحدٌ من بُعدٍ . افتُتِنَ بها ؛ حتىٰ إذا نحَّىٰ عنها الإزارُ ونضا النِّقابُ . . نَدِمَ[1] علىٰ تعلُّقِ قلبِه بها إذا شاهدَ فضائحَها وقبحَها[2] ، وفي الخبرِ : « يُؤتىٰ بالدُّنيا يومَ القيامةِ في صورةِ عجوزٍ ، قبيحةِ المنظرِ ، سمجةِ الوجهِ ، زرقاءِ العينِ ، قد خرجَتْ أسنانُها عن شفتَيها ، فإذا نَظرَ الخَلقُ إليها . . قالوا : نعوذُ باللهِ ، ما هـٰذا الذي نراه في غايةِ القُبحِ ونهايةِ الفضيحةِ ؟! فيقالُ لهم : هـٰذه الدُّنيا التي تحاسدتُمْ وتعاديتُمْ عليها ، وأرَقتمُ الدِّماءَ وقطَّعتمُ الأرحامَ لأجلِها ، واغتررتُمْ بها ، ثمَّ يُقذَفُ بها في النَّارِ ؛ فتستغيثُ وتقولُ : إلـٰهي ، أين الذين عشقوني واتَّبعوا أمري ومالوا إلىٰ محبَّتي ؟ فيأمرُ اللهُ سبحانه فيُقذَفُ بهم معها في النَّارِ »[3] .

---

(١) في (د) وحدها : (الإزار والنِّقاب **وعاين السماجة** . . ندم) بدل (الإزار ونضا النِّقاب . . ندم) ، وقوله : نضا ؛ أي : كشف .

(٢) في (د) وحدها زيادة : (**واشتدَّ غمُّه** إذا شاهد فضائحها وقبحها **حين أذهب عمره في محبَّتها**) .

(٣) رواه ابن أبي الدُّنيا في « ذمّ الدُّنيا » (ص ٦٦) ، و« الزُّهد » (ص ٥٠) ، وعنه حُجَّة الإسلام الغزالي في « الإحياء » (٦/ ٦٠) بلفظ : (قال ابن عباسٍ رضي الله عنه : يُؤتىٰ بالدُّنيا يومَ القيامةِ في صورةِ عجوزٍ شمطاءَ زرقاءَ ، أنيابُها باديةٌ ، مشوَّهٌ خَلقُها ، فتشرفُ على الخلائقِ ، فيقالُ : أتعرفون هـٰذه ؟ فيقولون : نعوذُ باللهِ من معرفةِ هـٰذه ، فيقالُ : هـٰذه الدُّنيا التي تناحرتُم عليها ، بها تقاطعتُمُ الأرحامَ ، وبها تحاسدتُمْ وتباغضتُمْ واغتررتُمْ ، ثمَّ تُقذفُ في جهنَّمَ ، فتنادي : أيْ ربِّ ؛ أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ : ألحقوا بها أتباعَها وأشياعَها) ، ورواه أيضاً البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٨٩) .

مثالٌ آخَرُ(١) : مَنْ حَسَبَ كم كان الأزلُ قبل خلقِ الدُّنيا ، وكم يكونُ الأبدُ بعد فنائها ، وهـٰذه الأيامُ التي بينهما ما هي . . عرفَ أنَّ مثَلَ الدُّنيا كطريقِ مسافرٍ ، أوَّلُه المهدُ وآخرُه اللَّحدُ ، وبينهما منازلُ معدودةٌ ، كلُّ سنةٍ مثلُ منزلٍ ، وكلُّ شهرٍ مثلُ فرسخٍ ، وكلُّ نَفَسٍ مثلُ خطوةٍ ، وقد بقيَ مِنَ المسافةِ لكلِّ واحدٍ فرسخٌ مثلاً ، زائداً أو ناقصاً ، وهو قاعدٌ ساكنٌ وادعٌ(٢) كأنَّه لا يزالُ مقيماً في الدُّنيا ! يدبِّرُ أموراً هو غيرُ محتاجٍ إليها إلىٰ عشرِ سنينَ ! ولعلَّه لا يحتاجُ إليها ، وربما كان قُبُلَ عشرةِ أيامٍ تحت التُّرابِ ، كما قيل : يا ابنَ آدمَ ؛ تضحكُ ولعلَّ أكفانكَ قد خرجَتْ من عندِ القصَّارِ(٣) !!

مثالٌ آخرُ(٤) : اعلم أنَّ مثَلَ الدُّنيا وما يُحتاجُ إليه منها وما يُلقىٰ لأجلِها مِنَ الشَّدائدِ والمقابحِ في الآخرةِ . . كمَثَلِ مَنْ أكثرَ من أكلِ طعامٍ طيِّبٍ سمينٍ وحلاوةٍ كثيرةٍ ، بحيثُ تَفسدُ معدَتُه ، ثم يشاهدُ ما يصدرُ من معدَتِه مِنَ الرَّوائحِ الخبيثةِ مع الجشأ وقضاءِ الحاجةِ ؛ فيندمُ ويقولُ :

---

(١) عنون الإمام الغزالي لهـٰذا المثال بـ : (مثالٌ آخرُ للدُّنيا وعبورِ الإنسان بها) . « الإحياء » (٦/ ٦٠) .

(٢) وادعٌ ؛ أي : هادئ مستقر .

(٣) من كلام عبدالله بن ثعلبة الحنفي ، رواه عنه ابن أبي الدُّنيا في « قصر الأمل » (ص ٧٤) ، وأبو نُعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٠٤) .

(٤) سقط ما سيُذكرُ مِنَ الأمثلة من (ج) وحدها ، إلىٰ ما قبل نهاية الباب الرَّابع عند قوله : (فصلٌ : لا تعتقد أنَّ كل ما كان مِنَ الدُّنيا مذموم) . وعنون الإمام الغزالي لهـٰذا المثال بـ : (مثالٌ آخرُ لمخالفة آخرِ الدُّنيا أوَّلَها ، ولنضارة أوائلها وخبثِ عواقبِها) . « الإحياء » (٦/ ٦٥) .

ذهبتِ اللَّذَّةُ الحاصلةُ بالأكلِ وانقضتْ ، وبقيتْ هٰذه الرَّوائحُ الخبيثةُ ومعاناةُ القبيحِ ومقاساةُ الخلاءِ .

وكلَّما كان الطعامُ أطيبَ . . كان ثُفْلُه أقبحَ رائحةً[1] .

فكذلك الدُّنيا ؛ كلَّما كثُرتْ لذَّتُها . . ازدادَ قبحُ عاقبتِها ، وهٰذا يظهرُ عند قبضِ الرُّوحِ ؛ فإنَّه مَنْ كان ذا مُلكٍ وبستانٍ ودارٍ وعَقارٍ وغِلمانٍ وجَوارٍ وذهبٍ وفضةٍ . . يجدُ لذَّةَ ذلك في حياتِه ، فإذا حانَ المقدورُ من وفاتِه . . تكونُ حسرتُه حينئذٍ أكثرَ من حسرةِ مَنْ ليس له شيءٌ ، وزادَ ألَمُ فِراقِه لِمَا يملكُ أكثرَ من ألَمِ مَنْ لا يملكُ شيئاً ، ولا تزولُ تلك الحسرةُ والألمُ بالموتِ ، بل تزداد [؛ لأنَّ[2] التَّألُّمَ من صفةِ القلبِ ، والقلبُ لا يموتُ .

مثالٌ آخرُ[3] :

اعلم أنَّ بعضَ أشغالِ الدُّنيا يظنُّ الشَّخصُ أنَّه مُختصرٌ يفرُغُ منه

---

(١) الثُّفْلُ : حُثَالَةُ الشَّيْءِ .

(٢) أشرتُ سابقاً إلىٰ أنَّ النسخة (ج) سقط منها أمثلة ثبتت في بقيَّة النُّسخ ، هٰذا وقد ثبت في هامش (ب) وحدها ما جعلتُهُ بين معقوفين ، وأُشيرَ إليه فيها بعلامة (صح) ، وأثبتُّه في صلب الكتاب دون الهامشِ ؛ لتوافقه وانسجامه مع الكلام ، فعبارة (د) و(هـ) و(و) و(ز) و(ليدن) : (ولا تزول تلك الحسرة والألم بالموت ، بل تزداد ، فكذلك الدُّنيا دارُ ضيافةٍ على الطريق . . .) الخ ؛ يَحكمُ عليها النَّاظر بأدنىٰ تأمُّلٍ . . بالخلل والاضطراب ووجودِ السَّقط فيها .

(٣) عنون الإمام الغزالي لهٰذا المثال بـ : (مثالٌ آخرُ للدُّنيا في تعذُّر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها) . « الإحياء » (٦/ ٦٣) .

سريعاً ، فلمَّا يشرعُ فيه.. ينجَرُّ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، بحيثُ تنشعبُ من شغلٍ واحدٍ مئةُ أشغالٍ.. فيذهبُ عمْرُه فيها ؛ لأنَّ مَثَلَ الدُّنيا مِثلُ الماءِ المالحِ ، كلَّما ازدادَ الشَّخصُ منه شُرباً.. زادَ عطشاً .

وأيضاً : وردَ في الحديثِ ؛ أنَّه كما لايمكنُ أن يدخُلَ الشَّخصُ في الماءِ ولا تبتلَّ أعضاؤه.. كذا لا يمكنُ أن يدخُلَ في الدُّنيا ولا يتلوَّثَ بها[1] .

مثالٌ آخرُ[2] :

الدُّنيا كمَثَلِ شخصٍ كثيرِ الضِّيافةِ للنَّاس ، ومِنْ عادتِه أن يُهيِّئَ للأضيافِ بُيوتاً وفُرُشاً مُزيَّنةً ، وأطباقاً ، ومجامِرَ ، ومراوحَ مِنَ الذَّهبِ والفضَّةِ ، مع أنواعِ الطِّيبِ والأبخرةِ وألوانِ الطَّعامِ ، ليستعملَ الأضيافُ وينتفعوا بهـٰذه الأشياءَ ، ثمَّ يتركونَها علىٰ حالِها ويرجعونَ .

فمَنْ علِمَ عادةَ المُضيفِ.. انتفعَ بالأشياءِ وتركَها ، ثمَّ رجعَ بطيبِ النَّفْسِ ، ومَنْ لم يعرِفْ عادةَ المُضيفِ.. ظنَّ أنَّ هـٰذه الأشياءَ أيضاً لَهُ ، فهَمَّ بعدَ الانتفاعِ أن يذهبَ ببعضِ هـٰذه الأشياءَ ، فلا شكَّ أن يؤخَذَ منهُ

---

(١) وهو ما رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (ص ٨٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠٩٩) عن الحسن قال : بلغني أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْمَاشِي فِي الْمَاءِ ، هَلْ يَسْتَطِيعُ الَّذِي يَمْشِي فِي الْمَاءِ أَنْ لاَ تَبْتَلَّ قَدَمَاهُ ؟! » ، ووصله في « الشعب » (٩٩٧٣) ، وفي « الزهد الكبير » (٢٥٧) عن الحسن عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) عنون الإمام الغزالي لهـٰذا المثال بـ : (مثالٌ آخرُ لتنعُّم الناس بالدُّنيا ثم تفجُّعهم علىٰ فراقها) . « الإحياء » (٦/ ٧١) .

بالغصبِ إذا أخذَ منها شيئاً ، رغماً على أنفِه ، ويرجِعَ حزيناً أسِفاً .][1]

فكذلك الدُّنيا دارُ ضيافةٍ على الطريقِ ، فسبيلُ المجتازينَ أن يتزوَّدوا منها ولا يطمعْ أحدُهم فيما في الدَّارِ ؛ فإنَّه يُسترجَعُ منه ويخرجُ عنها .

مثالٌ آخرُ[2] : مَثَلُ أهل الدُّنيا المشغولينَ بها مع نسيانِهم الآخرة . . مَثَلُ قومٍ كانوا في سفينةٍ ، فصعدوا منها إلىٰ جزيرةٍ وصلوها ؛ ليقضُوا حاجةَ الإنسانِ منها ويتطهَّروا فيها ، فلمَّا خرجوا . . نادى الملاَّحُ : ألا لا يتخلَّفنَّ أحدٌ منكم إلا بقدْرِ ما يقضي حاجتَه ويتوضأ ، ثمَّ يأتي لنذهبَ بسرعةٍ ؛ فإنَّا لا يمكنُنا التَّخلُّفُ زيادةً عن هٰذا القدْرِ .

فلمَّا دخلوا الجزيرةَ . . تفرَّقوا فيها ، فمَنْ كان ذا عقلٍ . . خفَّفَ الطَّهارةَ وأسرعَ العَودَ ؛ فوجدَ السَّفينةَ خاليةً ، فجلسَ في أوفقِ مكانٍ وأطيبِ موضعٍ فيها .

وقومٌ اشتغلوا بالنَّظرِ إلىٰ عجائبِ الجزيرةِ ، وسماعِ أغاريدِ أطيارِها ، ومشاهدةِ ثمارِ أشجارِها ، وتقليبِ ما فيها مِنَ الحصى المنقوشِ والحجارةِ الملوَّنةِ ، فلمَّا رجعوا . . لم يجدوا في السَّفينةِ موضعاً كما يجبُ ، لٰكن مع الضِّيقةِ والظُّلمةِ ؛ فجلسوا في أحرجِ موضعٍ وأدبرِه ، وهُم يَلقَونَ شدَّةَ ذلك .

---

(١) انتهى السقط في (د) و(هـ) و(و) و(ز) و(ليدن) ، وانظر (ص ٣١٣ ، الحاشية ٢) .

(٢) سقط هٰذا المثال من (و) وحدها ، وقد عنون الإمام الغزالي لهٰذا المثال بـ : (مثالٌ آخرُ للدُّنيا وأهلِها في اشتغالهم بنعيم الدُّنيا وغفلتِهم عنِ الآخرة وحسراتِهمُ العظيمةِ بسببها) . « الإحياء » (٦/ ٦٧) .

وقومٌ لم يقتصروا على النَّظرِ ، لكنْ رفعوا معهم من تلك الحجارةِ المختلفةِ الألوانِ ، فلمَّا صعدوا السَّفينةَ . . لم يجدوا إلا موضعاً حَرِجاً مُظلماً ؛ فجلسوا فيه ، وما رفعوه مِنَ الحصىٰ علىٰ ظهورِهم ورقابِهم ، فلمَّا وصلوا إلىٰ موضعٍ مُضيءٍ ومضىٰ عليهم يومانِ أو ثلاثةٌ . . رأوا تلك الألوانَ قد استحالتْ ، والرَّوائحَ قد تغيَّرتْ وجافتْ ! فلم يجدوا موضعاً يرمون فيه ذلك عن ظهورِهم ، فندِمُوا حين عاينوا الأمرَ كذلك ، وداموا تحت تلك الأثقالِ أبداً .

وقومٌ تحيَّروا في أمرِ الجزيرةِ وعجائبها . . فمكثوا فيها ينظرونَ إلىٰ مستحسناتِها ؛ حتىٰ ذهبتِ السَّفينةُ ، ولم يسمعوا صوتَ الملاَّحِ ثانيةً ، فتخلَّفوا في الجزيرةِ حتىٰ هلَكَ بعضُهم مِنَ الجوعِ ، وبعضُهم أكلَتْه السِّباعُ .

فالفرقةُ الأولىٰ : مَثَلُ المؤمنينَ المتورِّعينَ في أمورِهم .

والفرقةُ الأخيرةُ : مَثَلُ الكافرين الذين نَسُوا نفوسَهم وخالقَهم والآخرةَ وشَغَلوا كليَّتَهم بالدُّنيا ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧]، ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النحل : ١٠٧] .

والفريقانِ اللَّذانِ ذكرناهما في الوسَطِ : مَثَلُ العصاةِ ؛ حفظوا أصلَ الإيمانِ ، لكن لم يَتركوا الدُّنيا !

قومٌ تمتَّعوا بها مع فقرِهم ، وآخرونَ تمتَّعوا بالنِّعَمِ مع كثرةِ الجمعِ حتىٰ ثقُلَتْ أحمالُهم علىٰ ظهورِهم[1] .

* * *

---

(١) إلىٰ هنا ينتهي السَّقط في (ج) و(و) ، وتتصلان مع بقيَّة النسخ .

٤ فصل

في بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد[١]

لا تعتقدْ أنَّ كلَّ ما كان مِنَ الدُّنيا مذمومٌ لأجلِ ما سمعتَه في ذلك الفصلِ ؛ فإنَّ في الدُّنيا أشياءَ ليست محسوبةً منها ؛ فإنَّ العملَ يكونُ في الدُّنيا ولا يُعدُّ من جملةِ الدُّنيا ؛ فإنَّه يصحبُ الآدميَّ إلى الآخرةِ ، أمَّا العِلمُ . . فإنَّه يبقىٰ بعينِه معهُ ، وأمَّا العملُ وإن لم يبقَ عينُه . . فيبقىٰ معهُ أثرُه ، وذلك قسمانِ :

أحدُهما : الطَّهارةُ وصفاءُ جوهرِ القلبِ الحاصلِ مِنْ تركِ المعاصي .

والثاني : الأُنسُ بذكرِ اللهِ تعالى الحاصلُ مِنَ المواظبةِ على العباداتِ ، وهٰذه الجملةُ من قَبيلِ الباقياتِ الصالحاتِ التي جعلَها اللهُ خيراً عندَهُ ثواباً .

واعلم[٢] : أنَّ لذَّةَ الأنسِ بذكرِ اللهِ سبحانه . . أكثرُ وأعظمُ من سائرِ اللذَّاتِ ، وذلك في الدُّنيا ، وليس منها ، فإذاً ؛ جميعُ اللذَّاتِ غيرُ مذمومةٍ ، إنَّما المذمومُ منها لذَّةٌ تفنىٰ ولا تبقىٰ ، ولا يُذمُّ ذلك أيضاً علىٰ سبيلِ العمومِ ، إنَّما ذلك قسمانِ ، أحدُهما وإن كان مِنَ الدُّنيا

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « إحياء علوم الدين » (٦/ ٧٣) ، وقد عنونتُ للفصل بما عنون به الإمام الغزاليُّ في « الإحياء » .

(٢) في (ب) و(هـ) و(ز) فُصِل هٰذا المقطع بقوله : (فصلٌ : اعلم أنَّ لذة الأنس بذكر الله . . .) الخ .

ويبقىٰ[1] ، فلا يبقىٰ بعد الموتِ ، فهو مُعِينٌ علىٰ أمرِ الآخرةِ والعلمِ والعملِ والاستكثارِ مِنَ المؤمنينَ ؛ كالقوتِ والنِّكاحِ واللِّباسِ والمَسكنِ إذا كان بقدْرِ الحاجةِ ؛ فإنَّ هـٰذا شرطُ طريقِ الآخرةِ .

فمَنِ اقتصرَ من دُنياه علىٰ هـٰذا القدْرِ ، وقنِعَ به ، وكان قصدُهُ الاستعانةَ بذلك علىٰ أمرِ الدِّينِ . . لم يكن من أهلِ الدُّنيا .

فإذاً ؛ يُذمُّ مِنَ الدُّنيا ما كان المقصودُ منه غيرَ هـٰذا ، وكان سبباً للغفلةِ عن أمرِ الآخرةِ ، والنظرِ في أمرِ الدُّنيا واستيطانِها ؛ حتىٰ كان ذلك سبباً لغفلةِ القلبِ عنِ المقصودِ ، وسكونِه إلىٰ هـٰذا العالَمِ ونفورِه عن ذلك العالَمِ الذي لا بُدَّ له منه ؛ ولهـٰذا قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « **الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا ، إِلاَّ ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ** »[2] .

وهـٰذا القدْرُ هـٰهنا كافٍ في ذكرِ حقيقةِ الدُّنيا والمقصودِ منها ، وسنشيرُ إلىٰ نُبذةٍ منها في أثناءِ البابِ الرابعِ[3] .

واللهُ الموفِّقُ ، وهو المرجوُّ للتَّجاوزِ عن ذنوبِنا والصَّفحِ عن خطايانا ومعاصينا برحمتِه .

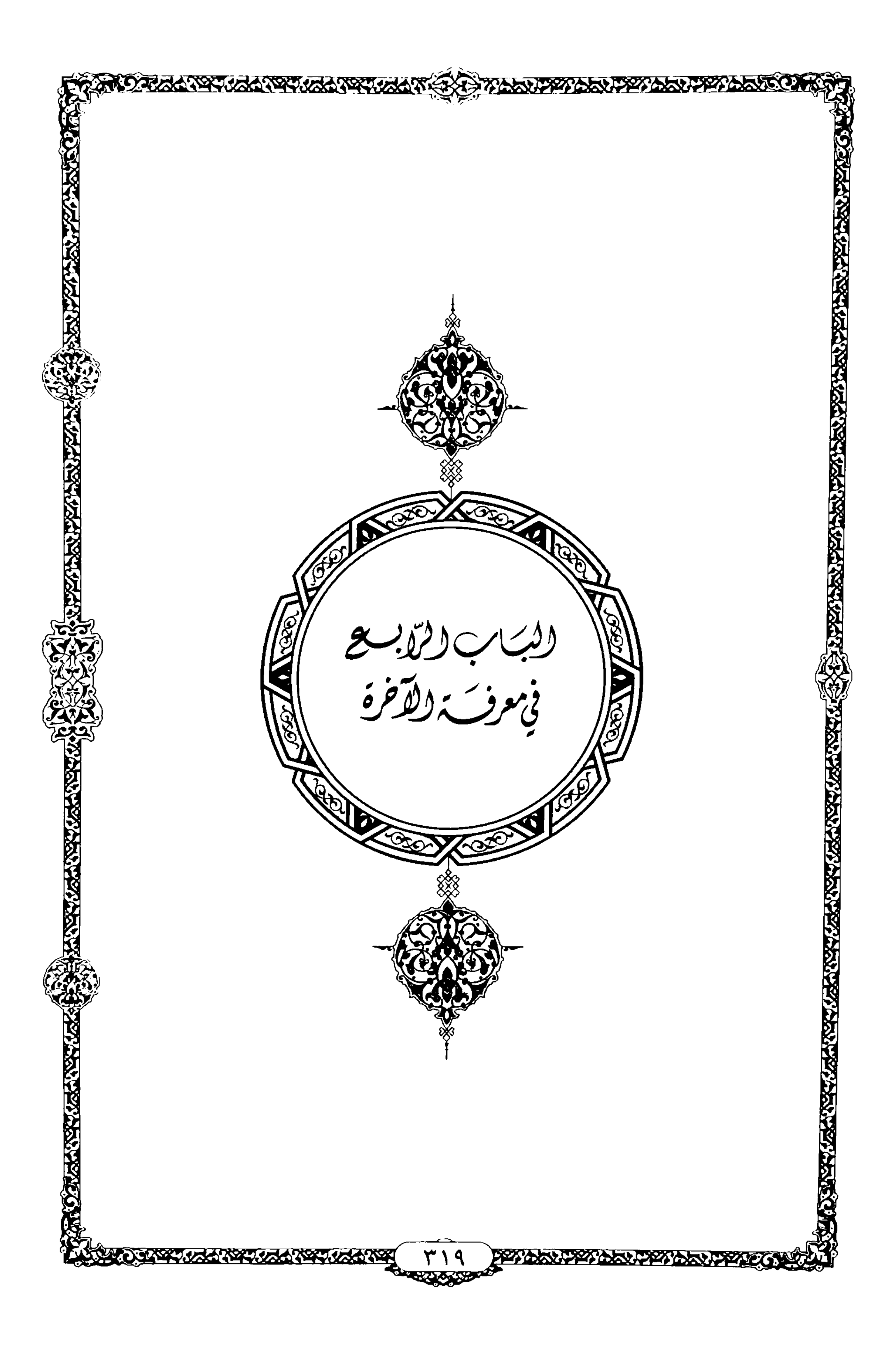
* * *

---

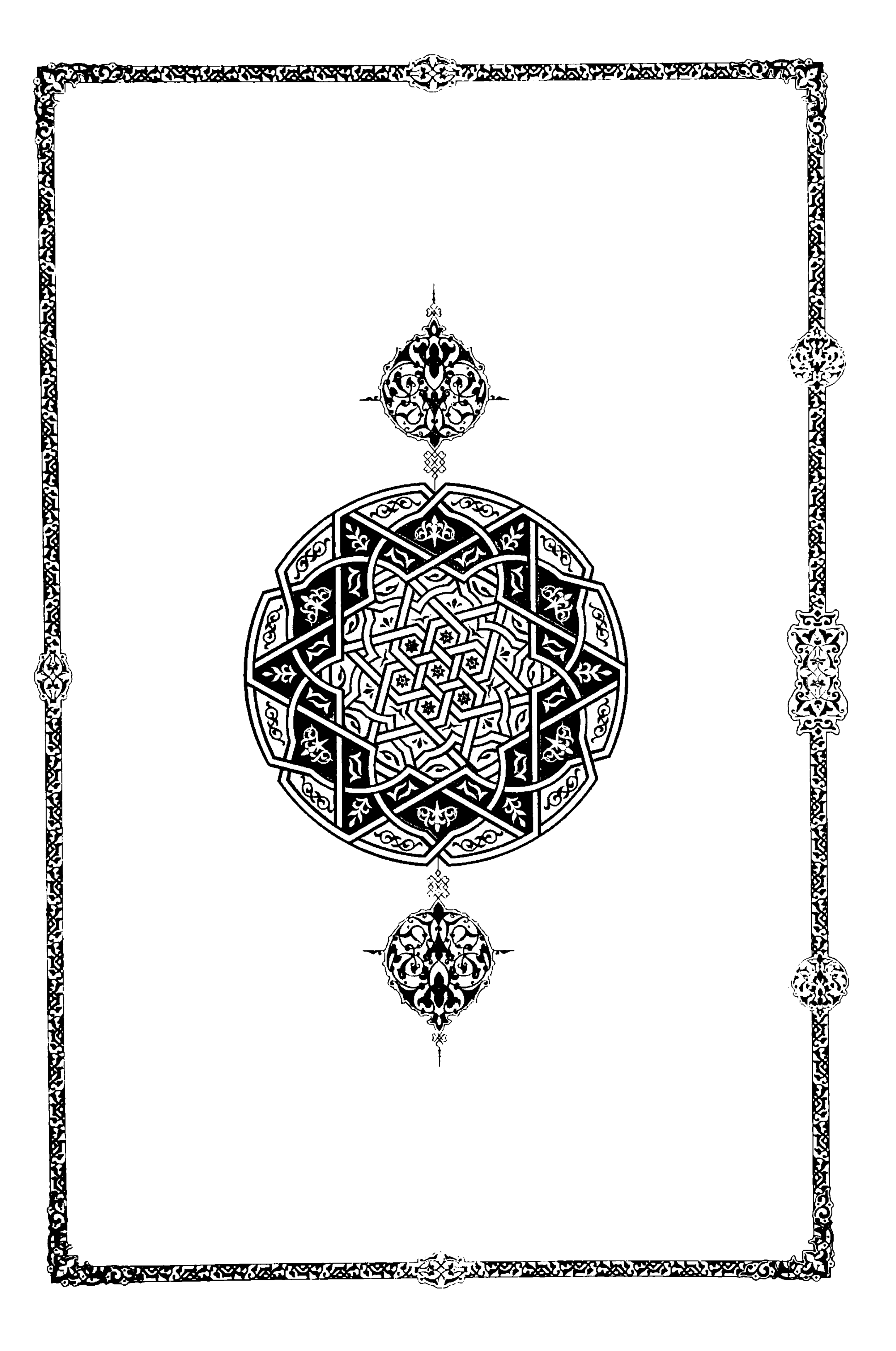
(١) كذا في (ج) و(د) : (ويبقىٰ) ، وفي (ب) و(هـ) و(و) و(ز) و(ليدن) : (ويفنىٰ) .

(٢) رواه التِّرمذي (٢٣٢٢) وقال : حديث حسنٌ غريب ، وابن ماجه (٤١١٢) واللفظ له ، من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وللحديث تتمَّةٌ : « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا ، إِلاَّ ذِكْرَ اللهِ ، وَمَا وَالاَهُ ، **أَوْ عَالِمًا ، أَوْ مُتَعَلِّماً** » .

(٣) في (د) وحدها زيادة : (**في أثناء الباب الرابع حسب ما تقتضيه**)



الباب الرّابع
في معرفة الآخرة



الباب الرّابع
في معرفة الآخرة[1]

اعلم أنَّه لا سبيلَ لأحَدٍ إلىٰ معرفةِ الآخرةِ.. ما لم يعرفِ الموتَ أوّلاً ، ولا يَعرفُ حقيقةَ الموتِ.. ما لم يعرفْ حقيقةَ الحياةِ ، ولا يَعرفُ حقيقةَ الحياةِ[2].. ما لم يعرفْ حقيقةَ الرُّوحِ ، وقد تقدَّمَ القولُ في معرفةِ حقيقةِ النَّفْسِ[3] .

واعلم أنَّا قد ذكرنا من قبلُ أنَّ الآدميَّ مركَّبٌ من شيئينِ ، من بدنٍ وروحٍ ، فالبدنُ هو القالبُ وهو كالمركوبِ ، والرُّوحُ كالرَّاكِبِ ، ولهٰذه الرُّوحِ بواسطةِ البدنِ حالٌ في الآخرةِ ، وجنَّةٌ ونارٌ ، ولها من غيرِ واسطةِ البدنِ حالٌ على انفرادِها من غيرِ أن يشاركَها البدنُ فيها ، وجنَّةٌ ونارٌ ، وسعادةٌ وشقاوةٌ ، ونحن نسمِّي نعيمَ القلبِ ولذَّتَه الحاصلَينِ له من غيرِ واسطةِ البدنِ ، ويعبَّرُ عن ذلك.. بالجنَّةِ الرُّوحانيَّةِ ، ونسمِّي الألمَ والتَّعبَ والشَّقاوةَ الحاصلةَ له من غيرِ مشاركةِ البدنِ.. بالنارِ الرُّوحانيَّةِ .

فأمَّا الجنَّةُ والنَّارُ المعدَّتانِ للرُّوحِ مع البدنِ.. فحالُهما ظاهرٌ

---

(١) في (ج) وحدها جاء عنوان الباب : (الباب الرَّابع في أمر الآخرة والقبر) .

(٢) سقط من (ج) وحدها قوله : (ولا يعرف حقيقة الموت.. مالم يعرف حقيقة الحياة ، ولا يعرف حقيقة الحياة ما لم يعرف حقيقة الرُّوح) .

(٣) أصل هٰذه المقدِّمة في كتاب « الأربعين في أصول الدين » (ص ٤٦٣) .

وحاصلُهما معلومٌ ؛ فإنَّ هٰذه الجنَّةَ أنهارٌ وأشجارٌ وحُورٌ وقصورٌ ومطعومٌ ومشروبٌ وملبوسٌ وغيرُ ذلك .

وأمَّا حاصلُ هٰذه النَّارِ.. فحيَّاتٌ وعقاربُ ونارٌ وزقُّومٌ وصديدٌ وحميمٌ وغيرُ ذلك .

وقد نُقِلَ صفةُ الموضعينِ في الأخبارِ ووردَ في القرآنِ ، وعِلمُ الكلِّ حاصلٌ بذلك ، وأفهامُهم واصلةٌ إليه[1] ، وقد ذُكرَ بطريقِ التَّفصيلِ في كثيرٍ مِنْ كتُبِ المتقدِّمينَ ؛ فلا حاجةَ بِنَا إلى الاشتغالِ بذكرِه . إنَّما نشتغلُ بذكرِ حقيقةِ الموتِ ومعنى الجنَّةِ والنَّارِ الرُّوحانيَّينِ ؛ فإنَّ ذلك لا يعرفُه كلُّ أحدٍ ، وقولُه تعالىٰ : « **أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ** »[2] .. إنَّما يكونُ ذلك في الجنَّةِ الرُّوحانيَّةِ .

ومن باطنِ القلبِ رَوْزَنَةٌ إلىٰ عالَمِ الملكوتِ يظهرُ منها هٰذه المعاني فلا يبقىٰ فيها شبهةٌ ، ومَنْ فُتِحَ له ذلك الطريق.. اتَّضحَ له اليقينُ بالسَّعادةِ والشَّقاوةِ في الآخرة ، لا بطريقِ التَّقليدِ السَّمعيِّ ؛ بل بطريقِ البصيرةِ والمشاهدة ؛ كما أنَّ الطبيبَ يعلمُ شقاوةَ البدنِ وهلاكَه بالأمراضِ ، وسعادتَهُ وصِحَّتَهُ بعدمِها ، ويَعرفُ ذلك بأسبابِه مِنَ الحِميَةِ والدَّواءِ ، وكثرةِ الأكلِ وتركِ الحِميَةِ.. فكذلك يَعرفُ بمشاهدةِ القلبِ ـ أعني : الرُّوحِ ـ ما لَه مِنَ السَّعادةِ والشَّقاوةِ .

---

(١) سقط من (د) قوله : (وأفهامُهم واصلةٌ إليه) .

(٢) حديثٌ قدسيٌّ متَّفقٌ عليه ، البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

ودواؤه المعرفةُ والعبادةُ ، وسمومُه القاتلةُ إنَّما هي الجهلُ ، وهٰذا العلمُ في غايةِ الشَّرفِ والعِزَّةِ ، وأكثرُ العلماءِ في غفلةٍ عنه ! وربَّما أنكرُوه ! فلا يعرفونَ الجنَّةَ والنَّارَ إلا ما يختصُّ بالبدنِ ، ولا مِنَ الآخرةِ شيئاً إلا بطريقِ التَّقليدِ والسَّماعِ !

وسنذكرُ في هٰذا المختصرِ من ذلك ما يُطهِّرُ باطنَ الفَطِنِ من لوثِ التَّعصُّبِ والهوىٰ ودنسِ التَّقليدِ ، فإذا نَظُفَ باطنُه من ذلك.. وجَدَ هٰذا الطريقَ ، وثبتَ في قلبِه أمرُ الآخرةِ بحيث لا يزولُ عنه ؛ فإنَّ أكثرَ إيمانِ الخَلقِ بالآخرة.. ضعيفٌ في غايةِ الضَّعفِ[1] .

* * *

---

(١) وحجابُ التَّقليد حجابٌ عظيم ، ذكرَه حُجَّة الإسلام ضمنَ الأسباب الخمسة التي تمنع القلب من معرفة حقائق الأمور ؛ فقال : (وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لأسباب خمسة : أوَّلها : نقصان في ذات القلب . والثاني : كدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم علىٰ وجه القلب من كثرة الشهوات . والثالث : أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة . والرَّابع : الحجاب : فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرِّدَ الفكر في حقيقة مِنَ الحقائق.. قد لا ينكشف له ذلك ؛ لكونه محجوباً عنه باعتقادٍ سبقَ إليه منذ الصبا علىٰ سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ؛ فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ، ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد . وهٰذا أيضاً حجاب عظيم ، به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ؛ بل أكثر الصالحين المتفكِّرين في ملكوت السماوات والأرض ؛ لأنهم محجوبون باعتقاداتٍ تقليديَّةٍ جمدَت في نفوسهم ، ورسخت في قلوبهم ، وصارت حجاباً بينهم وبين دَرْك الحقائق . الخامس : الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب) . بتصرُّف من « الإحياء » (٥/٤٨ وما بعدها) .

١ فصل

في حقيقة الموت ومعناه، وأن الرُّوح لا تفنىٰ ولا تموت[1]

إن أردتَ الوقوفَ علىٰ أثرٍ تَعرفُ به حقيقةَ الموتِ ومعناه.. فاعلم أنَّ للآدميِّ رُوحَينِ :

أحدُهما : من جنسِ رُوحِ الحيواناتِ ، ونحن نعبِّرُ عن ذلك بالرُّوحِ الحيوانيِّ .

والثَّاني : من جنسِ رُوحِ الملائكةِ ، ونعبِّرُ عنه بالرُّوحِ الإنسانيِّ .

فأمَّا الرُّوحُ الحيوانيَّةُ : فمنبعُها القلبُ الذي هو قطعةُ لحمٍ مِنَ الجانبِ الأيسرِ مِنَ الصَّدرِ ، وهي مثلُ بخارٍ لطيفٍ يرتقي من أخلاطِ باطنِ الحيوانِ ، وقد حصلَ له مزاجٌ معتدِلٌ ، فهي في المثلِ كالسَّكَنْجِيْنِ الحاصلِ طعمُه مِنَ السُّكَّرِ والخلِّ[2] ؛ فإنَّ طعمَه غيرُ طَعمِ السُّكَّرِ وغيرُ طَعمِ الخَلِّ ، فهكذا هـٰذه الرُّوحُ مِنَ الطبائعِ الأربعِ .

ولهـٰذه الرُّوحِ مِنَ القلبِ بواسطةِ العروقِ والضواربِ.. حركةٌ نحوَ

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « إحياء علوم الدين » (٧/ ٣٧٧) ، و« الأربعين في أصول الدِّين » (ص ٤٦٣ ، في ذكر الموت ، وهو الأصل العاشر مِنَ القسم الرَّابع المعقود في الأخلاق المحمودة) .

(٢) السَّكَنْجِيْن : كلمة فارسية ، أصلها : السكنجبين ، وهو شراب مؤلَّف من عسل وخلٍّ ، والمراد : كل حامض وحلو .

الدِّماغِ وجميعِ الأعضاءِ ، وهـٰذه الرُّوحُ حاملةٌ للقوَّةِ والحركةِ ، فإذا انتهتْ إلى الدِّماغ . . قلَّتْ حرارتُها واعتدلتْ ؛ فتقبَلُ العينُ منها قوَّةَ البصرِ ، والأذنُ قوَّةَ السَّمعِ ، وهـٰكذا جميعُ الحواسِّ .

ومثَلُها : كسراجٍ يُطافُ به في بيتٍ ، فكلُّ موضعٍ انتهىٰ إليه . . يضيءُ من ضوئهِ ، فكما أنَّ ضوءَ السِّراجِ يَظهرُ في الحائطِ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ . . فهكذا قوَّةُ النَّظرِ والسَّمعِ وبقيَّةُ الحواسِّ تظهرُ في الأعضاءِ من هـٰذه الرُّوحِ ، فإذا حدثَ سددٌ في بعضِ العروقِ . . تعطَّلَ العضوُ الذي وراءَ ذلك السَّددِ الحادثِ في ذلك العرقِ وفُلِجَ ، فلا يبقىٰ فيه حسٌّ ولا قوَّةُ حركةٍ .

ومثَلُ هـٰذه الرُّوحِ : كنارِ السِّراجِ ، والقلبُ كالفتيلةِ ، والغذاءُ كالدُّهنِ ، فكما أنَّك إذا قطعتَ الدُّهنَ . . طَفِئتِ السِّراجُ ؛ كذلك إذا قطعتَ الغذاءَ . . بَطَلَ المزاجُ المعتدلُ لهـٰذه الرُّوحِ ؛ فيموتُ الحيوانُ .

وهكذا إذا كان الدُّهنُ موجوداً بكثرةٍ . . فإنَّ الفتيلةَ تهلِكُ ، وربَّما طفِئتْ فلا تتَّقِدُ ، وربَّما لم تقبلِ الدُّهنَ[1] ؛ فكذلك القلبُ ربَّما صارَ غيرَ قابلٍ للغذاءِ مع طولِ المدَّةِ ، وهـٰكذا إذا ألقيتَ شيئاً أو ضربتَهُ على السِّراجِ . . فإنَّها تنطفئُ وإنْ كان الدُّهنُ بحالِه والفتيلةُ أيضاً ؛ فكذلك الحيوانُ إذا أصابَه جرحٌ عظيمٌ . . فإنَّه يموتُ .

وهـٰذه الرُّوحُ ما دامتْ معتدلةَ المِزاجِ حسبَ ما هو الشَّرطُ . . فهي

---

(١) سقطت أداة النَّفي من (ب) و(هـ) و(ز) ، وجاءتِ العبارة فيها : (وربَّما تقبل الدُّهن) ! بدل (وربَّما لم تقبل الدُّهن) ، وكتب في هامش (هـ) بنفس القلم : (لعلَّه : لا تقبل) .

قابلةٌ للمعاني اللَّطيفةِ ؛ كقوَّة الحسِّ والحركةِ من أنوارِ الملائكةِ السَّماويةِ بإذنِ اللهِ سبحانه ، فإذا بطلَ ذلك المِزاجُ منها بغلبةِ حرارةٍ أو برودةٍ أو سببٍ آخَرَ صالحٍ للإبطالِ .. خرجتْ عن كونِها قابلةً لتلك الآثارِ[١] ؛ فهي كالمرآةِ ، ما دامتْ مجلوَّةً صالحةً لِمَا أُعدَّتْ له .. كانتْ قابلةً للصُّوَرِ من كلِّ ما لَهُ صورةٌ ، فإذا خشُنَتْ واستولىٰ عليها الصَّدأ .. خرجَتْ عن كونِها قابلةً لذلك ، لا لأنَّ الصُّوَرَ معدومةٌ أو غائبةٌ ؛ لـٰكنْ لفواتِ صلاحيَّتِها لقبولِ ذلك .

فهكذا صلاحيَّةُ هـٰذا البخارِ اللطيفِ المعتدلِ المسمَّىٰ بالرُّوحِ الحيوانيَّةِ ، إذا انسدَّتْ أبوابُ اعتدالِ مِزاجها حتىٰ بطلَ الاعتدالُ .. خرجَتْ عن كونِها قابلةً لقوَّةِ الحسِّ والحركةِ ، فإذا خرجَتْ عن قبولِها لذلك .. بقيتِ الأعضاءُ محرومةً عن تلك الأنوارِ ؛ لفواتِ قوَّةِ الحسِّ والحركةِ ، فيُقالُ : ماتَ ، فهـٰذا معنى الموتِ الحيوانيِّ .

والذي يُخرِجُ ـ مِنَ الأسبابِ ـ هـٰذا المزاجَ عنِ الاعتدال .. مخلوقٌ مِنَ المخلوقِينَ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، وهو ملَكُ الموتِ ، وكثيرٌ مِنَ الخَلقِ لا يكادونَ يعرفونَ منه سِوى الاسمِ ، وذِكرُ معرفةِ حقيقتِه يطولُ ، ولا يحتملُه هـٰذا الكتابُ ، فهـٰذا معنىٰ موتِ الحيواناتِ .

أمَّا موتُ الآدميِّ فهو علىٰ وجهٍ آخَرَ[٢] ؛ ولهـٰذا كان له رُوحانِ ،

---

(١) في (ب) وحدها : (الأنوار) ، وأشير لها بعلامة (صح) ، وفي (ز) : (المنار) بدل (الآثار) .

(٢) في (ب) و(ز) فُصِل هـٰذا المقطع بقوله : (فصلٌ : أمَّا موتُ الآدميِّ . . .) الخ .

حيوانيٌّ علىٰ ما ذكرناه الآنَ ، وإنسانيٌّ علىٰ ما قدَّمنا ذِكرَه ، وعبَّرنا عنه بالقلبِ ، وليس هو من جنسِ الرُّوحِ الأخرىٰ ؛ لأنَّ الرُّوحَ الحيوانيَّةَ مثلُ هواءٍ لطيفٍ وبخارٍ منطبخٍ صافٍ ناضجٍ .

أمَّا هـٰذه الرُّوحُ الإنسانيَّةُ : فليستْ بجسمٍ ولا قابلةٍ للتَّقسيمِ ، إنَّما هي منزلٌ لمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وكما أنَّ الحقَّ سبحانه وتعالىٰ لا يقبلُ القسمةَ ، وهو واحدٌ . . فكذلك محلُّ معرفةِ الواحدِ يكونُ واحداً[1] ، ولا يكونُ قابلاً للقسمةِ ، فإذاً ؛ لا يحُلُّ في جسمٍ قابلٍ للقسمةِ ، وإنَّما يحُلُّ في شيءٍ متَّحدٍ غيرِ قابلٍ للقسمةِ .

فإذاً ؛ نُقدِّرُ الفتيلةَ ونارَ السِّراجِ ونورَها ، فالفتيلةُ مثلُ الدَّمِ ، ونارُ السِّراجِ مثلُ الرُّوحِ الحيوانيَّةِ[2] ، ونورُ السِّراجِ مثلُ الرُّوحِ الإنسانيَّةِ ، فكما أنَّ نورَ السِّراجِ ألطفُ من نارِ السِّراجِ ونقولُ : لا يمكنُ الإشارةُ إليه . . فكذلك الرُّوحُ الإنسانيَّةُ لطيفةٌ بالإضافةِ إلى الرُّوحِ الحيوانيَّةِ ، ويُقالُ : ليستْ قابلةً للإشارةِ إليها .

وإذا نظرتَ وتلطَّفتَ في نظرِكَ . . وجدتَ هـٰذا المثالَ صحيحاً إلاَّ من وجهٍ واحدٍ : وهو أنَّ نورَ السِّراجِ تبعٌ لها وفرعٌ عليها ، يبطلُ ببطلانِ السِّراجِ ، وليس الرُّوحُ الإنسانيَّةُ تبعاً للرُّوحِ الحيوانيَّةِ ، إنَّما هي أصلٌ لها ؛ فلا تبطلُ ببطلانِها .

---

(١) ثبتت كلمة (محل) في (د) وحدها ، وفي (ب) و(هـ) و(و) و(ليدن) : (فكذلك معرفة واحدٍ يكون واحداً) ، وفي (ج) : (فكذلك معرفة الواحدِ يكون واحداً) .

(٢) سقط من (ب) و(هـ) قوله : (ونار السِّراج مثل الرُّوح الحيوانيّة) .

فإذاً ؛ المثالُ الذي لا يُخرَمُ : هو أنْ نقدِّرَ نوراً ألطفَ من نورِ السِّراجِ ، يكونُ به قِوامُ السِّراجِ لا قِوامُه بالسِّراجِ .

فإذاً ؛ الرُّوحُ الحيوانيَّةُ كالمركَبِ للرُّوحِ الإنسانيَّةِ من وجهٍ ، وكالآلةِ من وجهٍ ، فإذا بطلَتِ الحيوانيَّةُ . . ماتَ القالبُ ، والرُّوحُ الإنسانيَّةُ تبقىٰ بحالِها ، لـٰكن بغيرِ آلةٍ وبغيرِ مركَبٍ ، وموتُ المركوبِ وهلاكُ آلةِ الرَّاكبِ والصَّانعِ . . لا يُعدِمُهما ؛ لـٰكنَّهما يبقيانِ بغيرِ آلةٍ ومركَبٍ .

فإذاً ؛ هـٰذه الآلةُ إنَّما جُعِلتْ لهُ ليُحصِّلَ بها محبَّةَ اللهِ تعالىٰ ، فإن كان قد حصَّلَ ذلك . . كان في هلاكِ الآلةِ خَيْرَةً له ؛ ليخِفَّ عنه حَملُها ؛ ولهـٰذا قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « **الْمَوْتُ تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ** »[1] .

فإنَّ مَنْ حَملَ الحِبَالَةَ علىٰ كتفِه وسعىٰ في طلبِ صيدٍ فحصَّلَهُ . . فإنَّ هلاكَ الحِبَالةِ غنيمةٌ له من حيث إنَّه يستريحُ من ثِقْلِها .

وإنْ ـ والعياذُ باللهِ ـ هلَكَ المركوبُ وتلِفَتِ الآلةُ ولم يحصِّلِ

---

(١) رواه بهـٰذا اللفظ الدَّيلمي في « مسند الفردوس » (٤/ ٢٣٨ ، رقم : ٦٧١٥) ؛ والدَّارقطني عن جابر رضي الله عنه . وفي « الزهد » (٥٩٩) لابن المبارك ، و« المستدرك » (٤/ ٣٥٥) للحاكم ، و« الترغيب والترهيب » (٤/ ٢٢٩ ، رقم : ٥١٢٣) للمنذري ، كلهم من حديث عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما : « **تُحْفَةُ الْمُؤمِنِ الْمَوتُ** » ، قال الحاكم : (صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاه) ، وتعقَّبه الذهبي بأنَّ فيه ابن زياد الأفريقي وهو ضعيف ، وقال الحافظ المنذري : (رواه الطبراني بإسناد جيد) ، وذكره أيضاً الإمام الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦/ ٢٦١ ، رقم : ٣٩٤٠) وعزاه للطبراني في « المعجم الكبير » ، وقال : (رجاله ثقات) .

المقصودَ الذي هو محبَّةُ اللهِ تعالىٰ . . احتقبَ حسرةً عظيمة[1] ، ومصيبةً لا نهايةَ لها ، وهو كالصَّيَّادِ ؛ ضاعتْ حِبَالَتُهُ قبلَ إمساكِ الصَّيدِ !

وأوَّلُ هٰذا الألمِ والحسرةِ . . عذابُ القبرِ أعاذنا اللهُ تعالىٰ منه برحمتِه .

* * *

---

(١) احتقب : أي : حمل علىٰ ظهره .

٢ فصل

في الفرق بين الرُّوح الإنسانيَّة والرُّوح الحيوانيَّة

اعلم أنَّ مَنْ فُلِجَتْ يدُه أو رجلُه . . فإنَّه لم يُعَدم ، لكنَّه باقٍ ؛ لأنَّه ليس يداً أو رجلاً ، إنَّما اليدُ والرِّجلُ آلةٌ له ، وهو مستعملُها ، وكما أنَّ حقيقتَه ليس قِوامَها اليَدُ والرِّجلُ ولا نفْسُها . . فكذلك الصُّلبُ والبطنُ وسائرُ البدنِ ، فلو فُلِجَ ذلك كلُّه . . جازَ أن يكونَ الإنسانُ باقياً .

ومعنى الموتِ : أنَّه يُفلَجُ جميعُ البدنِ ؛ فإنَّ معنى فَلجِ اليَدِ : خروجُها عنِ الطَّواعيةِ ؛ فإنَّ ذلك كان موجوداً منها بصفةٍ تُسمَّى القدرةَ ، وتلك القدرةُ كانت نوراً يصلُ إلى اليَدِ مِنْ سراجِ الرُّوحِ الحيوانيَّةِ ، فإذا حدثَ سدَدٌ في العروقِ التي هي مسالكُ هٰذه الرُّوحِ . . ذهبتِ القُدرةُ ؛ فتعذَّرتِ الطَّاعةُ .

وكذلك جميعُ البدنِ ؛ إنَّما يطيعُ بواسطةِ هٰذه الرُّوحِ ، فإذا فسدَ المِزاجُ فلم يُطِعْ . . سمِّيَ ذلك موتاً ، وأنت بحالِكَ في مكانك[1] وإن لم تكنِ الطَّاعةُ بحالِها ، فكيف تكونُ حقيقتُك هٰذا القالبَ ؟! وتعلمُ أنَّك لو أفكرْتَ في نفْسِكَ . . لعرفتَ أنَّ أجزاءَك الآن ليست تلك الأجزاءَ التي كانت في حالِ الطفوليَّةِ ؛ فإنَّ تلك الأجزاءَ تحلَّلتْ كلُّها بالأبخرةِ وجاء بدلُها مِنَ الأغذيةِ .

---

(١) نهاية البتر الأوَّل في النُّسخة (أ) . وانظر (ص ٢٩٥) .

فإذاً ؛ ليس هـٰذا القالبُ ذاك ، بل غيرُه ، وأنتَ ذاكَ لا غيرُك .

فإذاً ؛ أنتَ أنتَ مع عدَمِ القالبِ ، فإذا هلَكَ . . فدعهُ يهلِكُ ، فأنتَ حيٌّ بذاتِكَ .

أمَّا أوصافُكَ فقسمانِ :

أحدُهما : يكونُ بمشاركةِ القالبِ ؛ كالجوعِ والعطشِ والنَّومِ ، وهـٰذا لا يستقيمُ بغيرِ جسمٍ ومعدَةٍ ، فلا جَرَمَ يبطلُ هـٰذا بالموتِ .

الثاني : ما لا شركةَ للقالَبِ فيه ؛ كمعرفةِ اللهِ تعالىٰ والابتهاجِ بذلك ، فهـٰذه صفةُ ذاتِكَ ، فتبقىٰ معكَ ، وهـٰذا معنىٰ قولِه تعالىٰ : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

فأمَّا إذا كان في قلبِكَ جهلٌ بالحقِّ سبحانه . . فإنَّ هـٰذه الصفةَ أيضاً تبقىٰ معكَ ، وهي عمى الرُّوحِ وبذرُ الشَّقاوةِ ، ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

فإذاً ؛ لا تَعرفُ حقيقةَ الموتِ بحالٍ . . ما لم تَعرفْ هاتينِ الرُّوحَينِ ، والفرقَ بينهما ، وكيفيَّةَ تعلُّقِ إحداهُما بالأخرىٰ .

* * *

٣ فصل

في أنّ معرفة حقيقة الرُّوح الإنسانيّة.. بدء معرفة الله سبحانه والآخرة

اعلم أنَّ الرُّوحَ الحيوانيّةَ مِنَ العالَمِ السُّفليِّ ، وهي مركَّبةٌ من لطافةِ بخارِ الأخلاطِ الأربعةِ ، وهي الدَّمُ والبلغمُ والصَّفراءُ والسَّوداءُ ، وأصلُ هٰذه الأربعةِ مِنَ الماءِ والنَّارِ والتُّرابِ والهواءِ ، واختلافُ المِزاجِ واعتدالُه من تفاوتِ مقاديرِ الحرارةِ والبرودةِ والرُّطوبةِ واليبوسةِ ؛ ولهٰذا كان المقصودُ من علمِ الطبِّ.. حِفظَ اعتدالِ هٰذه الطَّبائعِ الأربعِ في هٰذه الرُّوحِ ؛ لتصلُحَ بذلك لأنْ تكون مركَباً وآلةً للرُّوحِ الإنسانيّةِ التي هي مِنَ العالَمِ العلويِّ ومن جواهرِ الملائكةِ ؛ فإنَّها غريبةٌ في هٰذا العالَمِ السُّفليِّ ، وهبُوطُها إليه أجنبيٌّ عن طبيعةِ ذاتِها ، وإنَّما أُنزلَتْ في دارِ الغربةِ ؛ لتأخذَ مِنَ الهُدىٰ زادَها ، كما قال اللهُ سبحانه : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ ـ ٧٢] .. إشارةٌ إلى اختلافِ العالَمِ ، أحالَ بعضاً إلى الطِّين ، وأخبرَ عن اعتدالِ مِزاجِهِ بهٰذه العبارةِ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ؛ فأضافَه إلىٰ نفْسِه .

وهٰذا مِثْلُ ما إذا أحرَقتَ خرقةً بحيث تهيَّأتْ لقبولِ النَّارِ ، ثمَّ قدَّمتَها فَجْأةً إلى النَّارِ ونفختَ حتىٰ عَلِقَتْ بها .

وكما أنَّ الرُّوحَ الحيوانيَّةَ السُّفليَّةَ لها اعتدالٌ يَعرفُ الطَّبيبُ أسبابَه ليدفعَ المرضَ عنها ويحفظَها مِنَ الهلاكِ.. فكذلك الرُّوحُ الإنسانيَّةُ العُلويَّةُ ـ التي هي حقيقةُ القلبِ ـ لها اعتدالٌ يُحفَظُ بالرِّياضةِ والأخلاقِ المتلقَّاةِ من جانبِ الشَّريعةِ التي هي سببُ صِحَّتِها كما سيأتي ذِكرُه بين أركانِ الإسلامِ .

وسوفَ يلي هٰذا الكتابَ كتابٌ في ذكرِ رياضةِ النفوسِ حتىٰ تصيرَ كلُّها نفساً واحدةً تصلحُ لأنْ تسعَ الحقَّ ، وهناك أُحقِّقُ القولَ في القولِ في النفوسِ ورياضتِها زيادةً علىٰ ما ذكرتُه هٰهنا ، فمَنْ أرادَ أن يُفرِدَ هٰذا الكتابَ.. فهو كافيه في غرضِه ، ومَنْ أحبَّ أن يقرِنَهُ بأخيهِ.. فذاك أنفعُ له ، واللهُ الموفِّقُ(١) .

---

(١) قوله : (وسوفَ يلي هٰذا الكتاب كتابٌ في ذكرِ رياضةِ النفوسِ حتىٰ تصيرَ كلُّها نفساً واحدةً تصلحُ لأنْ تسعَ الحقَّ ، وهناك أُحقِّقُ القولَ في القولِ في النفوسِ ورياضتِها زيادةً علىٰ ما ذكرتُه هٰهنا ، فمَنْ أرادَ أن يُفرِدَ هٰذا الكتاب.. فهو كافيه في غرضه ، ومَن أحبَّ أن يقرِنَهُ بأخيه.. فذاك أنفعُ له ، واللهُ الموفِّق) ثبت في (ليدن) و(د) وسقط من بقيَّة النُّسخ ، وما أثبتُّه في الكتاب من نسخة (ليدن) ، أمَّا (د) فقد جاءت العبارة فيها ناقصة عنها ، وفيها : (وقد صنفتُ كتاباً في رياضة النفس حتىٰ تصير كلها نفساً واحدة تصلح لأنْ تسع الحق ، وحقَّقْتُ القول هناك في النفوس ورياضتها زيادة عما ذكرته هٰهنا) ثمَّ عُنونَ فيهما بفصلٍ جديدٍ : (فصلٌ : قد وضح بما ذكرناه أنَّ مَنْ لا يعلم حقيقة الأرواح...) الخ . وانظر كلامنا في المقدمة (ص٢٩) عن كتاب « ذكر النُّفوس ورياضتها حتىٰ تصير نفساً واحدةً » .

فإذاً ؛ وضحَ أنَّه ما لم يَعلمْ حقيقةَ الأرواحِ . . لا يمكنُه أن يعرفَ الآخرةَ بطريقِ البصيرةِ ؛ كما أنَّه لا يمكنُ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ما لم يعرفِ النَّفْسَ .

فإذاً ؛ معرفةُ النَّفْسِ مفتاحُ معرفةِ الحقِّ سبحانَه[1] ومفتاحُ معرفةِ الآخرةِ ، وأصلُ الدِّين إنَّما هو الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخرِ ؛ ولهـٰذا قُدِّمتْ هـٰذه المعرفةُ .

غير أنَّه قد بقيَ سِرٌّ واحدٌ من أوصافِه الأصليَّةِ لم نذكرْه ؛ لأنَّه لم ترِدِ الرُّخصةُ بذكرِه من جانبِ الشَّرعِ ؛ إذ الأفهامُ لا تكادُ تحتملُهُ ، وتتمَّةُ معرفةِ الحقِّ سبحانَه ومعرفةِ الآخرةِ موقوفٌ علىٰ ذلك السِّرِّ ، فاجتهدْ أن تعرفَ ذلكَ من نفْسِكَ بطريقِ المجاهدةِ والطلبِ إليه سبحانه ؛ فإنَّك لو سمعتَهُ من أحدٍ . . لم تُطِقْ سماعَهُ ؛ فإنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ سمعوا تلك الصِّفةَ للهِ تعالىٰ . . فلم يُصَدِّقوا ، وبادروا إلى الإنكارِ ، وقالوا : إنَّه لا يمكنُ ذلك ، وهـٰذا ليس بتنزيهٍ بل هو تعطيلٌ ! فكيف تستطيعُ أنتَ سماعَهُ في حقِّ الآدميِّ ؟!

بل هـٰذه الصِّفةُ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ليست صريحةً في القرآنِ ولا في الأخبارِ ؛ لهـٰذا المعنىٰ ، وهو إنكارُ الخلقِ لها إذا سمعوها .

وقد أمرَ اللهُ تعالى الأنبياءَ أن يكلِّموا النَّاسَ علىٰ قدْرِ عقولِهم ، وقد نُقِلَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ : (ما لا يَفهمُه

---

(١) في (ب) و(هـ) عنون بفصلٍ جديدٍ ، فقال : (**فصلٌ** : فإذاً ؛ معرفة النفس مفتاح معرفة الحقِّ سبحانه . . .) الخ .

الخَلقُ من صفاتِنا.. فلا تُخبرْهم به ؛ فإنَّهم يكذِّبونَكَ في ذلك ؛ فيضرُّهم إنكارُهم إيَّاه)[1] .

---

(١) أنقلُ ما ذَكَره الإمام العجلوني رضي الله عنه في كتابه « كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر مِنَ الأحاديث على ألسنة الناس » (١/١٩٦ ، رقم : ٥٩٢) ؛ فقد جمع فأوعىٰ ، قال : (« **أُمِرْنا أن نكلِّمَ النَّاسَ علىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ** » رواه الديلمي [في « الفردوس بمأثور الخطاب » (١٦١١)] بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً ، وفي « اللآلئ » بعد عزوه لـ« مسند الفردوس » عن ابن عباس مرفوعاً قال : وفي إسناده ضعيف ومجهول . انتهىٰ ، وقال في « المقاصد » [ص ١٦٤] : وعزاه الحافظ ابن حجر لـ« مسند الحسن بن سفيان » عن ابن عباس بلفظ : « **أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاس علىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ** » قال : وسنده ضعيف جداً ، ورواه أبو الحسن التميمي من الحنابلة في « العقل » له عن ابن عباس من طريق أبي عبد الرحمٰن السُّلَميِّ أيضاً بلفظ : « **بُعِثْنَا مَعَاشِرَ الأنبيَاءِ نُخَاطِبُ النَّاسَ عَلىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ** » ، وله شاهد عن سعيد بن المسيب مرسلاً بلفظ : « **إنَّا مَعْشَرَ الأنبيَاءِ أُمِرْنَا. . .** » وذَكَرَه ، ورواه في « الغنية » [٢/٢٩٦] الشيخ عبد القادر قُدِّسَ سِرُّهُ بلفظ : « **أُمِرْنَا مَعَاشِرَ الأنبيَاءِ أنْ نُحَدِّثَ النَّاسَ علىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ** » ، وفي « صحيح البخاري » [١٢٧] عن عليٍّ موقوفاً : (**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟!**) [قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١/٢٢٥) : (زاد آدم بن أبي إياس في كتاب العلم له : **وَدَعُوا مَا يُنْكِرُون**)] ، ونحوه ما في مقدِّمة « صحيح مسلم » [٥] عن ابن مسعود قال : (**مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ. . إلاَّ كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**) ، وروى العقيلي في « الضعفاء » [٤/١٥٣٤] وابن السُّنيِّ وأبو نُعيم في الرياضة وغيرهم عن ابن عباس مرفوعاً : « **مَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوماً بِحدِيثٍ لا يَفهَمُونَه. . إلاَّ كان فتنةً عَلَيهِم** » ، ورواه الديلمي أيضاً [في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٧٣١٢)] من طريق حمَّاد بن خالد عن ابن عباس رفعه : « **لا تُحَدِّثُوا أُمَّتِي مِنْ أَحَادِيثِي إلاَّ مَا تَحْمِلُهُ عُقُولُهُم. . فيكونَ فِتنَةً عَلَيهِمْ** » فكان ابن عباس يخفي أشياء من حديثه ويفشيها إلىٰ أهل العلم ، =

. . . .

* * *

= وللديلمي أيضاً [في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٨٤٣٤)] عن ابن عباس رفعه : « يَا ابْنَ عبّاس ، لاَ تُحدِّثْ قوماً حَدِيثاً لاَ تَحتَمِلُهُ عُقُولُهُمْ » ، وروى البيهقي في « الشُّعَب » [١٦٣١] عن المقدام بن معدي كرب مرفوعاً : « إِذَا حَدَّثْتُمُ النَّاسَ عَنْ رَبِّهِمْ فَلاَ تُحَدِّثُوهُمْ بِمَا يَعْزُبُ عَنهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ » ، وصحَّ عن أبي هريرة : (حَفِظْتُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وِعَاءَيْنِ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا . . فَبَثَثْتُهُ ، وَأَمَّا الآخَرُ ، فَلَوْ بَثَثْتُهُ . . لَقُطِعَ هَـٰذَا البُلْعُومُ) [البخاري (١٢٠)]) . انتهىٰ بتصرُّف .

وقال الإمام أبو طالب المكي : (قال بعض العارفين : مَن كلَّم الناسَ بمبلغ علمه وبمقدار عقله ولم يخاطبهم بقدر حدودهم . . فقد بخسهم حقَّهم ، ولم يقُم بحقِّ الله عزَّ وجلَّ فيهم . وكان يحيى بن معاذ يقول : اغرفْ لكل واحدٍ من نهره ، واسقه بكأسه . ونحن نقول بمعناه : كِلْ لكلِّ عبد بمعيار عقله ، وزِنْ له بميزان علمه ؛ حتىٰ تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار) .
« قوت القلوب » (١/ ٤٣٢) .

٤ فصل

في معنى البعث والإعادة

قد وضحَ من هـٰذه الجملةِ المقدَّمِ ذكرُها أنَّ روحَ الآدميِّ قائمةٌ بذاتِها من غيرِ قالبٍ ، وهي بقوامِ ذاتِها وصفاتِها الخاصَّةِ . . مستغنيةٌ عنِ القالبِ ، وليس معنى الموتِ عدمَها ، إنَّما هو انقطاعُ تصرُّفِها في القالبِ ، ومعنى البعثِ والحشرِ والإعادةِ ليس إيجادَها بعد الإعدامِ ، إنَّما هو أن تُعطَىٰ قالباً ، علىٰ معنىٰ أنَّه يُجعلُ لها قالبٌ متهيِّئٌ لقبولِ تصرُّفِ هـٰذه الرُّوحِ الإنسانيَّةِ نوبةً أخرىٰ كما في الابتداءِ ، وهـٰذه النَّوبةُ أهونُ ؛ فإنَّ في النَّوبةِ الأُولىٰ أُريدَ خَلقُ القالبِ والرُّوحِ ، وفي هـٰذه النَّوبةِ . . الرُّوحُ موجودةٌ بحالها[1] ؛ أعني : الرُّوحَ الإنسانيَّةَ ، وأجزاءُ قالبِها موجودةٌ وإن كانت متفرِّقةً ، وجمعُ ذلك أهونُ وأسهلُ مِنِ اختراعِه .

هـٰذا من حيث نظرُنا وفعلُنا وما نعهدُه مِنْ نفوسِنا في أفعالِنا .

ومن جهةِ الحقيقةِ : لا طريقَ لصفةِ الإنسانيَّةِ إلى الفعلِ الإلـٰهيِّ ؛ فإنَّه إذا لم يكن هناك ثَمَّ صعوبةٌ . . فلا يقالُ : سهولةٌ ؛ لأنَّه إنما يقالُ :

---

(١) سقط من (ب) و(هـ) و(ز) قوله : (وهـٰذه النَّوبةُ أهون ؛ فإنَّ في النَّوبة الأولىٰ أريد خلق القالب والرُّوح ، وفي هـٰذه النَّوبة الرُّوح موجودة بحالها) ، ولعلَّه فوت نظرٍ ؛ لابتداء السقط وانتهائه بقوله : (هـٰذه النَّوبة) .

أهونُ وأسهلُ.. لمَن كانت تنالُه مشقَّةٌ في بعضِ أحوالِه ، والباري سبحانه مقدَّسٌ عن ذلك ، وإنَّما ذكرنا ذلك.. تقريباً إلى الأفهامِ ؛ فاضطُرِرنا إلى العبارةِ بلفظةِ أسهلُ وأهونُ ، وإنْ كان القرآنُ قد جاء بها في قولِه سبحانه : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الرُّوم : ٢٧].. تقريباً أيضاً إلىٰ أفهامِ الخَلقِ ؛ فكذلك ما يُعبَّرُ به مِنَ الألفاظِ .

فإذاً ؛ ليس شرطُ الإعادةِ أن يُرَدَّ إليه ذلك القالبُ الذي كان له ؛ فإنَّ القالبَ مركَبٌ ، والمركَبُ إذا تغيَّر إلىٰ بدلٍ.. فالرَّاكبُ هو ذاك لا يتغيَّرُ ، وقد تبدَّلَ من حالِ الصِّغرِ إلى الكِبَرِ أجزاؤهُ بالأجزاءِ الغذائيَّةِ ، وهو ذاك لم يتبدَّلْ .

ومَنْ شرَطَ عَودَ ذلك القالبِ.. يلزمُهم إشكالاتٌ يحتاجونَ إلىٰ تعسُّفٍ في الإجابة عنها :

مِثلُ أن يقالَ لهم : إذا أكلَ آدميٌّ آدمياً بحيث صارتْ أجزاءُ المأكولِ أجزاءَ الآكلِ ، فأيُّهما يُعادُ ؟

ويقالُ أيضاً : إنَّ الإنسانَ مخلوقٌ من نطفةٍ ، فأيُّهما يُعادُ ، النُّطفةُ إلىٰ ظهرِ صاحبها أم الآدميُّ[1] المخلوقُ منها ؟

ويقالُ أيضاً : إنَّ الآدميَّ مخلوقٌ من نطفةٍ ، وتلك النُّطفةُ من دمٍ ، والدَّمُ من غذاءٍ أو لحمِ حيوانٍ ، فإنْ أُعيدَ أحَدُ هـٰذه الأشياءِ.. بطلَ إعادةُ الباقي منها !

---

(١) كذا في (أ) و(هـ) و(و) و(ز) : (الآدميّ) ، وفي (ب) : (الأولىٰ) ، وفي (ج) و(د) و(ليدن) : (الحيوان) .

وأيضاً فإنَّه يقالُ : لو سرقَ رجلٌ نِصَاباً فقُطِعَتْ يدُهُ ، ثمَّ إنَّه فعلَ الخيرَ وأُثيبَ عليه في الآخرةِ بالجنَّةِ ، أفيكونُ مقطوعَ اليَدِ في الجنَّةِ ، أم تُعادُ إليه يدُهُ المقطوعةُ بالحقِّ على الجريمةِ ، ولم تعملْ معه فعلَ الخيرِ ؟!

فيقعُ التخبُّطُ[1] في الإجابةِ ، ولا حاجةَ تدعو إلىٰ ذلك كلِّه[2] ؛ فإنَّ هٰذه الإشكالاتِ إنَّما تعرِضُ من حيث يُظنُّ أنَّ حقيقةَ الإنسانِ إنَّما هو القالبُ وأنَّك قالبُكَ ، فإذا لم يُردَّ القالبُ.. لم تُردَّ أنتَ ، وكان المردودُ غيرَكَ ! وهٰذا في غايةِ الاختلالِ .

وقد بيَّنَّا أنَّك موجودٌ وإنْ عُدِمَ هٰذا القالبُ ، وأنَّ قِوامَهُ بكَ وقِوامَكَ ليس به ، فيجوزُ أنْ توجدَ مع عدمِه . والبعثُ والإعادةُ لكَ لا تتعلَّقُ بالقالبِ أصلاً ، إنَّما يتعلَّقُ بك ، وهو قادرٌ علىٰ رجعِكَ إلىٰ أيِّ قالبٍ شاءَ لكَ ؛ قالبِكَ الأوّلِ أو قالبٍ غيرِه يوجِدُهُ لكَ[3] .

وهٰذا القولُ ذهبَ إليه الإمامُ أبو حامدٍ وجماعةٌ مِنَ الأكابرِ ، وهو ثابتٌ بالبرهانِ غيرُ منافٍ للشرعِ ، وإنْ خالفَ فيه أهلُ التَّقليدِ ، فلا نزيدُ على اختلافِهم في سائرِ أمورِ الشَّريعةِ ، وذلك سائغٌ بين الفقهاءِ ، كيف وقدِ اختلفوا في صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولم يَخرُجوا بذلك الاختلافِ عن

---

(١) في (د) وحدها : (التَّخليط) بدل (التَّخبُّط) .

(٢) كذا في (أ) و(و) ، وفي بقيّة النُّسخ زيادة : (فيقعُ التخبُّط في الإجابة عن كل ذلك ، ويحتاج إلىٰ تكلُّفٍ وتعسُّفٍ في الإجابة ، ولا حاجة تدعو إلىٰ ذلك كله) .

(٣) في (ج) و(د) زيادةٌ : (أو قالبٍ غيره يوجِدُهُ لكَ من أجزائك) ، وسيوضحُ المؤلِّف القول في الفصل السَّادس من هٰذا الباب (ص ٣٤٣) .

خِطَّةِ الإسلامِ ؟! فكيف إذا اختلفوا في بعثِ الأجسامِ وهي صفاتُ المخلوقينَ[1] ؟!

* * *

(١) قوله : (كيف وقدِ اختلفوا في صفات الله تعالىٰ ، ولم يَخرُجوا بذلكَ الاختلافِ عن خِطَّة الإسلام ؟! فكيف إذا اختلفوا في بعثِ الأجسامِ وهي صفاتُ المخلوقين) ثبت في (أ) و(و) وسقط من بقيَّة النسخ ، وقد اضطربتِ النُّسخ في المقطع الأخير لهـٰذا الفصل بالزيادة والنقصان ، وقد أثبتُّ ما جاء في (أ) و(و) ، وأنقلُ هنا ما جاء في بقيَّة النُّسخ ، وأُميِّزُ زيادتها علىٰ (أ) و(و) .

ففي (ب) : (وهـٰذا القول ذهب إليه الإمام أبو حامد **الغزالي رحمه الله** وجماعةٌ منَ الأكابر ، وهو ثابتٌ بالبرهان غير منافٍ للشَّرع ، **وقد ورد القرآن بقوله تعالىٰ** : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ [النساء : ٥٦] ، وإن خالف فيه أهلُ التقليد ، **فلا مبالاة بجهل الجاهل ، ولا نلتفتُ على اختلافهم في سائر** أمورِ الشَّرع ، وذلك **شائعٌ** بين الفقهاء ، **والله أعلم**) ، وفي (هـ) نفس عبارة (ب) إلا أنَّ فيها : (فلا يزيد) بدل (ولا نلتفت) ، وفي (ز) نفس عبارة (ب) كذلك إلا أنَّها زادت : (وقد ورد القرآن بقوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ ، **وقال تعالىٰ** : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : ٦١]) .

وفي (د) : (وهـٰذا القول ذكره الإمام أبو حامد **قدَّس الله روحه في كتابه المترجم بعنوان « كيمياء السعادة »** وذهب إليه أكابر الأئمة ، وهو ثابتٌ بالبرهان غير منافٍ للشَّرع ، **وقد ورد القرآن بقوله** : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ [النساء : ٥٦] ، **وفي ذلك مقنعٌ وإن خالف قوم من أهل التقليد ، فلا مبالاة بجهل الجاهل**) .

وفي (ج) و(ليدن) : (وهـٰذا القول ذكره الإمام أبو حامد **قدَّس الله روحه في كتابه المترجم بعنوان « كيمياء السعادة »** وذهب إليه جماعةٌ من أكابر الأئمة ، وهو ثابتٌ بالبرهان غير منافٍ للشَّرع ، وإن خالف فيه **قومٌ** من أهل التقليد) .

٥ فصل
في الدلالة على أن الحشر لأمثال الأجسام لا لأعيانها[1]

هـٰذا الكلامُ يُوهِمُ الجاهلَ ما ليس بمقصودِنا ؛ حتىٰ يشنِّعُ ويقولُ : هـٰذا المصنِّفُ يعتقدُ أنَّ اللهَ سبحانه لا يحشرُ الأجسامَ إنَّما يحشرُ الأرواحَ ! وذلك مذهبُ الفلاسفةِ والنَّصارىٰ[2] !

وهو المسكينُ ، لا يعرفُ حدَّ الجسمِ أوَّلاً . . فيَعرفَ أيستحيلُ ذلك أم لا ؟ فلا بُدَّ من بيانِ نُبذَةٍ من ذلك .

ووجهُهُ : أنَّ الجسمَ عبارةٌ عنِ المؤلَّفِ من جوهرينِ فصاعداً ، والتَّأليفُ هو العَرَضُ ، فإذا بطلَ التَّأليفُ . . زالَ اسمُ الجسميَّةِ عنه وبقيَ اسمُ الجوهريَّةِ ، فلو أُلِّفَ بين الجوهرينِ ثانيةً . . صارَ جسماً ، فهو ذلك الجسمُ باعتبارِ أصلِه وهو الجوهرانِ ، فعلىٰ هـٰذا يصحُّ القولُ بحشرِ الأجسام .

---

(١) اتفقت النُّسخ الخطِّيَّة (ب ، ج ، د ، هـ ، ز ، ليدن) علىٰ إيراد هـٰذا الفصل [٥] في هـٰذا الموضع ، والذي أوَّله : (هـٰذا الكلام يوهم الجاهل ما ليس بمقصودنا . . .) الخ ، أمَّا (أ) و(و) فقد ذكر فيهما في هـٰذا الموضع فصلٌ مغايرٌ لها ، والذي أوَّله : (عساك تقول مذهب الفقهاء والمتكلمين . . .) الخ ، وهـٰذا الفصل هو الفصل [٧] في (ب) و(د) و(هـ) ، الـ[٦] في (ج) لسقوط فصلٍ منها كما سأبيِّنه ، ولم أستطع القطع فيما إذا كان في (أ) تقديمٌ وتأخيرٌ عنِ النسخ الأخرىٰ ؛ لوقوع البتر فيها كما ذكرته في مقدِّمة الكتاب (ص ٧٤) ، وكما سأشير إليه بعد قليل .

(٢) سقطت كلمة : (والنَّصارىٰ) من (ج) و(ليدن) .

وإن نظرتَ إلى اسمِ الجسمِ من حيث ثبوتُهُ للجوهرينِ بالتَّأليفِ. . لم يجُز أن تقولَ : هٰذا الجسمُ ذلك الجسمُ ؛ بل تقولُ : مثلُه ، فعلىٰ هٰذا يكونُ غيرَ ذلك الجسمِ[1] ؛ لأنَّ التَّأليفَ غيرُ التَّأليفِ الأوَّلِ .

ومثالُ ذلك : كقدَحِ زُجاجٍ كُسِرَ ، ثمَّ عُمِلَ من مكسورِه قدحٌ كالقدَحِ السَّابقِ ، فهو من حيث النَّظرُ أنَّه متَّخَذٌ من ذلك الزجاجِ. . ذاك القدَحُ ، وبالنَّظرِ إلىٰ كونِ التَّأليفِ غيرَ الأوَّلِ. . يكونُ مثلَ ذلك القدَحِ لا نفسَه ، فعلىٰ أحَدِ القولينِ يستحيلُ حشرُ الأجسامِ الفانيةِ ، وعلى القولِ الآخرِ لا يستحيلُ .

ومَنْ لاحظَ ما ذكرناه بعينِ الإنصافِ. . عرفَ صِحَّةَ ذلك ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

(١) سقط من (هـ) وحدها قوله : (بل تقول : مثله ، فعلىٰ هٰذا يكون غير ذلك الجسم) .

٦ فصل

في منع القول بالتناسخ[١]

اعلم أنَّ قولَنا : في أيِّ قالبٍ شاء[٢] ، ليس نُريدُ به علىٰ غيرِ هٰذه الصُّورَةِ من صورةِ خنزيرٍ أو كلبٍ أو غيرِه ، كما ذهبَ إليه أهلُ التَّناسُخِ[٣] ، وإنَّما نريدُ بذلك على الوجهِ الذي أوردناه في القَدَحِ الزُّجاجِ[٤] ؛ فإنَّ أجزاءه تفرَّقتْ ، وعُدِمَتْ صورتُه ، فإذا جُمِعَ الزُّجاجُ الذي هو أجزاءُ القَدَحِ وأدخلَها الصَّانعُ الكيرَ ثمَّ طبَعَها قدَحاً على الهيئةِ التي كانت . . فإنَّ هٰذا التَّأليفَ غيرُ تأليفِ القَدَحِ الأوَّلِ ، ومَنْ رأى الأوَّلَ ـ ولم يَعلَمْ كسْرَهُ ـ إذا رأى الثانيَ . . لا يجدُ فرقاً ، ولم يعدَم إلا التَّأليفَ الأوَّلَ ، ولا تعلُّقَ للعقابِ[٥] والحسابِ بالتَّأليفِ ، إنَّما يتعلَّقُ التَّكليفُ

---

(١) سقط هٰذا الفصل [٦] كاملاً من (ج) و(ليدن) ، ويغلب على الظَّنِّ أنَّه منَ الموضع المبتور في (أ) كما ذكرنا في مُقدِّمة الكتاب (ص ٧٤) ، وانظر (ص ٣٤١ ، الحاشية ١) .

(٢) تقدَّم قوله في نهاية الفصل الرَّابع من هٰذا الباب : (وهو قادرٌ علىٰ رجعِكَ إلىٰ أيِّ قالبٍ شاءَ لكَ ، قالبِكَ الأوَّلِ أو قالبِ غيرِه يوجِدُهُ لكَ) .

(٣) قال العلاَّمة رمضان أفندي (ت : ٩٧٩هـ) في حاشيته علىٰ « شرح العقائد » (ص ٢٢٨) : (الطائفة التناسخيَّة سمَّوا تعلُّق روح الإنسان ببدن إنسانٍ آخَر : نسخاً ، وببدن حيوانٍ آخَرَ : مسخاً ، وبجسمٍ نباتيٍّ : فسخاً ، وبجسمٍ جماديٍّ : رسخاً) .

(٤) في (ب) و(هـ) و(ز) : (القدح والزجاج) .

(٥) كذا في (هـ) و(ز) ، وفي (ب) و(د) : (للعتاب) بدل (للعقاب) .

والمؤاخذةُ بالمؤلَّفِ ، وهو الجوهرُ مثلاً ؛ فإنَّ تأليفَ الآدميِّ بطلَ بالموتِ ، فإذا ألَّفَهُ الحقُّ سبحانه وتعالىٰ ثانياً . . فهو غيرُ التَّأليفِ الأوَّلِ ، والمؤلَّفُ أوَّلاً هو المؤلَّفُ ثانياً ، والنَّظرُ إلى الماهيَّةِ لا إلىٰ هيئاتٍ قد سَقطتْ ولا إلى التَّأليفِ ، كما ذكرنا في القَدَحِ[1] .

* * *

(١) قال المحقِّق السعد في « شرح العقائد النسفيَّة » (ص ٢٤٩) : (فإن قيل : هـٰذا قول بالتناسخ ؛ لأنَّ البدن الثاني ليس هو الأول . قلنا : إنَّما يلزم التناسخ لو لم يكن البدن الثاني مخلوقاً مِنَ الأجزاء الأصليَّة للبدن الأول ، وإن سمِّي مثل ذلك تناسخاً . . كان ذلك نزاعاً فيٰ مجرَّد الاسم) .
وعلىٰ هـٰذا كان تأكيد المؤلِّف الإمام العراقي بضرب مثال القدح ؛ ليدلَّ علىٰ أنَّ البدن الثاني وإن لم يكن عين البدن الأوَّل . . لـٰكنَّه من أجزائه الأصليَّة . ومنه قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في حاشيته « فتح الإلـٰه الماجد بإيضاح شرح العقائد » (ص ٤٥١) : (التناسخ مغايرة البدنين بحسب ذوات أجزائهما لا بحسب هيئتهما) .

٧ فصل

في أنّ الموت لا يُعدِمُ قالب حقيقة الآدميّ وإنّما يفرّق اجتماعه [١]

عساك تقولُ : مذهبُ الفقهاءِ والمتكلّمينَ المشهورُ منه : أنَّ روحَ الآدميِّ تُعدَمُ بالموتِ ثمَّ تُردُّ إلى الوجودِ ، وهـٰذا مخالفٌ لما ذكرتَ ؟

فاعلم أنَّ مَنْ تتبَّع كلامَ الأغيارِ .. عميَ عنِ الحقِّ ، ومَنْ يقولُ هـٰذا .. فليس من أهلِ التَّقليدِ ولا من أهلِ البصيرةِ .

فإنَّه لو كان من أهلِ البصيرةِ .. لعلِمَ أنَّ الموتَ لا يُعدِمُ قالبَ حقيقةِ الآدميِّ ، وإنَّما يفرِّقُ اجتماعَه .

ولو كان من أهلِ التَّقليدِ .. لعرَفَ مِنَ القرآنِ والأخبارِ أنَّ روحَ الآدميِّ تبقىٰ بَعدَ الموتِ ؛ فإنَّ الأرواحَ بَعدَ الموتِ علىٰ قِسمينِ : أرواحُ الأشقياءِ ، وأرواحُ السُّعداءِ .

أمَّا أرواحُ السُّعداءِ : فالقرآنُ يقولُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٢] [آل عمران : ١٦٩] .

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٩/٤٦٨) (الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، الباب السابع : في حقيقة الموت ، وما يلقاه الميت في القبر إلىٰ نفخة الصُّور) .

(٢) في (ب) و(هـ) أكمل الآية الكريمة : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وأمَّا أرواحُ الأشقياءِ : فإنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم كان يقفُ علىٰ كفارِ قريشٍ ـ الذين قتلَهم المسلمونَ يومَ بدرٍ ـ وينادي واحداً واحداً باسمِه ونسبِه ، فيقولُ : « يا فلانَ بن فلانٍ ؛ وجدتُ ما وعدني ربِّي حقّاً مِنَ النصرِ على الأعداءِ ، فهل وجدتُم ما وعدَ ربُّكُم مِنَ العقوبةِ بعد الموتِ حقّاً أم لا ؟! » فقيل له : يا رسولَ اللهِ ، هـٰؤلاء مَوتَىٰ فكيف تُكلِّمُهم ، ولِمَنْ تُكلِّمُ ؟ فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه ، إنَّهم لأسمعُ منكم لهـٰذا القولِ ، لـٰكنَّهم يَعجزونَ عن ردِّ الجوابِ »[1] .

وقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم في شهداءِ المؤمنينَ : « **أَرْوَاحُهُمْ فِي قَنَادِيْلَ تحتَ العَرشِ** »[2] ، وفي لفظٍ آخرَ : « **في حَوَاصِلِ طَيْرٍ**

---

(١) حديثٌ متَّفقٌ عليه ، رواه البخاري (٣٩٧٦) ، ومسلم (٢٨٧٣) ، وروايةُ البخاريِّ بتمامها وألفاظها : عن أبي طلحةَ ، أنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمرَ يومَ بدرٍ بأربعةٍ وعشرينَ رجُلاً مِن صناديدِ قريشٍ ، فقُذِفوا في طَوِيٍّ مِن أطواءِ بدرٍ خبيثٍ مُخبِثٍ ، وكانَ إذا ظهرَ علىٰ قوم . . أقامَ بالعرصَةِ ثلاثَ ليالٍ ، فلمَّا كان ببدرٍ اليومَ الثالثَ . . أمرَ براحلتِهِ فشُدَّ عليها رحلُها ، ثمَّ مشىٰ وتَبِعَهُ أصحابُهُ ، وقالوا : ما نرىٰ ينطلِقُ إلا لبعضِ حاجَتِهِ ؛ حتىٰ قام علىٰ شَفَةِ الرَّكِيِّ ، فجعلَ يُناديهم بأسمائِهم وأسماءِ آبائهم : « **يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ؟** » قال : فقال عمرُ : يا رسول الله ، ما تُكلِّمُ من أجساد لا أرواحَ لها ؟ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ** » .

وقال الإمام الغزالي في « الإحياء » (٩/٤٧٣) بعد ذكره لهـٰذا الحديث الشريف : (فهـٰذا نصٌّ في بقاء روح الشَّقي ، وبقاء إدراكها ومعرفتها) .

(٢) رواه مسلم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ : « **أَرْوَاحُهُمْ**=

خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثِمَارِ الجنَّةِ »(١) .

ومَنْ تفحَّصَ الأخبارَ الواردةَ في حقِّ الموتىٰ وإحساسِهم بأهلِ المأتَمِ والزَّائرينَ ، وما يجري في هـٰذا العالَمِ . . عَلِمَ قطعاً أنَّ عدمَهم لم يَرِد في الشَّرعِ ، وإنَّما جاء فيه أنَّ صفتَهم تتغيَّرُ ومنزلتَهم تتبدَّلُ ، وأنَّ القبرَ كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « **رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ** »(٢) .

فإذاً ؛ بانَ بما ذكرنا أنَّ الموتَ لا يُبطِلُ شيئاً من ذاتِك وصفاتِك الخاصَّةِ ، وإنَّما يُبطلُ الحواسَّ والحركاتِ والتَّخييلاتِ التي هي بواسطةِ

= **فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ تِلْكَ الْقَنَادِيلِ . . .** » الحديث .

(١) رواه الترمذي (١٦٤١) بلفظ : « إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الجَنَّةِ ، أَوْ شَجَرِ الجَنَّةِ » وقال : حديث حسن صحيح ، وانظر رواية مسلم (١٨٨٧) ، وقوله : « تعلُقُ من ثمار الجنة » أي : تصيبُ .
وقوله : (وقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم في شهداء المؤمنين : « أرواحهم في قناديل تحت العرش » ، وفي لفظٍ آخر : « في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ تعلُقُ من ثمار الجنَّةِ ») ثبت في (أ) و(و) وسقط من بقيَّة النسخ .

(٢) جزء من حديثٍ رواه التِّرمذيُّ (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه ، وقال عنه : (هـٰذا حديثٌ غريبٌ ، لا نعرِفُهُ إلا من هـٰذا الوجه) ، وقال الشوكاني في « الفوائد المجموعة » (ص ٢٦٩) : (لم يُصِب مَنْ ذكرَه في الموضوعات) .
وقد قال الإمام الغزالي في « الإحياء » (٩/ ٤٧٣) بعد ذكره لهـٰذا الحديث الشريف : (وهـٰذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الموتَ معناه تغيُّرُ حالٍ فقط ، وأنَّ ما سيكون من شقاوة الميت وسعادتِه يتعجَّلُ عند الموتِ من غير تأخُّرٍ ، وإنَّما يتأخرُ بعض أنواع العذابِ والثوابِ دونَ أصلِه) .

الدِّماغِ ، وتبقىٰ أنت فرداً مجرَّداً كما مضيتَ من هـٰهنا ، فليس إذا ماتتِ الفَرسُ وكان الفارسُ مثلاً حائكاً . . يصيرُ بموتِ الفَرسِ فقيهاً ! أو كان أعمىٰ . . يصيرُ بموتِها بصيراً ! وإنَّما يبقىٰ راجلاً ، والقالبُ[1] هو المركَبُ كالفَرسِ ، وأنت كالفارسِ .

ولهـٰذا السَّبب ؛ مَنْ غابَ عن نفسِه وعنِ المحسوساتِ ، وغاصَ في ذاتِه[2] مستغرِقاً بذكرِ الحقِّ سبحانه كما في بدايةِ طريقِ التَّصوفِ . . صارتْ أحوالُ الآخرةِ مشاهَدةً له بالذَّوقِ ، وإن كانت روحُهُ الحيوانيَّةُ لم تنحرفْ عنِ اعتدالِ المِزاجِ ، غيرَ أنَّه إذا ظهرَ فيه نوعُ خوفٍ وحذرٍ بحيث لا يشغلُهُ شيءٌ عن حقيقةِ ذاتِهِ . . فإنَّه يكونُ أقربَ إلىٰ حالِ الميْتِ من حيث سقوطُ إحساسِه بغيرِه .

فحينئذٍ ؛ ما ينكشفُ للأغيارِ بعد الموتِ . . ينكشفُ لهـٰذا قبلَ الموتِ في هـٰذه الحالِ ، فإذا حضرَ من تلك الغَيبةِ بعالَمِ المحسوساتِ . . أمكنَ أن يبقىٰ علىٰ ذِكرِه من ذلك شيءٌ ، ويمكنُ أن لا يبقىٰ ، ولـٰكن لا بُدَّ من بقاءِ أثرِ ذلك عليه .

فإنْ كان قد عُرِضَ عليه الجنَّةُ . . بقيَ معه أثرُ الفرحِ والنَّشاطِ والرَّوحِ والرَّاحةِ .

وإنْ كان قد عُرِضَ عليه النَّارُ . . بقيَ معه انكسارٌ وتكسُّرٌ وهمٌّ وثِقَلٌ .

وإنْ كان قد بقيَ شيءٌ من ذلك علىٰ ذِكرِه . . أخبرَ به وحدَّثَ عنه إن

---

(١) من هنا يبدأ البتر الثاني في (أ) ، إلىٰ قوله : (في بعضِ تصانيفِه التي لم أقفْ عليها) (ص ٣٧٤) .

(٢) في (ب) وحدها : (وخاض في ذاته) بدل (وغاص في ذاته) .

كانتْ قوَّةُ خزانةِ الخيالِ قد حاكتْ ذلك الشيءَ بمثالٍ ؛ فيمكنُ أن يكونَ هـٰذا المثالُ قد بقيَ في حفظِه أجودَ من ذلك ؛ فيُخبِرُ عنه ، كما رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلَّم مَدَّ يدَهُ في الصَّلاةِ ، فلمَّا فرَغَ . . سُئِلَ عن ذلك ؟ فقال : « **عُرِضَ عَلَيَّ مِنَ الجَنَّةِ عُنْقُودٌ مِنَ العِنَبِ** . . فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَ بِهِ إِلَىٰ هـٰذِهِ الدُّنْيَا »[1] ، فلا تظنَّ أنَّ حقيقةَ ذلك العنبِ كان يمكنُ الإتيانُ به إلىٰ هـٰذه الدُّنيا ؛ فإنَّ ذلك محالٌ غيرُ ممكنٍ ، ولو كان ممكناً . . لجاء به ، وحقيقةُ استحالةِ ذلك يطولُ شرحُه ، ويُخرِجُ الكتابَ عنِ المقصودِ ، وليس لك طلبُ ذلك .

وهكذا يكونُ تفاوتُ العلماءِ ؛ فمنهم مَنْ يشغلُ كليَّتَه ليعلمَ هـٰذا العنقودَ مِنَ العنبِ مِنَ الجنَّةِ أيُّ شيءٍ هو ؟ وما الذي كان ؟ ولأيِّ سببٍ رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم دون مَنْ كان حولَهُ ؟

ومنهم مَنْ يكونُ حظُّه من ذلك أن يقولَ : إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم حرَّكَ يدَهُ في الصَّلاةِ ، وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الفعلَ القليلَ في الصَّلاةِ لا يُبطِلُها . ويطيلُ النَّظرَ في تفصيلِ ذلك ، معتقِداً أنَّ هـٰذا علمُ الأولينَ والآخرينَ لا غيرُ !

ومَنِ اشتغلَ بذلك الآخِر . . كان معطِّلاً ، وعن عِلمِ الشَّرعِ معرِضاً[2] .

---

(١) ذكره المؤلِّف بالمعنىٰ ، وهو عند البخاري (٧٤٨) ، ومسلم (٩٠١) ، وصحيح ابن خزيمة (٨٩٢) ، ومسند أحمد (٢٣٤٣٨ طبعة المَكنِز ، ٢٢٩٧٢ طبعة الرسالة) .

(٢) وهم أصناف ، وقد تكلَّم عنهم حُجَّة الإسلام في كتاب « إحياء علوم الدين » =

والمقصودُ : هو أنْ لا يُظنَّ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم أخبرَ عنِ الجنَّةِ بطريقِ التَّقليدِ والسَّماعِ من جبريلَ عليه السَّلامُ على الوجهِ الذي تعرفُهُ أنتَ في السَّماعِ ؛ فإنَّ ذلك المعنى الذي تعرفُهُ أنت.. لا يصلحُ لمعرفةِ غيرِها مِنَ الأمورِ ، فهو صلى الله عليه وسلَّم رأى الجنَّةَ ، ولا يمكنُ رؤيةُ حقيقتِها في هٰذا العالَمِ ، وإنَّما غابَ صلى الله عليه وسلَّم عن هٰذا العالَمِ وحضرَ في ذلك العالَمِ[1] .. فرأىٰ ما رأىٰ ، وهٰذا نوعٌ مِنَ المعراجِ الذي خُصَّ به .

لٰكنَّ الغَيبةَ تكونُ علىٰ وجهينِ : أحدهما : بموتِ الرُّوحِ الحيوانيِّ ، والثاني : بحَذَرِ الرُّوحِ الحيوانيِّ[2] .

أمَّا في هٰذا العالَمِ.. فلا يمكنُ رؤيةُ الجنَّةِ ، وكما لا تدخلُ السَّماواتُ السَّبعُ والأرضونَ السَّبعُ في قشرِ فُستُقةٍ.. فكذلك لا تدخلُ الجنَّةُ في هٰذا العالَمِ ؛ بل ذرَّةٌ واحدةٌ مِنَ الجنَّةِ لا تدخلُ في هٰذا العالَمِ[3] ، بل كما أنَّ حاسَّةَ السَّمعِ معزولةٌ عن إدراكِ صورةِ السَّماواتِ

= (٦/ ٦٣٦ إلىٰ ص ٦٧٦) (كتاب ذم الغرور ، وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات ، بيان أصناف المغترين ، الصنف الأوَّل : أهل العلم) . فانظره .

(١) كذا في (ج) و(د) و(ليدن) : (وحضر في ذلك العالَم) ، وفي (ب) و(هـ) و(ز) : (ومضىٰ إلىٰ ذلك العالَم) ، وسقط من (و) قوله : (وإنما غاب صلى الله عليه وسلَّم عن هٰذا العالَم وحضر في ذلك العالَم) .

(٢) في (ج) و(و) كتبت (الحدر) بالدَّال المهملة ، ولا معنىٰ لها هنا ، والحَذَرُ : التَّيقُّظُ والتَّحرُّزُ والتَّأهُّبُ .

(٣) سقط من (هـ) وحدها قوله : (بل ذرَّةٌ واحدةٌ منَ الجنَّةِ لا تدخل في هٰذا العالَم) ، ولعله فوت نظرٍ منَ النَّاسخ ؛ لبداية السقط وانتهائه بكلمة (العالَم) .

والأرضِ وظهورِها فيها كما في حاسَّةِ العينِ. . فكذلك جميعُ حواسِّ هـٰذه الدُّنيا معزولةٌ عن جميعِ إدراكاتِ الجنَّةِ ، وحواسُّ تلك الآخرةِ حواسٌّ أُخَرُ[1] .

* * *

(١) جاء في (ب) وحدها : (الدار الآخرة) بدل (تلك الآخرة) .

٨ فصلٌ
في عذاب القبر[١]

اعلم أنَّ عذابَ القبرِ ينقسمُ إلىٰ قسمينِ : روحانيٌّ وجسمانيٌّ .

أمَّا الجسمانيُّ : فيعرفُه كلُّ أحَدٍ ، وقد ضُمِّنَتهُ الكتبُ ، وتداولَتهُ الألسنُ ، ورأىٰ بعضَه الأعيُنُ[٢] .

وأمَّا الرُّوحانيُّ : فلا يعرفُه إلا مَنْ عرفَ نفْسَهُ ، وعرفَ روحَه أنَّها قائمةٌ بنفسِها ، مستغنيةٌ عنِ القالبِ في قِوامِ ذاتِها ، باقيةٌ بعد الموتِ[٣] ، ولٰكنْ ليس لها يَدٌ ورِجلٌ وعينٌ وأذنٌ ، وقد سلبَها الموتُ جملةَ الحواسِّ ، ولهٰذا لمَّا سلبَها الموتُ جملةَ الحواسِّ[٤] . سلبَها لذَّةَ الأهلِ والولدِ والمالِ والضِّياعِ والعبيدِ والخَدَمِ والدَّوابِ والحَشَمِ والأصدقاءِ والقَراباتِ ، والأرضِ والسَّماءِ ، وكلِّ ما كان مدرَكاً بالحواسِّ .

---

(١) جاء في (ج) وحدها زيادة : (فصلٌ في عذاب القبر) ، وهو مخالفٌ لعادة المؤلِّف في عدم عنونة فصول الكتاب كما هو في جميع النُّسخ ، فلعلَّها زيادةٌ من النَّاسخ .

(٢) قوله : (وقد ضُمِّنَتهُ الكتبُ ، وتداولَتهُ الألسنُ ، ورأىٰ بعضَه الأعيُنُ) ثبت في (ليدن) وحدها .

(٣) سقط من (هـ) وحدها قوله : (مستغنيةٌ عنِ القالب في قوام ذاتها ، باقيةٌ بعد الموت) .

(٤) قوله : (ولهٰذا لمَّا سلبها الموت جملة الحواسِّ) ليس في (ب) و(د) .

فإنْ كانت هـٰذه الأشياءُ معشوقةً له وجملتُه كانت مشغولةً بها.. بقيَ بعد الموتِ في ألَمِ عذابِ فِراقِها ضرورةً ، فلا يجدُ مَخلَصاً من ذلك .

وإن كان فارغاً من ذلك كلِّه ، غيرَ متعلِّقِ القلبِ به.. فهو بعد الموتِ فارغٌ منها أيضاً ؛ إذ لم يكن له معشوقٌ ، فهو مُشْتَهٍ للموتِ في تلك الحالِ ، وبالموتِ قد وصلَ إلى الرَّاحةِ .

وإن كان محبّاً للهِ تعالىٰ إذ ذاك ، آنساً بذكرِه ، مشغولَ الجملةِ به ، مُنغَّصاً في أسبابِ الدُّنيا ، فإذا ماتَ.. وصلَ إلىٰ معشوقِه ، وقد زالتِ الرَّخمةُ مِنَ البَيْنِ[1] وما كان سببَ النَّغَصَةِ والتَّشويشِ[2] ، وانتهىٰ إلىٰ سعادتِه .

---

(١) اختلفت النُّسخ في كتابة كلمة (الرَّخمة) ، فكُتِبت في (ب) و(ليدن) : (وقد زالتِ **الرَّحمةُ** منَ البَيْنِ) بالحاء المُهملة ! ولم أجد وجهاً لتفسيرها . وفي (ج) وهو ما أثبتُّه : (وقد زالتِ **الرَّخمةُ** منَ البَيْنِ) بالمعجمة الفوقيَّة ، دونَ ضبطٍ ، والرَّخمةُ كما نقله صاحبُ « تاج العروس » (عن الأصمعي : مَرْخُوم : أُلقِيَت عليه رَخْمَةُ أُمِّه أي : حُبُّها له وأُلفتُها إيَّاه ، وفي « الأساس » : ألقىٰ عليه رَخمتَه : أشفَقَ عليه ولهِج به ؛ لأنَّ الرَّخْمَة بها نَهَمٌ شديدٌ وتولُّعٌ بالوقوع على الجيَفِ ، فشُبِّهتْ محبَّتُه الواقعة عليه وشفقتُه بالرَّخَمَة) . ويكون معنى العبارة علىٰ ذلك : وقد زال الشوق مِنَ الفراق ؛ لوصوله إلىٰ معشوقه بالموت . وفي (د) : (وقد زالتِ **الرجمةُ** منَ البَيْنِ) بالمعجمة التحتيَّة ، دونَ ضبطٍ ، والرُّجمةُ كما نقله صاحبُ « تاج العروس » : (عن الأصمعي : البناءُ مِنَ الصَّخرِ تُعمَدُ به النَّخلَةُ) ، ونقل في موضعٍ آخر (عن الليث : الرُّجمةُ حجارةٌ مجموعة كأنَّها قبورُ عاد) . ويمكن أن تحمل على الرُّجمة ؛ فيكون معنى العبارة علىٰ ذلك : وقد زال حاجز الفراق مع المعشوق . وفي (هـ) و(و) و(ز) : (وقد زالتِ **الزَّحمةُ** منَ البَيْنِ) بالزاي المعجمة .

(٢) كذا في (ب) و(د) : (النغصة) ، وفي (ج) : (التَّعصُّب) ، وفي (هـ) : (البغضة) ، وفي (و) و(ز) : (النغضة) .

فتفكَّرِ الآن ؛ هل يمكنُ أن يعرفَ أحدٌ نفْسَهُ ، وأنَّه باقٍ لا يفنىٰ ؟ ويعلمَ أنَّ جميعَ مراداتِه ومحبوباتِه في الدُّنيا ، وأنَّه ينتقلُ عنها إلى الآخرةِ[1] ؟

فإذا عرفَ ذلك . . هل يمكنُ أن يشكَّ[2] في أنَّه إذا ذهبَ مِنَ الدُّنيا وخلَّفَ محبوباتِه فيها . . أنَّه يبقىٰ في ألَمِ عذابِ فِراقِ محبوباتِه ، وصعوبةِ فَقدِ مألوفاتِه ؛ كما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « **أَحْبِبْ مَنْ أحببتَ . . فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ** »[3] ؟!

وإذا عرفَ أنَّ محبوبَ الكلِّ هو اللهُ تعالىٰ ، فأبغضَ الدُّنيا وما فيها ، واتَّخذَهم أعداءً إلا قدْرَ زادهِ منها . . فإنَّه لا يشكُّ أنَّه إذا ذهبَ مِنَ الدُّنيا وخرجَ عنها أنَّه يكونُ في راحةٍ ، فمَنْ عرفَ هـٰذا . . لم يشكَّ في عذابِ القبرِ أنَّهُ حقٌّ لأربابِ الدُّنيا ومَنْ شغلَ كُليَّتَه بها ، إلا المتقينَ المتجافينَ عنها ، وبهـٰذا المعنى اليسيرِ يَعلمُ أنَّ : « **الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ** »[4] .

* * *

---

(١) كذا في (د) ، وفي بقيَّة النُّسخ : (وهو يريد أن ينتقل عنها إلى الآخرة) بدل (وأنَّه ينتقل عنها إلى الآخرة) .

(٢) في (ب) و(هـ) و(ز) زيادة : (أن يشكَّ في ذاته) .

(٣) في (د) و(ليدن) : (أَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ) ، وهو جزءٌ من حديث رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٤) رواه مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

٩ فصلٌ

في فهم حقيقة عذاب القبر [(١)]

إذا كنتَ قد عرفتَ أنَّ أصلَ عذابِ القبرِ حبُّ الدُّنيا .. فاعلمْ أنَّ عذابَهُ متفاوتٌ لبعضِهم أكثرُ من بعضٍ ، بقدْرِ الميلِ إليها وبلوغِ الشهواتِ فيها .

فإذاً ؛ عذابُ مَنْ لم يكن له في الدُّنيا ما تعلَّقَ به قلبُه إلا شيءٌ واحدٌ .. لا يكونُ كعذابِ مَنْ علَّقَ قلبَه بما له مِنَ الضِّياعِ والأسبابِ والعبيدِ والحشمِ والخيلِ والنَّعَمِ والثيابِ والآلاتِ والتَّجمُّلاتِ ، بل لو أُخبرَ في الدُّنيا بموتِ دابَّةٍ واحدةٍ .. لكان ألَمُ قلبِه أقلَّ مِنْ ألَمِ قلبِ مَنْ أُخبرَ بموتِ عشرةِ دوابَّ مثلاً ، ومَنْ أُخِذَ جميعُ مالِه .. كان ألَمُ قلبِه أكثرَ ممَّا لو أُخِذَ بعضُه ، وأقلَّ ممَّا لو تلِفَ المالُ والولدُ والأهلُ ونُهِبَ وعُزِلَ عن ولايتِه ، والموتُ فيه كلُّ هٰذا[(٢)] ؛ فإنَّه يسلُبُ المالَ والولدَ والزَّوجةَ والأهلَ ، وكلَّ ما في الدُّنيا ، ويحولُ بينَه وبينَه ، ويغادِرُه فرداً وحيداً .

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٩/ ٤٦٨) (الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، الباب السابع في حقيقة الموت ، وما يلقاه الميت في القبر إلىٰ نفخة الصُّوْر) ، و(٩/ ٤٨٩) ، وكتاب « الأربعين في أصول الدين » (ص ٤٧١) .

(٢) في (ب) وحدها : (والموتُ أشدُّ من هٰذا كلِّه) بدل (والموت فيه كل هٰذا) .

فإذاً ؛ عقوبةُ كلِّ أحدٍ علىٰ قدْرِ جوعِه وعطشِه في الدُّنيا ، ومَنْ ساعدَتْه أسبابُ دنياه من كلِّ وجهٍ ، وصرفَ كليَّته إلى الاشتغالِ بها كما قال اللهُ تعالى : ﴿ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[1] [النحل : ١٠٧] . . فلا شكَّ في أنَّ عذابَه في الآخرةِ أشدُّ ؛ كما عبَّر رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم عن ذلك بقولِه : « **أتَدْرُونَ في أيِّ معنىً نَزَلَتْ هٰذه الآيةُ** : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] ؟ فقالوا : اللهُ ورسُولُهُ أعلَمُ ، فقال : « **هو عَذَابُ الكَافِرِ في القَبْرِ ، يُسَلَّطُ عليه حيَّاتٌ ، لِكُلِّ حيَّةٍ تِسْعَةُ أَرْؤُسٍ ، فَهِيَ تَنْهَشُهُ بِكُلِّ فَمٍ ، وتَقْطَعُ لَحْمَهُ إلىٰ يَومِ الحَشْرِ ، وتقذفُ السُّمَّ في بَدَنِهِ** »[2] .

وقد رأىٰ أهلُ البصائرِ هٰذه الأفاعي بعينِ المشاهدةِ ، والحمقىٰ يقولون نحن قدِ اطَّلعنا في قبورٍ كثيرةٍ فلم نرَ فيها شيئاً من ذلك ، مع صحَّةِ أعيُنِنَا ، ولو كان هناك شيءٌ . . لرأيناه ؟!

فليَعلمْ هٰؤلاءِ الحمقىٰ أنَّ هٰذه الأفاعي ليستْ خارجةً عن ذاتِ الميْتِ ، إنَّما هي في ذاتِ روحِه لا خارجةٌ عن باطنِ ذاتِه فيراها أحَدٌ ، وهٰذه الأفاعي كانت قبل الموتِ في باطنِه ، وهو غافلٌ لا يعلمُ أنَّ هٰذه الأفاعي مُركَّبةٌ من صفاتِ نفْسِهِ ، وعددُ رؤوسِها بعددِ شُعَبِ أخلاقِه

---

(١) في (ج) وحدها استشهد بقوله تعالىٰ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] ، وقد حذف ناسخ (ج) هٰذه الآية كما سيأتي بعد قليل .

(٢) رواه ابن حبَّان (٣١٢٢) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٦٦٤٤) ، والبيهقي في « إثبات عذاب القبر » (ص ٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً . وانظر « الإحياء » (٩/٤٨٨) .

المذمومةِ ، وأصلُ طينةِ هٰذه الأفاعي إنَّما هو حبُّ الدُّنيا ، ثمَّ ينشعبُ منه حينئذٍ أشياءُ ؛ كالحسدِ والحقدِ والرياءِ والكِبْرِ والشَّرَهِ والمكرِ والخِداعِ والعداوةِ وحبِّ الثناءِ والحشمةِ وغيرِ ذلك .

ويمكنُ معرفةُ[1] أصلِ هٰذه الأفاعي وكثرةِ رؤوسها بنورِ البصيرةِ ؛ فإنَّها علىٰ قدْرِ الأخلاقِ المذمومةِ كثرةً وقِلَّةً ، ولسنا نقدِرُ علىٰ عدِّها ؛ لأنَّا لا نعلمُها ؛ لتفاوتِ أحوالِ النَّاسِ والعجزِ عن المعرفةِ بأحوالِ الخَلقِ ؛ فإنَّ الواحدَ ربَّما عجزَ عنِ الإحاطةِ بحالِ نفْسِهِ ، فكيف بأحوالِ غيرِه[2] ؟!

فإذاً ؛ هٰذه الأفاعي متمكِّنةٌ في أرواحِ الكفَّارِ ومستورةٌ ، لا لأجلِ جهلِه باللهِ تعالىٰ ورسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ بل لاشتغالِ كليَّته بالدُّنيا ؛ كما قال الله ُجلَّ جلالُه : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) في (ب) و(هـ) و(ز) : (ويمكن مشاهدة معرفة) .

(٢) قال حُجَّة الإسلام في « الإحياء » (٩/٤٨٩) بعد ذكره للحديث النَّبوي السَّابق : (ولا ينبغي أن يُتعجَّبَ من هٰذا العددِ على الخصوص ؛ فإنَّ أعدادَ هٰذه الحيَّاتِ والعقاربِ بقدْرِ أعدادِ الأخلاق المذمومة منَ الكِبْر والرِّياء والحسد والغِلِّ والحقد وسائر الصفات ؛ فإنَّ لها أصولاً معدودةً ، ثم تتشعَّبُ منها فروعٌ معدودةٌ ، ثم تنقسمُ فروعُها بأقسام ، وتلك الصفاتُ بأعيانِها هي المهلكاتُ ، وهي بأعيانِها تنقلبُ عقاربَ وحيَّاتٍ ، فالقويُّ منها يلدغُ لدغَ التنِّينِ ، والضعيفُ يلدغُ لدغَ العقربِ ، وما بينهما يؤذي إيذاء الحيَّةِ . وأربابُ القلوبِ والبصائرِ يشاهدونَ بنورِ البصيرةِ هٰذه المهلكاتِ وانشعابَ فروعِها ، إلاَّ أنَّ مقدارَ عددِها لا يُوقَفُ عليه إلا بنورِ النبوَّةِ ، فأمثالُ هٰذه الأخبارِ لها ظواهرُ صحيحةٌ وأسرارٌ خفيَّةٌ ، ولٰكنَّها عند أرباب البصائرِ واضحةٌ ، فمَن لم تنكشفْ له حقائقُها . . فلا ينبغي أن ينكرَ ظواهرَها ؛ بل أقلُّ درجاتِ الإيمانِ التصديقُ والتسليمُ) .

عَلَى ٱلْآخِـرَةِ﴾ [النحل : ١٠٧] ، وكما قال جلَّ ذِكرُه : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[١] [الأحقاف : ٢٠] ، ولو كانت هـٰذه الأفاعي خارجةً عنه . . لعُلِموا ، لـٰكنَّها متمكِّنَةٌ في وسَطِ روحِه[٢] ؛ فإنَّها من عينِ صفاتِه ، فكيف يهربُ منها ؟

ومثالُه : رجلٌ باعَ جاريةً له ، وهو يعشقُها ، فإذا فارقَها . . كثُرَ ألمُه .

فتلك أفعى المحبَّةِ والعشقِ التي يحسُّ بعد الفُرقةِ بلسعِها . . هي التي كانت في قلبِه مستترةَ الألَمِ بالاجتماعِ ، وهو لا يشعرُ بالألَمِ ؛ حتىٰ زالَ السَّاترُ ، وهو الاجتماعُ ؛ فأحسَّ بألَمِ اللَّسعِ .

فكذلك هـٰذه الأفاعي كانت في باطنِه قبلَ الموتِ وهو لا يشعرُ ، فلمَّا ماتَ . . أحسَّ بألَمِ لسعِها ، فكما أنَّ عشقَ الجاريةِ صارَ سببَ الألَمِ عند الفِراقِ ؛ إذ لو لم يكنِ العشقُ . . لم يتألَّم عند الفِراقِ ؛ فكذلك حبُّ الدُّنيا وعشقُها الذي هو سببُ راحتِه ؛ يصيرُ سبباً لعذابِه ، وعشقُ الدَّارِ والعَقارِ والمالِ هي العقربُ الذي جاء بها الأثرُ[٣] ، وقِسْ علىٰ هـٰذه القاعدةِ ما أشبهَه .

وكما أنَّ عاشقَ الجاريةِ يودُّ لو أنَّه أُلقيَ في الماءِ أو النَّارِ ـ مثلاً ـ ولم يُبتَلَ بفراقِها ، أو تلسِبَه عقربٌ لعلَّها أن تشغلَه بألَمِ لَسْبِها[٤] عنِ الألَمِ

---

(١) الآية الكريمة ليست في (ج) ، وانظر (ص ٣٥٦ ، الحاشية ١) .
(٢) في (ب) و(ز) زيادة : (في صميم وسَط روحه) .
(٣) جاء في هامش (و) حاشية : (الأثر : أحاديثُ الأكابرِ مِنَ المشايخِ) .
(٤) سقط من (ب) قوله : (أو تلسبه عقرب) ، وقوله : (بألم لسبها) ، وسقط=

الذي ينالُهُ بفراقِ الجاريةِ . . فكذلك مَنْ يُعذَّبُ في القبرِ ، يودُّ أنْ لو بُدِّلَ من تلك الحيَّاتِ والعقاربِ التي يُعذَّبُ بها في القبرِ عن كلٍّ واحدٍ بعشرةٍ من حيَّاتِ الدُّنيا وعقاربِها ؛ فإنَّ أَلَمَ ما في الدُّنيا إنَّما يختصُّ بالبدنِ ، فيصلُ الألَمُ منه إلى القلبِ ، وفي القبرِ والآخرةِ إنما تلسَعُ في وسَطِ الرُّوحِ[1] ، وما أصابَ الباطنَ يكونُ أعظمَ ألماً ممَّا يصيبُ الظَّاهرَ ، فهي تعملُ في الباطنِ ولا تُشاهَدُ بالأعينِ الظَّاهرةِ .

فإذاً ؛ كلٌّ يحملُ عذابَهُ حقيقةً مِنَ الدُّنيا في باطنِه وهو لا يشعرُ ؛ ولهـٰذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « **إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ إِلَيْكُمْ** »[2] يعني : أنَّ هـٰذه العقوبةَ منكم تُوضَعُ عليكم ؛ ولهـٰذا قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٥ـ ٧] ، فلو كان لكم علمُ اليقين . . لرأيتُمْ جهنَّمَ[3] ؛ ولهـٰذا قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٤٩] ولم

= من (هـ) : (عقرب) ، وقوله : (بألم لسبها) . هـٰذا وقد جاء الفعلُ (لسب) في (د) و(و) في الموضعين (لسع) : (أو **تلسعه** عقرب) (بألم **لسعها**) ، وما أثبتُّه من (ج) و(ليدن) ، قال في « تاج العروس » مادَّة (ل س ب) : (لَسَبَتْهُ الحَيَّةُ وغيرُها ، مِثلُ العَقرَبِ والزُّنْبُور ؛ كَمَنَعَهُ وضَرَبَه ، تَلسَبُهُ ، وتَلْسِبُهُ ، لَسْباً : لَدَغَته ، وأكثرُ ما يُستعملُ في العقربِ) .

(١) في (ب) و(ز) زيادة : (في صميم وسَط الرُّوح)

(٢) جُزء من حديث قدسيٍّ ، رواه بهـٰذا اللفظ أبو نُعيم في « الحلية » (٥/ ١٢٥) ، وعند مسلم (٢٥٧٧) : « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا » كلاهما من حديث أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه .

(٣) في (د) وحدها زيادة : (لرأيتم جهنم **فإنَّها موجودة**) .

يقُلْ ستحيطُ بهم في ثاني الحالِ[١] .

---

(١) قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه : (اعلم يا أخي تولأنا الله وإيَّاك برحمته : أنَّ الجنة التي يصل إليها من هو من أهلها في الآخرة . . هي مشهودة اليوم لك من حيث محلُّها لا من حيث صورتُها ، فأنت فيها تتقلَّب على الحال التي أنت عليها ولا تعلم أنَّك فيها ؛ فإنَّ الصورة تحجبك التي تجلَّت لك فيها . فأهل الكشف الذين أدركوا ما غاب عنه الناس . . يرون ذلك المحل ، إن كان جنة . . روضة خضراء ، وإن كان جهنماً . . يرونها بحسب ما تكون فيه من نعوت بردها وحَرورها وما أعدَّ الله فيها ، وأكثر أهل الكشف في بدايات الطريق يرون هـٰذا . وقد نبَّه الشارع صلَّى الله عليه وسلَّم علىٰ ذلك بقوله : « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » ، فأهل الكشف يرونها روضة كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم ، ويرون نهر النيل والفرات وسيحون وجيحون نهر عسل وماء وخمر ولبن كما هي في الجنة ؛ فإنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أخبر أنَّ الأنهار الأربعة مِنَ الجنة ، ومَنْ لم يكشف عن بصره وبقي في عمىٰ حجابه . . لا يدرك ذلك ؛ مثل الأعمىٰ يكون في بستان ، فما هو غائب عنه بذاته ولا يراه . . فما يلزم من كونه لا يراه أنَّه لا يكون فيه ؛ بل هو فيه . وكذلك الأماكن التي ذكر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّها مِنَ النار ؛ كبطن محسِّر وغيره ، ولهـٰذا شَرَعَ الإسراع في الخروج عنه لأُمَّته ؛ فإنَّه يرىٰ ما لا يرون ويشهد ما لا يشهَدون ، ومِنَ الناس مَنْ يستصحبه هـٰذا الكشف ، ومنهم مَنْ لا يستصحبه علىٰ ما قد أراده الله من ذلك ؛ لحكمةٍ أخفاها في خلقه ، ألا ترىٰ أهل الورع إذا حماهم الله تعالىٰ عن أكل الحرام . . من بعض علاماته عندهم أن يغير في نظره ذلك المطعوم في صورةٍ محرَّمةٍ عليه ؛ فيراه دماً أو خنزيراً فيمتنع من أكله ، فإذا بحث عن كسب ذلك الطعام . . وجده مكتسَباً علىٰ غير الطريقة المشروعة في اكتسابه . ولأهل الله أعينٌ يبصرون بها ، وآذانٌ يسمعون بها ، وقلوبٌ يعقلون بها ، وألسنةٌ يتكلَّمون بها غير ما هي هـٰذه الأعين والآذان والقلوب والألسنة عليه مِنَ الصُّوَر ، فبتلك الأعين يشهدون ، وبتلك الآذان يسمعون ، وبتلك القلوب يعقلون ، وبتلك الألسُن يتكلَّمون ، فكلامهم مصيب ؛ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الحج : ٤٦] عن الحقِّ والأخذ به ، ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ =

. . . .

* * *

= لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٧١] عن الله ﴿ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] إلى الله ، ووالله إنَّ عيونهم لفي وجوههم ، وإنَّ سمعَهم لفي آذانهم ، وإنَّ ألسنتَهم لفي أفواههم ، ولـٰكنَّ العناية ما سبقتْ لهم ولا الحسنىٰ ، فالحمد لله شكراً حيث حبانا بتلك القلوب والألسن والآذان والأعين . ولقد ورد في حديثٍ نبويٍّ ، عند أهل الكشف صحيح وإن لم يثبت طريقه عند أهل النقل ؛ لضعف الراوي ولو صدق فيه ، قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « لولا تزييدٌ في حديثكم ، وتمريجٌ في قلوبكم . . لرأيتم ما أرىٰ ولسمعتم ما أسمع » ، قال الله تعالىٰ : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل : ٤٤] ، وأكثر من هـٰذا البيان الصريح ما يكون ، لـٰكن أين مَنْ يُفرِّغ محلَّه لآثار ربه ؟! أين مَنْ ينقُل ما يسمع من غير زيادة فيه ؟! هـٰذا قليلٌ جداً ، والله وليُّ التوفيق) . « الفتوحات المكية » (٣/ ١٣) .

١٠ فصل

في بيان أنَّ صاحب البصيرة يرىٰ بمشاهدةِ الباطنِ أنَّ عذابَ القبرِ حقٌّ

عساك تقولُ : إنَّه قد عُلِمَ من ظاهرِ الشَّرعِ أنَّه تُرىٰ هـٰذه الأفاعي بعينِ الرأسِ ، والأفاعي التي ذكرتَ أنَّها تكونُ في الرُّوحِ[١] . . تكونُ في هـٰذا العالَمِ ، أم تُشاهدُ وتُرىٰ في[٢] تلك الحالِ كما تُرى الآن ؟

فاعلمْ أنَّ ما وردَ في الأخبارِ [من] مُشاهدةِ الحيَّاتِ . . صحيحٌ ، وذلك من عذابِ القالَبِ ، كما أوردَه أبو اللَّيث السَّمَرْقَنْدِيُّ في كتابِه المترجمِ بـ« تنبيه الغافلين »[٣] .

وقولِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنه : (ادفنوه في أحدِها ، فهو على الذي كان يعمَلُهُ)[٤] .

وقد ذكرتُ فيما قبلُ أنَّني لا أشتغلُ بذكرِ ذلك ؛ فإنَّ الأخبارَ كثيرةٌ ، والأخبارُ والحكاياتُ في ذلك مدوَّنةٌ في الكتبِ .

---

(١) سقط من (د) قوله : (تكون في الرُّوح) ، ولعلَّه فوت نظر ؛ لبداية السقط وانتهائه بكلمة (تكون) .

(٢) من هـٰذا الموضع وقع بتر في (ج) بمقدار صحيفة ، وعلىٰ هـٰذا بقيت المقارنة بين (ب) و(د) و(هـ) و(و) و(ز) و(ليدن) .

(٣) انظر « تنبيه الغافلين » (١/ ٤٢ وما بعدها ، باب عذاب القبر) .

(٤) « تنبيه الغافلين » (١/ ٤٧) .

وإنَّما تصدَّيتُ لبيانِ العذابِ الرُّوحانيِّ الذي قلَّما عرفَه إلاَّ الخواصُّ بعينِ البصائرِ ، فإنْ أعرتَني طرَفاً من ذَينِكَ . . ألقيتُ فيه ما لا يُخامرُكَ معه شكٌّ ولا ارتيابٌ[1] .

فاعلم الآن أنَّ هاذه الأفاعي التي تقدَّم ذكرُها . . تُرىٰ ؛ ولـٰكنَّك أنتَ لا تراها ؛ كما يرى النَّائمُ كثيراً أنَّ حيَّةً تلسَعُهُ ، ومَنْ كان عندَهُ لا يَرىٰ ذلك ، والحيَّةُ موجودةٌ عند النائمِ ، وألَمُ لسعِها ينالُهُ ، وذلك معدومٌ عند المستيقظِ ، وإذ لا يراها المستيقظُ . . لا ينقصُ مِنَ الألَمِ الحاصلِ للنائمِ شيءٌ .

وإذا رأى النَّائمُ في منامِه كأنَّ حيَّةً تلسعُه . . فهو ألَمٌ ينالُه مِنْ عدوٍّ يظفرُ به ، وذلك ألَمٌ روحانيٌّ ، وهو إنَّما يحصلُ للقلبِ ، فإذا ظفِرَ به العدوُّ ـ وقد وقفَ علىٰ تعبيرِ رؤياه ـ يودُّ أنْ لو لسعتْهُ الحيَّةُ في بدنِه ولم يظفَرْ به العدوُّ ؛ فإنَّ ألَمَ اللَّسعِ كان يصلُ البدنَ ، وألمُ ظَفَرِ العدوِّ يصلُ القلبَ والبدنَ ، وذلك أعظمُ وأكثرُ وأصعبُ .

فإن قلت : الحيَّةُ التي يراها تلسعُه في نومِه معدومةٌ ، والذي يراه وينالُه إنَّما هو خيالٌ !

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا القولَ غلطٌ عظيمٌ ؛ فإنَّ الحيةَ موجودةٌ ما دامَ

---

(١) من قوله : (فاعلم أنَّ ما وردَ في الأخبار [من] مشاهدة الحيَّات صحيحٌ . . .) إلىٰ قوله : (ألقيتُ فيه ما لا يُخامرُكَ معه شكٌّ ولا ارتيابٌ) ثبت في (و) وحدها ، وسقط من بقيَّة النُّسخ ، وقد ذكرتُ سابقاً في المقدِّمة (ص ٧٤) ، وفي (ص ٣٤١ ، الحاشية ١) أنَّ هـٰذا الموضع قد بُتر في (أ) ، ولا يبعُد أنَّنا لو عثرنا على الأوراق المبتورة منها أن نجد هـٰذا الكلام فيها .

معناها موجوداً ، ومعنى الموجودِ : ما هو حاصلٌ ، ومعنى المعدومِ : ما هو غيرُ حاصلٍ ، وكلُّ ما هو حاصلٌ وأنتَ تَراهُ في المنامِ . . فهو موجودٌ في حقِّك وإنْ لم يرَهُ غيرُك ، وكلُّ ما لم ترَه ولم يحصلْ لك به علمٌ . . فهو معدومٌ في حقِّك ولو رآه جميعُ الخلقِ ، وإذا وصلَ عذابُ ذلك إلى النائمِ والميْتِ من حيث لا يراه غيرُه . . فأيُّ نقصٍ فيه من عدَمِ رؤيةِ الغيرِ ؟!

وإنَّما فيه شيءٌ ؛ وهو أنَّه إذا استيقظَ . . خلَصَ من ذلك الألَمِ ؛ فيسمَّىٰ ذلك خيالاً .

أمَّا الميْتُ ؛ فإنَّه يَبقىٰ في ذلك الألَمِ ، من حيث إنَّه ليس له آخِرٌ يُفضي به إلى الخلاصِ منه ، كالنَّومِ حينَ يخلُصُ ممَّا يُلقىٰ فيه بالانتباهِ ، والموتُ هو النَّومُ الدَّائمُ ، فيستمرُّ ما هو فيه أبداً ، فتكون كالمحسوساتِ في هـٰذا العالَمِ في الثباتِ وفي الشريعةِ ، بسببِ أنَّ تلك الحيَّاتِ والعقاربَ والأفاعي التي تكونُ في القبرِ . . لا يمكنُ رؤيتُها بالعينِ الظَّاهرةِ لعمومِ الخَلقِ ما داموا في عالَمِ الشَّهادةِ ، أمَّا مَنْ بَعُدَ عن هـٰذا العالَمِ ـ بنومٍ مثلاً ـ وكُشِفَ له عن حالِ هـٰذا الميْتِ . . فهو يَراهُ بين الحيَّاتِ والعقاربِ ، والأنبياءُ والأولياءُ يرونَه كذلك ؛ فإنَّ ما يُكاشَفُ به الأغيارُ في النَّومِ . . يراه هـٰؤلاء في اليقَظةِ ؛ فإنَّ عالَمَ المحسوساتِ لا يحجُبُ هـٰؤلاء عن مشاهدةِ أمورِ الآخرةِ(١) ؛ ولهـٰذا جاء في

---

(١) تكلَّم حُجَّة الإسلام عن مراتب الوجود ، وقسَّمها إلىٰ خمسة : الوجود الذاتي ، والوجود الحسِّي ، والوجود الخيالي ، والوجود العقلي ، والوجود الشبهي ، وقال في شرح الوجود الحسي : (هو ما يتمثَّلُ في القوَّة الباصرة في العين ممَّا لا وجود له خارجَ العين ، فيكون موجوداً في الحسِّ ، ويختصُّ به الحاسُّ ، =

الخبرِ[1] أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلَّم اجتازَ بمقبُرةٍ ، فوقفَ علىٰ قبرينِ وأخذَ جريدةَ سعفٍ فشقَّها ، ثم غرسَ أحدَ النِّصفينِ في قبرٍ وغرسَ النِّصفَ الآخرَ في قبرٍ ، وقال : « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ! أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِه مِنَ الْبَوْلِ ، وإِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا دَامَتْ هَـٰذِهِ الجَرِيْدَةُ رَطْبَةً** »[2] .

ومعلومٌ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلَّم ما رأىٰ ذلك[3] بعينٍ ظاهرةٍ ؛

= ولا يشاركه غيرُهُ ؛ وذلك كما يشاهدُ النائم ؛ بل كما يشاهده المريض المتيقظ ؛ إذ قد تتمثل له صورٌ ولا وجود لها خارج حسِّه ، حتىٰ يشاهدَها كما يشاهدُ سائر الموجودات الخارجة عن حسه . بل قد تتمثل للأنبياء والأولياء في الصحة واليقَظة صورٌ جميلة محاكية لجواهر الملائكة ، وينتهي إليهم الوحي والإلهام بواسطتها ، فيتلقَّون من أمر الغيب في اليقَظة ما يتلقَّاه غيرهم في النوم ، وذلك لشدَّة صفاء باطنهم ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم : ١٧]) « فيصل التفرقة » (ص ٥٨) .

وقال في « الإحياء » (٥/ ١٤٢) : (المكاشف في اليقَظة : هو الذي انتهىٰ إلىٰ رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام ، فيرىٰ في اليقَظة ما يراه غيره في المنام) .

(١) في (د) وحدها : (ألا ترىٰ أنَّه جاء في الخبر الصَّحيح) بدل (ولهـٰذا جاء في الخبر) .

(٢) رواه البخاري (٢١٨) ، ومسلم (٢٩٢) كلاهما من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظ البخاري : عَنِ ابنِ عبَّاسٍ قال : مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ ، فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ! أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، لِمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : « لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا » .

(٣) هنا ينتهي البتر في (ج) .

فإنَّه لو رأىٰ ذلك . . لرآه غيرُه ممَّن كان معه أيضاً ، فعينُ كلِّ واحدٍ ممَّن كان معه صحيحةٌ كما كانت عينُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم ، ولم يكن هناك خللٌ في عينِ أحدٍ منهم ، ولمَّا لم يَرَوهُما . . عُلِمَ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إنَّما رآهما لا بعينِ رأسِه .

وأيضاً : فإنَّ عينَ الظاهرِ يحجُبُها الجدارُ والسِّتْرُ ، ولا يقدِرُ أحدٌ أن يرىٰ ما في القبرِ وهو مغطًّىً يُعذَّبُ فيه .

فإذاً ؛ يجبُ أن تعلمَ أنَّ ما رآه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم وأخبرَ به . . صحيحٌ لا شكَّ فيه ولا شبهةَ ، لـٰكن لم يرَه بعينِ الظَّاهرِ .

وقد أطنبنا في هـٰذا ؛ لأنَّ جماعةً مِنَ الحمقىٰ[1] والجُهَّالِ يُنكِرونَ عذابَ القبرِ ؛ من أجلِ أنَّ أحدَهم ربَّما عَبَرَ بقبرٍ مكشوفٍ ، أو بمقابرِ المجوسِ ؛ فإنَّ قبورَهم تكون أَزاجاً يُشاهَدُ ما فيها[2] ، فإذا لم يرَوا فيها حيَّاتٍ وعقاربَ . . ظنُّوا أنَّ ما ذكرناه باطلٌ[3] ، وأنَّ عذابَ القبرِ ليس بحقٍّ ، وإنَّما يصدرُ منهم الإنكارُ لذلكَ . . لجهلِهِمْ بأمورِ الآخرةِ وطريقِها . واللهُ أعلم .

* * *

---

(١) في (ج) وحدها : (وقد أطنب في هـٰذا الأمر جماعةٌ منَ الحمقىٰ) بدل (وقد أطنبنا في هـٰذا ؛ لأنَّ جماعةً من الحمقىٰ) .

(٢) الأزَجُ : بيتٌ يُبنَىٰ طُولاً ، وأزَّجتُهُ تأزيجاً . . إذا بَنَيته . انظر « المصباح المنير » (أ ز ج) .

(٣) في (د) وحدها : (ما ذكرته الشريعة باطل) بدل (ما ذكرناه باطلٌ)

١١ فصل

في أسرار تفاوت نعيم القبر وعذابه

عساك تقولُ : إن كان عذابُ القبرِ من جهةِ علاقةِ القلبِ بهٰذا العالَمِ . . فليس يخلو أحَدٌ من هٰذا ؛ فإنَّ كُلاًّ يحبُّ الأهلَ والمالَ والولدَ والجاهَ . فإذاً ؛ يُعذَّبُ الكلُّ في القبرِ ، ولا ينجو من ذلك أحَدٌ !

فاعلم : أنَّه ليس الأمرُ كذلك ؛ فإنَّ جماعةً قد شبِعُوا مِنَ الدُّنيا . . فلم يبقَ لهم فيها راحةٌ ولا نزهةٌ ؛ فهي عليهم أشدُّ مِنَ السِّجنِ الضَّيقِ ، فيتمنَّونَ الموتَ ويشتهونَه ، وكذلك الفقراءُ مِنَ المسلمينَ .

وقد جاء في أخبارٍ كثيرةٍ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلَّم تمنَّى الموتَ في آخرِ العهدِ عندَ انقضاءِ العمْرِ ، وفي حديثِ عائشةَ رضي الله عنها : أنَّ آخِرَ كلمةٍ قالها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « **اللهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ** » ، قالت : وكنتُ سمعتُ أنَّ الأنبياءَ لا يموتُون حتىٰ يختارُوا الموتَ ، فلمَّا سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم يقولُ ذلك . . علمتُ أنَّه قدِ اختارَ الموتَ[١] .

وقد نطقَ الكتابُ إخباراً عن يوسُفَ عليه السَّلامُ بقولِه : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] فطلبَ الموتَ على الإسلامِ وهو في المُلْكِ .

---

(١) متفقٌ عليه ، البخاريُّ (٤٤٣٧) ، ومسلم (٢٤٤٤) .

وجاء رجلٌ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ فقالَ له : تأهَّبْ ؛ فقد رأيتُ رؤيا تدلُّ علىٰ أنَّك تموتُ بعد سنةٍ ، فبكىٰ وقال : يا أخي لقد طوَّلتَ عليَّ ، أمَا والله لقد كنتُ أرجو أن لا تمضي عليَّ ساعةٌ إلاَّ وقد لقيتُ ربِّي ، ولقد كان لي أُنسٌ بهـٰذا البيت : [من البسيط]

يا مَنْ شكا شوقَه مِنْ طُولِ غَيْبَتِهِ اصبر لعلَّكَ تلقىٰ مَن تُحبُّ غدا[1]

وكانتِ امرأةٌ مِنَ المتعبِّدَاتِ تبكي ، حتىٰ خدَّتِ الدموعُ في خدَّيها ، وكانت تقولُ : وعزَّتِكَ لقد سئمتُ الحياةَ ، ولو وجدتُ الموتَ يباعُ . . لاشتريتُه شوقاً إليك وارتياحاً إلىٰ لقائكَ ، قيل لها : فعلىٰ ثقةٍ أنتِ من أعمالِكِ ؟ قالت : لا ، ولـٰكنِّي واثقةٌ بحُسْنِ ظنِّي فيه ، أفَتُراهُ يعذِّبُني وأنا أُحبُّه[2] ؟!

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » في باب الشَّوق (ص ٦٦٥) طبعة دار المنهاج ، وفيها نسبوا الخبر إلىٰ عبد الله بن مَنازل (ت : ٣٢٩هـ) ، وكذلك هي في شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري « إحكام الدلالة » (٢/ ٩١١) ، وطبعة الشيخ عبد الحليم محمود لـ« الرسالة القشيرية » (ص٥٣٣) ، ونسبه الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٩/ ٦٩١) لعبد الله بن المبارك (ت : ١٨١هـ) . ونُسبَ البيت المذكور للعباس بن الأحنف (ت : ١٩٣هـ) ، كما في « ديوانه » (ص ٨٣) .

(٢) قوله : (قيل لها : فعلىٰ ثقةٍ أنتِ من أعمالِكِ ؟ قالت : لا ، ولـٰكنِّي واثقةٌ بحُسْنِ ظنِّي فيه ، أفتُراهُ يعذِّبُني وأنا أُحبُّه ؟!) ثبت في (ليدن) وحدها .
والقصة أوردها الإمام الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٧) في باب ذكر الشَّوق ، وعنه الإمام الغزالي في « الإحياء » (٨/ ٥٨٨) في خاتمة كتاب المحبَّة : (قال عبد الله بن محمد : سمعت امرأةً مِنَ المتعبِّداتِ تقول وهي باكيةٌ ، والدُّموع علىٰ خدِّها جاريةٌ : والله ؛ لقد سئمتُ مِنَ الحياة ، حتىٰ لو=

والأخبارُ والحكاياتُ في ذلك كثيرةٌ لا تُحصَىٰ[1] .

أمَّا مَنْ كان غنيّاً فهو علىٰ قِسمين :

أحدُهما : قومٌ يحبُّونَ الدُّنيا ويحبُّونَ اللهَ تعالىٰ ؛ فهٰؤلاء لا يعذَّبونَ[2] .

ومثلُهم : كرجُلٍ له دارٌ وبلدٌ يحبُّه ، ويودُّ أن لا يبعُدَ عنه ، ولٰكنَّه مع ذلك يحبُّ الرِّياسةَ والسَّلطنةَ والأمرَ والنَّهيَ ، فإذا جاءه منشورُ السُّلطانِ برياسةِ بلدةٍ أخرىٰ . . لم تصلْه مشقَّةٌ بمفارقَةِ دارِه ووطنِه ؛ فإنَّ ما يحصلُ من فِراقِه لذلك . . حقيرٌ في جنبِ ما ينالُهُ مِنَ الرِّياسةِ والسَّلطنةِ والأمرِ والنَّهيِ الذي يحبُّه ويؤثِرُه ؛ حتىٰ يبقىٰ دارُه ووطنُه كالمعدومِ في حقِّه بالإضافةِ إلىٰ ما وُلِّيَه ، فهٰؤلاء تلتفتُ قلوبُهم إلى الولدِ والوطنِ وما كان لهم ، ولٰكن إذا ظهرَ لهم[3] لذَّةُ تلك المحبَّةِ لله تعالىٰ والأنسِ بذكرِه ، واستحكمَ ذلك . . صارَ التفاتُهم نحوَ ما كان لهم كالمعدومِ في حقِّهم ، وهٰذه اللَّذَّةُ تظهرُ بالموتِ ؛ فيأمَنونَ عذابَ القبرِ .

= وجدتُ الموتَ يباعُ . . لاشتريته شوقاً إلى الله تعالىٰ وحبّاً للقائه ، قال : فقلتُ لها : فعلىٰ ثقةٍ أنتِ من عملِكِ ؟ قالت : لا ، ولٰكن لحبِّي إيَّاهُ وحُسْنِ ظنِّي به ، أفتُراهُ يعذِّبُني وأنا أُحبُّه ؟!) .

(١) من عند قوله : (وقد نطق الكتاب إخباراً عن يوسف عليه السلام) إلىٰ قوله : (والأخبار والحكايات في ذلك كثيرة لا تحصىٰ) سقط من (ج) و(و) ، وثبت في (ب) و(هـ) و(د) و(ز) و(ليدن) ، وقوله : (وكانتِ امرأةٌ مِنَ المتعبِّداتِ تبكي . . .) إلىٰ قوله : (والأخبار والحكايات في ذلك كثيرة لا تحصىٰ) ثبت في (د) و(ليدن) فقط !

(٢) في (ج) وحدها : (فهٰؤلاء يعذَّبون) بدل (فهٰؤلاء لا يعذَّبون) !

(٣) في (ج) وحدها : (لذَّ لهم) بدل (ظهر لهم) .

أمَّا قومٌ يحبُّون شهواتِ الدُّنيا.. فلا يخلُصُون من هٰذا العذابِ ، وهمُ الأكثرُ ؛ ولهٰذا قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] ، فهٰؤلاء يَلْقونَ العذابَ مُدَّةً ، فإذا طالَ عهدُهم مِنَ الدُّنيا.. نَسُوها ولذَّتَها ، لا سيَّما وفي قلوبِهم أصلُ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ ، فيبتدئُ بالظهورِ .

ومَثَلُ هٰؤلاء : كرجُلٍ له دارانِ ، يحبُّ أحدَهما أكثرَ مِنَ الأُخرىٰ ، أو بلدانِ يحبُّ أحدَهما أكثرَ مِنَ الآخَرِ ، فإذا أُبعِدَ عنِ التي يُحبُّها أكثرَ ودُفِعَ إلى الأُخرىٰ.. بقيَ مُدَّةً في أَلَمِ فِراقِ تلك التي أُبعدَ عنها ، ثمَّ ينساها بعد طولِ المدَّةِ ويميلُ إلى الأُخرىٰ بكليَّتِه ، ويظهرُ علىٰ طولِ الأيامِ أثرُ تلك المحبَّةِ النَّاقصةِ لهٰذه التي خُلِّيَ بينَهُ وبينَها .

فأمَّا مَنْ لا يحبُّ اللهَ تعالىٰ.. فهو باقٍ في ذلك العذابِ ؛ فإنَّ محبَّتَه كانت لِمَن سُلِبَه ، وحيلَ بينَه وبينَه ، فبماذا يتسلَّىٰ ويخلُصُ من ذلك العذابِ ؟! وهٰذا أحَدُ الأسبابِ المخلِّدةِ في العذابِ .

واعلم أنَّ كلَّ أحَدٍ يدَّعي محبَّةَ اللهِ تعالىٰ ، أو أنَّه يحبُّ اللهَ أكثرَ مِنَ الدُّنيا.. فاعتبرْ ذلك ؛ فإنَّ له مِحَكّاً ومعياراً يُعرَفُ به :

وهو أنَّه إذا أمَرَتْهُ نفْسُهُ أو شهوتُه بشيءٍ ، وأمرَ الشَّرعُ بخلافِه.. فليَنظُرْ ؛ فإنْ رأىٰ قلبَه يميلُ إلىٰ ما أَمَرَ اللهُ تعالىٰ به أكثرَ من مَيلِه إلىٰ ما تأمرُه به نفْسُه وشهوتُه.. عَلِمَ أنَّه يحبُّ اللهَ تعالىٰ .

كما إذا أحبَّ شخصينِ أحدَهُما أكثرَ مِنَ الآخَرِ ، فاختلَفا ؛ فإنَّه يكون في جانبِ الذي يُحبُّه أكثرَ ، وبهٰذا يعرفُ نفْسَهُ أنه يحبُّه أكثرَ ، وإذا لم يكن كذلك ؛ فإنَّ قولَهُ بلسانِه : أنا أحبُّ اللهَ أكثرَ.. لا ينفعُ ؛

لأنه كذبٌ ، ولهـٰذا قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « **لا تَزَالُ كَلِمَةُ لا إلـٰهَ إلا اللهُ تحمي قائلَها مِنْ عَذَابِ اللهِ مَا لم يختزْ صَفْقَةَ الدُّنيا علىٰ صَفْقَةِ الآخرةِ**[1] ، فإذا اختارَها علىٰ صَفْقَةِ الآخرةِ[2] .. يقولُ له اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، إنَّ قولَ لا إلـٰهَ إلا اللهُ مع هـٰذه المعاملةِ كذبٌ ومَيْنٌ »[3] .

فإذاً ؛ عرفتَ من هـٰذه الجملةِ أنَّ صاحبَ البصيرةِ يرىٰ بمشاهدةِ الباطنِ أنَّ عذابَ القبرِ حقٌّ ، ولـٰكن يتفاوتُ في المُدَّةِ والشِّدَّةِ تفاوتاً كثيراً ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) في (د) وحدها : (صفة الدُّنيا علىٰ صفة الآخرة) بدل (صفقة الدُّنيا علىٰ صفقة الآخرة) .

(٢) سقط من (ب) وحدها قوله : (فإذا اختارها علىٰ صفقة الآخرة) ، وكذلك كتبت في (د) : (صفة) بدل (صفقة) .

(٣) لم أجده بهـٰذا اللفظ ، وقد ذكره الإمام الغزالي بغير هـٰذا اللفظ في « الإحياء » في موضعين ، الأوَّل : في كتاب آداب الكسب والمعاش (٣/٢٩٨) ، الثاني : في كتاب الفقر والزهد (٨/١٢٢) ، ولفظه : (قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « لا تزال لا إلـٰه إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم علىٰ آخرتهم » ، وفي لفظٍ آخر : « ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إلـٰه إلا الله .. قال الله تعالىٰ : كذبتم ، لستم بها صادقين » ، وقد ذكره أبو طالب المكي في « القوت » (٢/٦٨٨) . رواه ابن عَدي في « الكامل » (٢/٢١٤) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠٣٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠١٥) . وفي رواية للترمذي الحكيم في « النوادر » (٤/٥٠١) : « حتىٰ إذا نزلوا بالمنزل الذي لا يبالون .. ما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم » الحديث .

١٢ فصل

في الميزان الذي يعرف به نعيم القبر وعذابه

لعلَّ جماعةً مِنَ المغرورينَ والحمقىٰ يقولونَ : إن كان عذابُ القبرِ هٰذا.. فنحن آمنونَ منه ؛ إذ ليس بيننا وبين الدُّنيا علاقةٌ ، وقد استوىٰ عندنا الوجودُ والعَدمُ !!

وهٰذه الدعوىٰ محالٌ ؛ فإنَّه ما دامتْ شهواتُهمْ باقيةً ، وحاجاتُهمْ داعيةً.. فذلك محالٌ ، وإنَّما تصحُّ هٰذه الدَّعوىٰ مثلاً ممَّن لو سُرِقَ جميعُ ما يملِكُه ، وانتقلَ قَبولُ الخَلقِ له واحترامُهُم إيَّاه إلىٰ غيرِه من أقرانِه ، وكلُّ مَنْ كان مريداً له.. صار عدوّاً له ، يذمُّه ويقدحُ فيه ، ثمَّ لم يؤثِّرْ كلُّ ذلك في نفْسِهِ ، ولم يتغيَّرْ لأجلِ ذلك طبعُه ، وينزلُ عندهُ منزلةَ ما المُصابُ بذلك غيرُه لا هو.. فحينئذٍ تصحُّ دعواه ، وإلا.. فلا ، وربَّما اعتقدَ أنَّه كذلك ، وهو مغرورٌ أيضاً ، إلا إذا أعرضَ عنه الخَلقُ وأصيبَ في ماله وجاهه.. فحينئذٍ يتبيَّن له أهو كذلك أم لا .

فإذاً ؛ يجبُ أن يُبعِدَ المالَ عنه ، ويهربَ من قَبولِ النَّاسِ له ، ويجرِّبَ نفْسَه[١] ، ثمَّ يعتمدُ علىٰ ما يرىٰ من حالِه ؛ فإنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ يعتقدُ أنْ ليس بينَه وبين زوجتِه أو جاريتِه علاقةٌ أو محبَّةٌ ، فإذا طلَّقَ الزَّوجةَ أو باعَ الجاريةَ.. ظهرتْ نارُ العشقِ التي كانت مستكِنَّةً في قلبِه ؛

---

(١) في (ليدن) و(ز) : (ويخرِّبَ نفْسَه) بدل (ويجرِّبَ نفْسَه) .

فأحرقتْهُ ، وربَّما أفضَتْ به إلى الجنونِ والهلاكِ .

فإذاً ؛ مَنْ أرادَ الخلاصَ من عذابِ القبرِ . . فليقطعْ علائقَه مِنَ الدُّنيا ، إلا ما دعتْ ضرورتُه إليه ؛ كالذي يضطَّرُ إلىٰ بيتِ الطَّهارةِ ويجيئُه[1] ضرورةً لقضاءِ حاجتِه ويريدُ أن يتخلَّصَ منه ، فينبغي أن يكونَ حرصُه علىٰ وصولِ الطعامِ إلى المعدَةِ ؛ كحرصِه علىٰ تفريغِها منه ، فكلاهُما يضطَّرُ إليه ، وكذلك يفعلُ في جميعِ أمورِه ، فإنْ كان لا يقدرُ علىٰ تنظيفِ قلبِه من هـٰذه العلائقِ هـٰكذا . . فليواظبْ على العباداتِ وذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويعوِّدْ نفْسَهُ ذلك ؛ ليغلبَ الأنسُ بذكرِ اللهِ سبحانه علىٰ قلبِه ، فيكونَ أغلبَ من حُبِّ الدُّنيا ، ويطالبْ نفْسَه[2] أبداً بوجهِ غلبَةِ حبِّ اللهِ تعالىٰ وذكرِه علىٰ حُبِّ الدُّنيا ؛ بمتابعةِ الشريعةِ ، وتقديمِ أوامرِها علىٰ هوىٰ نفْسِهِ ، فإنْ أطاعتْهُ نفْسُهُ في هـٰذا المعنىٰ . . فليعتقدْ أنَّ عذابَ القبرِ يسهلُ عليه ، وإن لم يكن كذلك . . فليوطِّنْ نفْسَه علىٰ عذابِ القبرِ وشدَّتِه ، إلا أن يتغمَّدَهُ اللهُ برحمتِه ، واللهُ عفوٌّ غفورٌ .

* * *

---

(١) كذا في (ج) وحدها : (ويجيؤه) ، وفي النسخ الأخرىٰ (ويُحِبُّه) .

(٢) سقط من (ج) قوله : (ويعوِّدْ نفْسَهُ ذلك ليغلب الأنس بذكر الله سبحانه علىٰ قلبه ، فيكون أغلب من حب الدُّنيا ، ويطالب نفسه أبداً بوجه غلبة حب الله وذكره . . .) ، ولعلَّه فوت نظرٍ ؛ لابتداء السقط وانتهائه بكلمة (نفسه) .

١٣ فصل

في بيان العذاب الرُّوحاني وأجناس ناره[1]

كثيراً ما يَرِدُ في ألفاظِ المحقِّقين ذِكرُ الرُّوحانيِّ ، وقلَّما جاء في التَّصانيفِ شرحُ معناه ، اللَّهم إلا أنْ يكونَ شيخُنا الإمامُ حُجَّةُ الإسلامِ أبو حامدٍ الغزاليُّ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ قد ذكرَه في بعضِ تصانيفِهِ التي لم أقفْ عليها[2] ؛ فإنِّي إخالُهُ لا يُخِلُّ بمثلِ ذلك ، غيرَ أنِّي أُشيرُ إلىٰ نُبْذَةٍ من معناهُ فأقولُ[3] :

اعلم أنَّا نريدُ بالرُّوحانيِّ ما هو للرُّوحِ خاصَّةً دون البدنِ ، ونارُ اللهِ

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « الأربعين في أصول الدين » (ص ٤٨٠) .

(٢) هنا ينتهي البتر الثاني في (أ) وتتصل مع بقيَّة النُّسخِ . وقوله : (قد ذكرَه في بعض تصانيفِه التي لم أقفْ عليها) يشير إلىٰ أنَّ المؤلِّف الإمام العراقي لم يقف علىٰ كتاب « الأربعين في أصول الدين » ، فلعلَّه قد استنبطه من جملة تصانيفه ، والله أعلم .

(٣) كذا في (أ) و(و) : (فإنِّي إخالُهُ لا يُخِلُّ بمثل ذلك ، غيرَ أنِّي أُشيرُ إلىٰ نُبذَةٍ من معناهُ فأقولُ : اعلم . . .) ، وفي (ج) و(د) و(ليدن) جاءت العبارة واحدة مع اختلاف لا يخلُّ بالمعنىٰ : (فمثله لا يكاد يخل بمثل هـٰذا مع كثرة استعماله له ، وأنا أشير إلىٰ طرفٍ من ذلك فأقول : اعلم . . .) . أمَّا في (ب) و(هـ) و(ز) فقد سقط كلام كثير من مقدِّمة الفصل ، وجاءت العبارة فيها : (فصلٌ : قد ورد كثيراً في ألفاظ المحقِّقين ذكرُ الرُّوحاني ، وقلَّما جاء شرح معناه ، فلا بُدَّ من الإشارة إلىٰ شيءٍ من ذلك . اعلم . . .) .

الموقدةُ التي تطَّلعُ على الأفئدةِ . . إنَّما يكونُ هٰذا ؛ وهو استيلاءُ نارٍ على القلبِ ، والنَّارُ التي تستولي على الجسمِ فهي نارٌ جسمانيَّةٌ ، فاعلم الآن أنَّ جهنَّمَ الرُّوحانيَّةَ ثلاثةُ أجناسٍ مِنَ النَّارِ :

أحدها : نارُ فِراقِ شهواتِ الدُّنيا .

الثانية : نارُ الحياءِ والخجلِ مِنَ الفضائح .

الثالثة : نارُ الحرمانِ من جمالِ الحضرةِ الصَّمديَّةِ ، وقطعِ الرجاءِ[1] .

وهٰذه النيرانُ الثلاثةُ تكونُ بين الرُّوحِ والقلبِ لا مع البدنِ[2] ، ولكلِّ واحدٍ[3] مِنَ الثلاثةِ الأجناسِ سببٌ ، فهي ثلاثةُ أسبابٍ تكونُ مع الآدميِّ من دارِ الدُّنيا ، وتَعلمُ معناهُ بمثالٍ يُستعارُ من هٰذا العالَمِ :

فالصِّنفُ الأوَّلُ : نارُ فِراقِ الشَّهواتِ الدُّنيويَّةِ .

وقد تقدَّم ذكرُ سببِه عند تحقيقِ عذابِ القبرِ ، وأنَّ العشقَ والإرادةَ جنَّةٌ للقلبِ[4] ، فهو في جنَّةٍ ما دام مع معشوقِه ، وفي نارٍ إذا كان مفارقاً لمعشوقِه .

---

(١) وعبَّر عنها حُجَّة الإسلام بقوله : (أصناف عذاب الآخرة ثلاثة ـ أعني : الرُّوحاني منها ـ : حرقة فُرقَة المشتهيات ، وخزي خجْلَة الفاضحات ، وحسرة فوات المحبوبات) . « **الأربعين في أصول الدين** » (ص ٤٨١) .

(٢) وهٰذه الأنواع تتعاقب علىٰ روحِ مَنْ آثر الحياة الدنيا إلىٰ أن ينتهيَ إلىٰ مقاساة النار الجسمانيَّة ؛ فإنَّ ذلك يكون في آخر الأمر . انظر « **الأربعين في أصول الدين** » (ص ٤٨١) لحُجَّة الإسلام .

(٣) سقط من (ج) قوله : (الثلاثة تكون بين الرُّوح والقلب لا مع البدن ، ولكل واحد) ، وسقطت كلمة (والقلب) من (د) .

(٤) الفصل الثامن من الباب الرابع (ص ٣٥٢) .

فإذاً ؛ عاشقُ الدُّنيا في جنَّةٍ ما دام بها ، فالدُّنيا جنَّةُ الكافرِ ، وهو في الآخرةِ في جحيمٍ حين سُلبَ معشوقَه وحيلَ بينَه وبين محبوبِه ، فإذاً ؛ الشيءُ الواحدُ سببٌ للنعيمِ وسببٌ للجحيمِ ، ولـٰكن في حالَينِ مختلفَينِ .

ومَثَلُ هـٰذه النَّارِ في الدُّنيا ؛ كسُلطانٍ أطاعَه أهلُ الأرضِ واتَّبعوا أمرَه ، وهو مع ذلك مشغولٌ بالتفرُّجِ في المتنزَّهاتِ ، والتَّمتُّعِ بالوجوه الحَسَنةِ ، والتَّنزُّه في بساتينِ الدُّنيا ومحاسنِها . . فيَفجَؤهُ عدوٌّ ؛ فيحولُ بينَه وبين مملكتِه ، ويسلبُه ما كان فيه من دولتِه ، ثمَّ يكِلُه بحراسةِ الكلابِ ومراعاتِها ؛ بحيث يَراهُ أهلُه ومَنْ كان في طاعتِه ، ويفترشُ حُرَمَهُ ، ويستخدمُ عبيدَه وجواريَه ويُفرِشُهُمُ الأجانبَ[1] ، كلُّ ذلك بمحضرٍ منه ، ثمَّ إنَّه منحَ أعداءه ذخائرَه المخزونةَ وحُرَمَه المصونةَ ؛ فإنَّ ذلك الملِكَ الذي جرىٰ عليه في نفْسِه ومالِه وأهلِه وحُرَمِه ومملكتِه ذلك . . ينالُه مِنَ الألَمِ ويحترقُ بنيرانِ فِراقِ ما كان له ؛ فيضطرِمُ في قلبِه وروحِه حتىٰ يتمنَّىٰ أنَّه يهلِكُ في دفعةٍ واحدةٍ[2] ، أو يُسلَّطُ علىٰ بدنِه أنواعُ العذابِ ولا يَرىٰ ما تمَّ عليه وجرىٰ في حقِّه ، ويشتدُّ استعارُ هـٰذه النَّارِ بحسبِ ما كانت عليه دولتُه مِنَ الهناءِ والرَّاحةِ .

فإذاً ؛ كلُّ مَنْ كان تمتُّعُه بالدُّنيا أكثرَ ، وهي مساعِدةٌ له كما يُحبُّ . . فإنَّ عشقَه لها يكونُ أعظمَ ، ونيرانَ فراقِها في روحِه وقلبِه أشدُّ اضطراماً واستعاراً وأكثرُ إحراقاً ، ولا يمكنُ وجودُ مثالِ هـٰذه النَّارِ في الدُّنيا ؛

---

(١) قوله : (ويفرشهم الأجانب) سقط من (ج) و(د) و(ليدن) .

(٢) في (ج) و(د) و(ليدن) زيادة : (يهلك من وقته في دفعة واحدة) .

فإنَّ أَلَمَ القلبِ فيها لا يتمكَّنُ مِنَ القلبِ والرُّوحِ ؛ لأجلِ أنَّ الحواسَّ وأسبابَ الدُّنيا تشغلُ القلبَ عنِ الفراغِ للإحساسِ بهـٰذا الألَمِ ، ويصيرُ كالحجابِ له ، فلا يتمكَّنُ فيه العذابُ ؛ ولهـٰذا إذا شغلَ سمعَه وبصرَه بشيءٍ آخرَ . . خفَّ عليه ما كان يجدُهُ مِنَ الألَمِ قبلَ الاشتغالِ ، وإذا فرغَ . . زادَ الألَمُ .

ولهـٰذا المعنىٰ ؛ صاحبُ المصيبةِ إذا استيقظَ من نومِه . . فإنَّه يكونُ أَلَمُ المصيبةِ أعظمَ أثراً في قلبِه[1] ؛ لأنَّ الرُّوحَ تكونُ قد صَفَتْ في النَّومِ ، فقبل معاودةِ المحسوساتِ . . كلُّ ما وصلَ إليها كان أشدَّ تأثيراً ؛ حتىٰ إنَّه لو سمعَ صوتاً حسناً حين يستيقظُ من نومِه . . فإنَّهُ يكونُ أكثرَ أثراً فيه ، وسببُ ذلك ما ذكرنا ؛ وهو صفاءُ القلبِ عنِ المحسوساتِ ، ولا يتمُّ ذلك قطُّ في الدُّنيا ؛ فإنَّ في حالِ اليقَظةِ تُشاهَدُ الشواغلُ ، وفي حالِ النَّومِ يُشاهَدُ خيالُ الشواغلِ المنطبعةِ في خزانةِ الخيالِ ، وإن كان أيسرَ من حالِ اليقَظةِ ، إلا أنَّه شاغلٌ أيضاً ، فأمَّا إذا ماتَ . . بطلتِ الشواغلُ والخيالاتُ ، وتجرَّدَ وصفا من أثرِ المحسوساتِ ؛ فيَعظمُ حينئذٍ تمكُّن الرَّاحةِ والألَمِ فيه ، فلا تظنَّ أنَّ تلك النَّارَ كهـٰذه النَّارِ التي في الدُّنيا ؛ فإنَّ نارَ الدُّنيا غُسِلَتْ بسبعينَ ماءً ثمَّ أُرسلتْ إلى الدُّنيا ؛ فقد نُقِلَ في الخبرِ : « **لَوْلاَ أَنَّهَا ضُرِبَتْ فِي مَاءِ الْبَحْرِ سَبْعِينَ مَرَّةً . . لَمَا انْتَفَعْتُمْ بِهَا** »[2] .

---

(١) في (ج) و(د) و(ليدن) : (فإنَّه يجد من الألم أعظم وأشد أثراً في قلبه منَ الذي كان يجدُ قبل النَّوم) بدل (فإنَّه يكون ألم المصيبة أعظم أثراً في قلبه) .

(٢) كذا في (أ) و(و) : (لولا أنَّها ضربت في ماء البحر سبعين مرَّة . . لما انتفعتم=

صفةُ النَّارِ الثَّانيةِ : وهي نارُ الحياءِ والتَّشويرِ والخجلِ مِنَ القبائحِ والفضائحِ[1] .

ومثالُ هـٰذه النَّارِ مِنَ الدُّنيا : كرجُلٍ خسيسٍ حقيرٍ اجتبَاه السُّلطانُ وقدَّمَه واصطفَاه وأكرمَه وجعلَه نائبَه في مملكتِه ، وفوَّضَ إليه أمرَ حريمِه وأهلِ بيتِه ، فلا يكادُ يَحجُبُ عنه شيئاً ، وألقىٰ مقاليدَ أمرِه ومفاتيحَ خزائنِه إليه ، وعوَّلَ في جميعِ أمورِه عليه ، فإذا نالَ هـٰذه المنزلةَ . . أضمرَ البغيَ والطُّغيانَ ، وقابلَ أياديَه ونِعمَه بالجحودِ والكُفرانِ ، وتصرَّفَ في أموالِه علىٰ غيرِ الوجهِ ، وخانَه في أهلِ بيتِه وحُرَمِه ، وأفسدَ في ذويهِ وحَشَمِهِ ، وهو مع ذلك يُظهرُ الأمانةَ والنَّصاحةَ[2] ، فلمَّا كان

= بها) ، وفي بقيَّة النُّسخ : (أنَّها ضربت في ماء البحر سبعين مرَّة . . حتىٰ أمكن الانتفاع بها) .

والحديث رواه أحمد في « مسنده » (٧٤٤٥ طبعة المَكنز ، ٧٣٢٧ طبعة الرسالة) ، ولفظه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : « إِنَّ نَارَكُمْ هَـٰذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ، وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ . . مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ » ، وابن ماجه (٤٣١٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « إِنَّ نَارَكُمْ هَـٰذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلَوْلاَ أَنَّهَا أُطْفِئَتْ بِالْمَاءِ مَرَّتَيْنِ . . مَا انْتَفَعْتُمْ بِهَا ، وَإِنَّهَا لَتَدْعُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يُعِيدَهَا فِيهَا » ، وانظر « الإحياء » (٩/ ٥٩٠) ، وشرحه « الإتحاف » (١٠/ ٥١٣) .

(١) التَّشويرُ : التَّخجيل ، شوَّرتُ بفلان ، وتشوَّر فلان . انظر « العين » (ش ور) ، وفي (هـ) وحدها كتبت : (النشور) بدل (التشوير) في هـٰذا الموضع وفي بقيَّة المواضع التي ستمرُّ في الكتاب .

(٢) النَّصاحة : إخلاص العمل ، قال أبو سليمان الخطَّابي في « غريب الحديث » (٢/ ٢٢٨): (النَّصاحة : إخلاص العمل ، والنَّاصح : الخالص من كل شيء) . =

في بعضِ الأيامِ وهو على تلك الحالِ مِنَ الفسادِ مع حُرَمِ الملِكِ . . رآه يطَّلعُ إليه من روزنةٍ في داره ؛ فتحقَّقَ أنَّ السُّلطانَ يراه في كلِّ يومٍ وهو يفعلُ بحُرَمِهِ ذلك ، وإنَّما أخَّرَ مقابلتَه[1] . . لتعظمَ جريمتُه ؛ ليوقعَ به النَّكالَ في دفعةٍ واحدةٍ ، ويستأصلَ شأفتَه ويهلكَهُ في مرَّةٍ واحدةٍ ، ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾ [آل عمران : ١٧٨] .

فقَدِّرْ في هٰذه الحالِ وانظرْ ؛ أيُّ نارِ خجلٍ تضطرمُ من هٰذه الفضيحةِ في قلبِه وروحِه ، وبدنُهُ سالِمٌ ؟! فهو يتمنَّىٰ في هٰذه الحالِ أن لو ابتلعتْهُ الأرضُ حتىٰ كان لا يُرىٰ على تلك الحالِ ؛ فيخلُصَ من هٰذا الخجلِ والتَّشويرِ والفضيحةِ .

فإذاً ؛ أنت في هٰذا العالَمِ تفعلُ في العادةِ أفعالاً ظاهرُها جميلٌ وباطنُها وذاتُها قبيحٌ ، فإذا كان في القيامةِ وانكشفَ لك باطنُ تلك الأفعالِ وسرُّها ، وظهرَ لك روحُها وحقيقتُها . . احترقتَ بنيرانِ الخجلِ ، وظهرتْ فضيحتُك[2] .

مثلاً : أنت تغتابُ النَّاسَ في الدُّنيا ، فإذا كان في القيامةِ . . أبصرتَ

= وجاء في شعر ذي الرِّمة (٣/ ١٧٢٥) قوله : [من الطويل]

أُحِبُّـكِ حُبّـاً خَـالَطَتْـهُ نَصَـاحَـةٌ وإنْ كُنتِ إحدَى اللاَّويات المَوَاعِكِ

وقد جاءت في (ب) و(ز) : (النَّصيحة) ، وفي (ج) : (الفصاحة) !

(١) في (د) وحدها : (معاقبته) بدل (مقابلته) .

(٢) جاء في (ليدن) وحدها زيادة : (وبانَ لك أنَّ اللهَ سبحانه كان يراكَ وأنتَ مُكبٌّ علىٰ مُخالفتِه ، مُصِرٌّ علىٰ معصيتِه ، وإنَّما أخَّركَ ليومٍ تبدو فيه السرائرُ ، وتظهرُ مكتَّماتُ الفضائحِ) .

نفْسَكَ علىٰ حالٍ كما لو كنت في الدُّنيا تأكلُ لحمَ أخيكَ ، وتظنُّ أنَّك تأكلُ لحمَ الدَّجاجِ ، فإذا نظرتَ . . رأيتَه لحمَ أخيكَ ! فانظرْ كيف يكونُ خجلُكَ وفضيحتُكَ ؟! وأيُّ نارٍ تستعِرُ في قلبِكَ وروحِكَ[1] ؟! وهٰذه حقيقةُ الغِيبة ، وقد سُتِرتْ هٰذه الرُّوحُ عنكَ ، وفي غدٍ ينكشفُ لك قولُه تعالىٰ : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

ولهٰذا ؛ مَنْ رأىٰ في منامِه أنَّه يأكلُ لحمَ ميْتٍ . . فإنَّ تأويلَه أنه يغتابُ النَّاسَ .

ولو أنَّك رميتَ بالحجارةِ حائطاً ، فأخبرَكَ إنسانٌ أنَّ هٰذه الحجارةَ تتعدَّى الحائطَ وتقعُ في منزلِكَ وتصيبُ أعيُنَ أولادِكَ فتُعميْها ، فدخلتَ منزلَكَ فرأيتَ أعيُنَ أولادِكَ قد عَميَتْ من تلك الحجارةِ . . فإنَّك تعلمُ حينئذٍ أيَّ نارٍ تقعُ في قلبِك ، وكيف تَفتضِحُ وتهلِكُ غمّاً وهمّاً .

فإذاً ؛ إذا كنت تحسُدُ أحداً مِنَ المسلمينَ في هٰذه الدُّنيا . . رأيتَ في القيامةِ نفْسَكَ علىٰ هٰذه الصِّفةِ ؛ فإنَّ حقيقةَ الحسدِ وروحَه إنَّما هو هٰذا : أن تقصِدَ بالعداوةِ مَنْ لا يضرُّه ذلك ويضرُّك ، ويعودُ الوبالُ عليك ، ويُهلِكُ دِينَكَ ، وتَحبَطُ طاعتُكَ التي هي نورُ العينِ في الآخرةِ ، فتنتقلُ إلىٰ ديوانِ غيرِك ؛ حتىٰ تبقىٰ بغيرِ طاعاتٍ ، وفي القيامةِ تنتفعُ بالطَّاعاتِ أكثرَ ممَّا تنتفعُ بصحَّةِ أعيُنِ أولادِكَ اليومَ ؛ فإنَّ طاعاتِكَ سببُ سعادتِكَ ، وليس أولادُكَ سببَ سعادتِكَ .

---

(١) في (ج) و(د) و(ليدن) زيادةٌ : (وأيُّ نارٍ تستعِرُ في روحك ؟! وأيُّ ألم كراهيَّةٍ يدخلُ عليك إذا أكلتَ لحمَ أخيك حقيقةً ؛ فإنَّ مثل ذلك يدخلُ علىٰ قلبِك مِنَ العقوبةِ في الآخرةِ) .

فإذاً ؛ في القيامةِ إذا صارتِ الصُّورةُ تبعاً للأرواحِ والحقائقِ ، وكلُّ ما يُرىٰ فإنَّما يُشاهَدُ في صورةٍ تُوافِقُ معناه.. فهناك تظهرُ الفضيحةُ والخجلُ والتَّشويرُ ، ولكونِ النَّومِ قريباً إلىٰ هٰذا العالَمِ.. تكون الأعمالُ في النَّومِ تُرىٰ بصورةٍ موافقةٍ للمعنىٰ .

كما نُقِلَ أنَّ رجُلاً جاء إلى ابنِ سيرينَ فقالَ : رأيتُ في منامي كأنَّ خاتَماً في يدي أختمُ به فروجَ النِّساءِ والرِّجالِ[1] ـ فانظرْ كيف أُرِيَ في منامِه حقيقةَ معاملتِه وفعلِه وروحهَما وعُرِضَ عليه ذلك ؛ حتىٰ ـ قال له ابنُ سيرينَ : أنت رجُلٌ تؤذِّنُ الصبحَ في شهرِ رمضانَ قَبلَ الوقتِ ؛ فتمنعُ النَّاسَ مِنَ الأكلِ والشُّربِ والجِماعِ وقتَ السَّحرِ !

فإنَّ الأذانَ صورةُ صوتٍ وذِكْرٍ ، وفي شهرِ رمضانَ حقيقةُ ذلك ، وروحُه إنَّما هو المنعُ مِنَ الأكلِ والمباشرةِ[2] .

---

(١) جاء في (د) وحدها : (فروج النِّساء وأفواه الرِّجال) بدل (فروج النِّساء والرِّجال) ، وهو موافقٌ لما جاء في كتاب « جواهر القرآن » للإمام الغزالي كما سيأتي في الحاشية التالية .

(٢) ذكرها حُجَّة الإسلام في كتاب « جواهر القرآن » (ص ٤٩ ، ٥٠) في الفصل السادس منه ، المعقود في وجه التسمية بالألقاب التي لقب بها أقسام القرآن ، ولتمام الفائدة أسوق جملةً من كلامه في الكتاب المذكور تتعلّق بما أورده تلميذه الإمام العراقي في كتابه هٰذا « الذخيرة » ، قال الإمام الغزاليُّ رضي الله عنه : (اعلم : أنَّ التكلُّف والترسُّم ممقوت عند ذوي الجد ، فما كلمة طَمْسٍ إلا وتحتها رموز وإشارات إلىٰ معنىً خفيٍّ ، يدركها مَنْ يدرك الموازنة والمناسبة بين عالَم المُلْك وعالَم الشهادة ، وبين عالَم الغيب والملكوت ؛ إذ ما من شيءٍ في عالم المُلْك والشهادة.. إلا وهو مثال لأمرٍ رُوحاني من عالَم الملكوت ، كأنَّه هو في روحه ومعناه ، وليس هو هو في صورته وقالبه ، والمثال الجسماني=

والعجبُ أنَّك أُريتَ في المنامِ هـٰذا الأُنموذجَ كلَّه مِنَ القيامةِ . . وأنتَ في غفلةٍ لا تُحِسُّ بشيءٍ !

ولهـٰذا المعنىٰ جاء في الخبرِ : « إنَّه إذا كان يومُ القيامةِ . . يُؤتىٰ بالدُّنيا في صورةِ عجوزٍ شوهاءَ قبيحةٍ ، مِنْ حالِها كذا وكذا ، بحيث مَنْ يراها يقولُ : أعوذُ باللهِ ، مَنْ هـٰذه ؟! فيقالُ لهم : هـٰذه الدُّنيا التي أهلكتُم نفوسَكم في طلبِها »[1] ، فيستولي عليهمُ الخجلُ بحيثُ يودُّ أحدُهم أن لو لم يُخلَقْ ، أو أنَّه حُمِلَ إلى النَّارِ ليخلُصَ من ذلك الخجلِ .

ومثالُ هـٰذه الفضيحةِ : ما حُكيَ أنَّ بعضَ الملوكِ كان له ولَدٌ يتوسَّمُ

= من عالَم الشهادة مندرج إلى المعنى الرُّوحاني من ذلك العالم ، ولذلك كانت الدنيا منزلاً من منازل الطريق إلى الله ضرورياً في حقِّ الإنس ؛ إذ كما يستحيل الوصول إلى اللبِّ إلا من طريق القشر ؛ فيستحيل الترقي إلىٰ عالم الأرواح إلا بمثال عالم الأجسام ، ولا تعرف هـٰذه الموازنة إلا بمثال :

فانظروا إلىٰ ما ينكشف للنائم في نومه مِنَ الرؤيا الصحيحة التي هي جزء من ستة وأربعين جزءاً مِنَ النبوَّة ، وكيف ينكشف بأمثلة خياليَّة ، فمن يُعلِّم الحكمة غيرَ أهلِها . . يرىٰ في المنام أنه يعلِّق الدُّرَّ على الخنازير .

ورأىٰ بعضهم : أنه كان في يده خاتم يختم به فروج النساء وأفواه الرِّجال ، فقال له ابن سيرين : أنت رجل تؤذن في رمضان قبل الصبح ، فقال : نعم .

ورأىٰ آخر : كأنَّه يصب الزيت في الزيتون ، فقال له : إن كان تحتك جارية فهي أمُّك ، قد سُبيَت وبيعَت واشتريتها أنت ولا تعرف ، فكان كذلك .

فانظر ختم الأفواه والفروج بالخاتم مشاركاً للأذان قبل الصبح في روح الخاتم ، وهو المنع ، وإن كان مخالفاً في صورته ، وقِسْ علىٰ ما ذكرته ما لم أذكره) .

(١) تقدَّم تخريج الخبر في الفصل الثالث من الباب الثالث (ص ٣١١) فانظره .

فيه أنَّه يقومُ مقامَهُ في أمرِه ، فزوَّجَه[1] ، فلمَّا كان في اللَّيلةِ التي أرادَ أن يَدخلَ الولدُ علىٰ زوجتِه.. شربَ ، فلمَّا سَكِرَ.. خرجَ وحدَه في طلبِ العروسِ ، وقصدَ الحُجرةَ التي هي فيها ؛ فأخطأ الطريقَ وغَلِطَ ، فوقعَ إلىٰ خارجٍ مِنَ الدَّارِ ، ومضىٰ علىٰ وجهِه حتىٰ بلغَ إلىٰ دارٍ فيها مصباحٌ ؛ فظنَّ أنَّها دارُ العروسِ ، وأنَّه ظَفِرَ بعُرْسِهِ ، فلمَّا دخلَ الدَّارَ.. وجدَ قوماً مطروحينَ ؛ فناديٰ فيهم ، فلم يجبْهُ أحَدٌ ؛ فظنَّهم نياماً ، ورأىٰ أحدَهم عليه إزارٌ أبيضُ جديدٌ ، فقال في نفسِهِ : هـٰذه العروسُ ؛ فجاءَ ونامَ في حِضنِها ، وجذبَ عنها الإزارَ ؛ فشمَّ منها روائحَ الطِّيبِ ؛ فقال : لا شكَّ أنَّها العروسُ ، قد تطيَّبَتْ ، فلم يزلْ يباضِعُها ويقبِّلُها ويصلُه من رطوبتِها بحيث تلطَّخَ بها ، وهو يعتقِدُ أنها ترُشُّ عليه ماءَ الوردِ وتُحسِنُ إليه .

فلمَّا صحا مِنْ سُكرِه.. نظرَ ، فإذا مقبُرةُ المجوسِ ، وأولـٰئك النيامُ موتىٰ ، والتي ظنَّ أنَّها عروسُه.. امرأةٌ عجوزٌ قبيحةُ الحالِ ، قريبةُ العهدِ بالموتِ ، وتلك الرَّوائحُ الطَّيبةُ.. رائحةُ حَنوطها المذرورِ عليها ، وتلك الرُّطوباتُ التي نالتْهُ.. كانت نجاساتُها !

فلمَّا عاينَ أعضاءه وجوارحَهُ متلطخةً بالنَّجاسةِ ، وفي فمِه من ماءِ فمِها مرارةٌ وكراهةٌ.. فتمنَّىٰ من فرْطِ الفضيحةِ والخجلِ أن لو هلَكَ ، ثمَّ فكَّرَ في نفْسِه أن لو رآه أبوه ملِكُ البلدةِ وجنودُه علىٰ تلك الحالِ.. ماذا

---

(1) قوله : (أنَّ بعض الملوك كان له ولدٌ يتوسَّمُ فيه أنَّه يقومُ مقامَهُ في أمره ، فزوَّجه ، فلمَّا...) ثبت في (أ) و(و) ، وفي بقيَّة النُّسخ : (أنَّ بعض الملوك زوَّج ولده ، فلمَّا...) .

كان يفعلُ ؟ فبينا هو في هـٰذه الفكرةِ ؛ إذ رآه أبوه وجنودُه ـ وقد خرجوا في طلبِه ـ وعاينوه علىٰ تلك الحالِ ، فودَّ أن لو خَسَفتْ به الأرضُ فابتلعَتْهُ ، ولم تنلْهُ تلك الفضيحةُ[1] .

فإذاً ؛ أهلُ الدُّنيا في القيامةِ يرونَ جميعَ لذَّاتِ الدُّنيا وشهواتِها علىٰ هـٰذه الصِّفةِ ، ويبقىٰ تأثيرُ تلك الملابساتِ في قلوبِهم كأثرِ النَّجاساتِ والمراراتِ التي أحسَّ بها ابنُ الملِكِ في حَلْقِهِ وجوارحِه ، وأقبحَ وأعظمَ فضيحةً وكراهيةً ؛ لأنَّ معاني أمورِ الآخرةِ ليس لها مماثلٌ في الدُّنيا بقدْرِها ، وإنَّما في الدُّنيا أُنموذجٌ يسيرٌ ، ضربنا به المثالَ ليُستدلَّ به علىٰ عِظَمِ نارِ الخجلِ والتَّشويرِ إذا استعرَتْ[2] في القلبِ والرُّوحِ ، وليس للبدنِ إحساسٌ بذلك .

صفةُ النَّارِ الثَّالثةِ : وهي نارُ الحسرةِ والحرمانِ واليأسِ من مشاهدةِ الحضرةِ الصَّمديَّةِ ، وفوتِ درْكِ السَّعادةِ .

وسببُ هـٰذه النَّارِ[3] : إنَّما هو الجهلُ والعمى المستصحَبُ مِنَ الدُّنيا إلى الآخرةِ بتركِ تحصيلِ المعرفةِ ، وعدمِ صفاءِ القلبِ بالتَّعلُّمِ والمجاهدةِ اللَّذَين هما سببُ رؤيةِ جمالِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ بَعدَ الموتِ[4] ؛ كما تُرىٰ في المرآةِ المضيئةِ صورُ الأشياءِ ، فإذا رُفِعَ غلافُ

---

(١) في (د) وحدها زيادة : (**كما أخبر الله سبحانه عن مَن عصاه بقوله** : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾[النساء : ٤٢]) .

(٢) في (د) وحدها : (استقرَّت) بدل (استعرَت) .

(٣) في (ج) و(د) و(ليدن) : (وسبب فوت هـٰذه السعادة) بدل (وسبب هـٰذه النَّار) .

(٤) كذا في (أ) و(و) : (**اللذَين هما سبب رؤية جمال الحضرة الإلـٰهية**) ، وفي=

الدُّنيا وسِترُها عن وجه تلك المرآةِ.. تُرىٰ مظلمةً من صدأ المعاصي والشَّهواتِ ؛ فيبقىٰ في العمىٰ .

ومثالُ هـٰذه النَّارِ في التَّقديرِ : كرجُلٍ كان يسيرُ مع قومٍ في ظلمةِ اللَّيلِ ، فوصلوا إلىٰ موضعٍ فيه حصىً كثيرٌ ، لـٰكن لا يمكنُهم رؤيةُ لونِه ، فقال رجُلٌ مِنَ الجماعةِ : ليحملْ كلٌّ منكم ما يقدِرُ عليه ؛ فقد بلغَنا أنَّ في هـٰذا منافعَ كثيرةً ، فحمَلَ الكُلُّ بقدْرِ طاقتِهم ، إلا ذلك الرجُلَ ؛ فإنَّه قال : هـٰذا حُمقٌ ، بالعاجلِ يصيرُ الإنسانُ بهيمةً يحملُ الثِّقلَ علىٰ رقبتِه طمعاً ورجاءَ أن ينتفعَ به ، وربَّما لم يكنِ الأمرُ كما قيل !

فمضىٰ ولم يأخذْ شيئاً ، وهو يضحكُ علىٰ مَنْ أخذَ وحملَ مِنْ ذلك ، ويَعُدُّهم جُهَّالاً حمقىٰ ، ويستهزءُ بهم ويقول : مَنْ له عقلٌ وفطنةٌ.. لا يُتعِبُ نفْسَهُ في شيءٍ ليس منه علىٰ يقينٍ ؛ بل يمشي فارغاً مستريحاً كما فعلتُ ، ومَنْ كان جاهلاً.. فهو يجعلُ نفْسَهُ حماراً يحملُ الأثقالَ ؛ طمعاً في المحالِ[1] !

فلمَّا وصلوا إلى الضياءِ ، واستنارَ الصُّبحُ ، وطلعتِ الشَّمسُ.. رأىٰ كلُّ واحدٍ منهم ما حملَ ؛ فإذا هو جواهرُ ويواقيتُ قيِّمةٌ ، كلُّ قطعةٍ من ذلك مئةُ ألفِ دينارٍ ؛ فتحسَّرَ القومُ حين لم يستكثروا ممَّا حَملوا ، وذلك الرجُلُ يهلِكُ مِنَ الغَبنِ الذي نالَه حين لم يوافِقْهم في الأخذِ ، ونيرانُ الحسرةِ والنَّدمِ تستعرُ في قلبِه وروحِه .

= النُّسخ الأخرى : (اللذَين يُرىٰ بهما جمال الحضرة الإلـٰهية) .

(١) سقط من (ب) و(هـ) قوله : (طمعاً في المحال) .

فيضعُ الجماعةُ الأحمالَ عن ظهورِهم ، ويملكونَ بها البلادَ ، ويتوصَّلونَ بما أخذوا إلى النِّعَمِ الطائلةِ ، يتقلَّبونَ فيها كما يشاؤونَ ، ويحُلُّون منها حيث يريدونَ ، وذلك المسكينُ جائعٌ نائعٌ ، عطشانُ بطشانُ ، عُريانُ غَرثانُ[1] ، يَستعبدونَه بخبزِ بطنِه وقوتِ يومِه ، ويكلِّفونَهُ مِنَ الأعمالِ ما يَشُقُّ عليه ، وكلَّما طلبَ منهم إعانتَه بشيءٍ من نِعمِهم ، أو إيصالَ راحةٍ إليه من ذلك.. أَبَوا عليه ، وسخِروا منه ؛ كما جاء في القرآنِ عنِ المشركين حين يقولون : ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٥٠] فيقولون لهم : ألستُم بالأمسِ كنتم تَستَهزؤونَ بنا وتضحكونَ علينا ! فنحن اليومَ نسخرُ منكم كما تسخرونَ ، ونستهزئُ بكم ، كما قال : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۞ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٨ـ٣٩] .

فهٰذا ذكرُ نيرانِ الحسرةِ علىٰ فوتِ النَّعيمِ والجنَّةِ ورؤيةِ اللهِ تعالىٰ .

فالجواهرُ كالطَّاعاتِ ، والظُّلمةُ كالدُّنيا ، والذين لم يَرفعوا الجواهرَ[2] وقالوا : لا نتعجَّلُ الأثقالَ طمعاً في المحالِ ورجاءَ نعمةٍ في

---

(١) يجوز أن تكون من باب الإتباع لتأكيد أحدهما بالآخر ، أو علىٰ بابها ، فـ(نائع) بمعنى : المتمايل ضعفاً من شدَّة الجوع ، فلا إتباع ، و(بطشان) على الإتباع ، و(غَرثان) شديد الجوع .

(٢) سقط من (و) وحدها قوله : (**فالجواهر كالطَّاعات ، والظُّلمة كالدُّنيا ، والذين لم يرفعوا الجواهر** وقالوا) ولعلَّه فوت نظر ؛ لابتداء السقط وانتهائه بكلمة (الجواهر) .

الاستقبالِ إما تصِحُّ وإمَّا لا تصِحُّ.. مثالُ المغترِّينَ بالدُّنيا والمكذِّبينَ الجاهلينَ بالآخرةِ ؛ فهم في القيامةِ يتحسَّرونَ ويندمونَ ويستغيثونَ ، ولِمْ لا يَتحسَّرونَ.. وإذا كان في القيامةِ يُفرَغُ علىٰ أهلِ المعرفةِ وأربابِ الطَّاعاتِ مِنَ الإنعامِ والإحسانِ ما يُستصغَرُ جميعُ الدُّنيا وما فيها مِنَ النِّعَمِ في مقابلةِ لحظةٍ من تلك اللَّحظاتِ[1] ؟! فإنَّ آخر مَن يخرجُ مِنَ النَّارِ.. يُعطىٰ عشرةَ أمثالِ الدُّنيا[2] .

وهٰذه المماثلةُ ليستْ بطريقِ المساحةِ والمقدارِ.. إنَّما هي روحُ النِّعمةِ والفرحِ والابتهاجِ واللَّذَّةِ ؛ كما يقول الجوهريُّ : إنَّ قيمةَ هٰذه الجوهرةِ ـ مثلاً ـ تساوي مئةَ دينارٍ ، ومرادُه : من حيث القيمةُ والرُّوحُ ، لا من حيث الوزنُ والمساحةُ[3] .

---

(١) بداية البتر الثالث في (ج) ، وينتهي عند قوله : (فأمَّا من سواهم إذا وصف له) في الفصل الذي يليه (ص ٣٩٠) .

(٢) كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري (٦٥٧١) عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا ، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولاً ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حبْواً ، فَيَقُولُ اللهُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ ، فَيَأْتِيهَا ، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَىٰ ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَىٰ ، فَيَقُولُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَىٰ ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَىٰ ، فَيَقُولُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ ؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا ـ أَوْ : إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا ـ فَيَقُولُ : تَسْخَرُ مِنِّي ـ أَوْ : تَضْحَكُ مِنِّي ـ وَأَنْتَ المَلِكُ » فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، وَكَانَ يَقُولُ : « ذَاكَ أَدْنَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً » .

(٣) والمؤلِّف الإمام العراقي متابعٌ في هٰذا لشيخه حُجَّة الإسلام الغزالي ، وقد فَهِمَ تلميذه الإمام القاضي ابن العربي من كلامه : أنَّه عدولٌ عن الظاهر الذي جاءت به الآثار ، فردَّ عليه في كتابه « قانون التأويل » (ص ٢٥٠ إلىٰ ص ٢٥٣) ، =

. . . .

* * *

وكتابِه « العواصم » (ص ٣٤٧ ، ٣٤٨) !

ولو أردنا ردَّ اعتراض الإمام القاضي ابن العربي لقلنا : إنَّ الإمام حُجَّة الإسلام لم يقصر المسألة علىٰ ما ذكره تلميذه ابن العربي من التأويل حتىٰ يرُدَّ عليه بمثل هـٰذا ، بل لا تجدُ أيّ لفظةٍ تدلُّ علىٰ أنَّه أراد القصر علىٰ تأويله هـٰذا ! بل الذي أراده حجَّة الإسلام : أن يشمل هـٰذا التأويل ما ضمنه ظاهر الشرع من مضاعفة اللذائذ ؛ فإنَّ تضعيف المحسوسات والاقتصار عليها كما هو ظاهر كلام الإمام ابن العربي.. لن يزيد في اللذائذ الوجدانيَّة ما لم تتضاعف هـٰذه الوجدانيات مقابل تضاعف المحسوسات ، فحُجَّة الإسلام التفتَ إلى الأصل ، واقتصر تلميذه الإمام ابن العربي على الظاهر ، والاقتصار عليه لا يؤدي ما هو المقصود بالأصل .

والذي ينبغي على المسلم : أن يحمل كلام الأئمَّة علىٰ أحسن المحامل ، فلا يحمل كلام الإمام ابن العربي في ردِّه علىٰ كلام شيخه حُجَّة الإسلام وقرينه الإمام العراقي بأنَّهما أرادا ردَّ ظاهر الآثار ، أو أنَّهما ذهبا إلىٰ ذلك ؛ لأنَّ القدرة الإلـٰهيَّة قاصرة عن خلقِ عشرة أمثال الدنيا لرجُلٍ واحدٍ في الجنَّة !

بل يحمله علىٰ أنَّه ردَّ عليهما ؛ حتىٰ لا يفهم من كلامهما ردُّ ظاهر الآثار ، أو عجز قدرة الجبار ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

١٤ فصل

في أنّ العذاب الرّوحانيّ سببُ العذاب الجسمانيّ

قد ذكرنا ثلاثةَ أنواعٍ مِنَ النَّارِ الرُّوحانيَّةِ ، فاعلمِ الآن أنَّ هـٰذه النَّارَ أعظمُ مِنَ النَّارِ الجسمانيَّةِ ؛ فإنَّ الجسمَ لا يُحِسُّ بالنَّارِ الجسمانيَّةِ إلا بعد أن تؤثِّرَ في الرُّوحِ ، ثمَّ يصلُ الألَمُ إلى الجسدِ بواسطةِ الرُّوحِ ويعظُمُ الألَمُ .

فإذاً ؛ إنَّما تبدو النَّارُ مِنَ الرُّوحِ ، وعلَّةُ جميعِ الآلامِ من ذلك إنَّما هو من أن يسلَّطَ علىٰ ما يقتضيه الطبعُ ضدُّه ويستوليَ عليه ، ومقتضىٰ طبعِ القالبِ هو بقاءُ التَّركيبِ معه ، كما هو عليه مِنِ اجتماعِ الأجزاءِ ، فإذا فُرِّقتِ الأجزاءُ بالجِراحِ . . ظهرَ ضدُّه ؛ فيتألَمُ ، والجِراحُ ربَّما فَصَلَ موضعاً واحداً عن موضعٍ واحدٍ[1] ، ونارُ الألَمِ يتخلَّلُ جميعَ الأجزاءِ ، فإذا فُرِّقتْ جميعُ الأجزاءِ بعضُها من بعضٍ . . لحقَ من كلِّ جزءٍ ألَمٌ علىٰ حِدَةٍ غيرُ ألَمِ الأجزاءِ الأُخَرِ ؛ فلهـٰذا يصعُبُ ألَمُ هـٰذه النَّارِ وتكونُ أعظمَ .

فإذاً ؛ ما يكونُ مقتضىٰ طبعِ القلبِ إذا تمكَّن منه ضدُّه واستولىٰ . . استعرَ في الرُّوحِ ، وكان أعظمَ وأشدَّ ألماً من سائرِ الآلامِ ، ومقتضىٰ

---

(١) في (ب) و(هـ) و(ز) : (والجِراحُ ربَّما **يصل** موضعاً واحداً عن موضعٍ واحدٍ) .

طبعِ القلبِ إنَّما هو معرفةُ اللهِ تعالىٰ ورؤيتُه ، فإذا تمكَّن منه العمىٰ والجهلُ . . لم يكن لألمه نهايةٌ ، ولولا أنَّ القلوبَ لا تُحِسُّ بمرضٍ في هـٰذا العالَمِ قبل الموتِ . . لوجَدتْ ألَمَ هـٰذا العمىٰ والجهلِ .

فكما أنَّ اليدَ أو الرِّجلَ إذا حدثَ بها خدَرٌ بحيث لو وصلتْ حينئذٍ إلى النَّارِ . . لم تُحِسَّ به ولم تشعرْ بوصولِ حرارتِها إليها ، فإذا زالَ الخدرُ منها وهي في النَّارِ . . وَجدَ في مرَّةٍ واحدةٍ ألماً عظيماً[١] ؛ فكذلك القلبُ في الدُّنيا ينالُه خَدَرٌ لا يُحِسُّ بمرضِه ، فإذا كان بعد الموتِ . . زالَ الخدَرُ ، وتظهرُ النَّارُ في دفعةٍ واحدةٍ منه ، وهـٰذه النَّارُ لا تأتيه من مكانٍ آخرَ ؛ إنَّما هي التي استصحَبَها معه مِنَ الدُّنيا وكانتْ في باطنِه ، لـٰكنَّه لمَّا لم يعلمْ بها علمَ اليقينِ . . لم يُحِسَّ بها ، فإذا صارَ عينَ اليقينِ . . شعرَ بها حينئذٍ ؛ كما قال اللهُ سبحانه : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[٢] [التكاثر : ٥ـ٨] .

واعلم أنَّ السَّببَ في صفةِ الشَّارعِ للجنَّةِ والنَّارِ الجسمانيتينِ أكثرُ مِنَ الرُّوحانيَّتينِ :

أنَّ صفةَ الرُّوحانيَّتينِ لا يكادُ يعرفُها كُلُّ أحَدٍ ، ولا يفهمُها إلا الخواصُّ ، فأمَّا مَنْ سواهم إذا وصِفَ له[٣] ذلك . . حقَّرَه واستصغَرَه ؛

---

(١) سقط من (ب) و(هـ) و(ز) قوله : (وكما أنَّ اليد أو الرِّجلَ إذا حدث بها خدَرٌ بحيث لو وصلت حينئذٍ إلى النَّار لم تُحِسَّ به ولم تشعر بوصول حرارتها إليها ، فإذا زال الخدرُ منها وهي في النَّار . . وَجدَ في مرَّةٍ واحدةٍ ألماً عظيماً) .

(٢) انظر الفصل التاسع من هـٰذا الباب (ص ٣٥٥) .

(٣) نهاية البتر الثالث في (ج) .

لقصورِ فهمِه ، ولا يُدرِكُ معنىٰ عظمَتِه ، بخلافِ الجسمانيِّ .

فهو كما لو قيل لصبيٍّ : تعلَّمْ شيئاً ، فإنَّكَ إنْ لم تتعلَّم . . لا تَبقىٰ عليك رئاسةُ أبيكَ وولايتُه ، وتُحرَمُ منزلتَه ، فلا يعظُمُ هـٰذا التَّهديدُ عنده ، ولا يؤثِّرُ في قلبِه كبيرَ أمرٍ . فإذا قيل له : إن لم تتعلَّم . . ضرَبكَ الأستاذُ ؛ فإنَّه يعظُمُ عنده ذلك ويؤثِّرُ فيه أكثرَ من غيرِه ، وسببُ ذلك : وصولُ فهمِه إلىٰ هـٰذا التَّهديدِ دونَ الأوَّلِ[1] .

وكما أنَّ ضربَ الأستاذِ في حقِّ الصَّبيِّ صحيحٌ ، وفواتَ الرِّئاسةِ في حقِّه صحيحٌ إذا لم يتعلَّمْ . . فكذلك النَّارُ الجسمانيَّةُ حقٌّ ، ونارُ الحرمانِ حقٌّ ، وليس الحرمانُ من رؤيةِ الحضرةِ الصَّمديَّةِ بالإضافةِ إلى النَّارِ الجسمانيَّةِ بأقلَّ من ضربِ الأستاذِ في جنبِ حرمانِ الرِّئاسةِ والولايةِ .

* * *

---

(١) في (ج) و(د) و(ليدن) : (وسببه أنَّ وصول فهمه إلىٰ هـٰذا التَّهديد أقربُ وأعجل من ذلك) بدل (وسبب ذلك وصول فهمه إلىٰ هـٰذا التهديد دونَ الأوَّل) .

١٥ فصل

في بيان بعض أسرار أحوال الآخرة (١)

عساك تقولُ : هٰذا الشَّرحُ والتَّفصيلُ ليس كما أوردَه العلماءُ في كتبِهم وذكرُوه بألسنتِهم ؛ فإنَّهم قالوا : لا تُعرفُ هٰذه الأمورُ إلا بالنَّقلِ والتَّقليدِ ، ولا طريقَ للبصيرةِ إلىٰ ذلك .

فاعلم أنَّا قدَّمنا عُذرَهم من قبلُ ، علىٰ أنَّا نقولُ : ليس فيما ذكرنا ما يخالفُ ما ذكرُوه ؛ فإنَّ جميعَ ما أوردُوه في شرحِ الآخرةِ صحيحٌ ؛ لٰكنَّهم لم يخرُجوا عن شرحِ المحسوساتِ ، ولم يتجاوزوا شرحَ ما علمُوه ؛ فإنَّ أكثرَ الخلقِ لم يدركوا ما ذكرنا .

كيف ؛ والإمامُ أبو حامدٍ قَدَّسَ اللهُ روحَه هو القُدوةُ لنا في ذلكَ ؟! وقد جاءَ في الخبرِ : « **إنَّ اللهَ تعالىٰ يبعثُ في رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ رجُلاً من هٰذه الأمَّةِ يُحيي الشَّريعةَ بعلمِه** »(٢) ، وأبو حامدٍ رضيَ الله عنه كان في رأسِ المئةِ الخامسةِ ، ولم نرَ ولم نسمعْ بأحدٍ في ذلك الأوانِ أدركَ عِثارَهُ ! لا سيَّما مع تفنُّنه في العلومِ ، وتصانيفُه في كُلِّ جنسٍ ونوعٍ

---

(١) موارد المؤلِّف في هٰذا الفصل من كتاب « **الأربعين في أصول الدِّين** » (القسم الرابع ، الأصل العاشر : في ذكر الموت) (ص ٤٧٥) .

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩١) ولفظه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَـٰذِهِ الأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا » .

منها ، وقد طبّقتِ الأرضَ كثرةً ، وجمعَ اللهُ سبحانه لهٰذا الإمامِ بين العلمِ والعملِ والرِّئاسةِ والزُّهد[1] ، وما ذكرناهُ لا يخرجُ عمّا صنّفه ونصَّ عليه[2] .

---

(١) وهٰذه شهادة من الإمام ابن حمدان العراقي تضافُ شهاداتُ العلماء إليها ؛ من أنَّ حُجَّة الإسلام الغزالي هو المجدِّد علىٰ رأس المئة الخامسة ، وقد أخبر حُجَّة الإسلام بذلك عن نفسِه ، يكلِّمُ نفسَه في اختياره العزلة عن الناس : (فماذا تنفعك الخلوة ، وأنَّىٰ تغنيك العزلة ؛ فقد عمَّ الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟! ثم قلت في نفسي : فمتىٰ تستقلُّ أنت بكشف هٰذه الغمَّة ، ومصادمة هٰذه الظلمة الملمَّة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ؟! ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقِهِم إلى الحق . . لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنَّىٰ تقاومهم وكيف تقاسيهم ، ولا يتمُّ ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متديِّن قاهر . . .) إلىٰ أن قال : (فشاورت في ذلك جماعةً من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية . وانضاف إلىٰ ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة . . تشهد بأن هٰذه الحركة مبدأ خير ورشد قدره الله تعالىٰ علىٰ رأس هٰذه المئة ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه علىٰ رأس كلِّ مئة . فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هٰذه الشهادات ، ويسر الله الحركة إلىٰ نيسابورَ للقيام بهٰذا المهمِّ في ذي القَعدة سنة تسع وتسعين وأربع مئة ، وكان الخروج من بغداد في ذي القَعدة ، سنة ثمان وثمانين ، وبلغت العزلة إحدىٰ عشر سنة) . « المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » (ص ١١٦) ، وانظر كذلك رسالة الحافظ السيوطي « التنبئة بمن يبعثه الله علىٰ رأس كل مئة » (ص ٤٧ وما بعدها) .

(٢) وقد قال شيخُه حُجَّة الإسلام رضي الله عنه في « **الأربعين في أصول الدين** » (ص ٤٧٥) : (لعلَّك تقول : قد أبدعتَ قولاً مخالفاً للمشهور ، مُنكَراً عند الجمهور ؛ إذ زعمتَ أنَّ أنواعَ عذابِ الآخرةِ تُدرَكُ بنورِ البصيرةِ والمشاهدةِ إدراكاً مجاوِزاً حدَّ تقليد الشَّرائع ، فهل يمكنُكَ ـ إن كان كذلك ـ حصرُ أصنافِ العذابِ وتفاصيله ؟ =

علىٰ أنَّا نقولُ[1] : كلُّ ما كان جسمانياً فلا يُعلَمُ صحَّتُه إلا ممَّا بالتَّقليدِ والسَّماعِ من صاحبِ الشريعةِ ، أمَّا هٰذا النوعُ الذي ذكرناه في معرفةِ الحقيقةِ . . فهو روحُ ما ذكرُوه ، وعلمُ ذلك وجهٌ من طريقِ البصيرةِ والمشاهدةِ ، وإنَّما يصيرُ معلوماً لِمَن فارقَ طريقَه[2] ولم يقفْ علىٰ مسقطِ رأسِه ومولدِه ؛ بل يدأبُ في سفرِه في طريقِ الدِّينِ .

ولستُ أريدُ بهٰذا جميعَه ما يختصُّ بقالبِه ، فليس لسفرِ البدنِ مِنَ القَدْرِ بحيثُ أصرفُ إليه عَنانَ الاشتغالِ بذكرِه ، وإن كان من جملةِ المجاهدةِ[3] ؛ فإنَّ الكتبَ المشتملةَ علىٰ ذكرِ المجاهداتِ كثيرةٌ .

وإنَّما مقصودي من ذلك ما يختصُّ بالرُّوحِ ؛ فإنَّ الرُّوحَ التي هي حقيقةُ الآدميِّ . . لها مستقَرٌّ منه ظهرتْ ، وهناكَ موطنُها ، ولا بُدَّ لها مِنَ السَّفرِ من هٰذه الدُّنيا إلىٰ مستقرِّها ، ولها عِدَّةُ منازلَ تنزلُ فيها في سفرِها ، ولكلِّ منزلٍ عالَمٌ يخصُّه .

= فاعلم : أنَّ مخالفتي للجمهور لا أنكرُها ، وكيف تنكَرُ مخالفةُ المسافر للجمهور والجمهورُ يستقرُّونَ في البلد الذي هو مسقَطُ رؤوسِهِم ومحلُّ ولادتِهِم ، وهو المنزلُ الأوَّلُ من منازلِ وجودِهِم ، وإنَّما سافرَ منهُمُ الآحادُ ؟!) ، والإمامُ العراقي عقدَ هٰذا الفصل لشرح هٰذا المعنىٰ .

(1) من قوله : (كيف ؛ والإمام أبو حامدٍ قدَّس اللهُ روحه هو القُدوةُ لنا في ذلكَ) إلىٰ قوله : (علىٰ أنَّا نقولُ) ثبت في (أ) ، و(و) وسقط من بقيَّة النُّسخ ، والعبارة فيها : (فإنَّ أكثر الخلق لم يدركوا ما ذكرنا ، وكل ما كان جسمانياً . . .) الخ .

(2) في (ب) و(هـ) : (لمن فارق نفسه) بدل (لمن فارق طريقه) .

(3) في (أ) و(و) : (المشاهدة) بدل (المجاهدة) !

وأوَّلُ منازِلها المحسوساتُ ثمَّ المتخيَّلاتُ ثمَّ الموهوماتُ ثمَّ المعقولاتُ ، وهي في المنزلِ الرَّابعِ[1] ، فما دامَ في هـٰذا العالَمِ . . فهو يشعرُ بحقيقةِ نفسِه ، ولا يشعرُ إذا تعدَّىٰ هـٰذا المنزلَ ، ولا يعلمُ أكثرَ من هـٰذا ، وهـٰذا العالَمُ يمكنُ فهمُه بمثالٍ :

وذلك أنَّ الآدميَّ ما دام في عالَمِ المحسوساتِ . . فدرجتُه كالفراشةِ التي تُلقي نفسَها على السِّراج ؛ فإنَّ لها عيناً كذلك ، ولـٰكن ليس لها خيالٌ وحفظٌ[2] ، وهي أبداً تطلبُ الخروجَ والهربَ مِنَ الظُّلمةِ ، وتطلبُ روزنةً تخرجُ منها ، وتظنُّ السِّراجَ هي الرَّوزنَةَ ؛ فتضرِبُ بنفْسِهَا على الرَّوزنَةِ في زعمِها ! فإذا أحسَّتْ بألَمِ النَّارِ . . عدَلَتْ ؛ فلا يبقىٰ ذلك الألَمُ في حفظِها ولا يثبتُ في خيالِها ؛ إذ ليس لها خيالٌ وحفظٌ ، ولم تصلْ إلىٰ تلك الدَّرجةِ ؛ ولهـٰذا المعنىٰ تُلقي نفْسَهَا على السِّراجِ ثانيةً وثالثةً إلىٰ أن تهلِكَ ، ولو كان لها خيالٌ وحفظٌ ومتخيَّلاتٌ . . لَمَا عادتْ بعد أن تألَّمتْ ؛ فإنَّ بقيَّةَ الحيواناتِ إذا ضُربَتْ ثمَّ رأتِ الضَّاربَ قد رفعَ يدَه ثانياً . . هربتْ ؛ لبقاءِ خيالِ ذلك الضَّربِ في حفظِها .

فإذاً ؛ المحسوساتُ منزلُ الفراشةِ ، وهي أوَّلُ منزلِ القلبِ .

وأمَّا المنزلُ الثاني : وهو المتخيَّلاتُ ، وما دام الآدميُّ في هـٰذه الدَّرجةِ . . فهو مساوٍ للبهيمةِ ؛ فإنَّه إذا لم يعرفِ الهربَ مِنَ الشيءِ إلا بعدَ

---

(١) انظر الكلام عن منازل الرُّوح الأربعة في عالَم الإدراكات في « **الأربعين في أصول الدين** » (ص ٤٧٦) .

(٢) في (ج) وحدها : (جَنان) بدل (خيال) ! مع أنَّه ثبت فيها كما في بقيَّة النُّسخ ما سيأتي من قوله : (إذ ليس لها خيالٌ وحفظٌ) .

أن يتأذَّىٰ به ويناله ضررٌ ؛ فحينئذٍ يعرفُ أنَّه يهربُ منه ؛ فكذلك البهيمةُ لا تعرفُ الهربَ مِنَ الشيءِ إلا بعدَ التَّأذي به أو بما يشبهُه ؛ فتهربُ حينئذٍ .

أمَّا المنزلُ الثالث : فهو الموهوماتُ ، فإذا انتهىٰ إلىٰ هٰذه الدرجةِ . . كان مساوياً لحيوانٍ له قوَّةٌ مُتوهِّمةٌ ، كالخيلِ والغنمِ مثلاً ؛ فإنَّه قد يهربُ ممَّا لم يكن نالَهُ منه أذىً ويعلمُ أنَّه يؤذيه ، فإنَّ شاةً لم ترَ الذئبَ قطُّ ، أو فرساً لم ترَ السَّبُعَ قطُّ ؛ فإنَّه متىٰ رأىٰ شيئاً من ذلك . . هربَ منه ، وإن لم يكن رآه قطُّ ، ويعلمُ أنَّه عدوٌّ له ، وإن كان لا يهربُ مِنَ البقرِ والفيلِ والجَملِ ، مع أنَّ ذلك أعظمُ خِلقةً ، وقد ظهرَ أنَّه جُعِلَ في باطنِه ما يُبصِرُ به عدوَّه ، ومع هٰذا فإنَّه لا يقدِرُ على الحذرِ ممَّا يكون غداً ؛ فإنَّ ذلك منزلُ المعقولاتِ ، وهو المنزلُ الرَّابعُ الذي يصلُه الآدميُّ فيخرجُ عند وصولِه عن حَدِّ البهائمِ ، فيكونُ إلىٰ آخرِ المنزلِ الثالثِ مع البهائمِ .

وفي المنزلِ الرابعِ يكونُ بالحقيقةِ قد وصلَ إلىٰ أوَّلِ منزلِ عالَمِ الإنسانيَّةِ ؛ فيرىٰ أشياءَ لا سبيلَ للحسِّ والتَّخييلِ والوهمِ إليها ؛ فيحذرُ مِنَ الأمورِ التي تكونُ في المستقبلِ ، ويدرِكُ حقيقةَ كلِّ شيءٍ يشملُه اسمُ الصُّوَرِ ، ويعرفُ روحَهُ ومعناه .

والأشياءُ التي تكونُ في عالَمِ المحسوساتِ . . تكونُ متناهيةً ؛ فإنَّ ما كان محسوساً لا يكونُ إلا في الأجسامِ ، والأجسامُ لا تكونُ إلا متناهيةً ، فترَدُّدُ القلبِ وسيرُهُ في عالَمِ المحسوساتِ . . كالمشيِ على الأرضِ ؛ يَراهُ كلُّ أحَدٍ .

وسيرُهُ في العالَم الرَّابعِ الذي هو في منزلِ المعقولاتِ.. سيرٌ في محضِ أرواحِ الأمورِ وحقائقِها ؛ فهو كالمشي على الماءِ بالإضافةِ إلى المشيِ على الأرضِ .

وسيرُهُ وتردُّدُهُ في الموهوماتِ . . كالكونِ في السَّفينةِ[١] ؛ فإنَّ درجتَه بين الماءِ والتُّرابِ ، وله درجةٌ وسيرٌ في مقامِ المعقولاتِ الذي هو مقامُ الأنبياءِ والأولياءِ وأهلِ التَّصوُّفِ ، ومَثَلُهُ كالمُضيِّ في الهواءِ[٢] ؛ ولهـٰذا قيل للنبيِّ صلى الله عليه وسلَّم إنَّ النَّصارىٰ زعموا أنَّ عيسىٰ عليه السَّلامُ مشىٰ على الماءِ[٣] ، فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « **صَدَقُوا ، ولَوِ ازدَادَ يقيناً . . لمشىٰ في الهواءِ** »[٤] .

---

(١) في (ب) : (كالكوز في السَّفينة) ، وفي (د) : (كما تكون في السَّفينة) .

(٢) في (د) وحدها : (كالمشي في الهواء) بدل (كالمُضيِّ في الهواء) ، وفي (و) كُتبت (كالمُضيِّ) وكتب تحتها (كالمشي) .

(٣) في (أ) و(و) : (مشىٰ على الهواء) بدل (مشىٰ على الماء) !

(٤) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٥/ ٤١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥٦) في ترجمة الإمام وهيب بن الورد المكي ، والديلمي في « الفردوس » (٥١٢٣) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (ص ٣٥٧) .
وروى ابن أبي الدنيا في « اليقين » (ص ٢٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٢/ ١٤٦) ، وأحمد في « الزهد » (ص ٥٦) : (فَقدَ الحواريُّونَ نبيَّهُم عليه السَّلامُ ، فخرجوا يطلُبونَه ، فوجدُوه يمشي على الماءِ ، فقال بعضهم : يا نبيَّ اللهِ ، أنمشي إليكَ ؟ قال : نعم ، قال : فوضعَ رِجلَهُ ، ثم ذهب يضعُ الأخرىٰ ، فانغمسَ ، فقال : هاتِ يدَكَ يا قصيرَ الإيمانِ ، لو أنَّ لابنِ آدمَ مثقالَ حبَّةٍ أو ذرَّةٍ مِنَ اليقينِ . . إذاً لمشىٰ على الماءِ) .
وللفائدة أنقل ما ذكره الشيخ الأكبر رضي الله عنه في شرح هـٰذا الحديث : قال في « الفتوحات المكية » (١/ ٢٢٥) في الباب السادس والثلاثين في معرفة =

فمنازلُ سفرِ قلبِ الآدميِّ في الإدراكاتِ.. عوالِمُ ، ويكونُ آخرُ منازِلِه.. نَيلَ درجةِ الملائكةِ[1] .

= العيسويين : (وليس للعيسوي من هـٰذه الأُمَّة من الكرامات المشي في الهواء ، ولـٰكن لهم المشي على الماء ، والمحمديُّ يمشي في الهواء بحكم التبعية ؛ فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسريَ به وكان محمولاً.. قال في عيسىٰ عليه السلام : « لو ازداد يقيناً لمشىٰ في الهواء » ، ولا شكَّ أنَّ عيسىٰ عليه السلام أقوىٰ في اليقين منَّا بما لا يتقارب ؛ فإنَّه من أولي العزم مِنَ الرسل ، ونحن نمشي في الهواء بلا شكٍّ ، وقد رأينا خلقاً كثيراً ممَّن يمشي في الهواء في حال مشيهم في الهواء.. فعلمنا قطعاً أنَّ مشينا في الهواء إنَّما هو بحكم صدق التبعية لا بزيادة اليقين علىٰ يقين عيسىٰ عليه السلام ، قد علم كل منَّا مشربه ، فمشيُنا بحكم التبعيَّة لمحمد صلى الله عليه وسلم مِنَ الوجه الخاصِّ الذي له هـٰذا المقام ، لا من قوَّة اليقين ـ كما قلنا ـ الذي كنَّا نفضل به عيسىٰ عليه السلام ، حاشىٰ لله أن نقول بهـٰذا ، كما أنَّ أمة عيسىٰ يمشون على الماء بحكم التبعيَّة لا بمساواة يقينهم يقين عيسىٰ عليه السلام ، فنحن مع الرسل في خرق العوائد الذين اختصوا بها من الله وظهر أمثالها علينا.. بحكم التبعية كما مثَّلناه في كتاب « اليقين » لنا : أنَّ لمماليك الخواص الذين يمسكون نعال أستاذيهم من الأمراء إذا دخلوا على السلطان وبقي بعض الأمراء خارج الباب حين لم يؤذن لهم في الدخول ، أترى المماليك الداخلين مع أستاذيهم أرفع منصباً من الأمراء الذين ما أذن لهم ؟! فهل دخلوا إلا بحكم التبعيَّة لأستاذيهم ؟! بل كل شخص علىٰ رتبته ، فالأمراء متميزون على الأمراء ، والمماليك متميزون على المماليك في جنسهم ، كذلك نحن مع الأنبياء فيما يكون للأتباع من خرق العوائد) . وانظر كذلك « الفتوحات المكية » (٣/ ١٦٢) .

(١) اضطربت النُّسخ في هـٰذه الجملة ، وما أثبتُّه من (ب) ، أمَّا (أ) : (فمنازلُ سفرِ قلبِ الآدميِّ في الإدراكاتِ.. **يكون عوالِم** ، ويكونُ **حبالةً آخراً** وهو نيل درجة الملائكة) ، وكتب فيها تحت كلمة حبالة : (حبل) .

وفي (ج) : (فمنازل سفر قلب الآدميِّ في إدراكات **يكون علماً** ، ويكونُ **مثاله**=

فإذاً ؛ تكون منازلُ معراجِ الآدميِّ من آخرِ درجاتِ البهائمِ إلىٰ أعلىٰ درجاتِ الملائكةِ ، وفعلُه التَّنزُّلُ والارتفاعُ[1] ، فهو في خطرِ الهلاكِ ، إمَّا أن تزلَّ قَدمُهُ . . فينزلُ إلىٰ أسفلِ السَّافلينَ ، وإمَّا أن تثبُتَ قَدمُهُ . . فيصلُ[2] إلىٰ أعلىٰ علِّيِّينَ ، وقد جاءتِ العبارةُ عن هـٰذا الخطرِ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، وكلُّ ما كان جماداً . . فإنَّ درجتَه لا تتغيَّرُ ، ويكونُ قليلَ الخطرِ والخيرِ والقدْرِ ، والملائكةُ في أعلىٰ علِّيِّينَ ليس لدرجاتِهم طريقٌ إلى التَّسفُّلِ[3] ؛ فإنَّ درجةَ كلِّ واحدٍ منهم وَقْفٌ عليه ، كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهم بقوله : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : ١٦٤] ،

= **آخراً** وهو نيل درجة الملائكة) !

وفي (د) حصل سَقطٌ كثيرٌ ؛ فجاء الكلام فيها : (فمنازل أُخَر ، وهو نيل درجة الملائكة) !

وجاءت العبارة في (هـ) و(ز) و(ليدن) نفس ما في (ب) ، غير أنه كتب في (هـ) و(ز) : (ويكون **مثاله**) ، وفي (ليدن) : (ويكون **مناله**) بدل (ويكون منازله) .

وفي (و) : (فمنازل سفر قلب الآدميِّ في الإدراكات . . **يكون عوالِم** ، **ويكونُ خياله آخراً** ، وهو نيل درجة الملائكة) .

(١) كذا في (ب) ، وفي (أ) و(ج) و(هـ) و(ز) : (وفعله **التَّسبُّبُ** والارتفاع) ، وفي (د) : (وفعله **السير** والارتفاع) ، وفي (و) : (وفعله **السَّبَبُ** والارتفاع) ، وفي (ليدن) : (وفعله **البتُّ** والارتفاع) .

(٢) كذا في (أ) و(و) ، وفي بقيَّة النُّسخ زيادةٌ : (تثبتُ **قَدمُهُ ويقوىٰ**) .

(٣) كذا في (ب) و(هـ) و(ز) : (ليس لدرجاتهم طريقٌ **إلى التَّسفُّل**) ، وفي (أ) : (ليس لهم درجةٌ من درجاتهم طريق) ، وفي (ج) و(د) و(و) و(ليدن) : (ليس لهم من درجاتهم طريق) .

والبهائمُ في أسفلِ السَّافلينَ ليس لهم طريقٌ إلى التَّرقي ، والآدميُّ بين الحالينِ في موضعِ الخطرِ ، فمِنَ الممكنِ أن يرتقيَ إلىٰ درجةِ الملائكةِ ، ومِنَ الممكنِ أن ينزلَ إلىٰ درجةِ البهائمِ ، ومعنىٰ تحمُّلِ الأمانةِ هو : تقليدُ عُهدةِ الخطرِ[1] .

فإذاً ؛ ليس مِنَ الممكنِ أن يحملَ الأمانةَ غيرُ الآدميِّ .

والمقصودُ من هـٰذا . . هو الجوابُ عن قولِكَ : (إنَّ العلماءَ ما قالوا كما قلتَ)[2] ؛ لتعلمَ أنَّ هـٰذا ليس بعجيبٍ ؛ فإنَّ المسافرَ مخالفٌ للمقيمِ أبداً في حالِه ، وأكثرُ الخَلقِ مقيمونَ علىٰ ما هُم عليه ، والمسافرُ نادرٌ ، ومَنْ جعلَ موطنَه ومستقرَّه المحسوساتِ والمتخيَّلاتِ التي هي منزلُ سيرِه . . لا ينكشفُ له قطُّ حقائقُ الأمورِ وأرواحُها ، ولا يصيرُ رُوحانيّاً ، ولا يعرفُ أحكامَ الرُّوحانياتِ ؛ فلهـٰذا قلَّما تجدُ شرحَ هـٰذا في كتابٍ مِنَ الكُتُبِ ، اللَّهم إلا فيما أشارَ نحوه الإمامُ أبو حامدٍ قدَّس اللهُ روحَه[3] .

فلنقتصرِ الآن علىٰ هـٰذا القدْرِ من شرحِ معرفةِ الآخرة ؛ فإنَّ الأفهامَ لا تكادُ تحتملُ أكثرَ من هـٰذا ؛ بل ربَّما لم تحتمِلْهُ أيضاً[4] .

---

(١) أي : خطر الثَّواب والعقاب بالطَّاعة والمعصية ، وهو التَّكليف الذي غايته المعرفةُ والتوحيد . انظر « **الإحياء** » (٥/٥٣) ، و« **الأربعين في أصول الدِّين** » (ص ٣١١) لحجَّة الإسلام رضي الله عنه .

(٢) تقدَّم الاعتراض في بداية الفصل .

(٣) سقط من (ب) و(هـ) و(ز) قوله : (اللهم إلا فيما أشار نحوه الإمامُ أبو حامد قدَّس اللهُ روحه) .

(٤) لأنَّه من علوم المكاشفة ، وجلُّ علوم المُكاشفة ممَّا لا رخصة في ذكرها ، كما قال حُجَّة الإسلام .

١٦ فصل

في طرق إقناع المعاندين المنكرين للسمعيات من أصول الدين[١]

جماعةٌ مِنَ البُلْهِ يتحيَّرونَ في أمرِ الآخرةِ ؛ من أجلِ أنَّه ليس لأحدِهم قوَّةُ بصيرةٍ يعرفُ بها الأمورَ وحقائقَها ، ولا يجدُ توفيقاً فيقبلُ مِنَ الشَّرعِ ما جاءَ به ، فلا جرمَ يستولي الشكُّ عليهم ؛ فإنَّ الشهوةَ إذا غَلبَتْ.. أَراهُم موافقةُ طبعِهم إنكارَ الآخرةِ ؛ فيظهرُ الإنكارُ في باطنِهم ، ويُربي الشَّيطانُ ذلك الإنكارَ في باطنِهم ؛ حتىٰ يظنُّوا أنَّ كلَّ ما جاء[٢] في ذكرِ الجنَّةِ ونعيمِها إنَّما هو تغريرٌ وتمويهٌ ؛ فيتَّبعونَ الشَّهواتِ لأجلِ ذلك ، ويُحجمونَ عن تربيةِ الشَّرعِ واتِّباعِه[٣] ، ويستحمِقُونَ مَنْ يقولُ بالشَّرائعِ ، ويزعمونَ أنَّه مغرورٌ مخدوعٌ ! وهـٰؤلاء الحمقىٰ ليس لهم قوَّةٌ يعلمونَ بها مثلَ هـٰذه الأسرارِ ويخبِرونَ عنها .

فإذاً ؛ ينبغي أن يُدعىٰ أحدهُم للتَّأمُّلِ في كلمةٍ ظاهرةٍ وشيءٍ ظاهرٍ ، ويقالُ له :

---

(١) موارد المؤلِّف في هـٰذا الفصل من كتاب « الإحياء » (٦/٦٠٧ وما بعدها ، كتاب ذم الغُرور ، وهو الكتاب العاشر من ربع المُهلكات) . و« الأربعين في أصول الدِّين » (ص ١٩٨ ، ١٩٩) ، (ص ٣٣١ إلىٰ ٣٣٣) .

(٢) كذا في (أ) و(و) ، وفي بقيَّة النُّسخ زيادةٌ : (أنَّ كلَّ ما جاء وكلَّ ما ورَدَ) .

(٣) في (أ) وحدها : (فيتَّبعونَ الشَّهواتِ ؛ لأجلِ ذلك سقطوا عن تربيةِ الشَّرعِ واتِّباعِه) بدل (فيتَّبعونَ الشَّهواتِ لأجل ذلك ، ويُحجمونَ عن تربيةِ الشَّرعِ واتِّباعه) .

أنتَ وإن كان غالبُ ظنِّك أنَّ مئةً وأربعةً وعشرينَ ألفَ نبيٍّ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ ، وجميعَ العلماءِ والأولياءِ والحكماءِ غلِطُوا ، وهم مغرورونَ ! وأنتَ مع جهلِكَ عرفتَ أنَّ هـٰذا كلَّه محالٌ . . فإنَّه يمكن أن تكونَ أنتَ الخاطئَ الغالِطَ المغرورَ حين لم تعرفْ حقيقةَ الآخرةِ ، فإنْ كنتَ لا تستخبرُ غلطَكَ ، وأنَّكَ أخطأتَ واعتقدتَ أنَّك تعرفُ حقيقةَ كونِه محالاً ، كما تعرفُ أنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، وتدَّعي أنَّك تتيقنُ أنَّه ليس للرُّوحِ حقيقةٌ ولا بقاءٌ ، وبعد الموتِ ليس روحانيٌّ ولا جسمانيٌّ[1] . . فقد ظهرَ منك فسادُ المِزاجِ ، فتداركْ نفْسَكَ بالعلاجِ ؛ فقد وقعَ اليأسُ[2] من فَلاحِكَ ، وانقطعَ الرَّجاءُ من صلاحِكَ ، ودخلتَ في زمرةِ مَنْ قيلَ لهم : ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾[3] [الكهف : ٥٧] .

وإن قُلتَ : إنِّي لا أعلمُ بطلانَ ذلك وكونَه محالاً ضرورةً ويقيناً ، إنَّما يغلبُ علىٰ ظنِّي كونُ ذلك محالاً ، فكيف أحبسُ نفسي بظنٍّ ضعيفٍ ، وأجعلُها طولَ عمْري في حِجْرِ التَّقوىٰ وأحرمُها جميعَ اللَّذَّاتِ ؟!

---

(١) كذا في جميع النسخ : (ليس روحانيٌّ ولا جسمانيٌّ) ، ولعلَّها : (ليس روحانياً ولا جسمانياً) .

(٢) في (أ) و (ليدن) : (النَّاس) بدل (اليأس) .

(٣) قال حُجَّة الإسلام في « الأربعين في أصول الدين » (ص ٣٣١) : (فإن لم تكن في أمر الآخرة علىٰ تخمين ، ولا من مشاهدة آفات الدنيا علىٰ يقين . . فما أنت إلا مِنَ الحمقى المغرورين ، ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين ، ولمثلك يقال : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٣]) .

فاعلم أنَّك إذا عرفتَ أنَّ ذلك يستحيلُ عندك ظنّاً لا قطعاً ، ولا بطريقِ الضرورةِ[1] . . فالظنُّ قد يخطىءُ وقد يصيبُ ؛ فيلزمُكَ إذا أقرَرتَ بأنَّ ذلك لا يستحيلُ قطعاً إنَّما يستحيلُ ظنّاً . . فيجبُ عليكَ ـ بحكمِ العقلِ ـ أن تسلُكَ طريقَ الشرعِ ؛ فإنَّ الخطرَ العظيمَ يجبُ الاحترازُ عنه بالظنِّ الضَّعيفِ وبالتَّوهُّمِ ؛ فإنَّ ذلك إن كان صحيحاً توهُّمُ وقوعِه . . نفعَ الاحترازُ عنه ، وإن كان توهُّمُ وقوعِه باطلاً . . لم يضرَّ التَّحرُّزُ عنه .

ألا ترىٰ أنَّك لو قصدتَ طعاماً لتأكُلَهُ ، فقال لك أحَدٌ : إنَّ حيَّةً قد وضَعتْ فاها في الطَّعامِ ؛ فإنَّه من حيث العقلُ . . يجبُ عليك أن تكُفَّ يدَكَ عن ذلك الطعامِ ، وإن كان الظَّنُّ يحصلُ بأنَّهُ كاذبٌ في خبرِه أو صادقٌ . . فإنَّه يحتملُ أن يكون كذبَ لتمتنعَ من أكلِه فينفردُ به ، ويمكن أن يصدقَ ، إلا أنَّه لمَّا جازَ فيه الصِّدقُ وأمكنَ صِحَّتُهُ . . فإنَّكَ تقولُ في نفْسِكَ : إنْ لم آكلْهُ . . حصلَ ألَمُ الجوعِ ، وذلك سهلٌ تحمُّله إلىٰ وقتٍ ، وإن أكلْتُه . . أمكنَ أن يكونَ المخبِرُ صادقاً[2] فأهلِكُ ؛ فالإعراضُ عن أكلِه أولىٰ ، فتتركُهُ .

وهكذا لو مرِضتَ . . فأتاكَ مَنْ يكتبُ التَّعاويذَ ، وقال : أعطني درهماً لأكتُبَ لكَ تعويذاً في قرطاسٍ ، إذا علَّقتَه عليك . . تبرأُ وتصِحُّ من

---

(١) في (أ) و(و) : (وبطريق الضرورة) بدل (ولا بطريق الضرورة) .

(٢) من قوله : (وإن أكلته أمكنَ أن يكون المخبرُ صادقاً) إلىٰ قوله الآتي : (فإنَّك لو حسبت مُدَّة عمرك في الدُّنيا كم) سقطَ من (د) وحدها ! والعبارةُ فيها : (وذلك سهلٌ تحمُّله إلىٰ وقتٍ هو بالإضافة إلى الدُّنيا . . .) الخ .

مرضِكَ[1] ، فأنتَ وإن كان ظنُّكَ أنَّه لا مناسبةَ بين نقشٍ في قرطاسٍ وبين الصِّحَّةِ ؛ لـٰكنَّكَ تقولُ : يمكنُ أن يكونَ صادقاً فأبرَأُ ، ويمكنُ أن يكذبَ فيذهبُ الدِّرهمُ ، فإنْ صدقَ .. حصلَ ما هو المقصودُ الذي لا يعدِلُهُ ألوفٌ مِنَ الدَّراهمِ ، وهو الصِّحَّةُ ، وإن كذبَ .. ذهبَ درهمٌ ، وذلك سهلٌ ، فتعطيَه الدِّرهمَ وتأخذُ التَّعويذَ .

وكذلك لو قال المنجِّمُ : إذا بلغَ القمرُ إلى الموضعِ الفلانيِّ[2] .. فاشربْ هـٰذا الدَّواءَ المُرَّ الكريهَ حتىٰ تبرأَ وتصِحَّ من مرضِكَ ؛ فإنَّك تحتملُ المشقَّةَ في شُربِ ذلك ، اعتماداً علىٰ قولِ رجُلٍ من أجلِ أنَّه يمكنُ أن يصدقَ فتبرأُ ، ويمكنُ[3] أن يكذبَ ؛ فيسهلُ عليك الصَّبرُ علىٰ كراهةِ الدَّواءِ ومرارتِه .

فإذاً ؛ لا يكونُ قولُ مئةٍ وأربعةٍ وعشرينَ ألفَ نبيٍّ ، واتِّفاقُ جميعِ أكابرِ العالَمِ مِنَ العلماءِ والحكماءِ .. أقلَّ من قولِ منجِّمٍ أو كاتبِ تعويذٍ أو طبيبٍ ؛ فإنَّكَ تضعُ علىٰ نفسِكَ بقولِ هـٰؤلاء مشقَّةً وصعوبةً ـ رجاءَ أن تخلُصَ ممَّا هو أصعبُ وأشقُّ ، وهو المرضُ ـ جهلاً[4] ، فهلاَّ حملتَ المشقَّةَ الحاصلةَ مِنَ العباداتِ بقولِ الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ وأكابرِ

---

(١) كذا في (ب) و(ز) : (**وتصِحَّ** من مرضِكَ) ، وفي بقيَّة النسخ : (**وتصلُحُ** من مرضِكَ) .

(٢) جاء في (ليدن) وحدها زيادة : (إذا بلغَ القمرُ إلى الموضعِ الفلانيِّ **واتصل بالكوكب الفلانيِّ**) .

(٣) سقط من (أ) و(و) قوله : (أن يصدق فتبرأ ، ويمكن) ، والعبارة فيها : (اعتماداً علىٰ قول رجُلٍ من أجلِ أنَّه يمكنُ أن يكذبَ . . .) .

(٤) ثبت كلمة (جهلاً) في (أ) و(و) فقط .

الخَلقِ لتخلُصَ مِنَ الهلاكِ الدَّائمِ والعذابِ اللاَّزمِ ؟!

فإنَّك لو حسبتَ مُدَّةَ عمْرِكَ في الدُّنيا كم[1] هو بالإضافةِ إلى الدُّنيا ، وكمِ الدُّنيا بالإضافةِ إلى الآخرةِ .. لعلمتَ أنَّ المشقةَ التي تلحقُكَ من أوامرِ الشَّرعِ في جميعِ عمْرِك .. لا تعدلُ ذرَّةً من طولِ مُدَّةِ الدُّنيا ، والدُّنيا وما فيها مِنَ الآلامِ .. لا يعدلُ ذرَّةً من أَلَمِ الآخرةِ ؛ فإنَّ أَلَمَ الدُّنيا له آخِرٌ ، وليس لأَلَمِ الآخرةِ انقطاعٌ ، فتعلمُ أنَّ الخطرَ هناك أعظمُ ، والصَّبرَ علىٰ صعوبةِ أحكامِ الشرعِ .. لا شيءَ بالإضافةِ إلىٰ ما هناك ؛ فينبغي أن تقولَ لنفْسِكَ : إنْ صدَقَ الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ والحكماءُ وخالَفتُهم .. وقعتُ في عذابِ الأبدِ ، ولا ينفعُني ما نِلتُهُ مِنَ اللَّذَّةِ في تلكَ الأيامِ القلائلِ مِنَ الدُّنيا ، ويمكنُ أن يكونوا صدَقُوا فيما أخبَروا ، وقالوا الحقَّ إذ نطَقوا .

ومثالُ هٰذا المعنىٰ : أنَّه لو مُلِئَ أماكنُ العالَمِ دُخناً ، وأُمِرَ طائرٌ أن يتناولَ منه في كلِّ ألفِ سنةٍ حبَّةً واحدةً[2] ؛ فإنَّه يَفنى الدُّخنُ ولا ينقصُ مِنَ الأبدِ شيءٌ .

فإذاً ؛ في طولِ هٰذه المدَّةِ كيف تطيقُ العذابَ ومقاساتِه ، رُوحانيّاً كان أو جسمانيّاً أو خياليّاً ؟! وأيُّ قَدْرٍ يكونُ لمدَّةِ الدُّنيا في جنبِ ذلك الأبدِ ؟!

فكلُّ عاقلٍ أعملَ فكرَهُ في ذلك ؛ فإنَّه يعلمُ أنَّ سلوكَ طريقِ الاحتياطِ والحذرِ والاحترازِ من هٰذا الخطرِ .. واجبٌ متعيِّنٌ ، وإنْ كان ينالُه مع

---

(١) هنا ينتهي السَّقطُ في (د) .

(٢) في (ج) و(د) و(ليدن) : (مئة ألف سنة) بدل (ألف سنة) .

الاحتياطِ والاحترازِ نوعُ مشقَّةٍ وصعوبةٍ ، أو كان الخطرُ موهوماً أو مظنوناً غيرَ متيقَّنٍ ؛ فإنَّ الخَلقَ في الدُّنيا يحتملونَ المشاقَّ والأسفارَ للتِّجاراتِ ، ويُقاسونَ الشَّدائدَ والأهوالَ ظنّاً منهم وتوهُّماً للرِّبحِ والفائدةِ !

فأنت إذا لم تقطعْ بصِحَّةِ أمرِ الآخرةِ . . فلا شكَّ أنَّك تتوهَّمُ ذلك أو تظنُّهُ ظنّاً ضعيفاً ، فإنْ كان لك شفقةٌ علىٰ نفْسِكَ . . فيجبُ عليك احتمالُ هـٰذه المشقَّةِ القليلةِ الحقيرةِ المتلاشيةِ بالإضافةِ إلىٰ ما أُعِدَّ للمخالفينَ أوامرَ الشرعِ مِنَ العذابِ المقيمِ ، وما يُفجعونَ به مِنَ النَّعيم[1] .

ولهـٰذا رويَ أنَّ عليّاً رضي الله عنه ناظرَ بعضَ الملاحدةِ فقال : (إن كان الأمرُ كما تزعمُ . . فقد خلَصْتَ وخَلَصْنَا ، وإن كان الأمرُ علىٰ ما نقولُ . . فقد خلَصْنَا ، وبقيتَ في عذابِ الأبدِ ، ووقعتَ في الهلاكِ)[2] .

---

(١) قال حُجَّة الإسلام في « الأربعين في أصول الدين » (ص ٣٣١) : (فليت شعري ؛ مع احتمال الخلود في النار كيف يستجرئ العاقل الهجوم عليه ؟! وكيف لا يكون كاليقين التام في الحذر منه ؟!) .

(٢) ذكره حُجَّة الإسلام في « الإحياء » (٧/ ١٩٩ ، ربع المنجيات ، كتاب التوبة ، الركن الرابع) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٤٣٢) : (أورده الشريف في « نهج البلاغة ») .

وقال الإمام الرازي علىٰ طريق إرخاء العنان مع الخصم في مَيدان البيان : (فإنَّا إذا آمنا بالبعث وتأهَّبنا له ؛ فإن كان هـٰذا المذهب حقاً . . فقد نجونا وهلَك المنكر ، وإن كان باطلاً . . لم يضرنا هـٰذا الاعتقاد ، غاية ما في الباب أن يقال : إنَّه تفوتنا هـٰذه اللذَّات الجسمانية . إلاَّ أنَّا نقول : يجب على العاقل أن لا يبالي بفواتها لأمرين ، أحدهما : أنها في غاية الخساسة ؛ لأنَّه مشترك فيها بين =

وهٰذا الكلامُ من أميرِ المؤمنينَ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ إنَّما كان علىٰ قدْرِ عقلِ المخاطَبِ به ، لا أنَّه كان شاكّاً في اعتقادِه ، لٰكنَّه علِمَ أنَّ فَهمَ ذلك الملحِدِ لا يصلُ إلىٰ طريقِ اليقينِ ولا يحتملُهُ[1] .

فإذاً ؛ ينبغي أن تتحقَّقَ أنَّ مَنِ اشتغلَ في هٰذه الدُّنيا بغيرِ التزوُّدِ والاستعدادِ للآخرةِ . . فهو جاهلٌ مغرورٌ أحمقُ مخدوعٌ ؛ وسببُ ذلك :

= الخنافس والديدان والكلاب . والثاني : أنها منقطعة سريعة الزوال ، فثبت أن الاحتياط ليس إلاَّ في الإيمان بالمعاد) . « التفسير الكبير » (١٧/ ٢٥) .

وقد ذُكِرَ عن أبي العلاء المعري ، وربَّما نقل ذلك عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [من الكامل]

قـالَ المُنَجِّـمُ والطبيـبُ كـلاهُـمـا ... لا تُحشَرُ الأجسَادُ قُلتُ إليكُما

إنْ صَـحَّ قَـولُكُمَـا فَلستُ بِخاسِرٍ ... أو صَحَّ قَولي فالخَسَارُ عليكُما

ونسبهما الفخر الرازي في « المطالب العالية » (٧/ ٢٢٧) لسيدنا علي رضي الله عنه ، وردَّ الخفاجي نسبتهما لسيدنا علي رضي الله عنه رواية ودراية . انظر حاشية الخفاجي علىٰ تفسير البيضاوي « عناية القاضي وكفاية الراضي علىٰ تفسير البيضاوي » (٤/ ٤٧) .

(١) نقل العلاَّمة شهاب الدين الخفاجي عن ابن السيد البَطَلْيَوْسِي في « شرحه علىٰ سقط الزند » بعد أن ذكر البيتان عن أبي العلاء المعري : (هٰذا منظوم مما روي عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال لبعض من تشكَّك في البعث والآخرة : إن كان الأمر كما تقول من أنَّه لا قيامة . . فقد تخلصنا جميعاً ، وإن لم يكن الأمر كما تقول . . فقد تخلصنا وهلكت . فذكروا أنَّه ألزمه فرجع عن اعتقاده ، وهٰذا الكلام وإن خرج مخرج الشك . . فإنما هو تقرير للمخاطب علىٰ خطابه ، وقلَّة أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه ، مع أنَّ المناظر علىٰ ثقة من أمره ، وهو نوع من أنواع الجدل) . انظر حاشية الخفاجي علىٰ تفسير البيضاوي « عناية القاضي » (٤/ ٤٧) .

الغفلةُ ، وقلّةُ المبالاةِ ، وعدمُ التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ في ابتداءِ كلِّ شيءٍ ونهايتِهِ ؛ فإنَّ شهواتِ الدُّنيا لا تتركُ أحَدَ هـٰؤلاء من شُغلِها ليفرُغَ إلى التَّفكُّرِ فيما يُصلِحُهُ ، وإلاَّ ؛ فالواجبُ علىٰ مَنْ تيقَّنَ أو غلبَ علىٰ ظنِّهِ أو توهَّمَ ذلك ، والمُتعيِّنُ بحُكمِ العقلِ[1] .. الحذرُ من هـٰذا الخطرِ العظيمِ ، وسلوكُ طريقِ الاحتياطِ ، والأخذُ بالأَولىٰ[2] .

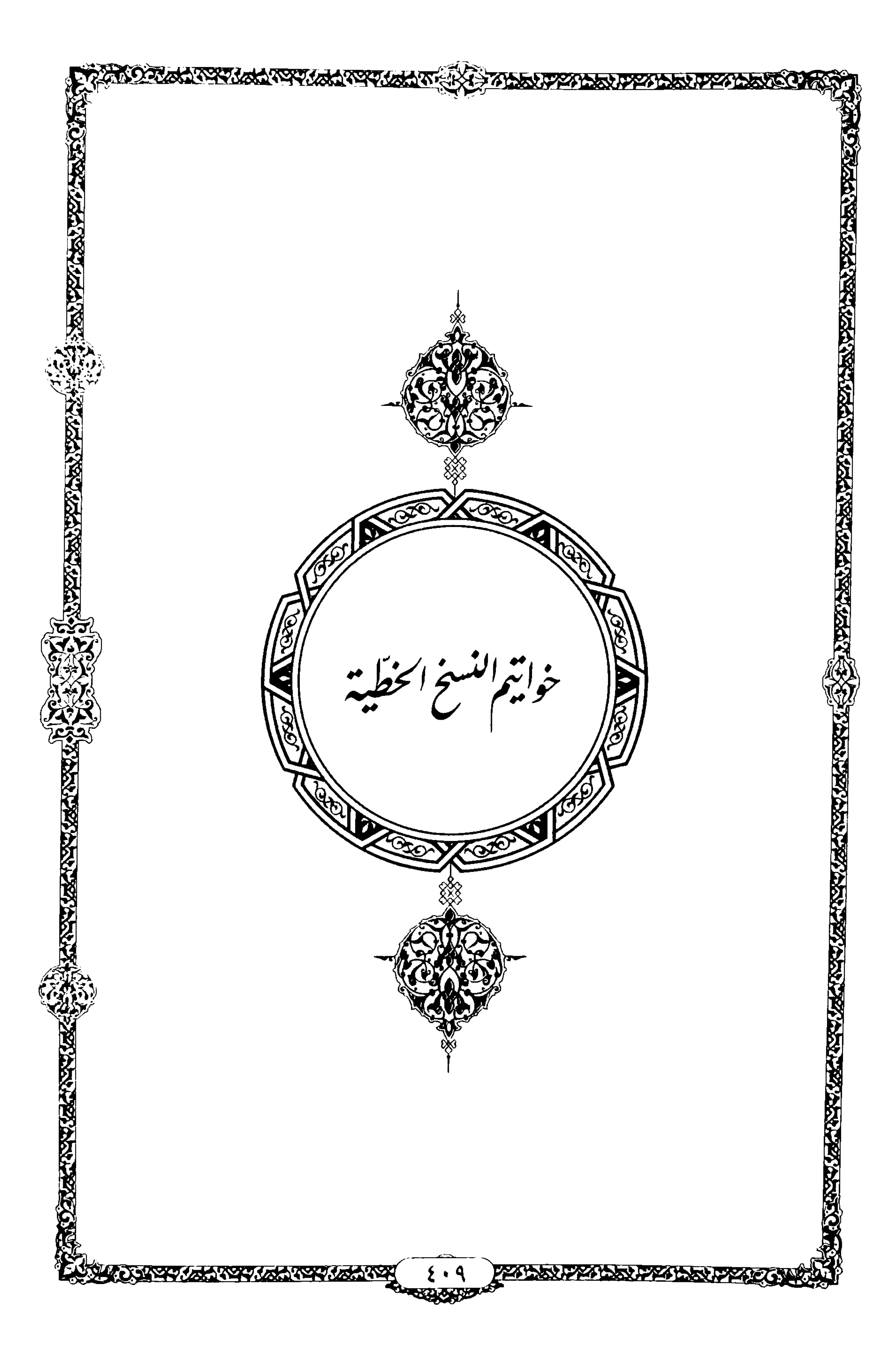
فاللهُ سبحانه يوفِّقُنا لمرضاتِه ، ويستعمِلُنا فيما يوفِّقُنا لمرضاتِه ، ويستعمِلُنا فيما يقرِّبُ إليه ويُزلِفُ لديه ، فليس التَّعويلُ والتوكُّلُ حقيقةً إلا عليه ، وهو حسبُنا ونِعمَ الوكيلُ .

* * *

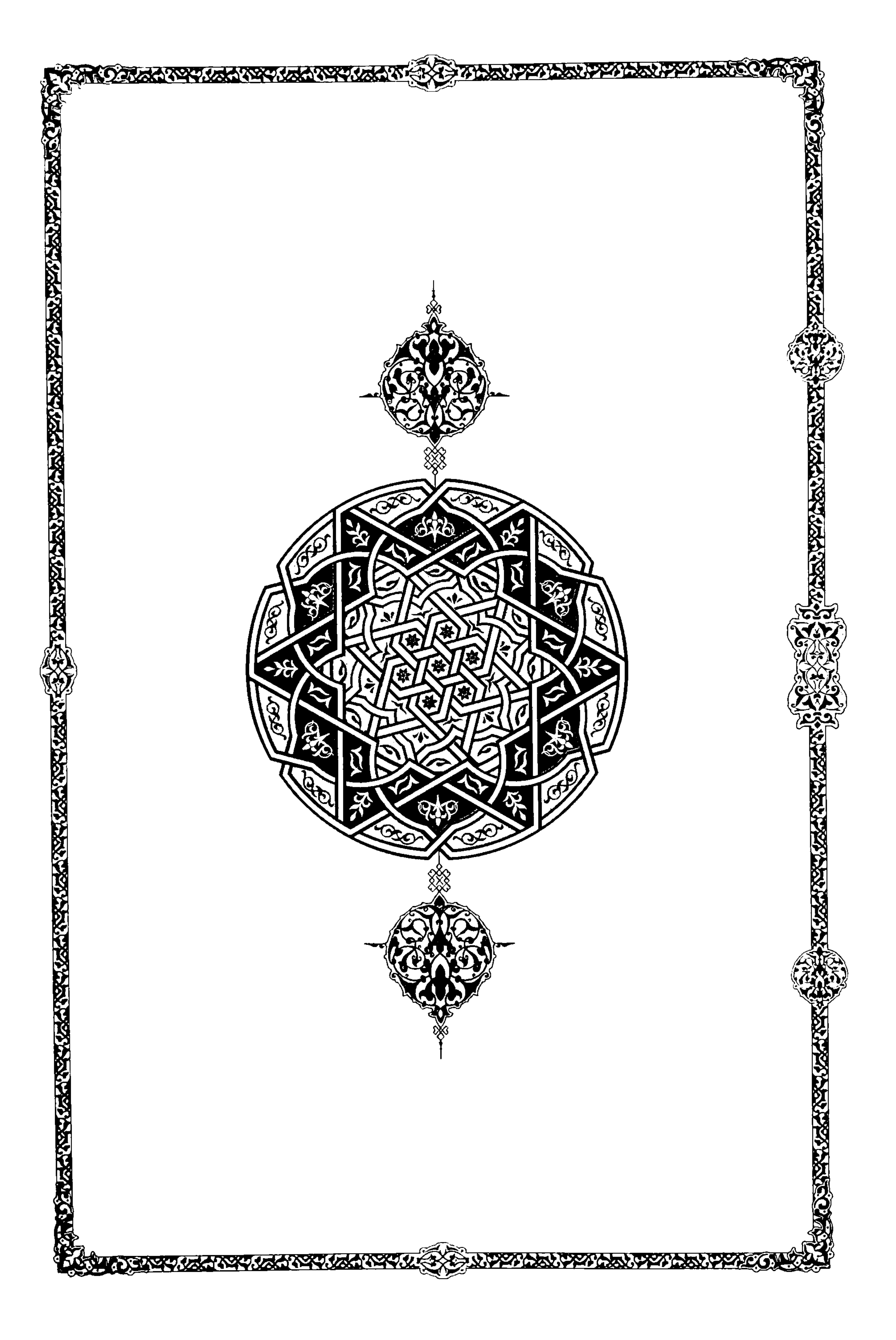
---

(١) سقط من (أ) و(و) : (والمتعيِّنُ) .

(٢) (فالشفيقُ بسوء الظنِّ مُولَعٌ ، ولو تفكَّرتَ .. لعلمتَ أنَّ هـٰذا الاحتياطَ بالخطرِ الأبديِّ أليقُ) . حُجَّة الإسلام ، « الأربعين في أصول الدين » (ص ١٩٩) .



خواتيم النسخ الخطّية



خاتمة النسخة (أ)

تمَّ المختصرُ الموسومُ بـ« الذَّخيرة لأهل البصيرة » ، وفُرِغَ من كتابتِه من نسخةٍ التي كُتِبَت من نسخة الأصل الذي كتبه المُصنِّف رضي الله عنه . تاريخه سنة اثنتين وثلاثين وثمان مئة .

خاتمة النسخة (ب)

وجدتُ ما هـٰذا مثالُه : تمَّ المختصرُ الموسومُ بـ« الذَّخيرة لأهل البصيرة » في شهر المبارك شعبانَ ، سنة تسعٍ وتسعينَ وخمس مئة .

وكان الفراغُ من نسخه يوم الجمعة مستهلَّ جمادى الآخرة في سنة اثنين وأربعين وست مئة ، برباطٍ للشيخ الصَّالح نبكر رحمة الله عليه[1] .

---

(١) جاء في آخر النسخة (ب) قصاصةٌ ورقيَّة أُلصِقَت علىٰ جلدة الكتاب ، كُتِبَت بخطٍّ مختلفٍ ، يبدو أنَّها بخطِّ أحدِ مَنِ استعار الكتاب من بعض متملِّكيه ، والعُجمة ظاهرة في كلماته ، جاء فيها : (قلتُ : العجبُ منكَ تزعمُ أنَّ الغزاليَّ يُحيلُ في بعض مصنَّفاته في بعض المواد علىٰ كتابٍ آخرَ من كُتُبه ، وأنت إنَّما تُحيلُ في بعض المواد علىٰ أنَّكَ ستُصنِّفُ كتاب [كذا ، والصواب : كتاباً] آخر في هـٰذا إذا مدَّ الله لك في العُمُرِ ، ثم تقول : لو تراجع كتب الغزالي ! وأنتَ في أوَّل كتابك تقول : أنَّك تستوفي المعنىٰ مع الاختصار ، مظهِرَنْ كرادٌ [كذا] الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ وأعاد عليَّ والمسلمينَ من بركاته آمين آمين . وهـٰذه الحاشية إن رأىٰ صاحب الكتاب أن يكتبها عند ذكر الرُّوح ، والله أعلم أنَّ هـٰذا من مصنَّفات الشيخ عبد الكريم الجيلي صاحب « الإنسان الكامل ») !
وقوله : (وهـٰذه الحاشية إن رأىٰ صاحب الكتاب أن يكتبها عند ذكر الرُّوح) ؛ يقصد به الفصل الثالث عشر من الباب الرَّابع (ص ٣٧٤) .

خاتمة النسخة (ع)

تمَّ كتابُ « الذَّخيرة لأهل البصيرة » والحمدُ لله ربِّ العالمين ، وصلواته علىٰ سيدنا محمَّدٍ النَّبيِّ ، وآله الطَّاهرين ، وأصحابه المُنتَخبين ، وأزواجه أمَّهات المؤمنين ، وسلَّم تسليماً كثيراً .

وكان الفراغُ منهُ في نصف شهر رمضان ، سنة إحدىٰ وعشرين وسبع مئة .

غفرَ اللهُ لكاتبه ولقارئه ولمُصنِّفه ولجميعِ المسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، بمحمدٍ وآله وصحبه أجمعين .

خاتمة النسخة (د)

تمَّ كتابُ « الذَّخيرة لأهل البصيرة » والحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ رسوله سيدنا محمَّد المصطفىٰ وآله وأصحابه الأكرمين أجمعين يا رب العالمين .

في رابع عشر المحرم المبارك سنة (٩٧٥هـ) علىٰ يد الفقير محمد بن عبد الله ، عفا الله عنه المدرِّس بأشرفية الصحراء .

خاتمة النسخة (ﻫ)

تمَّ المختصرُ الموسومُ بـ« الذَّخيرة لأهل البصيرة » في غُرَّة جمادى الأوَّل ، سنة سبعٍ [و] تسعينَ وتسع مئة ، منَ الهجرة النَّبويَّة صلى الله وسلَّم عليه .

وقد بلغ مقابلة بحسَب الطَّاقة والوسع ، والحمد لله ربِّ العالمين .

خاتمة النسخة (و)

تمَّ المختصر المرسوم[1] بـ« الذَّخيرة لأهل البصيرة » علىٰ يَدِ العبد الضعيف عبد الله بن محمَّد البرعمي ، غفر الله له ولوالديه .

أمَّا النسخة (ز) فقد جاءت بلا خاتمةٍ .

خاتمة النسخة (ليدن)

تمَّ الكتابُ المترجمُ بـ« الذَّخيرة لأهل البصيرة » ، علَّقه العبد الفقير إلىٰ رحمة ربه القدير ، عليُّ بن عبد الخالق بن مكيٍّ السنجاريُّ عفا الله عنه ، وواقعُ الفراغ من تعليقه في يوم الأربعاء ، حادي عشر ذو القعدة ، من شهور سنة سبعة وثلاثين وسبع مئة ، والحمد لله وحده ، وصلواته علىٰ سيدنا محمد النبي المصطفىٰ وآله وصحبه الأكرمين ، ربِّ اختم بالخير برحمتك .

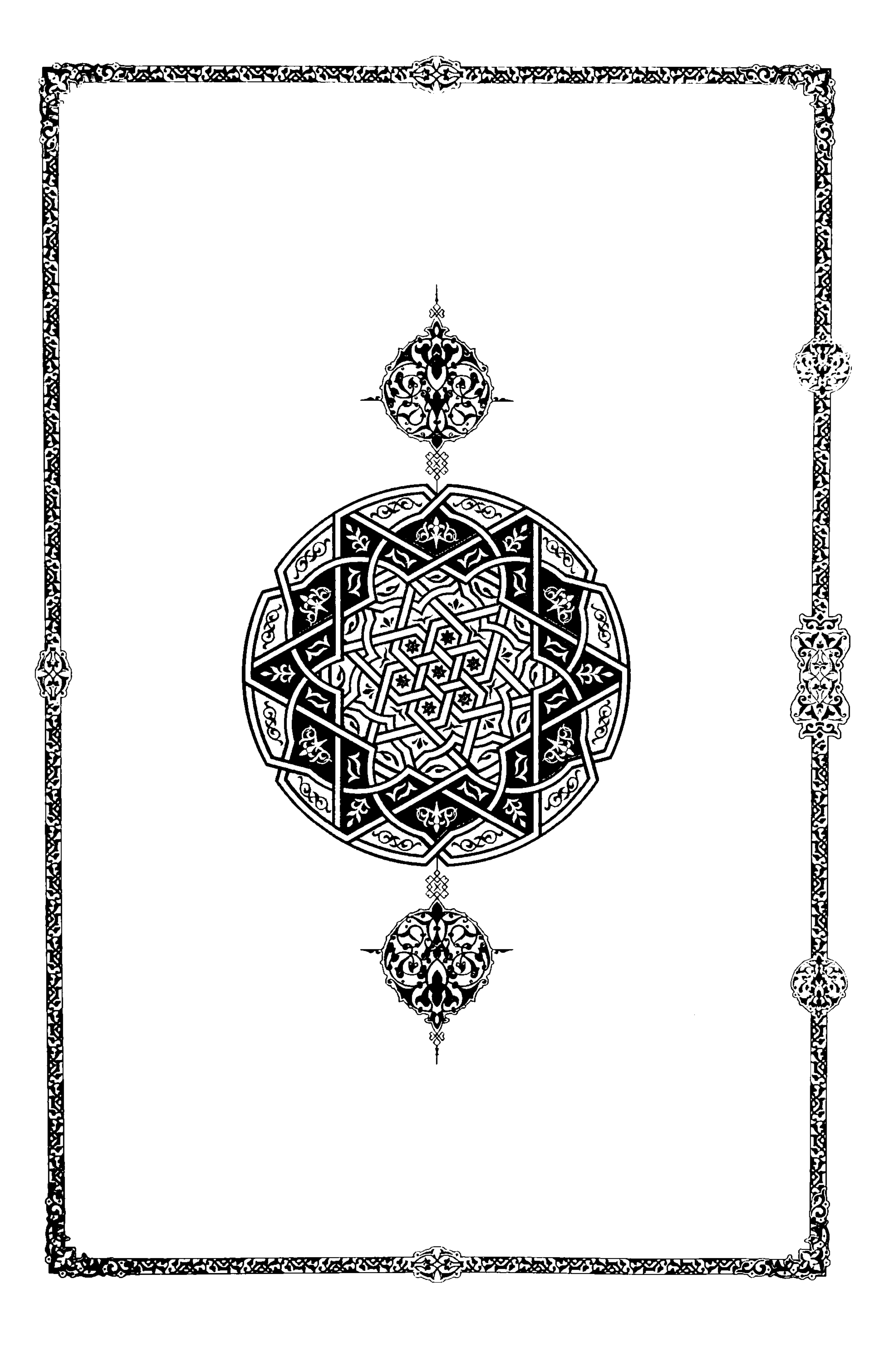
وجاء في هامش النسخة : (قوبل نسخة أصله من خطِّ المصنِّف ، وفرغ منه في نهار الأحد خامس عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة ، بالمدرسة العماديَّة ظاهر سنجار[2] ، حسب الطاقة . . .) .

* * *

---

(١) كذا في (و) : (المرسوم) بالراء .

(٢) بناها الملك عماد الدين زنكي صاحب الموصل (ت: ٥٤١هـ) رحمه الله تعالىٰ .



فهرس مصادر ومراجع التحقيق

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للإمام الحافظ أبي الفيض محمد بن محمد مرتضى الزَّبيدي الحسيني (ت: ١٢٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- إثبات عذاب القبر وسؤال الملَكين ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، تحقيق شرف محمود القضاة ، ط٢ ، (١٤٠٥هـ) ، دار الفرقان ، عمَّان ، الأردن .
- أحسن ما سمعت ، للإمام اللغوي الأديب أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم سليم ، دار الطلائع ، القاهرة ، مصر .
- إحكام الدلالة على تحرير الرسالة ، لشيخ الإسلام الإمام زين الدين أبي يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري (ت: ٩٢٦هـ) ، تحقيق عبد الجليل العطا البكري ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م) ، دار النعمان للعلوم ، دمشق ، سورية .
- إحياء علوم الدين ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .
- أدب الدِّين والدُّنيا ، للإمام القاضي المفسر الفقيه أبي الحسن علي بن محمد الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج ، ط١ ، (١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

ـ الأربعين في أصول الدين ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

ـ الأسماء والصفات ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، المكتبة الأزهرية ، القاهرة ، مصر .

ـ الأعلام ، للأستاذ البحاثة خير الدين الزِّركلي (ت: ١٣٩٦هـ) ، ط٤ ، (١٩٧٩م) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

ـ الاقتصاد في الاعتقاد ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، الإصدار الثاني (١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

ـ الأمثال المولَّدة ، للإمام اللغوي أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي (ت: ٣٨٣هـ) ، تحقيق محمد حسين الأعرجي ، طبع سنة (٢٠٠٣م) ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات .

ـ الأنوار الإلهيَّة في شرح المقدِّمة السنوسية ، للأستاذ الإمام العلامة العارف بالله عبد الغني بن إسماعيل النابُلُسي (ت: ١١٤٣هـ) ، تحقيق عمر بن محمد الشيخلي ، ط١ ، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م) ، دار الهدى والرشاد ، دمشق ، سورية .

ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، الأديب المؤرخ إسماعيل باشا بن محمد أمين الباباني البغدادي (ت: ١٣٣٩هـ) ، طبعة مصورة في دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان .

ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ، للإمام كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي ، المشهور بابن العديم (ت: ٦٦٠هـ) ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م) ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

ـ البيان والتبين ، للإمام اللغوي أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٢ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

ـ تاج العروس من جواهر القاموس ، للإمام الشريف الحافظ المحدث المسند اللغوي أبي الفيض محمد بن محمد مرتضى الزبيدي الحسيني (ت: ١٢٠٥هـ) ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وجماعة من المحققين ، ط١ ، (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

ـ تاريخ إربل ، المسمَّى : « نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل » ، للعلامة المؤرخ الأديب شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد اللخمي الإربلي ، المعروف بابن المستوفي (ت: ٦٣٧هـ) ، تحقيق سامي بن السيد خماس الصقار ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، (١٩٨٠م) ، بغداد ، العراق .

ـ تاريخ الإسلام ووَفَيات المشاهير والأعلام ، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان[1] .

---

(١) والإحالة في الكتاب على هذه الطبعة .

ـ تاريخ الإسلام ووَفَيات المشاهير والأعلام ، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ، تحقيق عبد السلام التدمري ، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
ـ تاريخ بغداد ، المسمَّى : « تاريخ مدينة السلام » ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ) ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط١ ، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .
ـ تاريخ دمشق ، للإمام الحافظ ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي (ت: ٥٧١هـ) ، دار الفكر .
ـ الترغيب والترهيب ، للإمام الحافظ المحدِّث زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت: ٦٥٦هـ) ، تحقيق محيي الدين مستو ، يوسف علي بديوي ، سمير أحمد العطار ، ط١ ، (١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م) ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، سورية .
ـ تسهيل السبيل إلى كشف الالتباس مما ورد من الأحاديث بين الناس ، للإمام المحدث الفقيه محمد بن أحمد غرس الدين الخليلي ، (ت: ١٠٥٧هـ) ، صورة عن مخطوط محفوظ في جامعة الملك سعود ، برقم (٤٤٠١) .
ـ تفسير الرازي ، المسمَّى : « التفسير الكبير » أو « مفاتيح الغيب » ، للإمام المفسر المتكلِّم أبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) ، ط١ ، (١٤٠١هـ) دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
ـ تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، للإمام المفسر اللغوي الأديب أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) ، تحقيق أسعد السحمراني ، ط١ ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان .

ـ التكملة لوفَيَات النقلة ، للإمام الحافظ المحدِّث زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت: ٦٥٦هـ) ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط٣ ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة ، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، تحقيق عبد الحميد شانوحة ، ط١ ، (١٤١٠هـ) ، دار الثقة ، مكة المكرمة ، السعودية .

ـ تنبيه الغافلين ، للإمام الفقيه أبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم الخطاب السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ) ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، ط٤ ، (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م) ، دار الشروق ، جدة ، السعودية .

ـ التنوير شرح الجامع الصغير ، للعلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت: ١١٨٢هـ) ، تحقيق محمد إسحاق محمد إبراهيم ، ط١ ، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م) ، مكتبة دار السلام ، الرياض ، السعودية .

ـ تهذيب الأسرار ، للإمام العارف بالله شيخ الإسلام ؛ أبي سعد عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الخركوشي (ت: ٤٠٧هـ) ، تحقيق بسام محمد بارود ، طبع سنة (١٩٩٩م) ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات .

ـ تهذيب اللغة ، للإمام اللغوي أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي (ت: ٣٧٠هـ) ، تحقيق محمد عوض مرعب ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، للإمام اللغوي الأديب أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (١٩٦٥م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

- جامع الترمذي ، المسمَّى : « الجامع المختصر من السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل » ، للإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) ، أشرف على تحقيقه وراجعه صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، دار السلام ، الرياض ، السعودية .
- الجامع الصغير من حديث البشير النذير صلى الله عليه وسلم ، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، مصر .
- الجامع الكبير ، للإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ) ، تحقيق مختار إبراهيم الهائج ، عبد الحميد محمد ندا ، حسن عيسى عبد الظاهر ، ط٢ ، (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م) ، طبع الأزهر الشريف ، القاهرة ، مصر .
- جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن ، للإمام المحدث المؤرخ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله الدهيش ، ط٣ ، مكتبة الأسدي ، مكة المكرمة ، السعودية .
- الجامع لشعب الإيمان ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط١ ، (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية . الدار السلفية ، بومباي ، الهند .
- جواهر القرآن ودرره ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، تحقيق محمود بيجو ، ط١ ، (١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م) ، دار التقوى ، دمشق ، سورية .

- حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي ، المسمَّاة : « عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي » ، للإمام المفسر المحدث شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري (ت: ١٠٦٩هـ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
- حاشية على « شرح العقائد » ، للعلامة رمضان أفندي (ت: ٩٧٩هـ) ، طبعة دار سعادات ، (١٣١٤هـ) ، إسطنبول ، تركيا .
- حبل الله المتين في عقيدة الشيخ الأكبر محيي الدين ، للإمام العارف بالله جمال الدين أبي الهدى حسين بن طعمة الحسني البيتماني (ت: ١١٧٥هـ) ، تحقيق أحمد بن سهيل المشهور ، محمد زاهر بن حسين الهويدي ، ط١ ، (١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م) ، دار الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي ، دمشق ، سورية .
- الحصائل في علوم العربية وتراثها ، للأستاذ الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط١ ، (١٤٣٢هـ - ٢٠١١م) ، دار النوادر ، دمشق ، سورية .
- حقيقة القولين ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، تحقيق مسلَّم بن محمد بن ماجد الدوسري ، طبع مجلَّة الجمعية الفقهية السعودية ، العدد (٣) .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للإمام الحافظ أبي نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) ، ط٥ ، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧هـ) لدى دار الريان للتراث ، القاهرة ، مصر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، للإمام اللغوي الأديب المؤرخ أبي عبد الله عماد الدين محمد بن محمد بن ألُه الأصبهاني (ت: ٥٩٧هـ) ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، جميل سعيد ، طبعة المجمع العلمي العراقي (١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م) ، بغداد ، العراق .

- الدر الثمين في أسماء المصنفين ، للإمام المؤرخ تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب بن عثمان ، المعروف بابن الساعي (ت: ٦٧٤هـ) ، تحقيق أحمد شوقي بنبين ، محمد سعيد حنشي ، ط١ ، (١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م) ، دار الغرب الإسلامي في تونس ، بيروت ، لبنان .

- ديوان ابن الرومي ، للشاعر الكبير أبي الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي (ت: ٢٨٣هـ) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، ط٣ ، (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣ م) ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، مصر .

- ديوان العباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه ، جمعه وحقَّقه الدكتور يحيى الجبوري ، ط١ ، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

- ديوان زهير بن أبي سلمى ، اعتنى به وشرحه حمدُو طمَّاس ، ط٢ ، (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

- ذكر النُّفوس ورياضتها حتى تصير نفساً واحدةً تصلح لمعرفة الحقِّ سبحانه ، للإمام الفقيه الأديب أبي سعيد محمد بن علي بن عبد الله العراقي الجاوني الحلَّوي (ت: ٥٦١هـ) ، صورة عن مخطوط محفوظ في جامعة ليدن ، هولندا ، برقم (١٠٧٨) .

- ذيل تاريخ مدينة السلام ، للحافظ المؤرخ أبي عبد الله محمد بن سعيد ابن الدُّبَيثي (ت: ٦٣٧هـ) ، تحقيق بشار عواد معروف ، ط١ ، (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، للإمام اللغوي النحوي المفسر أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، ط١ ، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م) ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، لبنان .

- الرِّسالة القشيرية ، للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: ٤٦٥هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

- الرِّسالة القشيرية ، للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت: ٤٦٥هـ) ، تحقيق عبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف ، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م) ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

- الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير ، ط١ ، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان ، بيروت .

- الروض المعطار في خبر الأقطار ، للعلامة الفقيه الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (ت: ٧٢٧هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، ط٢ ، (١٩٨٠م) ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، لبنان .

- روضة الطالبين وعمدة السالكين ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، اعتنى به الشيخ محمد بخيت ، دار النهضة الحديثة ، بيروت ، لبنان .

- الروضتين في أخبار الدولتين ، للإمام المحدث المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي ، المعروف بأبي شامة (ت: ٦٦٥هـ) ، تحقيق إبراهيم الزبيق ، ط٢ ، (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م) ، دار الرسالة العالمية ، دمشق ، سورية .

- الزهد ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت: ٢٨١هـ) ، ط١ ، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م) ، دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

ـ الزهد ، للإمام المجتهد أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) ، طبعة مصورة في دار الكتب العلمية من دون تاريخ ، بيروت ، لبنان .

ـ الزهد الكبير ، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، تحقيق عامر أحمد حيدر ، ط٣ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

ـ السَّامي في الأسامي ، للإمام اللغوي الأديب أبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (ت: ٥١٨هـ) ، صورة مخطوط للكتاب ، تاريخ نسخه سنة (٦٠١هـ) ، طبع في إيران ، سنة (١٩٦٧م) .

ـ سنن ابن ماجه ، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد الرَّبعي ابن ماجه القزويني (ت: ٢٧٣هـ) ، أشرف على تحقيقه وراجعه صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، دار السلام ، الرياض ، السعودية .

ـ سنن أبي داود ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد عوامة ، ط٢ ، (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) ، دار القبلة ، جدة ، السعودية .

ـ سنن الدارمي ، المسمَّى : « مسند الدارمي » ، للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت: ٢٥٥هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد ، ط١ ، (١٤١٢هـ ـ ٢٠٠٠م) ، دار المغني ، الرياض ، السعودية .

ـ سنن النَّسائي الصغرى ، المسمَّى : « المجتبى من السُّنن » ، للإمام الحافظ أبي عبد الله أحمد بن شعيب بن علي بن سنان النَّسائي (ت: ٣٠٣هـ) ، أشرف على تحقيقه وراجعه صالح بن عبد العزيز آل الشيخ ، ط١ ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، دار السلام ، الرياض ، السعودية .

- سنن النسائي الكبرى ، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣هـ) ، تحقيق حسن شلبي ، ط١ ، (١٤٢١هـ) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- سير أعلام النبلاء ، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعدداً من الباحثين ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م) ، بيروت ، لبنان .
- الشامل في الصناعة الطبية ، للطبيب علاء الدين علي ابن أبي الحزم ابن النفيس القرشي (ت: ٦٨٧هـ) ، تحقيق يوسف زيدان ، ط١ ، (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٢م) ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات .
- شرح العقائد النسفيَّة ، للإمام الأصولي المتكلِّم النظار اللغوي الأديب سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت: ٧٩٢هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار التقوى ، دمشق ، سورية .
- شرح ديوان ذي الرمة ، للإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، ط٢ ، (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ، مؤسسة الإيمان ، بيروت ، لبنان .
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبَّان بن أحمد البستي (ت: ٣٥٤هـ) ، تحقيق شعيب الأنؤوط ، ط١ ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .
- صحيح البخاري ، المسمَّى : « الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيَّامه » ، لإمام الدنيا الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت٢٥٦هـ) ، عني به محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط٣ ، (١٤٣٦هـ ، ٢٠١٥م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

- صحيح مسلم ، المسمَّى : « المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، المطبعة العامرة ، القاهرة ، مصر ، وتم اعتماد ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي في تحقيقه لطبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- الضعفاء ، للإمام الحافظ أبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي المكي (ت: ٣٢٢هـ) ، تحقيق مازن السرساوي ، ط٢ ، (٢٠٠٨م) ، دار ابن عباس ، القاهرة ، مصر .

- طبقات الأولياء ، للإمام الحافظ سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد ابن الملقن المصري (ت: ٨٠٤هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط٢ ، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

- طبقات الشافعية ، للإمام الأصولي الفقيه جمال الدين أبي محمد عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي (ت: ٧٧٢هـ) ، تحقيق عبد الله الجبوري ، ط١ ، (١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م) ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، العراق .

- طبقات الشافعية ، للإمام المحدث المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن عمر ابن كثير (ت: ٧٧٦هـ) ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

- طبقات الشافعية الكبرى ، للإمام الأصولي قاضي القضاة ؛ تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت: ٧٧١هـ) ، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، ط٢ ، (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م) ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

- طبقات الفقهاء الشافعية ، للإمام المحدث الفقيه تقي الدين أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح (ت: ٦٤٣هـ) ، تحقيق محيي الدين علي نجيب ، ط١ ، (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

- العبر في خبر من غبر ، للإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- العظمة ، للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري أبي الشيخ الأصبهاني (ت: ٣٦٩هـ) ، تحقيق : رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري ، ط١ ، (١٤٠٨هـ) ، دار العاصمة ، الرياض ، السعودية .

- عنوان البيان وبستان الأذهان ، لشيخ الأزهر الإمام عبد الله بن محمد الشبراوي (ت: ١١٧١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- العواصم من القواصم ، للإمام القاضي الفقيه المحدث أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ) ، تحقيق عمار الطالبي ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: ٨٥٠هـ) ، تحقيق زكريا عميرات ، ط١ ، (١٤١٦هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- غريب الحديث ، للإمام المحدث أبي سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت: ٣٨٨هـ) ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ، دار الفكر ، دمشق ، سورية .

- الغنية لطالبي طريق الحق عزَّ وجلَّ ، للإمام الفقيه العارف بالله شيخ الإسلام أبي محمد عبد القادر ابن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوَّسْت الجيلاني الحسني (ت: ٥٦١هـ) ، تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة ، ط١ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- فتاوى الإمام النووي ، المسمَّاة : « المسائل المنثورة » ، للإمام الفقيه المحدث شيخ الإسلام أبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) ، تحقيق محمد الحجَّار ، ط٦ ، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .
- فتح الإله الماجد بإيضاح شرح العقائد ، لشيخ الإسلام الإمام زين الدين أبي يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري (ت: ٩٢٦هـ) ، تحقيق عرفة عبد الرحمن أحمد عبد الرحمن النادي ، ط١ ، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م) ، دار أصول الدين ، القاهرة ، مصر .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) ، بعناية محب الدين الخطيب ، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة السلفية لدى مكتبة الغزالي ، دمشق ، سورية .
- فتوح الغيب ، للإمام الفقيه العارف بالله شيخ الإسلام أبي محمد عبد القادر ابن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوَّسْت الجيلاني الحسني (ت: ٥٦١هـ) ، تحقيق عبد العليم الدرويش ، دار الهادي ومكتبة دار الزهراء ، الرياض ، السعودية .
- الفتوحات المكية ، لسلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي ابن العربي الحاتمي الطائي (ت: ٦٣٨هـ) ، طبعة مصورة لدى دار صادر ، بيروت ، لبنان ، عن نشرة دار الكتب العربية الكبرى سنة (١٣٢٩هـ) ، القاهرة ، مصر .

- الفردوس بمأثور الخطاب ، للإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسرو الديلمي (ت: ٥٠٩هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- فصوص الحكم ، لسلطان العارفين الشيخ الأكبر محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي ابن العربي الحاتمي الطائي (ت: ٦٣٨هـ) ، تحقيق أبو العلا عفيفي ، ط٢ ، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- فضائح الباطنيَّة وفضائل المستظهريَّة ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، تحقيق محمد علي القطب ، ط١ ، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .

- فوات الوَفَيات ، للإمام المؤرخ صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد ابن شاكر الكُتبي (ت: ٧٦٤هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، (١٩٧٣م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، للعلامة محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، ط١ ، (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ، طبعة مصورة في دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للإمام الفقيه المحدث زين الدين محمد بن عبد الرؤوف بن تاج العارفين القاهري المناوي (ت: ١٠٣١هـ) ، ط١ ، (١٣٥٦هـ) ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، مصر .

- قانون التأويل ، للإمام القاضي الفقيه المحدث أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي المالكي (ت: ٥٤٣هـ) ، تحقيق محمد السليماني ، دار الغرب الإسلامي في تونس ، بيروت ، لبنان .

- قواطع الأدلة في الأصول ، للإمام الفقيه الأصولي أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت: ٤٨٩هـ) ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، ط١ ، (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- قوت القلوب في معاملة المحبوب ، ووصف طريق المريد إلى مقام التَّوحيد ، للإمام العارف المتكلم أبي طالب محمد بن علي بن عطيّة المكي (ت٣٨٦هـ) ، تحقيق محمود إبراهيم محمد الرضواني ، ط١ ، (١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

- الكامل في التاريخ ، للإمام المؤرخ أبي الحسن عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) ، تحقيق المستشرق كارلوس يوهنس تورنبرغ ، ط١ ، (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للإمام المحدث أبي الفداء إسماعيل بن محمد العجلوني الدمشقي (ت: ١١٦٢هـ) ، ط٢ ، (١٣٥١هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، للمؤرخ مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي حاجي خليفة التركي (ت: ١٠٦٨هـ) ، طبع سنة (١٩٤١م) ، مكتبة المثنى ، بغداد ، العراق .

- كيمياء السعادة ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م) ، طبع ضمن مجموع « الجواهر الغوالي من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالي » ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، مصر .

- اللآلىء المنثورة في الأحاديث المشهورة ، للإمام الفقيه الأصولي أبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- لسان العرب ، للإمام اللغوي جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١هـ) ، ط٣ ، (١٤١٤هـ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

- لسان الميزان ، للإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، ط١ ، (١٤٢٣هـ) ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان .

- المجالسة وجواهر العلم ، للإمام الفقيه أبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت: ٣٣٣هـ) ، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان ، ط١ ، (١٤١٩هـ) ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان .

- مجمع الأمثال ، للإمام النَّحْوي اللغَوي أبي الفضل أحمد بن محمد المَيداني النَّيسابوري (ت٥١٨هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، منشورات دار النَّصر ، دمشق - بيروت .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للإمام الحافظ أبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط١ ، (١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، للإمام المفسر اللغوي الأديب أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) ، تحقيق عمر الطباع ، ط١ ، (١٤٢٠هـ) ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، لبنان .

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، للإمام المفسر أبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ) ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- مِحَكُّ النَّظر ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

- مختار الصحاح ، للإمام اللغوي الفقيه أبي عبد الله زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت: ٦٦٦هـ) ، تحقيق يوسف السيخ محمد ، ط٥ ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .

- مختصر المختصر مِنَ المسند الصحيح عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ، لإمام الأئمة أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السُّلمي النيسابوري (ت: ٣١١هـ) ، تحقيق ماهر ياسين الفحل ، ط١ ، (١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م) ، دار الميمان ، الرياض ، السعودية .

ـ المخلَّصيَّات ، للإمام المحدث أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن بن العباس البغدادي المخلِّص (ت: ٣٩٣هـ) ، تحقيق نبيل سعد الدين جرار ، ط١ ، (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م) ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الدوحة ، قطر .

ـ المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحَي المناوي ، للعلامة المحدث أبي الفيض أحمد بن محمد بن الصديق الغماري الحسني (ت: ١٣٨٠هـ) ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار الكتبي ، القاهرة ، مصر .

ـ مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، للإمام المؤرخ أبي المظفر شمس الدين يوسف بن قِزْأوغلي بن عبد الله المعروف بسبط ابن الجوزي (ت: ٦٥٤هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، ط١ ، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م) ، دار الرسالة العالمية ، دمشق ، سورية .

ـ المستدرك على الصحيحين ، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن البيِّع الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر العطا ، ط١ ، (١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

ـ مسند أبي يعلى ، للإمام الحافظ أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي (ت: ٣٠٧هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد ، ط١ ، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، للإمام المجتهد أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومجموعة من الباحثين ، ط١ ، (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، للإمام المجتهد أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) ، تحقيق أحمد معبد عبد الكريم ، ط١ ، (١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م) ، جمعية المكنز الإسلامي ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

ـ مسند الشهاب ، للإمام المحدث القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي المصري (ت: ٤٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٦م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

ـ مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، صورة عن مخطوط محفوظ في الجامعة الأمريكية ببيروت ، نُسخت سنة (٥٤١هـ) .

ـ مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، تحقيق أبو العلا عفيفي ، (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر .

ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للإمام العلامة الفقيه اللغوي أبي العباس أحمد بن محمد الفيُّومي (ت: ٧٧٠هـ) ، تحقيق عادل مرشد ، ط١ ، (١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م) ، مؤسسة الرسالة العالمية ، دمشق ، سورية .

ـ المطالب العالية من العلم الإلهي ، للإمام المفسر المتكلِّم أبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) ، تحقيق أحمد حجازي السقا ، ط١ ، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

- معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط٢ ، (١٩٧٥م) ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان .
- معجم الأدباء ، المسمَّى : « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » للإمام المؤرخ أبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحمَوي (ت: ٦٢٦هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، (١٤١٤هـ) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .
- معجم الألفاظ التاريخيَّة في العصر المملوكي ، للأستاذ البحاثة محمد أحمد دهمان ، ط١ ، (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م) ، دار الفكر ، دمشق ، سورية .
- المعجم الأوسط ، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد ، وعبد المحين الحسيني ، طبع سنة (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م) ، دار الحرمين ، القاهرة ، مصر .
- معجم البلدان ، للإمام المؤرخ أبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحمَوي (ت: ٦٢٦هـ) ، عني به المستشرق وستنفيلد ، طبع سنة (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
- معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم ، للأستاذين علي رضا قره بلوط ، وأحمد طوران قره بلوط ، ط١ ، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م) ، دار العقبة ، قيصري ، تركيا .
- المعجم الكبير ، للإمام الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط٢ ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، مصر .

ـ معجم المؤلفين ، للأستاذ البحاثة عمر بن رضا بن محمد بن راغب كحَّالة (ت: ١٤٠٨هـ) ، ط١ ، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م) ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، سورية .

ـ معجم مقاييس اللغة ، للإمام اللغوي أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني (ت: ٣٩٥هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

ـ معيار العلم ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

ـ معيد النعم ومبيد النقم ، للإمام الأصولي قاضي القضاة ؛ تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت: ٧٧١هـ) ، ط١ ، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار ، للإمام الحافظ أبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت: ٨٠٦هـ) ، تحقيق أشرف بن عبد المقصود ، ط١ ، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م) ، مكتبة دار طبرية ، الرياض ، السعودية .

ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت: ٩٠٢هـ) ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، ط١ ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

ـ المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، للإمام الفقيه المحدث المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ، ط١ ، (١٣٥٨هـ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

ـ المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

ـ موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا ، للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي (ت: ٢٨١هـ) ، ط١ ، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان .

ـ مؤلَّفاتُ الغزالي ، للأستاذ البحاثة عبد الرحمن بدوي (ت: ٢٠٠٢م) ، ط٢ ، (١٩٧٧م) ، وكالة المطبوعات ، الكويت .

ـ ميزان العمل ، للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) ، ط١ ، (١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م) ، دار المنهاج ، جُدَّة ، السعودية .

ـ نزهة الأنفس وروضة المجلس ، للإمام الفقيه الأديب أبي سعيد محمد بن علي بن عبد الله العراقي الجاوني الحلَّوي (ت: ٥٦١هـ)[1] ، تحقيق رمضان بهداد ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، مكتبة ميراث مكتوب ، طهران ، إيران .

ـ نزهة المشتاق وروضة العشاق ، للإمام الفقيه الأديب أبي سعيد محمد بن

(١) وانظر (ص ٣٣) من مقدِّمة كتابنا هذا ؛ فالراجح ثبوت نسبته للإمام الواحدي ، وليس للإمام ابن حمدان العراقي .

علي بن عبد الله العراقي الجاوني الحلَّوي (ت: ٥٦١هـ)[١] ، صورة عن مخطوط محفوظ في مكتبة دير الإسكوريال برقم (٤٧١) .

ـ نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، للإمام المحدث العارف بالله أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي (ت: ٣٢٠هـ) ، تحقيق توفيق محمود تكله ، ط١ ، (١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م) ، دار النوادر ، دمشق ، سورية .

ـ الوافي بالوفَيَات ، للإمام الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك الصفدي (ت: ٧٦٤هـ) ، تحقيق مجموعة من المستشرقين ، (٢٠٠٩م) ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، بيروت ، لبنان .

ـ الوسيط في الأمثال ، للإمام المفسر الأديب أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي (ت: ٤٨٦هـ) ، تحقيق عفيف محمد عبد الرحمن ، ط١ ، (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، الكويت .

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، للإمام المؤرخ أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خِلِّكان الإربلي (ت: ٦٨١هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

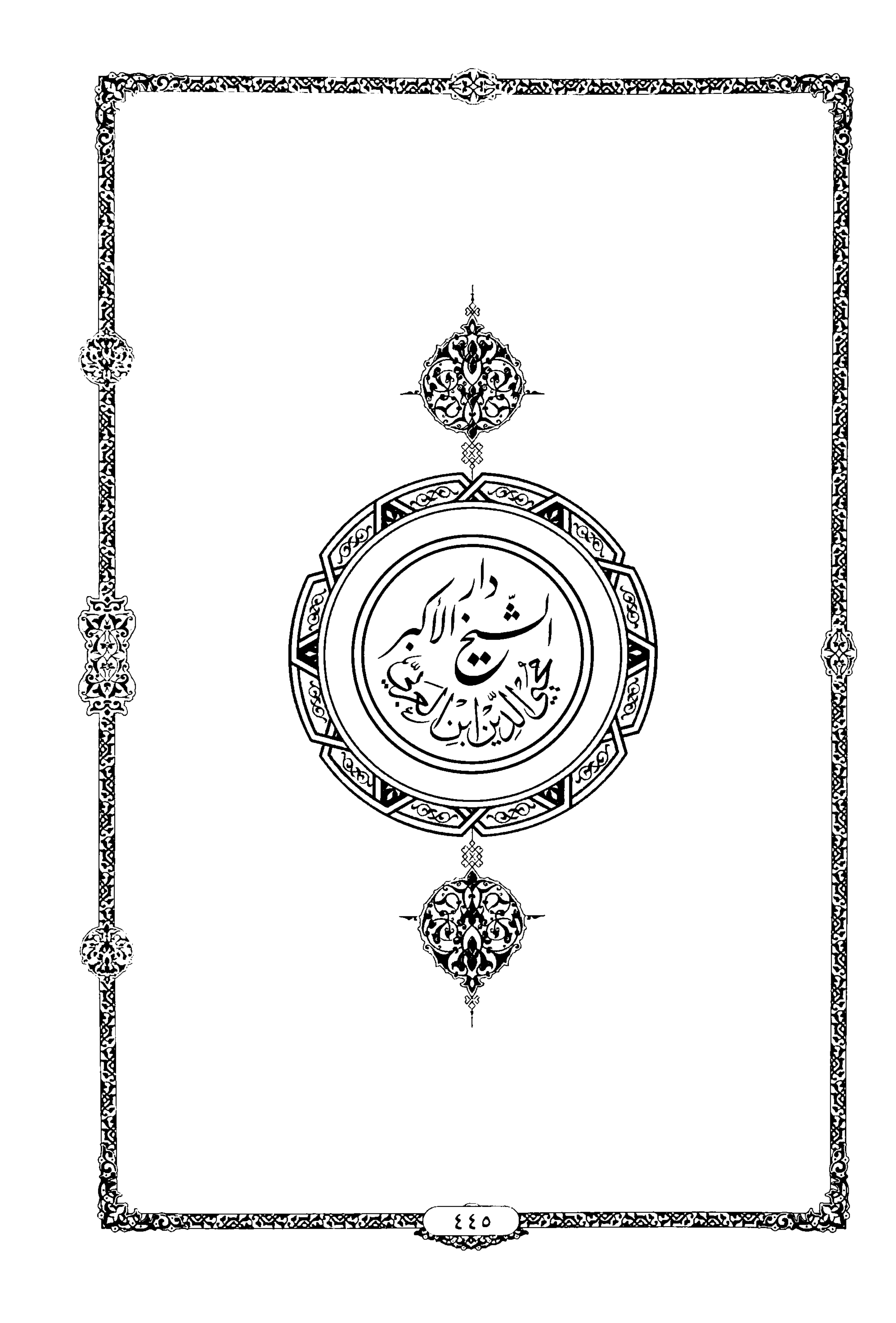
* * *

---

(١) وانظر (ص ٣١) من مقدِّمة كتابنا هذا ؛ فقد حقَّقنا عدم صحَّة نسبته للإمام ابن حمدان العراقي .

محتوى الكتاب

الباب الثاني
في ذكر معرفة الله سبحانه وتعالى من طريق معرفة النفس ٢٢١


دار
الشيخ الأكبر
محيي الدين ابن العربي

صدر عن دار الشيخ الأكبر

الفهرست والإجازة

تأليف

الشيخ الأكبر

محيي الدين محمد بن علي ابن العربي

٥٦٠ - ٦٣٨هـ

اعتنى بهما وقدم لهما ببحث نقدي

حول دراسة مؤلفات الشيخ ابن العربي

الأستاذ الدكتور بكري علاء الدين



صدر عن دار الشيخ الأكبر

ديوان سعد الدين ابن العربي

للأديب البارع والشاعر المجيد

سعد الدين محمد ابن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

(٦١٨ - ٦٥٦ هـ)

رحمه الله تعالى

تحقيق

محمد أديب الجادر



